إذا أعجبك الكتاب، فرجاءً حاول شراء النسخة الورقية
تذكر أن الكتاب العرب معترّون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم يضمن إستمرار عطائهم
(أبو عبدو)

حسن سامي يوسف

رسالة إلى فاطمة

روايـة

دار أمواج

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

حسن سامي يوسف

رسالة إلى فاطمة

روايـة

دار أمواج

نحن أدرى وقد سألنا بنجدٍ أطويلٌ طريقنا أم يطولُ

المتنبي

١

١٩٩٣/٩/٢٨

شوقي إليكِ اليوم موجعٌ يافاطمة..

موجع لحد الحاجة إلى مسكناتٍ قوية.

الساعة تشارف منتصف الليل، جئت البيت قبل عشر دقائق، رأسي مصدوعة. أخذت قرصين من مادة الباراسيتامول، معدتي لا تتحمل الأسبرين، صنعت شاياً، وجلست أكتب إليك بعد أن وضعت في المسجلة شريطاً لأم كلثوم. وكان أول شريط أمامي، وبالمصادفة: (ياطول عذابي). مجرد مصادفة. وحياتك. ولست أحلف بحياتك كاذباً. شوقي إليك اليوم أكثر من موجع ياصديقتي.

فما الذي فجّر المسألة؟

استيقظت في الصباح بمزاج رائق، بل إن مزاجي رائق، على وجه العموم، خلال الفترة القصيرة الماضية رغم أني لا أكتب هذه الأيام، أقضي وقتي متكاسلاً. تلك نصيحة بنات أخي الكبير إليّ: "لا تجهد نفسك ياعمي، نرجوك". وقد كان لنصائحهن مايبررها.

كان صيفاً صاخباً. ثم إني قد اشتغلت كثيراً خلال سنة من اليوم، ثم متاعب الطلاق (النفسية قبل سواها). إذن، لست أشتغل، أستيقظ في الصباح متأخراً بعض الشيء؛ بين التاسعة والتاسعة والنصف. لا أدخن على الريق. أتناول فطوراً خفيفاً، وأشرب بعد ذلك قهوة مرّة. ثم أقرأ ساعتين أو ثلاثاً. أذهب بعدها إلى المؤسسة. أنتظر المراسل علّه يحمل إليّ منك مغلفاً حتى لو كان يحتوي على تقريع أو توبيخ. أفعل هذا كل يوم. كل يوم بلا استثناء. أصل المؤسسة على الساعة الثانية بعد الظهر، ألتقي المراسل، لا شيء منك. أركب سيارة أجرة، أعود إلى بيتي. ثمة واحدة من بنات أخي في انتظاري، هي في أغلب المرات طالبة الهندسة. نتغدى. ندردش في أية قضية. نشرب شاياً، ثم أتركها في غرفة المكتبة تقرأ دروسها، وأذهب إلى غرفة النوم. أتمدد على السرير، وأقرأ. أقرأ كثيراً هذه الأيام، أعيد قراءة بعض روائع الأدب العالمي: (البحث عن الزمن الضائع)، (ذئب البوادي)، وسواها من الروايات الخالدة. أعيد

قراءة القرآن، ربما للمرة الأربعين في حياتي. بعد القراءة أغفو قليلاً. وفي المساء أخرج من البيت، أتسكع في الشوارع قرابة ساعة أو ساعة ونصف. أذهب إلى بيت أخي، أسهر بعض الوقت عندهم، أرجع إلى بيتي، إلى القراءة من جديد. وأظل أقرأ حتى ساعة متأخرة من الليل. هذا هو برنامجي في عمومياته. أما اليوم.. زارني في الصباح مخرج فيلم السنة الفائتة: (الفيلم الذي حرمني فرصة لقائك). إنه (ماهر)طبعاً، مخرج فيلم (صهيل الجهات). وماهر يتردد علي كثيراً خلال الشهرين الأخيرين، وهي المدة التي انقضت على مشاهدة الفيلم من قبل لجنة الرقابة المختصة بإجازة دخوله مرحلة (المكساج). وقد أبدى بعضهم حينئذ عدداً من إشارات الاستفهام حول الفيلم. أنا شخصياً عضو في جميع لجان المؤسسة، أقصد اللجان الفاعلة، وبخاصة اللجنة الفكرية التي هي أعلى سلطة إنتاجية في المؤسسة العامة للسينما. وإنني كذلك بصفتي رئيساً لدائرة النصوص، وهو المنصب الذي أشغله منذ عام ١٩٧٩ ، وهكذا فإنني أمثل، بشكل أو بآخر، مركز قوة في المؤسسة. أو بالأصح، كنت كذلك حتى شهر جوليا من العام الفائت ـ ١٩٩٢ ثم تقلصت قوتي إلى حدها الأدنى، أو إلى الصفر تقريباً. لم يقلصني أحد، ولم يهمشني أحد، بل إنني أنا نفسي قررت الانكماش والابتعاد، والبقاء في الظل. وكل شيء تم فجأة. ففي صيف عام ١٩٩٢ خسرت عدداً من الأصدقاء مرة واحدة. لقد أساؤوا إليّ على نحو بشع. تدخلوا في حياتي الشخصية، فأخرجتهم من حياتي الشخصية، والمهنية أيضاً. حتى أني كدت أستقيل من العمل في المؤسسة. وكل ذلك مرتبط، على نحو أو آخر، بالطلاق الذي وقع بيني وبين وجدان، والذي اتفقنا أنا وهي على إشهاره صباح يوم ١٩٩٢/٧/٢٦ ، وأشهرناه في مساء اليوم نفسه. ثم ابتدأ مسلسل خسارة الأصدقاء، الذين لا أشعر الآن بذرة أسف على خسارتهم. ولكن انظري أين المسألة: إن بعض هؤلاء "الأصدقاء" في مواقع تفرض عليّ طبيعة العمل الاحتكاك بهم في بعض الأحيان. والأمر كله ليس ينتهي بعد هنا. إنني لا أريد إيذاء هؤلاء الناس. من الطبيعي أني لن أساعدهم في شيء، ولكني مصمم على عدم إيذاء أي منهم. ولهؤلاء الأشخاص أعداء كثيرون، وهؤلاء الأعداء يحاولون ضمّي إلى صفوفهم. هل ترين إلى هذا المستنقع؟! ولكني لن أدخل أية معركة من قبيل تصفية حسابات شخصية. باختصار: لن أكون تافهاً.

أترين؟

لقد ابتعدت عن الوجع الذي سببه شوقي إليك هذا اليوم. ولكن لابأس، فأنت خير

من أبثّه همّي، حتى لو كان همّاً قديماً، أو أوشك أن يصير قديماً، فأنا في الفترة الأخيرة أحس إحساساً عميقاً بأني تجاوزت تلك المحن التي مرت بي خلال أكثر من عام إلى الآن، أحس إحساساً عميقاً بأني أتجدد من يوم إلى يوم. وبالمناسبة إنه إحساس رائع، وبخاصة إن كان مصحوباً بمشاعر الحب إلى إنسان ما، فأنا.. أنا أحبك يافاطمة.

إني أعترف.

زارني ماهر هذا الصباح. شربنا القهوة، وتحدثنا حول مايجب عمله على الساعة الرابعة بعد الظهر، وهو الوقت الذي تم تحديده لمشاهدة الفيلم من جديد بعد أن تم جمع اثنتين من اللجان لهذا الغرض. ومن حسن الحظ أن عبد اللطيف عضو في إحدى هاتين اللجنتين. وهكذا فقد جاء من يساعدني. وقد ساعدني على نحو رائع، وتمت إجازة الفيلم أخيراً. وليس هذا كله إلا مدخلاً للوجع: لقد تأخر المدير العام - رئيس اللجنتين - نصف ساعة بعد الرابعة. وقد توجست شراً بسبب تأخيره. خشيت أن يكون قد ألغي الاجتماع فجأة، رغم أنه يحترم مواعيده. لكنه أخيراً جاء مستعجلاً، ومعتذراً عن التأخير، وشارحاً سببه: "لقد تأخرت بسبب طاهر وطّار". هذا ماقاله. وهذا مافجّر الشوق الموجع إليك يافاطمة. فهل تتذكرين؟ أنت من عرفني إلى هذا الرجل. فندق الميريديان. قاعة المتنبي. مأدبة العشاء التي أقامها السفير المغربي، المأدبة التي لم أكن مدعواً إليها. أصرّيتِ عليّ أن أذهب معك. وذهبت. ثم أصرّيتُ على الانسحاب بعد ربع ساعة أو نحو ذلك. أعطيتني مفتاح غرفتك. لحقتِ بي بعد نصف ساعة تقريباً. وكنت تحملين إليّ تفاحة صفراء كبيرة مشوبة بالحمرة. خرجنا بعدها من الفندق، وزرنا أحد الكتاب الفلسطينيين في بيته. هل تتذكرين؟ طاهر وطار. لم أره في حياتي إلا مرتين، في المرة الثانية سألته عنك بوجل. أرسلت إليك معه هدية بسيطة. سبّحة أحضرتها من اليونان. وكانت تلك واحدة من محاولاتي الخجولة للتحرش بك. هل وصلتك هديتي؟ أرجو ذلك. طاهر وطار. قرأت كتابه الذي نصحتني بقراءته: (عرس بغل). أظنه كتاباً طيباً. هذا ماأتذكره الآن حول انطباعاتي القديمة عنه. طاهر وطار. سألت عنه أين يقيم؟ في أي فندق؟ قال لي المدير: أظنه يقيم في فندق الشام. فكرت بمغادرة الجلسة والذهاب إلى فندق الشام. أريد أن ألقاه. لست واثقاً من أنه يتذكرني. وهذا غير مهم. هذا غير مهم أبداً. فهو يتذكرك أنت دون ريب. وفي هذا الكفاية. أريد أن أسأله عنك. أريد أن أتحدث إليه عنك. أن أسمع منه أخبارك.. وابتدأتْ جلسة المشاهدة، وجعل رأسي يتصدع. طاهر وطار. طاهر وطار. خرجت من الغرفة المظلمة وقد أحسست بما يشبه

الدوخة، وجلست في الممر بجانب شباك مفتوح. وجاءني ماهر. وقال لي: لونك انخطف. قلت: صداع ياماهر، صداع لا يحتمل. وجعل يمسد رقبتي وكتفي. ورأسي تتصدع بأصداء هذا الاسم: طاهر وطار. وأيقنت يقيناً راسخاً بأني مازلت واقعاً في هواك يافاطمة، رغم كل تلك السنين التي انقضت، فلم يبق تفصيل إلا وزحف إلى ذاكرتي المثقلة بأشيائك على نحو موجع. تنورتك المقصّبة، وشالك المهفهف. مباراة كرة القدم التي كنت أتفرج عليها بالتلفزيون حين جئت إليّ بتلك التفاحة الصفراء المشوبة بالحمرة. الغرفة /٤١٢/. الطابق الثاني. آخر الممر. إلى يمين المصعد. بث مباشر من ملعب ويمبلدون. لست أبحث عن الزمن الضائع معك. بل إنه هو الذي يفرض نفسه علي. يتسلل من الدماغ إلى القلب حيناً، وبالعكس حيناً آخر. (مانشستر سيتي)، (توتنغهام هوتسبيرز). نهائي كأس إنكلترا. النتيجة التي لا أعرفها. خرجنا من الفندق قبل نهاية المباراة. طاهر وطار. هذا هو سيل الذكريات: فستانك الأبيض الفتّان في حفل الافتتاح على خشبة مسرح (الحمراء). جلوسك، في الصف الأمامي، ثم انسحابنا من الحفل.. أنت أولاً. وأنا بعد غمزة من طرف عينك. عشاؤنا في مطعم دمشق الدولي المكشوف،. ومرور أسامة محمد فجأة، وانضمامه إلينا. السفر الذي ألغيته إلى مدينة (بصرى) الأثرية، وبقاؤنا في دمشق، وزيارة أحد أصدقائي في بيته. طاهر وطار. وبنطلون الجينز الذي يليق بك كما لا يليق بنطلون جينز بامرأة، والمايوه من قطعتين الذي لم تستخدميه لأن الطقس لم يكن يسمح بالسباحة، وكنزة الصوف الخمرية التي جاهدتِ في إقناعي كي تتركيها لي منك ذكرى. طاهر وطار. نقابة الفنانين. تسكعنا في سوق الحميدية. تحرش أحد المارة بك، وتغزل سواه بشعرك الذي كالشلال. قميص نومك الليلكي.. مشوارنا في شارع الصالحية. كافتيريا القنديل. فيلم (عمر المختار)). مسرحية (لقاء في بوينس آيرس). حوارنا مع مخرج المسرحية. عشاؤنا مع ثلة من أصدقائي في مطعم (طليطلة). وبالمناسبة، لقد هدموا ذلك المطعم. شيء مرير سيدتي. طاهر وطار. سيل الذكريات التي حملتها في قلبي دفينة إلى كل مطرح ذهبت إليه مذ سافرت للقائك في اليونان التي أقسمت ألا أزورها ثانية، وحنثت بالقسم، وزرتها ثانية، وشتمتك من على شواطئها مرتين، ومن هناك كما من شواطىء بيروت المحاصرة المدمّرة نعتك بأكثر الصفات بذاءة، وليس أمام أحد سوى ذاكرتي الموجعة بك، وقلبي الذي أدماه هجرانك لي، والذي عاد يدميه الآن من جديد.. هل تعرفين هذا الشعر؟

ولقد أردتُ الصبرَ عنكِ فعاقني علقٌ بقلبي من هواكِ قديمُ

لست أذكر قائله. ربما كان أحد المجنونين: قيس أو قيس. وربما كان القشيري في واحدة من قصائده القليلة بعيداً عن (العينية) أو (عينية العرب). لست أذكر. ولكن، كم في هذا الشعر من اختصار لحالي معك يافاطمة! فأنا لا أستطيع عنك صبراً. لا أستطيع ياصديقتي. أشعر بأنك تحتليني. أشعر أنني مسكون بك تماماً. تفاصيلك كلها تسبح في رأسي، تمرق كما طاب لها في ممرات دماغي. تستفزني. تتحرش بي. تفرض نفسها عليّ بفظاظة. لا تستأذن الدخول أو الخروج. تأتيني في أية لحظة، وفي كل حين، شئت ذلك أم لم أشأ. هل تعرفين؟ أفكر أحياناً بأني لو رأيتك مرة لنسيتك بعده.. وإلى الأبد. هل يمكن لأمر كهذا أن يحدث؟ وهل أنت في واقع الحال وهم سببه طول الغياب؟! هل قرأت رواية (الحب في زمن الكوليرا)؟ صرت أعتقد في بعض الأحيان بأني نسخة من بطل تلك الرواية. أما في أحيان أخرى فلست أظنك إلا وهماً أو حلماً سوف يزول ذات حين. ولكن، تريدين الحق؟ لست أتمنى زواله. أبداً. وهذه رغبة أكيدة لديّ مهما طال بعادك.. أو عذابي.. قلت لك قبل قليل: أنا أحبك. وقلت أيضاً: إني واقع في هواك. وهأنذا أتساءل: هل أحبك حقاً؟ أم أنني فيك أحب الحب؟ أم هو حب العذاب؟ وأنت أكثر من عذبني من النساء اللواتي عرفت.. أم تراه الحنين إلى الماضي المخبوء في الفؤاد، ولاشيء سوى ذلك؟ الحنين إلى الزمن الضائع. حسناً.. إليك اعتراف آخر: لست أذكر يوماً مرّ بي من دون طيفك ياصديقتي. فعلى ماذا تدلل هذه الحقيقة؟ قولي لي أنت. تكلمي. تتذكرين طبعاً هديتك إليّ التي حملتها ديانا صيف عام ١٩٨٨؟ لوحة في إطار خشبي أسود: حي شعبي من أحياء مراكش. تتذكرينها دون ريب. وأظنك تعرفين مصيرها. نعم. لقد حطمتها وجدان لما علمت بأنها من فاطمة. وهذا على الهامش، فليس عن هذا أتحدث. بل عن شيء آخر لم أعترف به إلا إلى شخص واحد فقط، ولست أدري كيف فعلت ذلك. على أية حال، هو شخص يحفظ الأسرار. هو المخرج السينمائي (ريمون بطرس)، مخرج فيلم (الطحالب). هل شاهدتِ هذا الفيلم؟ لقد خضع الرجل لعمل جراحي واسع في القلب منذ ثلاثة شهور تقريباً، وأنا أزوره في بيته مرة في الأسبوع. أو مرتين. غير أني منذ عشرة أيام اصطحبته إلى مطعم مكشوف في الضواحي، وقضينا هناك سهرة طويلة تحدثت خلالها عنك. سامحيني. وإليك الآن ماعترفت به لذلك الصديق، قلت له: في صيف عام ١٩٨٨ لم أكن أريد شيئاً من الحياة سوى الطلاق مع وجدان، لأني كنت أشعر شعوراً أكيداً بأني سوف أموت من دون فاطمة. وكان اعترافي هذا غريباً تماماً بالنسبة إليه، إذ كيف يمكن تفسير ذلك؟ فمعلوماته الأكيدة أنني ووجدان صديقان حميمان، ثم إنها ـ أي وجدان ـ امرأة

رائعة: طيبة السريرة، شابة جداً، جميلة جداً (أو جميلة زيادة عن اللزوم في ذلك الوقت)، فأين المشكلة إذن؟ قال لي: "صار عندي شوق عظيم للتعرف إلى فاطمة".. عندما جاءتني ديانا بالهدية، التقينا في المؤسسة، وذهبنا من هناك إلى أحد المطاعم، وقالت لي: "لا أريد أن أجرح مشاعر وجدان، فقل لها إن الهدية مني أنا". ولم أعمل بنصيحة ديانا، وصارحت وجدان بالحقيقة فحطمت اللوحة، وتركت البيت ثلاثة أيام بعد شجار عنيف. كان ذلك في المساء. وفي الليل سكرتُ. وسمعت من راديو في الجوار أغنية (ياحبيب الروح) لليلى مراد، فصرت منذ ذلك الوقت أعشق هذه الأغنية.. نعم يافاطمة. كنت أريد الطلاق، ولكني لم أجرؤ على الطلاق، كما لم أجرؤ على الاتصال بك. بل إنني حتى لم أرد على رسالتك القصيرة التي حملتها ديانا إلي، والتي تصرين فيها على أن أكتب إليك. ولكن ماالذي منعني من ذلك إلا الخوف؟ الخوف منك طبعاً. بل إنني مازلت أخافك حتى اليوم. هكذا أشعر في بعض اللحظات. هل تصدقين؟ وخوفي منك هو الذي منعني دائماً من القيام بخطوة جادة للقائك، أو حتى الاتصال بك، رغم أني قمت ببعض المحاولات في هذا الاتجاه. لكنها كانت محاولات باهتة الطابع. تحرشت بك عن بعد. بعثت إليك ببعض التلميحات مع بعض الناس، مثل السبحة التي أرسلتها مع طاهر وطار، ومثل حديث طويل جرى بيني وبين سيدة مغربية. أظن أن اسمها نادية (هي السيدة التي صعدت إلى المنصّة في حفل ختام مهرجان دمشق السينمائي السادس واستلمت، بالنيابة عنك، جائزتك كأفضل ممثلة). جرى هذا الحديث الطويل أثناء المأدبة التي أقيمت للوفود المشاركة بعد حفل الختام. وغنيٌّ عن القول أنك كنت أنت محور الحديث الطويل المتعثر، فأنا لا أعرف شيئاً من اللغة الفرنسية، ونادية لا تتحدث العربية جيداً. سألتني يومئذ إن كنت أحب أن أبعث إليك برسالة خطية. قلت لها: "لا داعي لذلك". وكنت أخاف أن أكتب إليك. كنت أخافك، فلم أكتب، كما لم أرد من قبل على رسالتك القصيرة التي حملتها ديانا. وتشاجرت مع وجدان عبثاً. لكني صرت أحب ليلى مراد، ومازلت أحبها إلى اليوم. فما هذا الذي يحدث لي؟ أهو الحب؟ لم تكوني المرأة الأولى في حياتي، ولم تكوني الأخيرة. عرفت عدداً لابأس به من النساء، وبخاصة في سنوات الدراسة في موسكو. غير أني لم أتعلق إلا بثلاث: ناتاشا أولاً. وبعد ناتاشا تعلقت بكِ أنت. وبعدك وجدان. انظري إلى هذا التناقض: أرغب رغبة حقيقية بالطلاق من وجدان، وأعترف في الوقت نفسه بأني قد تعلقت بها في فترة من الفترات. هل أنا إنسان سويّ؟ لست واثقاً من كوني كذلك. غير أني واثق من كوني عرفت الحب في حياتي. عشته. ذقت طعمه. من الثابت بالنسبة

إلي أني قد أحببت. وقد أحببتك أنت أكثر مما أحببت امرأة سواك. هذا ماأؤمن به الآن، وإلا كيف أفسر بقاءك في دمي على هذا النحو من القوة إلى اليوم، رغم تجربتي الغنية مع وجدان من بعدك، ومع ناتاشا من قبلك، ورغم قدرتي الآن (وهذا ليس تبجحاً) على إقامة علاقة بامرأة جميلة أخرى؟ لكن يبدو أني لن أقدم على خطوة كهذه، في المدى المنظور على الأقل. وربما كان مرد ذلك إلى كوني لك في انتظار. مع أنني، في القرارة من نفسي، لا أرى علاقة بين هذا وذاك، فقد سبق وقلت لك: إنك لست بديلاً عندي لأية امرأة، وليست أية امرأة لك ببديل. وهذا قول صادق حتماً. إذن، ماالسبب؟ لست أعرف. مع أنني، بصراحة، أشعر في بعض الأوقات برغبة إلى أنثى يصعب احتمالها. لكن من يدري؟ ربما كنت لا أسعى إلى علاقة جديدة خشية أن أتعلق بامرأة جديدة. وأظن أن أمراً كهذا سوف يكون فوق طاقتي، أو أنه سيكون فجأة أمراً فائضاً عن الحاجة حين لا أجد له في القلب متسعاً، فالقلب مثقل بالزمن الضائع. ومرة ثانية: من يدري؟ ربما كان مثقلاً بالزمن الذي ماجاء بعد.. قبل أيام قليلة سهرت في بيت تربطني به علاقة طيبة. رجل وامرأة. زوج وزوجة. كاتب وطبيبة، وهي أحد الأطباء الذين ساهموا بفعالية في إزالة وهم إصابتي بالسرطان من أفكاري. لم أحدثك عن ذلك الوهم في حينه. مع أنه في الحقيقة لم يكن من اختراعي، بل إن بعض الأطباء هم الذين ساروا في هذا الاتجاه عندما كانت تعودني الدوخة التي سبق وحدثتك عنها وأنا في اللاذقية خلال الصيف الماضي. (للمناسبة: وضعي الصحي الآن جيد بوجه عام). سهرت في بيت الصديقين حتى ساعة متأخرة. قالت لي ربة البيت: "أتمنى لو أراك مع وجدان من جديد". هي تحب وجدان كثيراً. وقالت لي أيضاً: "في كل الحالات، أتمنى أن أراك سعيداً ياحسن، فأنت شخص عزيز عليّ وعلى محمود". قلت لها: "فهل لك أن تعرّفي السعادة ياريما"؟ وقضينا وقتاً طويلاً نحن الثلاثة نحاول خلاله تعريف السعادة. ولم نصل إلى أي اتفاق.. كنت أزورهما لأني لم أزرهما منذ مدة طالت قليلاً، ولأن ريما كانت تحب أن تتأكد من وضعي الصحي الذي رأته بعد الفحص جيداً. قالت لي ونحن نتناول عشاءً لذيذاً من إعدادها: "لم أسألك عن نومك. فهل مازلت والأرق صديقين"؟. قلت: "نعم". قالت: "بالمناسبة، لم يسبق لي أن سألتك هذا السؤال: لماذا لا تستطيع أن تنام ياحسن"؟. وفي نتيجة الإجابة المعقدة عن هذا السؤال البسيط وصلت لتعريف كلمة السعادة ـ سعادتي. أعتقد الآن جازماً بأني لا أستطيع أن أنام لأني لا أحب أن أنام. لأني أحب أن أظل ساهراً. أو بالأصح: أن أظل حياً، فالنوم يبدو لي شكلاً من الموت. وأنا أريد أن أعيش، فأعيش. لكن مع الزمن الضائع. معك

أنت يافاطمة. ومع سواك أيضاً. لكنني في الفترة الأخيرة أعيش معك أنت تحديداً.. وأعرف السعادة.

بعد جلسة النقاش الطويلة التي أعقبت مشاهدة (صهيل الجهات) لم أذهب إلى فندق الشام، بل انصرفت مع ماهر وعبد اللطيف إلى أحد المطاعم. تناولنا العشاء. وتداولنا في الذي جرى، وفي الذي ينبغي عمله قريباً بخصوص الفيلم، ثم تسكعنا في الشوارع قرابة نصف ساعة. رجعت بعد ذلك إلى البيت. ووضعت في المسجلة أغنية (ياطول عذابي). مرة ثانية: بالمصادفة. وحتى لو لم يكن الأمر كذلك، فلا ضير يافاطمة. يتملكني إحساس أكيد في الفترة الأخيرة بان العذاب جميل أيضاً، فلا ضير من طول العذاب.

تسعة أيام انقضت على كتابة هذه الرسالة.

وفي صباح غدٍ يحل اليوم العاشر. وأنا متردد في الذهاب إلى البريد.

كانت وجدان تتهمني، على الدوام، بالتسويف. يبدو أن التردد إحدى سمات شخصيتي الرئيسية.

هذا بشكل عام طبعاً.

أما الآن.. ماالذي يمنعني من إرسال هذه الكلمات إليك؟ فهل مازلت أخافك؟! ولو قليلاً! أم تراني أخشى مزيداً من عريي أمامك؟ أم..؟ لست أعرف ماذا بعد. ولكن مهلاً.. قولي لي من فضلك: لماذا طال صمتك هذه المرة؟ كتبت إليك رسالتين من قبل ولم أتلق منك أيّ رد. عسى أن يكون المانع خيراً! أرجو ذلك. كما أرجو ألا تسيئي فهمي حين أسأل عن أسباب صمتك الذي طال هذه المرة حقاً، فأنت لا تعرفين مقدار فرحي بورقة منك، حتى ولو كانت مجرد قصاصة.

* * *

منذ خمسة أيام وأنا لا أذهب إلى المؤسسة. إنهم منشغلون الآن بالتحضير لمهرجان دمشق السينمائي الذي بات موعد افتتاحه وشيكاً: ١٠/٣٠ وأنا كما أخبرتك في رسالة سابقة لا أساهم بشيء في الإعداد لهذه الدورة. أضع نفسي خارج الدائرة. ويبدو أن كثيرين مثلي يتخذون الموقف ذاته. أظن بأن لديهم مشكلات مع إدارة المؤسسة التي هي إدارة المهرجان أيضاً.

خمسة أيام توقفتُ خلالها عن الذهاب إلى المؤسسة وانتظار المراسل علّه يحمل

إليّ منك شيئاً.. خمسة أيام وأنا لا أغادر البيت تقريباً. ولست أعرف ماالذي أصابني. شيء من تعكر المزاج، أو شيء من الميوعة العصبية. حتى أني توقفت عن القراءة، بل حتى أن مارسيل بروست بدا لي مملاً وهو يجاهد في التقاط دقائق أزمانه الضائعة.

خمسة أيام مللت خلالها من مشاهدة الأخبار على التلفزيون، مللت من يلتسين وروتسكوي، وعرفات ورابين، وهذه المسخرة التي يسمونها (غزة ـ أريحا). خمسة أيام وأناأقاتل نفسي كي أجعلها ترضى بجلوسي إلى الطاولة ومعاودة العمل على رواية (الإرهابي)، التي بت أشك في أن أجد لها ناشراً بعد هذا الذي حصل على صعيد السياسة الفلسطينية. لكن هذا الشك لن يقمع رغبتي في كتابتها، وحاجتي إلى تلك الكتابة. لن أسمح له بذلك، فأنا لست ملزماً بشيء حيال اتفاق (غزة ـ أريحا). خمسة أيام وأنا أتقاتل معك. أضرب أخماساً في أسداس. لا أترك احتمالاً إلا وأضعه في الحسبان.. لماذا لا تكتبين؟ وأتساءل: ألم تصلك رسالتي؟ أم أنك لست في المغرب أصلاً؟ هل أنت في وضع لا يسمح لك بالكتابة؟ أم تراك كتبت وضاعت رسالتك في الطريق؟ هل أنت مريضة مثلاً؟ مريضة ولا تحبين أن تخبريني بمرضك، فتصمتين.. ماقصتك؟ أقول لك بصراحة: ليس عدلاً أن يطول صمتك هذه المدة كلها.

خمسة أيام وأنا أحلم بلقائك. وفي اليوم السادس ـ هذا اليوم ـ أرجع إلى عادتي السيئة. أذهب إلى المؤسسة. أنتظر المراسل على الساعة الثانية. أجتمع به.. ويتلاشى حلم اللقاء بك ولو في رسالة.

فلماذا؟!

أجيبيني.

اليوم أيضاً ذهبت إلى المؤسسة.. لاشيء منك.

إلى متى؟!

* * *

اليوم عرفت أنك مدعوة إلى المهرجان. بندر هو الذي أخبرني بذلك. قال لي إنه اقترح اسمك في اجتماع اللجنة التنفيذية للمهرجان، وأن اللجنة وافقت على اقتراحه، وطلب إليّ أن أقوم بخطوة في هذا الاتجاه (تثبيت الدعوة)، بمعنى أن أتحدث إلى المدير. وبندر ـ كما يبدو ـ ليس في صورة الجفاء الذي بيني وبين الرجل، رغم أنه

لابد أن يكون قد لاحظ غيابي عن المشاركة في إصدار العدد الأخير من مجلة (الحياة السينمائية). ولكني أفهمت بندر بكلمتين أن لا ضرورة لتدخلي مادام قد تم حسم الأمر.. هو يخشى أن الأمر ليس محسوماً تماماً بعد.. وعبد اللطيف، من قبل سألني أن أسمح له باقتراح دعوتك. ورفضت. رفضت بإصرار. قلت له: "(المدير العام) يعرف فاطمة، ويعرف علاقتي بها، وبما أنك صديقي فلسوف يبدو الأمر تنازلاً فاقعاً من جانبي، بمعنى: أحتاجه أنا، ولكني أطلب تلبية حاجتي عبرك أنت".. ومن قبل أيضاً سألتني (ليالي) أن أقوم بدعوتك إلى المهرجان. هي تعرف أني قويّ في المؤسسة، لكنها لا تعلم فيما يبدو بمشكلاتي هناك. قلت لليالي وقتئذ: "فاطمة مدعوة دائماً، بمناسبة ومن دون مناسبة". وهذه هي حقيقة موقفي طبعاً، غير أني بذلك الجواب المراوغ كنت أتحاشى الدخول في موضوع لا يمكنني الحديث فيه إلا مع أقرب الأصدقاء فقط. وليالي كما أخبرتك في رسالة سابقة ليست صديقتي. بل إنني لم أكن أعرفها إلا عن بعد قبل أن تحمل إلي منك تلك الرسالة الشفوية في أواخر العام الفائت.. وعلى ذكر ليالي: اتصلت بها اليوم هاتفياً، وباركت لها بالجائزة التي حصلت عليها في مهرجان القاهرة لأفلام الأطفال. قالت لي: "فاطمة قادمةإلى المهرجان، أليس كذلك"؟. قلت: "لا أعرف ياليالي. ربما". قالت: "كيف لا تعرف؟! ثم تريد الصراحة يابن عمي؟ أنا لا أفهم سبباً لموقفك هذا. لماذا لست متحمساً لمجيء فاطمة إلى دمشق"؟. وقالت أيضاً: "حتى أني تحدثت إلى هيثم بهذا الخصوص، وسألته: لماذا لا يتدخل حسن من أجل دعوة فاطمة"؟. وفهمت منها أيضاً أنها تحدثت إلى المدير العام من أجل دعوتك، وأعطته عنوانك ليصار إلى الاتصال بك سريعاً. وقالت لي أيضاً إنها عاتبة عليك لأنها كتبت لك، ولم تردي على رسالتها. قلت لها:"باختصار ياليالي، ومن دون الدخول في أية تفصيلات، أنا في وضع لا يمكنني فيه طلب دعوة فاطمة ولا في حال من الأحوال. ثم، وبصراحة أيضاً يابنت عمي: يسعدني لو تجيء فاطمة إلى دمشق بصفتها ضيفاً علي أنا، وليس على المهرجان". قالت: "إنني لا أفهمك ياحسن. لن نتفاهم هكذا على الهاتف. لماذا لا تأتي إلينا ونتحدث وجهاً لوجه؟ ثم ألن تزورنا في بيتنا أخيراً؟! تعال في مساء الغد. تعال حتماً. سوف ننتظرك أنا وهيثم. وسوف نتحدث في كل شيء".. ووعدتها بزيارة في الغد. إذن، إلى الغد يافاطمة.

* * *

اليوم لبيت دعوة ليالي. زرتها في البيت. وهذه المرة الأولى التي أدخل فيها بيت

هيثم منذ سنوات عديدة. وهيثم صديق قديم. درسنا معاً في موسكو. لكننا ماعدنا التقينا خلال السنوات العشر الأخيرة إلا عَرَضاً. وهذه قصة مختلفة. شاهدتُ فيلم (عروس البحيرة) الحائز على الجائزة الأولى في مسابقة مهرجان برامج الأطفال في القاهرة. فيلم يمكن وصفه بأنه لطيف. مدته نصف ساعة. شاهدته على الفيديو طبعاً. وبعد الفيلم كان ثمة بث مباشر من هولندا. كرة قدم. تفرجنا نحن الثلاثة. ثم تناولنا عشاءنا، وتحدثنا في مواضيع مختلفة: تحدثنا عنك أنت قليلاً، وعن احتمالات قدومك إلى المهرجان. قلت لليالي: "قلبي يهمس لي أن دعوة فاطمة لن تتم، ظناً من بعض الناس بأن في هذا عقاباً لي. ولكن تريدين الحق؟ سوف أكون سعيداً إن هي لم تُدعَ، لأنها إن جاءت إلى دمشق فإنما أريدها أن تجيء إلي حسن، وليس من أجل أي غرض آخر. هذه هي حقيقة موقفي. وقد لا أكون سعيداً بقدومها إلى المهرجان، رغم أن شوقي إليها قاتل ياليالي". وبدا على مضيفتي الحيرة والدهشة من موقفي هذا. وأنا لم أكن أبالي. ولماذا أبالي يافاطمة؟ كل شيء أو لاشيء. هذه هي حقيقة نظرتي إلى العلاقة بك. أما نصف هذا أو نصف ذاك، فليس يرضيني. ليس يرضيني أبداً. سألت ربة البيت إن كانت تحتفظ بصورة لك، وبعد التفتيش عثرت على واحدة. لقطة عامة لمجموعة من الناس في إحدى ضواحي القاهرة. أظنها في منطقة الأهرامات. وأنت أحد أولئك الناس. تضعين على عينيك نظارة شمسية سوداء. فهل عيناك مجهدتان؟ أملت أن لا يكون الأمر كذلك.. ثم لم يطل بقائي. خرجت باكراً نسبياً لأن شوقي إلى تدخين سيجارة قاتل أيضاً. وقد سمحا لي بالتدخين، غير أني رفضت ذلك، فأنا أعلم أن التدخين يسبب لهما متاعب صحية حقيقية، وهكذا فضلت الانصراف. وانصرفت. ودخنت سيجارتين مشياً، ثم سيجارة ثالثة في سيارة الأجرة التي استقليتها عائداً إلى بيتي. وفي السيارة كانت فيروز تغني: "وحدن بيبقوا متل زهر البيلسان". هل تذكرين هذه الأغنية؟ ياربي! كم هي كثيرة الأشياء التي قد أسألك إن كنت تذكرينها!! إنها تحيط بي مثل حلقة محكمة من الألم. وأنا ـ من تجربتي الشخصية مع الأمراض ـ أعرف أن الخطوة الأولى على طريق الشفاء تكمن في كسر حلقة الألم عند نقطة ما من محيطها. ورغم معرفتي بهذه الحقيقة فإنني بدلاً من كسر الحلقة أعمد، مع سبق الإصرار، إلى تقويتها وزيادة إحكامها من حولي.. إليك هذا الاعتراف: بعد ١٩٩٢/٧/٢٦ مباشرة، فكرت بالاتصال بك على نحو من الأنحاء، غير أني سرعان ماأقلعت عن الفكرة. وشعرت لفترة بأني نفدت بجلدي. كسرت الحلقة. نجوت منك ومن وجدان، وحمدت الله على أني كنت غائباً عن دمشق لما كنت أنتِ هنا. وحمدت الله على أني لم أتصل بك رغم

سؤالك عني، ورغم طلاقي مع وجدان، ورغم حبي إليك وغضبي منك وخوفي عليك. وجلست أكتب رواية (الغفران). ثم جاءتني ليالي منك بتلك الرسالة الشفوية. وكان ماكان. وعادت حلقة الألم وأطبقت من حولي ثانية.

وأنا نفسي ساهمت في الأمر، فقد كانت كتابتي إليك شيئاً ما حتمياً. قدرياً. كانت أمراً لا مفر منه. هل تعرفين كيف كنت أفكر قبل تلك الرسالة الشفوية؟ هل تعرفين ماذا كنت أكتب عن علاقة بطل الرواية بالنساء؟ أفكر في أن أرسل لك مقطعاً، ولو صغيراً، من (الغفران). قد أفعل فيما بعد. أما الآن! أتعرفين؟ يبدو أني سأتوقف عن جميع أشكال الكتابة ماعدا الرسائل: (رسائل إلى فاطمة). ومن الطبيعي أنني لا ألومك على ذلك. من الطبيعي أنني لا ألوم سوى نفسي على ماوصلت إليه نفسي من جزع لذكراك.. وكيف لا أجزع إن هاج بي الشوق إليك؟ كيف و"كبدي تتصدع" أمام ذكرياتك التي تحاصرني في حلقة محكمة من الألم ليس فيها نقطة واحدة قابلة للانكسار؟!

* * *

اليوم ذهبت إلى الطبيب. عضلات رقبتي متشنجة. يبدو أنه تشنج مزمن. وهذا أمر طبيعي. فأنا دائم الانكباب على الطاولة رغم أن إنتاجي قليل على وجه العموم. إنني أكتب كثيراً، وأمزق أو أحرق غالبية ماأكتب. كانت وجدان تتهمني بأني مولع بإشعال الحرائق.. نصحني الطبيب بالخضوع لجلسات علاج فيزيائي. وقال لي أيضاً: "يجب أن تتوقف عن أي عمل كتابي أسبوعين أو ثلاثة" قلت: "كما تحب يادكتور". وصف لي بعض الأدوية المسكنة. وانصرفت. فكرت بعدم شراء الدواء الموصوف. صارت الأدوية جزءاً لا يتجزأ من تفاصيل حياتي اليومية. صرت أمقت نفسي من جراء ذلك، وألعن جسدي العليل أبداً، فأنا أكاد أكون دائم المرض، ودائم الشكوى. فماذا أفعل؟! أظن أن أساس شكواي هي الأعصاب. جهازي العصبي ضعيف. ويبدو أن هذا قدري. وما باليد حيلة. عرجت على إحدى الصيدليات واشتريت الدواء الذي وصفه الطبيب. ثم عرجت على أحد محال الفيديو، واستأجرت شريطين نصحني بهما صاحب المحل. لم أستخدم جهاز الفيديو في بيتي منذ زمن بعيد جداً. إنه مجرد قطعة إكسسوار. حتى جهاز التلفزيون صار مجرد قطعة إكسسوار. فأنا باستثناء نشرة الأخبار المصورة لا أشاهد شيئاً.. زارني أخي يوسف. أخي الكبير. فالصغير (إبراهيم) يشتغل في دولة الإمارات العربية. أما أخي

(أبو النور - يكبرني بأربعة أعوام)، فلم يعد له وجود في الحياة منذ سنتين تقريباً.. جلسنا في غرفة المكتبة. قال لي: "لماذا الغرفة متسخة هكذا؟ جدرانها تحتاج إلى طلاء جديد". نظرتُ إلى السقف والجدران فوجدتها شديدة الاتساخ. ربما كان ذلك بسبب كثرة السجائر التي أدخنها ههنا. ولكن تصوري أني لم أنتبه إلى هذا السواد كله سوى الآن، رغم أن البنات قد نبهنني إلى ذلك من قبل، ويبدو أنني لم أكن أسمع مايقلنه لي حول هذا الأمر، أو لم أكن أبالي. ألست بائساً؟ وقال لي أخي أيضاً: "سأخبر الشباب - يقصد أبناءه - بضرورة طلاء الغرفة. يوم الجمعة مثلاً. مارأيك"؟. قلت: "كما تحب". ولم يطل بقاؤه. انصرف بعد فنجان قهوة. تمددت على إحدى الأرائك، فاكتشفت أنها شبه مهترئة. إذن، لقد بدأت ألاحظ الأشياء من حولي. أليست هذه بادرة خير؟ تمددت على الأريكة بعد أن وضعت أحد الشريطين اللذين أحضرتهما معي في جهاز الفيديو. إنه فيلم (الإرهاب والكباب) لعادل إمام. فيلم ساذج. ثم شاهدت الشريط الآخر: (ليه يابنفسج). وقد تأثرت بهذا الفيلم كثيراً. إنه عمل ناضج. ولابد أن تكوني قد شاهدته خلال جولاتك في المهرجانات المختلفة، وإلا: أنصحك بمشاهدته. فيلم حار، وصادق، ونبيل.. أنصحك بمشاهدته.

الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل. لا أستطيع أن أنام. ولست أرغب باللجوء إلى الأقراص المنومة. لديّ عقار سويسري لاضطرابات النوم. اسمه التجاري (موغادون). أحتفظ دائماً بعلبة منه. ولكني لا أستخدمه إلا عند الضرورة القصوى. وليلتي هذه لا تندرج في بند الضرورة القصوى. فماذا أفعل إذن؟ ليذهب الطبيب إلى الجحيم. ولسوف أكتب إليك. بل إنني أفكر بالكتابة إليك يومياً. فإن جئتِ إلى دمشق أعطنكِ كومة من رسائل، وإلا.. هل أضعها في البريد؟ لست واثقاً.

* * *

أول أمطار الخريف. وأنا أحب الخريف، وأحب المطر.

كنت عائداً إلى بيتي في واحدة من سيارات الأجرة على التاسعة ليلاً. وفجأة حبات ماء تضرب زجاج السيارة بقوة. لم أصدق عيني. فرحت بالمطر. وكدت أطلب من السائق أن يتوقف لكي أنزل، مع أننا مازلنا في بداية الطريق تقريباً.. اغتسلت الأرصفة والشوارع، وتلألأت بأضواء كثيرة تساقطت عليها من هنا وهناك. وكان لابد من تدخين سيجارة رغم اللوحة الموضوعة في مواجهتي، والتي يرجو فيها السائق عدم التدخين (لأسباب صحية). قلت للرجل: "أدخن أو أنزل". قال: "ممنوع

التدخين". قلت: "أنزل إذن. توقف لو سمحت". ودفعت له نقوده. ونزلت. وأشعلت سيجارة تحت المطر. واصبت نشوة. وأصابني البلل. وكنت جذلاً. ورحت أمشي.. طويلاً مشيت. رجعت إلى بيتي مغسولاً تماماً. نشفت رأسي، وبدلت ثيابي، ثم رحت أحضر لقمة آكلها. كنت جائعاً مثل ذئب في القفار. يبدو أن المطر يفتح شهيتي للطعام، بل إنه يفتح شهيتي للحياة عموماً. قلوت كمية لابأس بها من كبدة الخاروف. نادراً ماأفعل شيئاً كهذا. أكتفي عادة ـ على العشاء ـ بقطعة من الجبن الأبيض أو ببعض حبات من الزيتون مع كأس شاي كبيرة. شهيتي للطعام في الغالب سيئة. ثم إنني كسول في تحضيره. أما اليوم فقد كنت نشيطاً. إنه المطر. ثم انظري إلى هذا المنطق؛ كنت قد قلت في نفسي: يجب أن تأكل جيداً ياولد، حتى لا تراك فاطمة ناحلاً عند مجيئها بعد حوالي أسبوعين. هكذا فكرت. حتى أني اشتريت بالأمس من الصيدلية دواء لفتح الشهية. أخذت منه حبة فتبين أنه يسبب خبلاً، فتوقفت عن تعاطيه. وهكذا بقي أمامي حل أخير: أقيم في بيت عبد اللطيف خلال الأسبوعين القادمين. زوجته (لاريسا) ـ هي روسية ـ تحضر طعاماً لذيذاً جداً؛ طعاماً روسياً، وعربياً أيضاً. وهذا أقوله على سبيل المزاح طبعاً.. مازال المطر يتساقط. ثمة بروق في السماء، ورعود. أجلس الآن إلى الطاولة. أشرب الشاي، وأستمع إلى أم كلثوم. إنني مهووس بالاستماع إلى أغاني أم كلثوم منذ مايقارب شهوراً تسعة أو عشرة.. حاولت أن أشتغل. لم أنجح. أشعر بالتقصير. لدي عمل كثير، بل كثير جداً. هناك رواية (الإرهابي) طبعاً. وهناك مشروع آخر لم أحدثك عنه في حينه، ولست أدري لماذا. لعل الخجل منعني من ذلك. كنت قد وقّعت عقداً لكتابة مسلسلة تلفزيونية. ولست أذكر إن كنت قد قلت لك بأني لا أحب هذا العمل. إنني لا أحبه أبداً. بل إنني أمقته. وأكثر من ذلك: أعتقد بأنه ليس ثمة كاتب (عربي) يحترم نفسه ويرضى بالكتابة للتلفزيون (العربي). الكتابة، دون شك، هي فعل حر من جميع القيود. أما في حالتنا الراهنة فهي الخضوع المطلق لمتطلبات الرقباء في محطات التلفزة العربية، والالتزام بقائمة المحظورات الطويلة: الدين، الجنس، الخ... وهكذا أعتقد بأني شخص لا يحترم نفسه. ولكن انظري إلى الأمر من جهة ثانية: إن النتاج الأدبي (في بلاد العرب) لا يؤمن حداً لائقاً من العيش لصاحبه. بل إنه لا يؤمن الحد الأدنى من ذلك. إذن، ماالعمل؟ مع أنني بالأساس لست شخصاً متطلباً، حتى أني في جوهري إنسان متقشف. وفي الحقيقة أيضاً أني لا أقيم وزناً للنقود، بمعنى أني لا أجهد نفسي في السعي وراءها، ثم لا أعرف كيف أتعامل معها حين تجيئني، فأنا أنفق باليمين مايأتيني باليسار، أو بالعكس. وربما كان سلوكي هذا شكلاً

من رد الفعل على فقر الطفولة وحرمانها المميت.

وهكذا فإنني لم أدخر شيئاً ذا قيمة من النقود الكثيرة التي حصلت عليها خلال السنوات السبع الماضيات. ومن الطبيعي أن تلك النقود قد جاءتني من الكتابة للتلفزيون أولاً. وللمناسبة فقط: إنني أتقاضى أجراً عالياً جداً. وللمناسبة أيضاً: إنني قليل الإنتاج عموماً. قد تردّين على هذا كله قائلة: إذن، لا تكتب للتلفزيون، وعش متقشفاً. وأرد على ملاحظاتك المفترضة: إنك على حق. لكن المشكلة أنني اعتدت في السنوات الأخيرة على الإنفاق، وربما كان يتوجب علي الآن محاربة تلك العادة.. على أية حال، إنني مرتبط الآن بعقد، ولا يمكنني أن أتبرأ من توقيعي، ولا يمكنني أيضاً خذلان المنتج الذي وقعت معه العقد، سيما أن علاقة طيبة تربطني به. هو إنسان جيد. سبق له وأنتج مسلسلة من تأليفي. كما سبق لي واشتغلت مستشاراً لديه (في مجال النصوص) فترة من الزمن. وبغض النظر عما إذا كان شخصاً جيداً أو سيئاً، فالذي يهمه أولاً هو الربح. وهو يؤمن بأن قلمي رابح. هذا ماأثبتته التجربة. أما معاناتي التي أحدثك عنها فهو لا يفهمها. بل إنه لا يشعر بها أصلاً. وأكثر من ذلك فهو يؤمن بأن كتابة الرواية ضرب من إضاعة الوقت. وأن التلفزيون هو السيد المطلق في هذا الزمان. ومن يدري؟ ربما كان الرجل محقاً.. وحدها وجدان كانت تشعر بعذابي، وتتمنى لو أن لديها دخلاً يسمح لنا بالعيش اللائق حتى أتفرغ أنا لكتابة الرواية. كانت تؤمن بي كاتباً روائياً، حتى أنها تعلمت الضرب على الآلة الكاتبة خصيصاً من أجل رواية (الفلسطيني)، واشترينا وقتئذٍ آلة كاتبة صغيرة، وحوّلت المسودات غير القابلة للقراءة، والتي كدت أحرقها في لحظة مجنونة، إلى نص نظيف من كل شائبة.. أمس التقيتها. وليس بالمصادفة. سألتني عنك. قلت لها: "سمعت أنها قادمة إلى المهرجان، ولكني لست واثقاً من ذلك". قالت: "عدني بأن تعرّفني إليها حين تجيء إلى دمشق". قلت: "أعدك إن هي وافقت على الأمر". قالت: "لا أظنها سترفض لي طلباً بسيطاً كهذا". قلت: "وما أدراك"؟. قالت: "قلبي يحدثني بأنها إنسان طيب". أمس التقيتها. وليس بالمصادفة. تريد أن تستشيرني في أمر هام. إنها مقدمة على زواج. ثمة خطّاب كثيرون يدقون باب بيت أبيها، أو يدقون باب محله التجاري في مركز المدينة (يبيع لوازم التصوير الفوتوغرافي). قالت لي في بداية الجلسة: "لقد رفضت إلى الآن عشرين رجلاً". قلت على سبيل المزاح: "وها أنت تقبلين بالرجل الحادي والعشرين". فقالت بصوت مخنوق: "نعم". قلت: "المسألة جدية إذن"؟. قالت: "نعم". قلت: "ومن يكون هذا الرجل؟ هل أعرفه"؟.

قالت: "نعم. تعرفه". وذكرت لي اسمه. إنني أعرفه على نحو سطحي. هو سوري يحمل الجنسية الكندية، ويقيم في كندا. إنه قريبها، أو قريب أبيها. قلت: "وهل أنت مقتنعة به"؟. ردت بحنجرة متشققة: "إن بعض الصفات فيه تشبه بعض صفاتك". وجعلت تبكي. بكت بحرقة. بمرارة. ثم لم أعد أعرف كيف أساعدها. لم أحسن التصرف. لزمت الصمت فترة غير قصيرة كفكفتْ خلالها دموعها الغزيرة، ونظرت إلي بعينين مورّمتين، وقالت: "حتى أني لن أستطيع أن أتعرى من ثيابي أمام رجل سواك أنت". وكدت أن أقول لها: سوف تعتادين الأمر. ولكني خشيت أن أبدو مبتذلاً. قلت: "متى رأيته آخر مرة"؟. قالت: "كان هنا منذ شهرين تقريباً. ولم يصارحني بشيء. يبدو أنه لم يجرؤ على أن يفتح الموضوع معي. غير أنه استغل وجود أبي مؤخراً في كندا، وصارحه بحقيقة مشاعره نحوي. قال له: إنه يحبني، ويتمنى لو أرضى أن أكون زوجة له. وابي حدثني بالأمر بعد عودته إلى دمشق. وأنا لم أرفض، تعبت ياحسن. والله العظيم تعبت. أبي أبلغه موافقتي بالهاتف. وصار يكلمني. إنه يكلمني كل يوم. بالأمس سألني: هل ترين حسن؟ قلت له: لا. قال: بعد أن نتزوج نزوره معاً. مارأيك"؟. سألتها: "ولماذا كذبت عليه"؟. قالت: "لا أعرف. ثم إنني لست ملزمة تجاهه بعد بأي شيء. حتى أننا لسنا مخطوبين". قلت: "ومتى سيأتي إلى دمشق"؟. قالت: "غداً". أي هذا اليوم ١٠/٢٠ . هل تعرفين ماالذي آلمني يافاطمة؟ بعد أن توادعت مع وجدان كان لدي شعور بأن حبي لها قد تبخر حتى آخر قطرة منه، لدرجة أني سألت نفسي: أين ذهبت تلك المشاعر الكبيرة التي كانت تتملكني في فترة من الفترات تجاه هذه المرأة؟! أتذكر على سبيل المثال شتاء عام ١٩٨٧ كنت في موسكو. في واحدة من زياراتي الكثيرة لهذه المدينة. كنت في مهمة طالت أكثر مما ينبغي. كان ثمة مشروع فيلم سينمائي مشترك بين سوريا والاتحاد السوفياتي. وكنت أكتب السيناريو مع كاتب روسي. وقدرت أن بقائي في موسكو لن يطول أكثر من عشرين يوماً. وفجأة تبين لي أنني في حاجة للبقاء هناك شهرين على الأقل، رغم أننا كنا قد اشتغلنا على السيناريو قرابة ثلاثة شهور في دمشق. (الفيلم لم ير النور. حتى أن السيناريو كان رديئاً). وصادف في تلك الفترة وجود مجموعة عمل سورية (من القطاع الخاص) تصور فيلماً مشتركاً آخر. وكان ريمون على رأس تلك المجموعة. وصادفت أيضاً أعياد رأس السنة. سهرت ليلة رأس السنة مع المجموعة السورية في أحد مطاعم الفندق حيث أقيم. كان منتج الفيلم موجوداً. وكان هو صاحب الدعوة. وضيوفه كثيرون جداً. بينهم عدد كبير من النساء من جنسيات مختلفة. قال لي المنتج: "اختر أجمل النساء يابن

أخي". هكذا يناديني في العادة. هو رجل جلف حيناً، وطيب حيناً آخر. حتى أني أحار في تقييمه. لم أرد على ملاحظته. توجهت بالحديث إلى ريمون. قلت له: "اسمع ياريمون. أنا منسحب من السهرة. إني أختنق. وإن وجدتني في الصباح ميتاً، فلا تضع اللوم على الصقيع، لأنني أذوب شوقاً إلى وجدان". وانسحبت من السهرة فعلاً. كان شتاء نادر البرودة. هبطت درجات الحرارة خلاله إلى حوالي خمسين درجة مئوية تحت الصفر. خرجت من الفندق (فندق روسيا. هل تعرفينه؟ هل كنت في موسكو مرة)؟. رحت أمشي في الصقيع. وبقيت أمشي حتى الصباح. ثم لم أرجع إلى الفندق. بل ذهبت إلى فندق (أوكرانيا) حيث يقيم ريمون. قلت له: "من دون مقدمات ياريمون. أريد دعوة وجدان إلى موسكو حالاً. من الطبيعي أنني أستطيع أن أطلب ذلك من وزير السينما، فأنا قادر على مقابلته لو أردت ذلك. لكن هناك طريق آخر أكثر اختصاراً وأقل بيروقراطية. يمكن تأمين (الفيزا) ببساطة عبر مجموعتكم مادمتم من القطاع الخاص، فتحدث إلى المنتج ليصار إلى إرسال (الفيزا). ولا تقل لي سوف أفعل ذلك غداً. أريد أن يتم الأمر في هذه اللحظة. في هذه اللحظة بالذات". وهذا ماكان. حضرت وجدان إلى موسكو بعد تسعة أيام من رأس السنة. تسعة أيام شعرت خلالها بأني فاقد توازني تماماً. ولما التقيتها على المطار شعرت بأني أستعيد نفسي التي ذابت رغم ذلك الصقيع كله.. وبالأمس تساءلت: أين ذهبت تلك المشاعر؟! ومامن جواب. كانت تجربتي معها غنية. غنية بكل شيء. تزوجنا وهي طفلة بعد تقريباً. طالبة جامعية. ومن البدهي أنها الآن امرأة ناضجة. ومن البدهي أيضاً أن الفراق معها لم يكن عليّ سهلاً. لقد آلمني الطلاق. أذابني هو الآخر.. قال ماهر لأنطوانيت أثناء تصوير فيلم (صهيل الجهات): "لم أر عذاباً بشرياً يوازي عذاب صديقنا حسن". كنت وقتئذٍ في أوج الخلافات مع وجدان. فلماذا العذاب لو لم أكن أحبها؟! ولكني شعرت يوم أمس بعمق أن حبي لها قد تبخر حتى آخر قطرة منه. كيف تمشي بنا الحياة؟ لا أعرف. كل الذي أعرفه الآن أن حبي لها قد تلاشى. غير أن إحساسي بالمسؤولية تجاهها لم يتغير. ولا أظنه سيتغير في يوم من الأيام. وأقصى ماأتمناه، ليس أن أراها متزوجة، فليس لدي خوف من أمر كهذا، فهي مازالت شابة، ومازالت جميلة. لكن الذي أتمناه هو أن أراها وعلى حضنها طفل رضيع، فلربما عرفت السعادة عندئذ.. سألتني بعد أن فرغتُ من كتابة (الغفران) أن أسمح لها بقراءة المخطوط، فأعطيته لها. قالت لي بعد القراءة: "إنك تظلمني كثيراً. من الواضح أن ليلى هي وجدان. ولكني لست كذلك ياحسن. وأنا لا أطلب إليك أن تعدل فيها شيئاً، غير أني أحب أن أقول لك: وجدان أطيب من ليلى. أنا أطيب

منها، وأنقى، وأطهر".. وليلى في الرواية هي زوجة ذلك المثقف الذي اسمه عمر الخالد، والذي ليس فلسطينياً بالضرورة، وليس بالضرورة سورياً كذلك. إنه مثقف من دمشق. وبيروت هي ماضي هذا المثقف الذي لما كانوا يدمرون المدينة صيف عام ١٩٨٢ ، كان يموت من الخوف على نفسه، فعمل المحال من أجل الخروج من الحصار، والعودة إلى دمشق. إن بيروت بالنسبة إلى عمر هي العار الذي لا يعلم به أحد سواه. لا أحد يعرف بقصة هروبه من المدينة التي تحارب أربعاً وعشرين ساعة في اليوم الواحد على مدار شهور ثلاثة. كان موجوداً في بيروت بسبب امرأة اسمها وداد. وهي امرأة عربية تحمل الجنسية البريطانية. متزوجة، ولها طفل من زوجها. التقاها عمر في لندن قبل ثلاث سنوات. أحبته، وشبه أحبها. وكانت تجمعهما في بيروت صديقة مشتركة. أظن أنه كان من الأنسب تغيير اسم هذه المرأة التي تركت المدينة عائدة إلى لندن قبل أن تقوم الحرب بيومين أو ثلاثة. قطعت علاقتها بعمر، وقررت الرجوع نهائياً إلى ابنها الذي في الخامسة من عمره، وإلى زوجها الذي غفر لها ذنوبها. ارتحلت، وتركت عمر يتخبط في مشاعره التي يغلب عليها الحزن والأسى، وتركته يفاجأ بكل تلك الطائرات والقنابل والحصار العسكري، فسقط ضحية الخوف، مع أن المنطق يفترض أن يكون سلوكه على نحو مغاير، فهو، وإن لم يكن عسكرياً، إلا أنه شاب بعد (في أواسط الثلاثينات)، وقد سبق له وأدّى خدمة العلم في سلاح المدفعية. وكان الواجب يقتضي منه أن يكون رجلاً. ولكن الخوف حق من حقوق الإنسان. يعيش بعد بيروت في خوف من بيروت ومن ذكراها، بل حتى من اسمها. يحرق كل أوراقه الأدبية، ولا أحد من حوله يفهم سبباً لعزلته وصمته. يقبع في بيته يتأكله الخزي.. "إنني ولد مُفسَد أخذ من الحياة أكثر مما يستحق"، هكذا يصف نفسه أمام نفسه.. وفي خريف العام ذاته يتعرف إلى بنت في العشرين من عمرها. جميلة، أو جميلة زيادة عن اللزوم في بعض الأوقات، إنها طالبة جامعية بعد، واسمها ليلى.. يثير هذا المثقف الصامت، صمت القبور، إعجابها. ويثير تعاطفها معه لأنه ضحية حب فاشل. هكذا يفسر الجميع أسباب صمت الرجل المثقف الطيب. وبعد سنة على لقائهما أول مرة يتزوجان. وبعد تسع سنوات على الزواج يكون الطلاق، أو هذه التجربة المريرة التي أحببت أن أكتب عنها.. وإن كنت أنا عمر، فقط ظلمت نفسي قليلاً. ولم يكن ذلك مهماً بالنسبة إلي. وإن كانت وجدان هي ليلى، فقد ظلمت وجدان كثيراً. وهذا أمر مهم بالنسبة إلي. وليس مرد ذلك إلى كونها زوجتي سابقاً. لا. بل من أجل سبب آخر. من العار أن يجعل الفنان من نفسه قديساً أو شهيداً عندما لا يكون الأمر كذلك، بل ومن العار أيضاً، حتى لو

كان كذلك. وأنا في الواقع لست شهيد وجدان، ولست ضحيتها. لم تكن وجدان امرأة سيئة. ولعلها كانت أفضل مني في أمور كثيرة. إنها امرأة طيبة حقاً. طيبة، وحساسة، وأمينة، وصادقة، رغم تناقضاتها الكثيرة. وبما أنها بشر فلابد من كونها قابلة لارتكاب الخطأ. والخطأ حق من حقوق الإنسان. أنا أيضاً لي أخطائي. بل إن لي أخطاءً أخجل حتى من تذكرها. إذن، كلنا خطّاء. وفي الواقع، لم تكن وجدان امرأة شريرة يوماً. أما في الرواية فإن ليلى هي المسؤولة عن شقاء عمر بعد وداد وبيروت. هذه هي النتيجة التي وصل إليها قلمي. أضطر الرجل إلى هجران زوجته. هرب. اختفى بعد أن صارت المشكلات بينهما كثيرة، وعصيّة على الحل. حتى الطلاق ماعاد ممكناً. بدأ كل منهما يمشي إلى التهلكة، وبخاصة عمر الذي استغل أخيراً استدعاءه إلى أحد أجهزة الأمن للتحقيق معه في قضية على علاقة بالمديرية حيث يشتغل. فوجيء بأن ضابط الأمن الذي حقق معه يعرف من تفصيلات حياته ماجعله يشكك في زوجته، متهماً إياها بأنها مصدر معلومات جهاز الأمن ذاك. كانوا يعرفون عنه كل صغيرة وكبيرة بدءاً من بيروت وانتهاء بأتفه شؤون حياته الزوجية. وكان الضابط مهتماً في أن يجعل عمر يفهم الحقيقة التالية: "نستطيع أن نجعل منك ممسحة إن شئنا". ويعده بأنهم لن يفعلوا ذلك، ثم لا يعتقله، بل يرافقه إلى بيته في واحدة من سيارات الأمن الفاخرة. وفي السيارة تخطر لعمر فكرة الاختفاء الأبدي. من زوجته أولاً. لم يعد يثق بها. بل صار يشكك في مجمل سلوكها نحوه. صار يقنع نفسه بأنها تسعى إلى تدميره، أو إلى جنونه. تفصيلات كثيرة تقع له يومياً ولا يجد لها أي تفسير. ساعة حائط معلقة في غرفة النوم. فوجيء بها ذات صباح. من أين جاءت؟ لم يسبق له أن رآها من قبل. وليلى تنكر معرفتها بالأمر. ويكاد يفقد عقله. ويقنع نفسه بأن ليلى تنتقم منه لسبب لا يعرفه. وتتلبسه فكرة الاختفاء. يجد في اختفائه حلاً لعذاباته التي ماعادت محتملة. ويحقق فكرته تلك بعد يومين اثنين على استدعائه إلى التحقيق. قال لزوجته: "إنهم يطلبونني يوم الاثنين أيضاً". قالت له: "ولكن ماذا يريدون"؟. قال: "كيف لي أن أعرف"؟. ويغادر البيت. يغيب عاماً أو بعض عام. يعلم بعدها، وبالمصادفة، بموت ليلى. وتجتاحه نوبة من ندم. وتتلبسه فكرة الانتحار، فيرجع إلى البيت مدفوعاً برغبة قوية في أن يطلق على رأسه رصاصة أو رصاصتين. ثمة شيء آخر أزعج وجدان بعد أن قرأت المخطوط هو أني بنيت جزءاً من الرواية على (الخيانة الزوجية) التي تمارسها ليلى ذات مرة، بحيث تكون هذه الحادثة أهم أسباب المشكلات المتفجرة بين الرجل وزوجته. أظنني قد تجنيت على وجدان، فأجدني ملزماً على إعادة النظر في شخصية ليلى حتى لو

احتاجني الأمر إلى إعادة كتابة الرواية برمتها. لن أظهر في مظهر الشهيد أو القديس أو الضحية على حساب وجدان. بئسَ الفنُّ هذا.. وقالت لي وجدان أيضاً: "لي رجاء عندك آمل أن تلبيه". قلت: "ماهو"؟. قالت: "أن تهديني هذا الكتاب". ووعدتها بأن أفعل.. إنني أتحدث عنها كثيراً. أليس كذلك؟. أرجو ألا تغضبي يافاطمة، فهي جزء من حياتي، من أوجاعي، من أعصابي. حتى أني أفكر بالإفادة من رواية (الغفران) في كتابة المسلسلة التلفزيونية التي تعاقدت على كتابتها مع ذلك المنتج الذي يرى في كتابة الرواية مضيعة للوقت. أظن بأن هذه المسلسلة سوف تحمل عنوان: (امرأتان ورجل). وأظن بأني سأفاد من علاقتي بك أنت أيضاً، ثم أغوص في تجربة الزواج. أعتقد بأن تجربة الزواج والطلاق (بشكل عام) موضوعة طيبة لمسلسلة تلفزيونية طويلة.. أرجو ألا يتخلى عني الحظ، وألا تؤلمني عضلات رقبتي أكثر مما تؤلمني هذه اللحظة، فالشتاء على الأبواب، والعمل أمامي كثير: رواية (الإرهابي)، تنقيح رواية (الغفران)، مسلسلة (امرأتان ورجل). ثم لديّ مشروع لم أتحدث بخصوصه إلى قلة قليلة جداً من الأصدقاء: عبد اللطيف أولهم. أفكر في خوض تجربة الإخراج السينمائي. ناقشت الأمر مع عبد اللطيف أكثر من مرة. لديّ بعض التصورات حول السيناريو الذي يستهويني تنفيذه سينمائياً. عبد اللطيف يشجعني على المضي قدماً في المشروع. وماهر أيضاً. غير أني أتريث الآن في الإقدام على خطوة كهذه بسبب علاقتي السيئة بإدارة المؤسسة. أتريث حتى الربيع أو الصيف. ولكنني سأخوض هذه التجربة حتماً. ومرة ثانية: آمل ألا تخذلني رقبتي المتشنجة، وآمل بوجه عام ألا يخذلني جسدي العليل أبداً. اللعنة على هذا الجسد! بتّ أشك في أني سأعرف الراحة يوماً.. إلا في القبر.. هاهو مزاجي قد تعكر من جديد. تعكر رغم البروق والرعود، ورغم المطر الذي أعشقه، ورغم اشتياقي إليك الذي بلا حدود يافاطمة.. هل سأظل أشتاق إليك هكذا؟ أرجو أن أظل كذلك.. حتى القبر يافاطمة.

* * *

ذهبت اليوم إلى المؤسسة. لم أجتمع بالمراسل. لم يظهر في المكان. غير أني، في المقابل، اجتمعت بعبد اللطيف. لم أره منذ عشرة أيام تقريباً، فهو الآن خارج المؤسسة (يؤدي خدمة العلم). ذهبنا إلى بيته بعد أن يئست من الاجتماع بالمراسل. تناولنا طعام الغذاء مع زوجته وابنته (ماريا) - ١٣ سنة. كان الطعام لذيذاً كالعادة.. تشاجرتُ مع لاريسا. نتشاجر أحياناً، هي في واقع الحال امرأة طيبة، وصادقة. ولكنّ هذا لا يمنع من أن نتشاجر أحياناً. مرة كل أربعة شهور أو خمسة. والجميل في الأمر

أن عبد اللطيف يقف متفرجاً. على الحياد. لكننا نتصالح دائماً بسرعة. خلافاتنا تعكس اختلافاً في وجهات النظر بيننا حول بعض القضايا التي يمكن وضعها في طبقة (القشرة)، أما الجوهر فليس لي مأخذٌ عليه عندها، ولست أظن بأن لها مأخذاً عليه عندي. ولهذا سرعان مانتصالح. يعتذر أحدنا. وتنتهي المشكلة. حتى أن أطول خلافاتنا استمرت أربعة أيام فقط. أجريت من بيت عبد اللطيف مكالمتين (كنت قد تركت لك الرقم في رسالة سابقة). كان أحد الاتصالين مع ريمون لكي أطمئن على صحته، بينما الاتصال الثاني مع شابة جميلة تعرفت إليها في مدينة اللاذقية في الصيف الماضي. ثم سرعان ماتصادقنا هناك. غير أني بعد عودتنا إلى دمشق صرت أتعمد التقليل من التواجد معها أو الاتصال بها. وفي الحقيقة أنني أفعل ذلك خوفاً عليها من ألسنة الناس بعد أن ابتدأت بعض الهمهمات والغمغمات في الظهور والتصاعد. وأظن بأنها في غنىً عن مثل هذا الأمر، إذ أنها في العشرين من عمرها بعد. طالبة في كلية الآداب. وخبرتها في الحياة تكاد أن تكون صفراً. ولكن بنت العشرين جاءت أكثر من مرة إلى المؤسسة خلال الأيام العشرة الأخيرة تسأل عني، وطلبت من بعضهم إبلاغي بضرورة اتصالي بها لأمر هام.. تريد أن تعرض عليّ بعضاً من نتاجها الأدبي. لها محاولات في كتابة القصة.. عاتبتني كثيراً. قالت لي: "كنت أعتقد بأن الجميع يمكن أن ينساني إلا أنت". اختلقتُ الكثير من الأعذار التي منعتني من الاتصال بها خلال مايزيد عن شهرين، ولم يبدُ عليها الاقتناع لأن أعذاري نفسها بدت واهية. كانت عنيدة. إنها سَميّة صديقتك ديانا. أو (ديانا الحلوة كالملاك)، هكذا سيصير اسمها في رواية (الإرهابي) بعد أن أردّها إلى طور الطفولة (٥) سنوات. وكما حدثتك من قبل فإن هذه الرواية تكمّل روايتي (الفلسطيني) و(الزورق). وهي بشكل خاص تكمّل رواية (الزورق)، حتى تكاد أن تكون الوجه الآخر لها. الوجه الذي لم أعرضه آنئذٍ. ورواية (الزورق) هي قصة حب، على نحو الأنحاء. هي قصة رجل وامرأة وطفل. أو: ثالوث الحياة الأبدي.. أحمد ومريم وعلاء الدين. وفي (الإرهابي) سوف أحتفظ باسم أحمد، وكذلك سأحتفظ باسم علاء الدين. ولكنهما سيكونان اسمين لشخص واحد الذي هو بطل الرواية. أجهزة (الموساد) تعرف هذا الرجل باسم أحمد، مع أن له عدداً آخر من الأسماء التي يتنقل بها في البلاد المختلفة. وحين تسأله بطلة الرواية التي جمعتها به الأقدار في ظروف صعبة عن اسمه، يرفض أن يبوح لها به، ويقول لها: ناديني بأي اسم تحبين، أعطيني أي اسم تشائين. وتعطيه اسم علاء الدين نسبة إلى أخيها الذي استشهد حديثاً، وهكذا يصير اسمه: (أحمد أو علاء الدين). أما اسم بطلة الرواية فهو ليس مريم، بل

فاطمة. أعذريني، فأنا أحب هذا الاسم. أحب هذه الكلمة. وهذا مايقوله أحمد أو علاء الدين أيضاً. ثم إن لدي سبباً آخر في ذلك: بعض الإعارة من رواية (الفلسطيني)، مع أن فاطمة التي هنا لا تشبه فاطمة التي هناك. ومن الطبيعي كذلك أن الرواية بمجملها لا تشبه الروايتين السابقتين إلا من حيث العلاقة بين (رجل) و(امرأة). العلاقة الصاخبة وغير السوية في درجة من درجاتها. العلاقة التي تنتهي دائماً إلى عدم.. في نهاية (الفلسطيني) يعود عيسى إلى رحم الأرض بعد قطيعة أبدية مع فاطمة، أو هو يكرّس تلك القطيعة ويعطيها صفة الديمومة بذهابه إلى قبر أبيه والنوم في حضن الرجل الذي كانت رأسه حقل تجارب ذات حين. وفي رواية (الزورق) يضيع أحمد في لجّة البحر ويتلاشى وهو عائد إلى مريم في الأرض المحتلة على زورق خشبي صغير. أما في (الإرهابي) فأعتقد أن ثمة تعديلاً سوف يطرأ على العلاقة بين أحمد أو علاء الدين وبين فاطمة. فلسوف يصعد الرجل إلى السماء، وهناك سوف يلتقي فاطمة التي أجبرته ظروف استثنائية على الفراق معها في الحياة الدنيا. سوف يفاجأ بوجودها في السماء.. "كانت تنشر الغسيل على حبل مربوط بين خيمتين". وللمناسبة، إنني أستعير مشهد (اللقاء فوق) من حلم طالما زارني في نومي القليل المضطرب. سبق وحدثتك عن حلم غريب يزورني بين حين وحين.. وهذا هو الحلم باختصار: طالما رأيتك في الدار الآخرة يافاطمة.. طالما رأيتك هناك بعد أن يئست من لقائك في الحياة الدنيا.

* * *

اليوم هو الجمعة. يوم عطلة. غير أن المؤسسة، فيما أظن، تشتغل. يستعدون للمهرجان. لم يبق على الافتتاح إلا أسبوع واحد. ولو ذهبت إلى هناك لالتقيت المراسل حتماً. لابد أنه مستنفر هو الآخر. كنت، منذ الصباح، قد قررت عدم مغادرة البيت، وبخاصة أن الأوجاع في رقبتي تزداد حدة من يوم إلى يوم، وتكاد لا تنفع معها المسكنات جميعاً. لكن ياليتني ذهبت إلى المؤسسة وما بقيت حبيس الجدران ههنا! إذن، لأعفيت نفسي من حوار سقيم طويل. عند الظهر تقريباً دق باب بيتي شاب له محاولات في الكتابة، وهو يحب أن يزورني بين حين وحين لنتحدث معاً في الأدب. جاءني اليوم وفي يده صورة من مقالة نشرت مؤخراً في بيروت حول رواية (الفلسطيني) بعنوان: من أين جاءنا هذا الفلسطيني؟! لابد أن كاتبها فلسطيني إذن. لم أسمع باسمه من قبل. وبعد العنوان هجوم عنيف عليّ لدرجة اتهامي بالعمالة للصهيونية. وفي الحقيقة أنني لا أقرأ شيئاً كهذا أول مرة. حتى أني سبق

وسمعته بأذني. سمعته مرة من رئيس تحرير مجلة فلسطينية معروفة. وقد قال هذا الكلام في ندوة أقامتها مجلة (دراسات اشتراكية) حول رواية (الزورق). وهي الندوة الوحيدة التي شاركت فيها بالنقاش بخصوص عمل من أعمالي، وارجو أن تكون الأخيرة، فأنا لا أحب مثل هذا الأمر. لا أحبه أبداً. وفي الندوة ذاتها هاجم كاتب فلسطيني آخر رواية (الزورق)، واتهمني بالعمل فيها على الدعاية الحسنة لدولة "إسرائيل" الطيبة. وسبق لي أيضاً أن قرأت مقالة من حوالي ثلاث سنوات تحمل عنوان مقالة اليوم: من أين جاءنا هذا الفلسطيني؟! ومن جهة أخرى، سبق لي أن قرأت أكثر من مقالة لكتاب عرب يتهمونني فيها بالتعصب الأعمى للفلسطينيين. حتى أن أحدهم استخدم في توصيفي لفظة: شوفيني.. وهكذا أجدني مرفوضاً من بعض العرب، ومرفوضاً من بعض الفلسطينيين. وأقول (بعض) لأن غالبية من كتب حول (الفلسطيني) أو (الزورق) ترفعت عن هذا المستوى من التفكير. وهو مستوى أعتبره متدنياً. وربما كان فيه هجومٌ ظالمٌ علي. وربما كان في مجمله عملاً لا أخلاقياً. لكن، وبغض النظر عما إذا كان مستوى متدنياً أو غير ذلك، فإنني في المحصلة متهم، أو حتى مجرم من وجهة نظر بعض المثقفين. وبما أنني كذلك أجدني مضطراً في بعض الأحيان للدفاع عن نفسي ضد مثل هذه الاتهامات التي أنا بريء منها براءة الذئب من دم يوسف.. ولكن كيف أقنع هؤلاء بأنني لست فلسطينياً متعصباً من جهة، ولست أعمل لحساب الصهيونية من جهة أخرى؟ كيف؟ بل كيف يمكن التوفيق أصلاً بين هاتين التهمتين اللتين تنقض إحداهما الأخرى؟ هل تعرفين ماذا قالت لي ديانا بعد أن قرأت رواية (الزورق)؟ (لم يكن لدي إلا نسخة واحدة، وهي النسخة الأولى التي تصلني من القاهرة بعد صدور الكتاب مباشرة) اختطفتها بحجة أنها تريد أن تكتب عنها، مع أنها تعلم علم اليقين أنه لا يهمني أبداً إن كتبت أو لم تكتب. لا يهمني، عموماً أن يكتب أحد عن شغلي. حتى أن ديانا غضبت علي بعد أخفقت في أن تقيم معي حواراً حول رواية (الفلسطيني)، وذلك بعد صدورها بفترة قصيرة، قالت لي: "هذه الرواية مأخوذة عن الكتاب المقدس. ولهذا فضلت عدم الكتابة عنها، فأنا لا أريد أن أسيء إليك". قلت لها: "أتعرفين يادیانا؟ إنني لم أكن مهتماً في أن تكتبي شيئاً حول هذه الرواية، أما وأن لديك مثل هذا الرأي العجيب الغريب، فإنني أتمنى أن تقوليه على الملأ. أتمنى أن تنشريه، ولا تخافي من الإساءة إلي، فأنا (جمل المحامل) كما يقولون في الأمثال". ومرة بعد مرة، ولقاء بعد لقاء، وأمام إصراري على أن تنشر رأيها، بدأت بالتراجع عن موقفها، ولكن بالتدريج. وحين أعلنت تراجعها النهائي عن رأيها هذا بررته قائلة: "إنك تصور

الإنسان الفلسطيني على أنه (سوبرمان)، تماماً كما يصور الكتاب المقدس الشخصية اليهودية". أترين؟ حتى تراجعها كان ينطوي على اتهام. ولولا الخجل لقالت لي: أنت شوفيني ياحسن. أو: أنت تكرهنا نحن العرب. وكيف أقنع ديانا بأنني لست شوفينياً؟ كيف أقنعها بأنني عربي مثلها؟ وربما كنت أكثر عروبة منها. المسألة باختصار أنني لست متعصباً، لأن التعصب لا يمكن أن يقودنا إلى نتائج طيبة ولا في حال من الأحوال. إنني حقاً لست متعصباً للعرب. لكني أحبهم. وهذا لا يعني أن أكره سواهم من الأقوام التي تعيش بينهم أو بعيداً عنهم. أحب بني قومي. هذا أمر ليس موضع شك لدي. أحب اللغة العربية. أعشقها. وأتمنى لو أنني أعرفها على نحو جيد. أعشق امرأ القيس، وأعشق المتنبي، وأؤمن إيماناً قطعياً بأني، في البدء، لست من سلالتهما.. حين أنظر إلى نفسي في المرآة أدرك أني حديث الصلة بهذين الرجلين. وعندما أتذكر جدتي لأبي (أتذكرها جيداً، فقد كنت شاباً لمّا وافتها المنية) أؤمن إيماناً راسخاً بأنها لم تكن في البدء إلا من قبائل (الفايكنغ): عجوز سويدية، أو فلأقل جرمانية، ولابد أنها حين كانت شابة لم تكن تختلف، من حيث الهيئة، عن أية شابة ألمانية أو سكوتلاندية، وأن الفارق بينها وبين صبايا تلك المناطق يكمن في شيء واحد هو أنها تتحدث العربية وليس الألمانية مثلاً. وللدقة: تتحدث اللهجة الفلسطينية، لأن جدتي كانت أميّة. وهكذا أصير على ثقة بأنها تتحدر من أولئك الرجال الذين جاؤوا إلى المنطقة رافعين شعار الصليب في حربهم ضد العرب، وخاضوا معارك كثيرة قبل أن يخسروا الحرب، ثم خلفوا جدتي وراءهم دليلاً أكيداً على أنهم كانوا موجودين هنا ذات وقت. لكنّ هذا الدليل فقد قيمته بحكم التقادم، فقد مرّ عليه سبعة قرون أو ثمانية، وأصبح بالتالي غير ذي جدوى.. وهكذا اؤمن بأن الذي يجري في عروقي بالأساس هو ذلك الدم الأزرق. ولكنّ هذا الدم ـ وبحكم التقادم أيضاً ـ فقد لونه، وتحول إلى الأسمر، رغم أن عينيّ مازالتا زرقاوين، وأظنهما ستظلان كذلك حتى أموت، تماماً كما سيظل دمي أسمر حتى أموت أيضاً. وبما أن صلة الدم هي الأقوى أحس بالانتماء القطعي إلى امرىء القيس والمهلهل والشنفرى وابن زيدون وعنترة والمتنبي، وأعشق كل كلمة تركها هؤلاء الرجال، وأعشق اللغة التي كتبوا بها. ولكنّ هذا العشق المزدوج لا يمنعني من حب شكسبير وبلزاك وهوفمان ودوستويفسكي ودانتي وسرفانتس.. أما أولئك السادة الفلسطينيون الغاضبون علي، فكيف أقنعهم بأني ابن المخيمات منذ نعومة أظافري؟ عندما نزحت أسرتي عن الوطن عام ١٩٤٨ كنت ماأزال حديث الفطام بعد. ومنذ ذلك التاريخ وأنا ابن المأساة، وابن المخيمات أيضاً.. قال لي أولئك السادة (أكان مباشرة أو عبر

مقالاتهم): "المخيمات مصانع الأبطال. أما أنت فلا تكتب إلا عن اليأس والأوجاع". وفي الحقيقة أنني لا أكتب عن اليأس والأوجاع، بل أكتب عن شيء آخر مختلف تماماً. أكتب عن القلق. والقلق، فيما أظن، هو المفتاح إلى العالم الفلسطيني، وهو السمة المميزة للشخصية الفلسطينية، أكان في (المنفى) أو في (المعتقل). هذه هي قناعتي. وفي كل الحالات: أنا نفسي شخص قلق. والقلق هو العلامة التي تميزني عن كثيرين سواي من البشر الذين أعرفهم. إنه ـ أي القلق ـ إحدى صفاتي الرئيسية، وربما كان أكثرها حضوراً بين أجنابي وفي تلافيف دماغي. هذا ماقلته لأولئك السادة، فتهامسوا فيما بينهم قائلين: "حسن شخص مريض". ثم لم يتركوني بحالي. إنهم ينتظرون خطوتي التالية. وخطوتي التالية هي: (الإرهابي).. وأنا أسمع شتائمهم سلفاً. وسلفاً كذلك أسمع كلمة (شوفيني) من بعض العرب.. وما العمل؟! إنه سوء الفهم، أو حب سوء الفهم، والولع به. إنه واحدة من ضرائب الحياة. واحدة من ضرائب الوجود. ولكن كم من الضرائب علينا أن ندفع لقاء هذا الوجود؟!!

* * *

كم أنا وحيد هذا اليوم!

كم أنا وحيد هذه الليلة!

قبيل المساء انقطع التيار الكهربائي. غادرت البيت. ذهبت إلى ريمون. كان زواره كُثُر، فلم يطل بقائي عنده. خرجت إلى الشارع. الطقس جميل. الطقس أكثر من جميل. شعرت بالضجر، ولم أعرف إلى أين أذهب، فكرت بزيارة عبد اللطيف، ثم عدلتُ عن الفكرة سريعاً. لا أحب أن أحمل ضجري إلى بيوت الآخرين.. لم أذهب اليوم إلى المؤسسة خشية ألا يكون منك شيء في انتظاري. كنت قد قلتُ في نفسي: إن لم أذهب يظل عندي أمل حتى لو كان أملاً كاذباً. غير أني، من جهة ثانية، اتصلت ببندر من بيت ريمون لأسأله إن كان مجيئك إلى المهرجان أكيداً. ردت عليّ زوجته. لست أعرفها. قالت لي إنه غير موجود، فشكرتها، وازددت ضجراً، وخرجت إلى الطريق. كان الطقس أكثر من جميل، ولم أعرف إلى أين أذهب، رحت أمشي. مشيت أكثر من ستة كيلو مترات، هي المسافة بين بيت ريمون وبيتي. قطعت شوارع وشوارع، وتفرجت على الناس. تفرجت على الصبايا. كنّ جميلات: يانعات، متوردات، رشيقات. وكنّ أسراباً. وكنت وحدي. وآه كم كنت وحيداً هذا المساء الذي شعرت فيه بالغيظ منك!! فلماذا الصمت يافاطمة؟ ألست

بخير؟ حسناً.. لست أريد منك أي شيء سوى أن تقولي: أنا بخير. أم أن هذا كثير علي؟! مالك لا تردين؟ تكلمي. انطقي. اخرجي من صمتك أخيراً فأنت تعذبينني بهذا الصمت دونما ذنب ارتكبته. أقول لك بصراحة: إنني، في بعض الأحيان، ألعن تلك الساعة التي رأيتك فيها أول مرة، وألعن تلك الغرفة التي رأيتك فيها أول مرة، هل تصدقين أني لم أكن قد دخلت تلك الغرفة من قبل أبداً؟ هي، فيما أتذكر، مكتب مدير العلاقات العامة، ولم يكن بيني وبين هذا الرجل أكثر من "مرحبا" على الدرج أو في الطريق، أو في أي مكان آخر. ولم أدخل مكتبه مذ اشتغلت في المؤسسة. فما الذي جعلني أدخل غرفته عند ظهر ذلك الاثنين: ١٩٨١/٥/١١؟ حتى أني لم أكن أفكر بالذهاب إلى المؤسسة ذلك اليوم. كنت أعتزم البقاء في البيت. كان لديّ عمل كثير أقوم به في بيتي. وفجأة، وجدتني أرتدي ثيابي، وأخرج إلى الطريق، وأستقلّ سيارة أجرة، واقصد المؤسسة، وأصعد إلى الطابق الثاني، وأتوجه إلى مكتب مدير العلاقات العامة.. وألتقيك.. كان ثمة نداء خفي يدعوني إليك ذلك النهار الربيعي. كان ثمة شيء قدري، لا طاقة لي على ردّه، يسيّرني تجاهك، ويدفعني إليك دفعاً، ثم يحدد شكل وحجم عذاب سوف أعيش فيه من بعدك، عازباً كنت أو متزوجاً أو مطلقاً.. ولا شيء ينفع.. ولا شيء ينقذ. كنت قد قلتُ في نفسي أكثر من مرة: إنني تائب عنك يافاطمة، أو إنني تائب عن حبك يافاطمة (أظن أن للمجنون قولاً كهذا في ليلى)، غير أني كلما مرق بي طيفك عدلتُ عن التوبة، ورجعت إلى المعصية. رجعت إلى العذاب.. ولا شيء ينقذ. عندما جاءتني ليالي منك بتلك الرسالة الشفوية، قلتُ في نفسي: "مالي ولوجع القلب"؟!. وأعرف أني كنت أكذب على نفسي. في تلك الفترة كنت أكتب (الغفران) كما تعلمين. ولكن هل تعرفين كيف كنت أفكر؟ إليك هذا المقطع الصغير:

في الليلة الأولى بعد اختفائه تملّكه شعور بأنه رجل حر تماماً. حر النفس وحر الجسد، فقد أصبح في حل من المشاعر السطحية، ومن مختلف أشكال الغباء والخداع وانعدام الثقة. إنه لا يريد أن يخدع أحداً، كما لا يريد أن يخدعه أحد. وهكذا يسمو فوق الحساسة بأشكالها اللامتناهية، وينسى الألم، وينسى الغضب، وينجو بجلده من الخوف الساكن في أغوار روحه القلقة، ويصوغ لنفسه حياة خالية من الغدر والتفاهة.. كان يبدو راغباً عن التفكير في شيء سوى التوبة عن الماضي، والتكفير عنه. كان يبدو أمام نفسه نظيفاً، جديداً، لمّاعاً. وكيف لا يبدو كذلك وهو ينشد الرضا والسلام اللذين لم يعد يتخلف عنهما بأكثر من خطوة واحدة؟ ولسوف

يخطوها. ولسوف يعرف السعادة وراحة البال. إنه لن يعود بعد الآن ذلك الشخص ذا المزاج المتعكر أبداً. سوف يحصن نفسه بالعزلة التي طالما تاقت إليها روحه الهائجة. وسوف تتيح له عزلته تلك حرية التفكير اللائق برجل مثله. وسوف يكون في منأى عن المزاج السوداوي، ولن يتعامل مع أشياء حياته القادمة بنفاد صبر. وبالمقارنة مع الشخص الذي كان سوف يصبح أكثر سلاسة، وأقلّ ذبذبة. سوف يعيش بهدوء، ولن يكون على عجلة من أمره، ولن تأخذه الدهشة بعد اليوم، لن تدهشه الفظاظة، ولن يسحقه الإحساس بالضعف. لن يكون ضحية بعد اليوم أبداً. لن يكون ضحية لأي شيء، ولن يكون عبداً لأي شيء، ولسوف يتخلى عن جميع الأوهام التي عاشت معه طويلاً حول المرأة، ولسوف يتخلى كذلك عن جميع أهوائه التي كان يتمسك بها ليخلق لنفسه أوهاماً حول كيفية استخدام المفردات اللغوية على نحو استثنائي. وسوف يكون عزيزاً على نفسه، ومهتماً بها، ومكترثاً. لن يقسو عليها كثيراً أو قليلاً، ولن يجرح أياً من مشاعرها، بل سيترك لها العنان لكي تخرج من الظل، ولكي تبقى خارج الدجى تدفق إشعاعاً أحمر قانياً يسيل على أفق واسع نظيف من الغيم والضباب ساعة الشفق. ورغم العزلة التي يتوق إليها فإنه لن يكون بعد اليوم إلا واضحاً. بل إنه سيهجر الرموز كلها، وسيلقي بالحذر بعيداً، فكل شيء يبدأ من جديد. أما الماضي، فلسوف ينسحب إلى ماوراء، ولسوف يقعي هنالك في ظلام دامس تحجبه ستائر سميكة قاتمة. وفي الظلمة أيضاً سوف تقعي الأسرار القديمة: العار، والجبن، والخيانة، والرغبات الرخيصة. أما النساء فإنه لم يصرف دقيقة واحدة من وقته تلك الليلة بالتفكير فيهن على وجه العموم، أو في أي منهن على وجه الخصوص، فقد بات حكمه عليهن قاطعاً: مخلوقات حمقاوات.

وعندما جاءتني ليالي برسالة شفوية من إحدى تلك المخلوقات الحمقاوات، اختلّت موازيني، وعدلتُ عن التوبة، ورجعت إلى المعصية، ولم يكن لي في الأمر حيلة.. قلتِ لي في أولى رسائلك الأخيرة: "سأكون بخير لو تستمر في الكتابة إلي".. أية حمقاء أنت يافاطمة! فهل أقدر على عدم الإجابة على رسالتك؟ وهل كنت أقدر على التعامل معك إلا بنفاد صبر؟ قلتُ لعبد اللطيف مرّة: "أخشى أنني لا أحسن التصرف مع فاطمة. أخشى، بنفاد صبري، أن أضيّعها من جديد ياصديقي". وقلتُ له أيضاً: "يبدو أن لديها مشكلات كثيرة، وأنا لاأعرف كيف أساعدها". وفي الحقيقة أني لا أعرف كيف أساعدك يافاطمة، لأن أكبر المشكلات جميعاً: بُعدك وصمتُك، فاخرجي من صمتك أو تعالي. هذا يكون أفضل لنا نحن الاثنين: يشتت

الألم، ويبدد الشعور بالوحدة، فآه كم أنا وحيد هذه الليلة يافاطمة! وآه كم كنت وحيداً هذا المساء! جبت الكثير من الشوارع. اشتريت بعض المكسرات، وجعلت آكل في الطريق مثل ولد متشرد. اشتريت نوعاً من العسل (يعملون له دعاية كبيرة، ويصفونه بأنه منشط للأعصاب على نحو خارق للعادة). أعرف أنهم يكذبون. لكنني اشتريته. لعل في الشراء وسيلة لكسر الإحساس بالوحدة! اشتريت قميصاً أعرف أنه لا يلزمني. وأعرف أني لا أحسن الشراء.. أثناء وجودي الأخير في اللاذقية جئت إلى دمشق مرتين سريعتين. الثانية بسبب مشكلة كانت تعاني منها وجدان (اتصل بي عبد اللطيف وطلب إليّ الحضور إلى دمشق فوراً بناء على رغبة وجدان في أن تراني). والأولى لمراجعة الأطباء هنا بشأن حالتي الصحية التي كانت سيئة وقتئذٍ، واستشارتهم فيما قاله أطباء اللاذقية. وفي إحدى تينك المرتين اشتريت أربعة قمصان. رأيت نموذجاً منها في واجهة أحد المحال، فأعجبني، واشتريت أربعة بألوان مختلفة. غير أني حين رجعت إلى اللاذقية اكتشفت أنها قمصان شتوية، بينما كنت قد اشتريتها من أجل الصيف.. وفي ذات مرّة، وقفت على ضفة نهر (الثيمز) في لندن، وألقيت إلى مائه الجاري بمجموعة من الأشياء التي كنت قد اشتريتها قبل أقل من ساعة واحدة، وذلك بعد أن اكتشفت بأن تلك الأشياء لا تلزمني. والأمر نفسه فعلته من قبل في موسكو، ألقيت إلى ماء النهر الذي يحمل اسم المدينة ببعض الأغراض التي لم أكن أعرف لماذا اشتريتها أو ماذا سأفعل بها لاحقاً. وحسناً فعلت يومئذ لأني ذهبت في صباح اليوم التالي إلى المطار حاملاً جواز السفر وتذكرة الطائرة فقط. تركت كل شيء في غرفتي في الفندق لأني بالكاد صحوت من شدة السكر، وبالكاد عرفت الطريق إلى المطار.. في زمن الزواج حظرت عليّ وجدان أن أشتري أي شيء بنفسي، كانت تشتري لي حاجاتي كلها. وفي زمن الطلاق عرضت علي (ديانا الحلوة كالملاك) المساعدة في شراء ماأحتاجه. تذكرتها هذا المساء. اتصلت بها من بيت ريمون، يبدو أن هاتفها معطل. وهكذا لم أتحدث إليها، فقلت في نفسي: هذا أفضل. وخرجت إلى الطريق. وكان الطقس أكثر من جميل. فمنذ منتصف الليلة الفائتة تقريباً خلت السماء من الغيوم، وعند الصباح أشرقت الشمس في ميقاتها، وارتفعت درجات الحرارة من جديد بعد بعض البرد وبعض المطر خلال الأيام القليلة الفائتة. وبدا الجو نظيفاً، ومغسولاً، ومجلواً من سخام الصيف الطويل. وخرج الناس إلى الشوارع كما لم يخرجوا من قبل أبداً. أو هكذا خيّل إلي. إنها الحياة، وحب الحياة، وربما كان حب الاستعراض أيضاً. رجع الناس وارتدوا ثيابهم الصيفية. لاشك في أنهم يحاولون كسب بعض الوقت بدل الضائع.

أو ربما كانوا يودعون الصيف وفي نفوسهم على انقضائه شيء من مرارة يحاولون إخفاءها بهذا الظهور الجماعي في الشوارع، إنه شيء من قبيل المهرجان ارتدّت فيه المدينة إلى مراهقتها الأولى، فامتلأت طرقاتها بالأرداف المتراقصة، والنهود النافرة، والسيقان العامرة، والشعور المفروشة على الظهور والأكتاف.

لعلّ البنات لم يكنّ جميلات من قبل أبداً كما في هذا اليوم الذي أعقب بعض البرد وبعض المطر.. إنه مهرجان حقيقي، لكن من دون لجنة تحكيم، وندوات، ومقابلات صحفية، وبقية أوجاع القلب التي نتلذذ نحن المثقفين في ممارستها. إنها الحياة، إنها الجماعة. أما أنا فقد بقيت وحيداً. لم أنجح بالانصهار في الآخرين. بل إني لم أحاول ذلك، لأني كنت معك أنت. وأنت بعيدة رغم قربك، وقريبة رغم بعدك. أنت الضجر. أنت الوحدة. أنت الفرح. والحزن أنت.. فكرت بك كثيراً هذا المساء: كما لم أفكر بك من قبل أبداً. هل أبوح لك بسر صغير؟ اليوم - وربما كان ذلك للمرة الأولى - تذكرت جسدك. لم يسبق لي خلال نوبات الحنين إليك أن فكرت بتفاصيل هذا الجسد. ولست أدري لماذا. أما اليوم فقد تذكرت معك تلك اللحظات المليئة بالشبع والبهجة ولذة الجنس الحارقة. كانت ذكرياتي بك مرتبطة على الدوام بشيء من قبيل الجوى، أو لوعة الحب. كانت مرتبطة - بل شديدة الارتباط - بألم الفراق وقسوة الغياب. أما اليوم! استعدت روعة الجنس البعيدة. استحضرت تفاصيل أنوثتك الصاخبة، فازددت وحدة وضجراً، وشتمتك، وطرحت عليك السؤال القديم: ماذا فعلنا بأيامنا؟! ولذت بالصمت. وبقيت وحيداً في الزحام. ولعنت هذا الطقس الجميل.. وتشهيت البرد والمطر. هل تعرفين كم الوقت الآن؟ إنها السادسة. السادسة التي في الصباح.. عند منتصف الليل تقريباً تناولت قرصين من (موغادون) بعد أن أيقنت بعجزي عن تحمل المزيد من الوحدة. قررت أن أنام. قررت أن أهرب منك، وأن أموت إلى حين، فأخذت قرصين بدلاً من واحد. غير أني صحوت على الثانية وأربعين دقيقة. صحوت من شدة الألم، أو من شدة المرض، فأنا مريض بك يافاطمة.. ولا شيء ينقذ.

* * *

صرت أمقت الذهاب إلى المؤسسة، لكني مضطر على ذلك بين حين وحين. لم أكن قد نمت بعد السادسة التي في الصباح، أو بعد أن فرغت من الكتابة إليك، لم أنم رغم أني رجعت إلى الفراش بعد الرسالة. وعبثاً فعلت، فقد كنت شديد الصحو.

قمت من الفراش في حوالي السابعة. شربت شاياً وقهوة، ثم شاياً ثم قهوة. استحمّيت بعد ذلك بماء فاتر. ارتديت ثيابي، وخرجت من البيت. وصلت المؤسسة على الحادية عشرة تقريباً. وما من داع للقول بأن ليس منك ولو قصاصة من ورق. حسناً.. لقد اعتدت الأمر. ولم أعد أبالي. أما أنا فلسوف أستمر في الكتابة إليك رغم ذلك.

التقيت ماهراً في المؤسسة، شكا لي أنهم قد لا يشركون (صهيل الجهات) في مسابقة المهرجان، لقد صدمني الخبر. وأخشى ماأخشاه الآن هو أن هذا الرجل بدأ يسدد للآخرين فاتورة صداقته لي.

سألت عن بندر. لا أثر له. اضطررت على الاتصال بأمين سر المهرجان. سألته إن كان اسمك موجوداً في قائمة الضيوف. قال لي: "لقد تم إقرار دعوة هذه السيدة في أحد الاجتماعات. ثم لا أعرف ماالذي جرى بعد ذلك، أو لماذا لم يعطوني تعليمات من أجل الاتصال بها".. أنت لست قادمة إذن. وهذا الأمر يزعجني كثيراً إن كان قد تم من قبيل تصفية بعض الحسابات، معي أنا طبعاً. لا يزعجني فحسب، بل يوقعني تحت تأثير إحساس شامل بالتفاهة، رغم أني مازلت عند موقفي الذي لا أرى موجباً لتغييره: كل شيء أو لا شيء. هذا هو جوهر العلاقة بك، كما أريدها أنا. لذا - وكما قلتُ لك من قبل - فإن الذي يسعدني حقاً هو مجيئك إليّ أنا وليس إلى المهرجان. أما لماذا أسأل عن احتمالات قدومك (وقد سألت بندر لاحقاً بالتلفون أستوضحه الأمر)، فمن باب العلم بالشيء: من أجل أن أكون في استقبالك على المطار. وهذا أضعف الإيمان.

تركت المؤسسة، وخرجت إلى الشارع، ورحت أمشي على غير هدى.. لا سيرة في المدينة اليوم إلا أخبار كرة القدم. إنها تصفيات قارة آسيا إلى كأس العالم. ست دول آسيوية تتنافس في مدينة (الدوحة).. أنا شخصياً أحب هذه اللعبة. غير أني أتساءل وبمرارة عن حقيقة المبالغ التي أنفقتها العرب من أجل تعلم هذه اللعبة. أعتقد بأننا أنفقنا إلى الآن من الأموال مايكفي لرفع المجاعة عن فقراء الهند والبرازيل معاً. أنا لم أكن في البرازيل. لكنني زرت الهند. زرت مدينة كلكوتا. ورأيت بعيني ماأحسد كل إنسان لم يزر هذه المدينة على أنه لم ير مارأيته أنا.. في اليومين الأخيرين على وجودي هناك، قلت لبندر (كنا معاً): "لن أخرج من الفندق إلا إلى الطيّارة، فأنا لم أعد أحتمل رؤية هذا البؤس كله". إنني لا أتحدث بعد عن الجوع الذي في الصومال والسودان وسواهما من الأقربين، والأقربون أولى بالمعروف. وأثرياء العرب لا حس

ولا خبر. أتعرفين كيف أفكر أحياناً؟ أعتقد بأن العرب قد أصيبت بهذه اللعنات كلها لسبب واحد بسيط هو أنها أخلّت بالاتفاق الذي عقدته يوماً مع الله: "كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر". وفجأة نأمر بالمنكر، وننهى عن المعروف. أخلّينا بالشرط الوحيد في الاتفاق، فأصبح الله في حل منه، وصرنا أسوأ أمة أخرجت للناس، فيما أظن.

رجعت إلى البيت باكراً هذا اليوم. كان مزاجي في أسوأ حال. زارني شاب من الجوار فجأة. شاب جيد. له تجربة طويلة في معتقلات الصهاينة، سألني أن أؤمن له بطاقتين من أجل حضور حفل افتتاح مهرجان دمشق السينمائي، يبدو أنه قد وعد أحداً ما باصطحابه إلى هذا الحفل. ابتسمت بمرارة. قلت له: "اسمع ياجار. سوف أروي لك حكاية الذئب الذي أكل سيدنا يوسف". قال: "سيدنا يوسف لم يأكله الذئب". قلت: "إذن، سأروي لك حكاية الذئب الذي لم يأكل سيدنا يوسف"، فابتسم وقال: "هل أفهم من هذا أنك تعتذر عن تلبية طلبي"؟. قلت: "نعم. إني أعتذر. وذلك أمر يؤسفني، فأنا لا أقدر على تنفيذه. أما الذي أقدر عليه حقاً هو أن أدعوك لتتناول معي كأساً من الفودكا. مارأيك بكأس من الفودكا"؟. وشربنا كأساً من ذلك المشروب الجميل، وانصرف بعدها الشاب من بيتي خائباً. ثم صببت لنفسي كأساً ثانية، وجلست أكتب إليك. الكأس الثانية فرغت للتو. أظن بأنني سأشرب كأساً ثالثة، وربما شربت رابعة أيضاً، وخامسة، أظن بأنني سوف أسكر هذه الليلة، بل إنني سوف أسكر حتماً. إنني أرغب في ذلك رغبة أكيدة، مثل رغبتي الأكيدة أيضاً بسماع أغنية (ياحبيب الروح).. وقد أراك في المنام بعد السكر. أرجو ذلك يافاطمة، فقد غلبني الشوق إليك تماماً.. وشوقي إليك هو ملاذي الأخير من إحساسي الشامل بالتفاهة.

* * *

ثمة إنسان اسمه يوسف حنا. أعرفه منذ ثلاثين سنة، ويعرفني منذ ست وعشرين. ربما تعرفينه أنت أيضاً، فهو ممثل مشهور هنا. وقبل الشهرة فإنه ممثل مهم. وأعتقد بأنه اكتسب أهميته (بعد الموهبة) من ثقافته الواسعة. لم تربطني بهذا الرجل صداقة في يوم من الأيام، مع أن علاقتنا كانت طيبة دائماً. لم يزرني في بيتي ولم أزره في بيته. وجميع لقاءاتنا، حتى الطويلة منها، تتم بالمصادفة. على أية حال، إن المصادفة تفقد شكلها مادمنا أنا وهو في مجال عمل متقارب إلى حد ما، فقد سبق له أن لعب أكثر

من شخصية في أعمال سينمائية وتلفزيونية من تأليفي. كيف أصف لك هذا الإنسان؟ إنه على وجه العموم شخص يساري. لكن هذه الكلمة فضفاضة، سأحاول توصيفه على نحو آخر: هو فلسطيني جداً، وعربي جداً، وأممي جداً، ومسيحي جداً، ومسلم جداً.. إنه شخص نبيل حقاً، وهذا ماتوحي به أحاديثه الشيّقة، ووجهه الهادىء، وأعصابه التي تبدو عصيّة على الاستفزاز. وهذا مايقوله أيضاً إبداعه الكثير المتنوع في المسرح والسينما والتلفزيون والإذاعة.. لقد كان في العشرين من عمره لما ساهم في تأسيس فرقة (المسرح القومي) في دمشق في مطلع الستينات. ومنذ ذلك الوقت لم يتوقف هذا الإنسان عن العطاء الخلاق. ومنذ ستة وعشرين عاماً وأنا ألتقيه بين حين وآخر (يكبرني بخمس سنوات). نلتقي في المسرح، أو في الطريق، أو في منزل أحد الأصدقاء المشتركين، وبخاصة أخته (أمل) التي ربطتني بها صداقة قوية في فترة من الفترات.

آخر مرة التقيت فيها هذا الرجل، كانت في شهر (جوليا) الفائت، عندما كنت أنتظر قدومك إلى دمشق. ضمّتنا أنا وهو إحدى اللجان التي شكلها نقيب الفنانين من أجل امتحان الممثلين المتقدمين بطلبات انتساب إلى عضوية النقابة، كان عدد المتقدمين يربو على مئتين. وفترة الامتحان قصيرة، واللجنة صغيرة بحيث لا يمكن توزيعها على اثنتين مثلاً. كنا خمسة أشخاص فقط. وأنا لا أحب هذا العمل. لا أحب أن أشارك في تقرير مصير مئتي إنسان خلال أيام أربعة. لكنني، في المقابل، لم أشأ أن أخذل نقيب الفنانين، مع أنني لست عضواً في النقابة، وليس لي معها أية مصلحة، غير أن علاقة طيبة تربطني بهذا النقيب الذي ارتأى أن تضم اللجنة أحد الكتاب في عضويتها، وكنت أنا ذلك الكاتب الذي وقع عليه الاختيار. وتلك العلاقة الطيبة القديمة هي التي جعلتني أقبل بالمشاركة في بعض أعمال تلك اللجنة، وبخاصة أن الرجل بعث إلي رسالة بهذا الشأن إلى اللاذقية حيث كنت عاكفاً على كتابة السيناريو الذي تعاقدت على كتابته مع اتحاد الفنانين العرب.

في صباح النهار الأول الذي ذهبت فيه إلى مبنى النقابة فاجأني يوسف حنا بوجهه المتعب. قلت له: "تبدو متعباً كثيراً يايوسف". قال: "هذه المضخة الملعونة"، ووضع قبضة يدٍ واهنة على جانب صدره الأيسر. كان قد خضع لعمل جراحي في القلب منذ سنوات. وقال: "منذ متى لم أرك"؟. قلت: "نسيت". قال: "مازال أمامنا بعض الوقت، فتعال نصعد إلى السطح، ونجلس في الفيء، فأنا لم أقل لك رأيي برواية الزورق. ألا تحب أن تسمع رأيي في هذه الرواية"؟. قلت: "هيا بنا". وصعدنا

إلى السطح. وجاؤونا بالقهوة. وطلب مني سيجارة، رغم أن الأطباء منعوه من التدخين. أعطيته سيجارة، وأشعلتها له. ثم راح يتحدث عن رواية (الزورق). وقد تحدث عنها طويلاً. سألني بعد ذلك عن أعمالي الجديدة. قلت له: "لدي رواية شبه جاهزة، ولديّ سيناريو شبه جاهز، ولديّ مشروع رواية أيضاً". قال: "بسرعة إذن، فأنا في شوق لقراءة رواية جديدة من تأليفك". قلت: "بصراحة يايوسف؟ سريعاً لن تقرأ شيئاً من تأليفي. لأنني لا أنوي العمل الآن، فأنا في انتظار امرأة سوف تجيئني من مكان بعيد". قال: "تحبها"؟ قلت: "أظن ذلك". قال: "مادمت تحبها فلابد أنها امرأة جيدة. وفي هذه الحال، لا داعي للأدب، لأن امرأة جيدة خير من رواية جيدة". وكان تعبه يزداد من لحظة إلى لحظة. قلت له: "لماذا لا ترجع إلى البيت"؟. قال: "لأنني أموت لو استسلمت للمرض". قلت: "لكنك متعب". قال: "هل تتذكر نهاية رواية الشيخ والبحر"؟. قلت: "قرأتها منذ زمن بعيد. غير أني أتذكر مع ذلك أنها تنتهي بحوار بين الشيخ وبين الصبيّ حول إحدى مباريات البيسبول". قال: "هذا صحيح. لكن ثمة عبارة يقولها الشيخ لابد أنها ظلت في ذاكرتك". قلت: "أية عبارة"؟. قال: "عندما قال الصبيّ للشيخ بأنه يبدو متعباً. ردَّ هذا الأخير: بل إنني أبدو محطماً، لكنني لست مهزوماً".

في مساء اليوم الأخير من أعمال اللجنة، كنت مضطراً على الانسحاب قبل الأوان. كنت سأنتظر هاتفك في منزل عبد اللطيف. كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة. خشيت أن تتصلي مبكراً، اعتذرت من اللجنة، وقلت لهم إن لديّ سبباً قاهراً في انصرافي، وقبل أن أمشي قلت ليوسف: "انتبه إلى صحتك. مازلت تبدو متعباً". رد علي بالانجليزية يقول: "إنني أبدو محطماً، لكنني لست مهزوماً". ورديت عليه بالانجليزية أيضاً: "أرجو ذلك". وانصرفت. وما رأيته إلى الآن، ولن أراه بعد الآن، فقد نعوه من على شاشة التلفزيون قبل قليل.

عرضوا على الشاشة قرابة ربع ساعة من المواد المتنوعة حول إبداع يوسف خلال مراحل متباعدة: مذ كان شاباً صغيراً، وحتى صار يبدو شيخاً طاعناً في السن. يبدو أن المرض قد جعله كذلك خلال الأعوام القليلة الفائتة.

بعد انتهاء الخبر أطفأت التلفزيون.. لم أكن أشعر بالحزن، ولست أدري لماذا، غير أني كنت أشعر شعوراً أكيداً بالحب إلى يوسف. قمت إلى المطبخ، وصنعت قهوة، ورجعت إلى غرفة المكتبة. قُرع جرس الباب. كان أحد أبناء أخي الكبير. قال لي: "شغلت بالنا ياعم، لم تظهر منذ مدة. مابك؟ هل مازالت رقبتك تؤلمك؟ يبدو أنها

مازالت كذلك، فأنت تبدو متعباً. تبدو متعباً جداً". وتذكرت يوسف، وتبسمت لذكراه، وقلت: "بل إنني أبدو محطماً، لكنني لست مهزوماً".

لم يطل بقاء ابن أخي لديّ، انصرف، وقلت لنفسي: "لكنني لست مهزوماً". وقلت لنفسي أيضاً: فاطمة ليست قادمة الآن، والمهرجان لا علاقة لك به، وهذه الأوجاع في الرقبة لن تزول لمجرد كونك لا تشتغل، فما الذي تنتظره إذن؟ ولماذا إضاعة المزيد من الوقت؟ نهضت من مكاني، واستخرجت أوراق (الإرهابي) من مخبأها، وجلست إلى الطاولة، وكتبت على الصفحة الأولى:

بداية العمل: الساعة ٢٣،٠٠ ـ الخميس ١٩٩٣/١٠/٢٨

ثم جعلت أكتب، دون أن أبدأ كالعادة بتدوين ملاحظات أو رسم خطة للشغل، أو أي شيء من هذا القبيل. شرعت أعيد كتابة الحلم الذي يراود البطل بين حين وآخر، والذي سيكون، كما أتصوره، بمثابة لازمة للعمل كله.. لكنني توقفت عن العمل بعدما شاقني أن أكتب إليك وأنبئك بأني رجعت إلى الشغل، وبعدما رأيت من ضرورة أكيدة لإنهاء هذه الرسالة التي مرّ شهر على بدايتها.

الساعة الآن صفر حسب توقيت دمشق، منتصف الليل تماماً، أمامي عمل كثير. أما أنت.. لست أدري إن كان ثمة فارق كبير في التوقيت بيننا وبينكم، مع أنني أظن بوجود مثل هذا الفارق لأن الدار البيضاء إلى الغرب كثيراً من دمشق. أفترض أنها الحادية عشرة عندكم هذه اللحظة. وأفترض أنك تنامين باكراً مادمت قد أقلعت عن التدخين. إذن، ليلة سعيدة يافاطمة! ليلة سعيدة ياحبيبتي!

٢

إنه منتصف الليل. منتصف الليل بعد اثنتين وسبعين ساعة من آخر كلمة كتبتها إليك. كنت قد تمنيت لك ليلة سعيدة، وتركتك إلى شغلي. وهأنذا أعود إليك من جديد. والعود أحمد. أتعرفين؟ يبدو أنني لا أستطيع إلا أن أعود، مَثَلي كمَثَلِ مجرم يرجع رغماً عنه إلى مكان جريمته.. وأنت المكان يافاطمة، وأنت الزمان أيضاً.

ينتابني شعور في بعض الأوقات بأن كتابتي إليك ليست إلا شكلاً من العبث. ينتابني شعور بأن كل ماسبق وقلته لك لا يعدو كونه عبثاً في عبث. وفي أوقات أخرى، أحس بأن أجمل مافي عامي الأخير هو هذا العبث الذي أمارسه معك بين حين وحين، فهو يخفف عني البؤس الذي يحيط بي من كل اتجاه.. لست أفهم سبباً لهذا الانقطاع المتكرر في التيار الكهربائي. العقد العاشر من القرن العشرين. مدينة كبيرة بحجم دمشق، عاصمة بلد يفترض أنه تقدمي. وبغض النظر تقدمياً كان أم رجعياً فهو بلد غني. سوريا بلد غني: نفط، فوسفات، قطن، قمح، سياحة، إلخ..

أمس، وأمس الأول نسيتك. أو: حاولت أن أنساك. كنت أشتغل. واليوم اشتغلت أيضاً. أظنني اشتغلت على نحو طيب رغم كثرة انقطاع النور. لدي مصباح يعمل على البطارية. خفيف، وليس له ضجة مثل ضجة المولدات التي انتشرت انتشاراً رهيباً في عموم المدينة، وبخاصة في الأحياء التي تزيد فيها مدة انقطاع النور عن سواها. الحي الذي أقيم فيه أنا مثلاً.. أضع المصباح أمامي على الطاولة، وأشتغل. يكفيني ضوءه ست ساعات متواصلة. أما ضجيج الطريق، فحدثي ولا حرج. لكنني، مع ذلك، أشتغل. أحبس نفسي في البيت. أعتذر عن استقبال أحد ـ رغم قلة الزوار. جاءني بالأمس الابن الأكبر لأخي الكبير (مهندس). قلت له: "اعذرني ياوليد، فأنا أشتغل". قال: "لن أعطلك عن الشغل، ولكني أريد بطاقة من أجل حفل افتتاح المهرجان". كانوا قد جاؤوني ببطاقتين. أعطيتهما له، وانصرف. لكنه رجع اليوم. قلت له: "أستقبلك عشر دقائق فقط". جاء يحدثني عن انطباعاته حول حفل الافتتاح. سألته إن حصل على برنامج أفلام المسابقة، وإن كان فيلم (صهيل الجهات) مبرمجاً فيه. قال: "نعم، إنه مبرمج". وشعرت بالارتياح لذلك، قال لي: "حفل

الافتتاح جميل ومنظم". قلت: "هذا حسن". قال: "ألم تشاهد شيئاً من ذلك على شاشة التلفزيون"؟. قلت: "لا". قال: "هل سبق لك أن زرت قصر الأمويين"؟. حيث تمّ الحفل. على أية حال، هو مبنى حديث، أو حديث جداً. قلت: "لا". قال: "إنه مدهش". قلت: "لابد وأن يكون كذلك". وكيف لا يكون كذلك مادام يحمل كلمة "أمويين"، الذين اتخذوا من دمشق عاصمة لهم.. أمويون فإن ضقتِ بهم ألحقوا الدنيا ببستان هشام.. هكذا تغني فيروز مخاطبة دمشق، أما هشام فهو أحد أقوى خلفاء بني أمية، وأما بستانه فهو غوطة دمشق ذاتها، والتي لولا الحياء لاعتبروها من إنجازات بني أمية ـ تلك الأسرة التي حكمت العرب قرابة قرن كامل، والتي أنجبت معاوية بن أبي سفيان، أول أباطرة العرب، دون أن يسمى نفسه امبراطوراً، كان يسمي نفسه (الخليفة) فيما أظن، أو (أمير المؤمنين). وأبوه، كما هو واضح من الاسم (أبو سفيان)، أكبر أعداء الإسلام رغم أنه ابن عم النبي العربي الأمي، ولكن: "من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن". وأمه هي (هند بنت عتبة) التي أكلت كبد (حمزة) عم الرسول (ص). بعد أن قتله (وحشي) ـ العبد الذي أعتقته هند بعد أن قتل حمزه في معركة (أحُد). لكنه، مع ذلك، ظل عبداً في نظر أشراف مكة وأسيادها، الذين آمنوا أخيراً بمحمد ورسالته السماوية بعد أن فتح محمد (ص) مكة بقوة السلاح. وكان أن آمن أبو سفيان أيضاً. آمن بابن عمه نبياً من الله.. عندما استلم عثمان مقاليد الحكم (وعثمان أموي طبعاً)، ذهب أبو سفيان إلى قبر حمزة، وقال له: "رحمك الله ياحمزة. لقد قاتلتنا في أمر آل إلينا". لم أعد أتذكر أين قرأت هذه العبارة. ربما عند (الطبري). لست واثقاً. وفي الكتاب نفسه، أو ربما في كتاب آخر، قرأت أن أبا سفيان جمع الرجال من بني أمية بعدما صار عثمان الخليفة الثالث للمسلمين، وقال لهم، يجب أن تتناقلوا الحكم فيما بينكم كما يتناقل الأولاد الكرة. مرة ثانية لست أتذكر أين قرأت هذا الكلام. ربما كان موجوداً عند الطبري بالفعل. أو عند ابن خلدون. لست واثقاً. لكن الذي أنا واثق منه تماماً هو أن الأمويين تناقلوا الحكم فيما بينهم كما يتناقل الأولاد الكرة. فبعد مقتل عثمان ـ وربما أن الأمويين أنفسهم هم الذين قتلوه ـ رفع معاوية راية الثأر لابن عمه من الهاشميين الذين اتهمهم بقتله. ولم تكن تلك الراية سوى قميص عثمان المدمّى. حتى أن هذه العبارة: (قميص عثمان) راحت مثلاً عند العرب إلى يومنا الراهن.. ودخل الأمويون في حرب مع الهاشميين (أبناء عمومتهم)، وآلت إليهم الغلبة أخيراً بعد مقتل علي بن أبي طالب ـ الخليفة الرابع للمسلمين، وكبير البيت الهاشمي عندئذ. ونقل معاوية العاصمة من (المدينة) إلى (دمشق)، وصار أول أباطرة العرب، دون أن يسمي نفسه

امبراطوراً. كان يسمي نفسه (الخليفة) فيما أظن، بصفته امتداداً للخلفاء الراشدين الأربعة، أو لأن الحكم ينتقل من السلف إلى الخلف كما يتناقل الأولاد الكرة.. كنت مهتماً كثيراً بكتب التراث في فترة من الفترات، وبخاصة في فترة الثورة الإسلامية في إيران، والتي تمخضت عن سقوط (الشاه) وقدوم (الآيات) إلى السلطة.. لقد كنت شديد الحماس لتلك الثورة. وربما كان مرد ذلك الحماس إلى الإحباطات المتتالية التي عاشها أبناء جيلي. وأبرز تلك الإحباطات: الهزائم العسكرية المتتالية أمام "إسرائيل". كان واضحاً لكل عين أن الأحزاب القومية والشيوعية العربية قد أخفقت في خلق صيغة للحياة مقبولة. قلت: فلنترك فرصة لرجال الدين، لعلّ خلاصنا عندهم حتى لو كانوا من غير العرب، كنت متحمساً للخميني، مع أني أعرف معرفة أكيدة بأني لن أتحمل العيش في ظل نظام (أصولي). وليس مرد ذلك إلى كوني رجلاً فاسقاً على سبيل المثال. لا. أنا رجل عادي. لي أخطائي طبعاً. لي أخطائي التي أخجل حتى من تذكرها، والتي غالباً ماتحرمني ذكراها نعمة النوم وراحة البال. لكن، ورغم ذلك، فإنني في المحصلة إنسان عادي. صحيح أنني لا أصوم ولا أصلي، ولكنني لست من الغشاشين، حتى أنني لم أكن أخون زوجتي (أنا لم أخن وجدان أبداً. ومذ تزوجنا لم أعرف امرأة سواها حتى هذا اليوم. أما هي، فأظنها أيضاً لم تخني، مع أن بعضهم قال بخلاف ذلك. لكن معرفتي بها تجعلني أؤمن بأنها لم تفعل، لأنها ـ ببساطة ـ لا تعرف حتى كيف تخون. هذا ماأعتقد به. والله أعلم). قلت في نفسي: لنجرب الدين، لعلّ فيه الشفاء. وقلت أكثر من ذلك. فكرت: إن التطرف اليهودي (بيغن، شارون، كاهانا) لا يمكن مجابهته إلا بتطرف إسلامي (الخميني) طبعاً. وقلت: حتى لو نصب الأصوليون مشنقتي فلابأس.. "عليّ وعلى بيغن". أعرف أين تكمن جريمتي في نظر الأصوليين: العلمانية، لا أظنهم يغفرونها لي. وقد ينصبون مشنقتي فعلاً. ومرة ثانية "عليّ وعلى بيغن". وفي هذا الصدد لدي وجهة نظر أحب أن تسمعيها. وقبل أن أقول كلمة واحدة أريدك أن تعرفي بأني أقف بقوة ضد هذه الاغتيالات التي يرتكبها الأصوليون في الجزائر، أو في أي مكان آخر، وبخاصة اغتيالات المثقفين. والآن أعود إلى وجهة نظري: عندما تحمست للثورة الإسلامية في إيران كنت على يقين بأننا إن لم نربح شيئاً بانتصار الثورة فإننا لن نخسر شيئاً كذلك، لم يبق لدينا أصلاً مانخسره. حتى العلمانية التي هي متراسنا الأخير ـ على الصعيد الشخصي لا أكثر ـ لم تعد بذي جدوى، بل إنها لم تكن ذات جدوى في يوم من الأيام، والسبب في ذلك بسيط هو أننا نعيش في ظل أنظمة لا تسمح لنا بالاختلاف معها إلا في القضايا التي على السطح. أما في العمق، في الجوهر..

سجون العرب كثيرة. أكثر من المدارس والمستشفيات. وجوهر الاختلاف مع تلك الأنظمة، فيما أعتقد، هو الموقف من مسألة (الديمقراطية).. دلّيني لو سمحتِ على بلد عربي واحد عرف شعبه الديمقراطية يوماً. أظن أن بيروت هي محاولة العرب اليتيمة في صنع حياة ديمقراطية. وربما لهذا السبب أنزلوا بها ذلك العقاب الفظيع. ولم يحدثني عن ذلك العقاب أحد، فقد كنت عليه من الشاهدين. حتى عظام الموتى تطايرت من قبورها، وقد رأيت ذلك بعيني. وأظن أن الفلسطينيين (الأكثر تبجحاً بالديمقراطية بين العرب) يتحملون جزءاً غير قليل من المسؤولية في ذلك العقاب الفظيع الذي نزل على المدينة المتمردة على أعراف العرب من المحيط إلى الخليج. دلّيني لو سمحتِ على بلد عربي واحد لا يحكمه حزب واحد أو فرد واحد، هل تستطيعين أن تدليني على مثل هذا البلد؟ أنظمتنا العربية كلها أحادية الرؤية بغض النظر عن شكل أو لون العدسات اللاصقة التي تضعها على عيونها. والأصوليون أيضاً أحاديو الرؤية. وفي هذا فإنهم لا يختلفون في شيء عن بقية الأحزاب الحاكمة والأفراد. فلماذا نسمح لسواهم بما لا نسمح لهم به؟ لماذا لا يستلمون السلطة؟ أين كنا سنختلف معهم؟ في العلمانية؟ وبماذا أفادتنا هذه العلمانية في ظل الأنظمة الأخرى؟! أنا أقول لك أين كنا سنختلف معهم: إنهم لن يسمحوا لي بشرب الخمرة، ولن يسمحوا لك بارتداء بنطلون الجينز الذي يليق بك كما لا يليق بنطلون جينز بامرأة. ومثل هذه الأشياء في الواقع، خسارة كبيرة لنا نحن الاثنين. ولكن ألا يمكن أن نربح شيئاً ما في المقابل؟ لماذا لا نترك الأصوليين "يحررون القدس"؟ قد تقولين لي: ولكنهم لن يفعلوا ذلك لأنهم مرتبطون بالغرب والصهيونية، شأنهم شأن الآخرين. وأردّ عليك: ربما كنت على حق، ولكن فلنجرب، لأننا حقاً لن نخسر أي شيء، ولأن أكثر الأشياء أهمية (الديمقراطية) سبق وخسرناها. بل إننا لم نخسرها لأننا لم نمتلكها في يوم من الأيام، ولا أظن أننا سنمتلكها في يوم من الأيام، فالغرب لا يريد لنا أن نعيش في ديمقراطية، لأن في الديمقراطية عندنا خسارة لهم، ولدولة "إسرائيل" في المقدمة. ولهذا السبب تمّ تدمير بيروت، من البر والبحر والجو، على ذلك النحو البشع، بل إن كلمة بشع لطيفة في وصف ذلك العقاب الفظيع الذي أنزله المتطرفون اليهود بمدينة بيروت، بينما العرب تتفرج، والغرب يصفق استحساناً. على أية حال، لقد مضى ذلك الوقت الذي كنت فيه متحمساً للثورة الإسلامية في إيران، ومتحمساً لقراءة كتب التراث. قرأت في أحد تلك الكتب كيف انتقل الحكم من معاوية إلى ابنه (يزيد). يحكى أن (عمرو بن العاص ـ أحد دهاة العرب الخمسة) رفض أن يبايع يزيد الخلافة بعد أبيه، ويحكى أن يزيد قال

لعمرو يوم الجنازة: إن أبي أوصاني بألا يدفنه أحد سواك، فأنت أقرب أصدقائه. ويحكى أن (الداهية) قد صدق ماقاله يزيد.. فنزل إلى القبر لكي يتسنى له تسجية جثمان الامبراطور في مثواه الأخير. ولما صار عمرو في القبر أشهر يزيد سيفه، وقال له: تبايعني الخلافة أو يكون هذا القبر لك؟ فنظر عمرو إلى يزيد، وقال: والله إن هذه الفكرة ليست منك يايزيد، بل من الداهية أبيك، وإني أبايعك الخلافة.. إذن، لقد أحسنوا تناقل الحكم فيما بينهم، وقد وجدوا رجالاً كثيراً يخدمون الامبراطورية التي راحوا يتوسعون في بنائها إلى الشرق نحو الصين، وإلى الغرب نحو فرنسا.. الحجّاج مثلاً. الحجّاج بن يوسف الثقفي. الجزّار الذي اشتهر بقمع الثورات وقتل الثائرين. لست أتحدث بعد عن (قتيبة بن مسلم) أو (محمد القاسم) أو (موسى بن نصير). ومن الطبيعي أني لست أتحدث عن (طارق بن زياد)، فهو حتى ليس عربياً. إنه بربري فيما أظن، يحكى أنه مات متسولاً في شوارع العاصمة الأموية، ويحكى أنه استدعي إلى دمشق وحوكم بتهمة إحراق الأسطول الذي نقل القوات إلى البر الاسباني (الأوربي)، رغم أن إحراق الأسطول كان الخطوة الأولى الناجحة على طريق غزو اسبانيا (أوروبا)، فهي لم تترك أمام الجنود الذين نزلوا إلى البر أي خيار سوى القتال حتى الموت أو النصر، لأن طارقاً قطع على الجميع سبل العودة بخطوته الذكية تلك، ويحكى أنه حكم بالموت. ونفذوا فيه الحكم أمام حشد من الناس في إحدى ساحات دمشق. وهذه ليست إلا واحدة من الروايات حول مصير طارق بن زياد. أما موسى بن نصير فلم تكن نهايته أفضل. إذ من الثابت أنه عاش متسولاً في صحارى مصر والحجاز بعد أن تمّ له ولتلميذه طارق فتح شبه الجزيرة الآيبرية. فقد استدعاه الأمويون إلى دمشق هو الآخر، وحكموا عليه بالتشرد الأبدي. وهذا دون شك أمر لافت للانتباه، أقصد هذا المصير المأساوي لاثنين من أكبر جنرالات العصر الأموي. والمصير نفسه ـ على ذمة بعض المؤرخين ـ لقيه قتيبة بن مسلم، ولقيه أيضاً محمد القاسم الذي جيء به من (سمرقند)، أو من مكان ما آخر بعيد جداً في جلد بقرة. وكان مقتولاً بالطبع. ومن غير الثابت إن كان قد جيء به إلى دمشق، أم أنهم اكتفوا بإرساله إلى الحجّاج في العراق، حيث كان الجزّار منشغلاً في خدمة الأمويين بين العراق والحجاز، فهو من صلب ابن الزبير على جدار الكعبة. وولدا الزبير (مصعب وعبد الله) لم يبايعا عبد الملك الخلافة. وغنيٌّ عن القول أن (الحسين بن علي) من قبلهما لم يبايع يزيد، فكان مصيره أبشع من مصير مصعب وعبد الله. يقال إن رأسه فُصلت عن جسده، وأنه جيء بالرأس إلى دمشق من العراق.. هكذا كان الأمويون يبنون الامبراطورية العربية. وهذا غيض من فيض. ولمّا انتهى حكمهم

في دمشق بعد نيف وتسعين عاماً (وربما كنت أخطىء في تقدير المدة الحقيقية لحكمهم)، قفز آخر سلالتهم (عبد الرحمن الداخل) أو (صقر قريش) إلى الأندلس. فرّ هارباً من وجه العباسيين.. يحكى أنه كان في السابعة عشرة من عمره فقط. وجعل يعيد بناء الأسرة في (قرطبة) قبل أن يأخذ بالتمدد إلى بقية الأندلس. بل إلى بقية اسبانيا، حتىأنه كان يفكر جدياً بالتمدد شمالاً نحو فرنسا وتكرار محاولة سلفه (عبد الرحمن الغافقي) الذي قُتل في (بواتيه) أو (بلاط الشهداء) كما نسميها نحن العرب. لست أعرف موقع (بواتيه) على الخارطة الفرنسية بدقة. ولكن لابد أنها في الجنوب، قريباً من جبال (البرناس) التي تآمرت ثلوجها على الغافقي كما أخبرني بنفسه ذات ليلة. لقد رأيت هذا الرجل في الحلم أكثر من مرة. لعلني أراه في نومي لأنه يدهشني أكثر مما يدهشني رجل سواه في تاريخ العرب. هو ليس أموياً، بل حتى ليس قرشياً. إنه يمني، أو يماني. وهذا يزيد في دهشتي. ماالذي جاء به من اليمن ليموت في فرنسا؟ ماذا كان يريد؟ قال لي: إن ثلوج البرناس قد لعبت دوراً أساسياً في هزيمته، وإن الطقس الرديء عموماً وقت المعركة كان متآمراً ضده مع (شارلمان)، وأنه لولا ذلك لكسب المعركة ومضى قدماً. قلت له: "إلى أين ياسيدي"؟ وبدا عليه أنه لم يفكر بهذا الأمر من قبل، فقد أخذته الدهشة من سؤالي، وحار في الإجابة عنه. قال: "قدماً". قلت: "قدماً إلى أين"؟. قال: "إلى الأرض التي أجدها أمامي".. منذ عشرين سنة وأنا أفكر بكتابة قصة عن عبد الرحمن الغافقي، حتى أني كتبتها مرة، وأعدت كتابتها، ثم مزقت ماكتبت بعدما اكتشفت أني أقلد قصة (الرُسُل السبعة) للكاتب الايطالي (دينو بوزاتي). هل قرأتِ هذه القصة؟ شيء لا يمكن أن يوصف بأقل من (خلّاب). لقد أثر بي هذا الكاتب على نحو لا أعرف أحياناً كيف أتخلص من تأثيره هذا علي، لقد عشت ليلة في صيف العام الفائت تستحق أن أكتب عنها حتماً. وكتبت. كتبت قصة بعنوان (الطريق إلى حلب). كنا نصور (صهيل الجهات)، وكنا قد انتهينا من تصوير أحد المشاهد على نهر دجلة عند الحدود مع تركيا والعراق. (سافرنا إلى نهر دجلة مرتين. بعد المرة الأولى رجعنا إلى دمشق في إجازة قصيرة، وبعد المرة الثانية انطلقنا إلى حلب، فقد كان موقع تصوير المشهد التالي في ضواحي عاصمة الشمال السوري). والمسافة بين الدجلة وحلب خمسمئة كيلو متراً أو نحو ذلك. انطلقت المجموعة على دفعات. كنت أنا في الباص الذي ضم مجموعة الفيلم الأساسية. وهو من نوع مرسيدس. انطلق هذا الباص على الحادية عشرة صباحاً. استغرقنا المسير إلى حلب أكثر من عشرين ساعة حافلة بكل أنواع الرؤى. أضعنا الطريق في النهار، ثم أضعناه في الليل. تهنا في الصحارى.

تعرضنا لأكثر من حادثة. وفي لحظة من اللحظات (الجميع في الباص نيام إلا أنا والسائق الذي كان متعباً إلى حد الإنهاك)، بتّ أشكّ أصلاً بوجود شيء ما على الأرض اسمه (حلب). وبتّ قانعاً بأننا نسير فقط، وأنه ليس من هدف أمامنا، وأن حلب من أساسها أكذوبة، وأن مسيرنا هذا ليس إلا حركة في الفراغ المطلق. حركة لا هدف لها، إلا إن كانت هي نفسها هدفاً. كان قد مضى على وجودنا في الصحارى والبوادي خمسون يوماً أو يزيد. ومجموعة الفيلم تموت من الإرهاق. كنا مثل المحكوم بالأشغال الشاقة. وحلب تعني بالنسبة إلينا جميعاً (الواحة) التي سوف نستريح أخيراً في أفيائها، وننعم بطراءة أماسيها الجميلة (حلب مدينة تعشق السهر)، ونمتع أبصارنا بحسناواتها.. وفجأة، إننا لا نصل إلى حلب. نام الجميع. تكوموا في المقاعد على بعضهم بعضاً. وأنا ساهر. وكلما لاحت لنا أضواء في البعيد قلت للسائق: "تلك هي حلب"، ثم إذ هي بلدة ما أو حتى قرية لا تلزمنا ولا نلزمها. واستسلمت أخيراً لتلك القناعة بعدم وجود هدف لرحلتنا. وصرت لا أبالي إلا بإبقاء السائق يقظاً خوفاً على أرواح من في الباص.. وأسوأ مافي الأمر هو أنني، لمّا وصلنا حلب أخيراً (على الثامنة صباحاً)، لم أشعر بأي فرح من أي نوع. سألت من كان في انتظارنا من مجموعة الفيلم: "أين سنقيم"؟. ذكروا لي اسم الفندق. إنه لا يعجبني. قلت للمجموعة: "إلى اللقاء"!. وذهبت إلى فندق فخم قريب، وحجزت غرفة، كنت من التعب بحيث لم أستطع أن أجامل موظفي الاستعلامات بعد أن عرفوا اسمي (بسبب التلفزيون، وليس الأدب)، صعدت إلى غرفتي، وارتميت على الفراش دون أن أبدل ثيابي. وسرعان ما نمت. استيقظت بعد ست ساعات تقريباً. استحمّيت بماء ساخن، وطلبت طعاماً إلى الغرفة، وأكلت، ثم نمت قرابة ساعتين نوماً عميقاً لم يوقظني منه إلا رنين الهاتف. كان ماهر على الخط. سألني الحضور إليهم على وجه السرعة. ذهبت. ثمة مشكلة ساهمتُ في حلها. وفي الليل جلست في غرفتي في الفندق، وكتبت (الطريق إلى حلب)، وقد أعجبني كثيراً ما كتبته تلك الليلة. غير أني، في صباح اليوم التالي، اكتشفت أني أقلد (دينو بوزاتي) في إحدى قصصه الخلاّبة، فمزقت ما كتبته في الليل، ولعنت اليوم الذي قرأت فيه قصص ذلك الايطالي، ولعنت وجدان التي حمّلتها مسؤولية إخفاقي في كتابة شيء ذي قيمة مذ ابتدأت المشكلات بيننا، وقررت العودة إلى دمشق ولو يوماً أو يومين لكي أضع نهاية لخلافاتي مع هذه المرأة. تلك الخلافات التي تجعلني مشوش العقل أبداً. غير أن ماهراً أصر على بقائي في حلب أسبوعاً آخر، وبخاصة أن عبد اللطيف كان غائباً. وماهر صديق لي ولعبد اللطيف، وهذا ما دفعنا إلى الوقوف بجانبه وهو يصنع أول أفلامه..

رضخت أمام إصرار ماهر على بقائي في حلب. لم أشاء أن أتخلى عنه في تلك المرحلة حيث كان ثمة صعوبات قد تعيق التصوير، ثم وما إن استقر الوضع، وجاء عبد اللطيف حتى ركبت أحد باصات النقل العام، ورجعت إلى دمشق: الأحد ٢٦/ ١٩٩٢/٧ وصلت البيت على الساعة الحادية عشرة صباحاً. والساعة الحادية عشرة من ذلك الصباح تحتل فصلاً كاملاً في رواية (الغفران) التي سوف أعيد كتابتها حتماً. كانت لحظة مميتة تلك التي فتحتُ فيها باب البيت وولجت إلى داخله. كانت وجدان تجلس خلف ماكينة الخياطة، وترتدي ثوباً عتيقاً لا أدري من أين استخرجته ولا كيف أنها ما زالت تحتفظ به. كانت قد نحلت كثيراً، وكانت تعتقد بأني لن أرجع إلى البيت، وبأني سأظل هارباً منها إلى الأبد. لحظة تعصر القلب. أتذكرها الآن بشيء من الحياد، وليس بالحياد كله. وأتساءل: هل حقاً أن وجدان كانت المسؤولة عن إخفاقي في كتابة شيء مهم مذ ابتدأت المشكلات بيننا؟! يبدو لي أحياناً أن بعضنا، وأنا أحد بعضنا، يحبُّ أن يرمي بإخفاقه على الآخرين، أو على آخرين بذاتهم، وعلى الأقربين منهم بشكل خاص. مرّت بي فترة كنت أحمّلك فيها مسؤولية كل البؤس الذي يقع لي. بل أكثر من ذلك: كل البؤس الذي يقع في العالم من أقصاه إلى أقصاه، بما في ذلك الكوارث الطبيعية كالأعاصير والزلازل والفيضانات والبراكين. حتى حادثة المفاعل النووي السوفياتي (تشيرنوبل) كنتِ أنتِ المسببة فيها. هكذا كنت أعتقد. ولكن ألا يحق لي مثل هذا الاعتقاد؟ فهل نصير قادرين على رؤية العالم إلا من خلال ذواتنا حين تكون ذواتنا قد صارت أسيرة موضوع واحد؟ صارت أسيرة إلى حد بات الفكاك فيه من الأسر حلماً يعز تحقيقه.. لست أدري لماذا كنت أتصورك في بعض الأوقات أميرة من أميرات بني أمية. للمناسبة، إنني أتصورك كذلك إلى اليوم، ولكن في مرات قليلة جداً. لعلني أتصورك كذلك بسبب الأنفة التي في وجهك، وقامتك، ومشيتك. ولست أدري لماذا أجدني مغرماً ببنات الأمويين، أو لماذا أتمنى لو أني عشت في زمانهن، ودخلت مخدع إحداهن ولو مرّة واحدة. حسناً. لقد كان الرجال من تلك الأسرة منشغلين ببناء الامبراطورية، بالسيف، بالدم، بالمكر، وبألف وسيلة تبرر غاية بذاتها.. على أية حال، لا أعتقد بأنه يمكن بناء الامبراطوريات عموماً بطريقة مختلفة. والامبراطورية لا يبنيها إلا رجال مثل معاوية وعبد الملك وهشام، وسواهم من رجالات تلك الأسرة العربية العريقة. ولا يمكن لرجال ذوي أعصاب مائعة ـ مثلي أنا مثلاً ـ أن ينجزوا عملاً بهذه الضخامة. إذن، كان رجال الأسرة منشغلين إلى حد بعيد بالحرب والسياسة. ولكن بماذا كانت بنات الأسرة ونساؤها منشغلات؟ وكيف كانت تبدو مخادعهن،

وأثوابهن، وحليّهن، وطيبهن؟ وقبل هذا: كيف هو قوام الأميرة الأموية؟ وكيف وجهها؟ كيف إن لم يكن بقوامك أنت، وعينيك، وأنفك، ورقبتك، وصدرك، وشفتيك، وجبهتك المتشامخة، وشعرك الأسود الغزير كالشلال؟ ليس لدي تصور آخر. صدقيني. كنتِ أنتِ اختصاراً لهن جميعاً. وكنت اختصاراً لعراقة النسب الذي لا نظير له في تاريخ العرب أجمعين، ولعلّك كنت الحفيدة الأخيرة لأبي سفيان. "ومن دخل بيت أبي سفيان فهو آمن". لكن، ومن جهة ثانية، وهذا اعتراف خطير مني: كنت أتصورك أحياناً امرأة لعوباً، تفرحين بشقاء من يحبّك من الرجال. ولعلّ هذه أيضاً صفة أميرية مبعثها الإحساس العميق بعراقة النسب الذي لا يضاهيك فيه رجل، فتدوسي عليه، أو تعبري من فوقه، وهذا أرحم العقاب طبعاً. ثم أليس هذا هو ما صنعته (ولّادة) بابن زيدون؟ والأمثلة المشابهة كثيرة. أعترف بأني تصورتك لعوباً يا فاطمة. وكان يزعجني، بل يؤلمني، أن أشكل عنك مثل هذه الفكرة. وهكذا فإن "من دخل بيت أبي سفيان فهو ضائع". ثمة أغنية كلماتها تقول: "حبيتك مثل ما حدا حب ولا بيوم رح بيحب". الأغنية لفيروز، وهي من كلمات وألحان ابنها (زياد الرحباني) الذي أظنه عبقرياً.. والآن: أعتقد أن كل إنسان يستطيع أن يفترض بأنه قد أحب كما لم يحب أحدٌ أحداً.. وأنا ايضاً أستطيع أن اقول: لقد أحببتك يا فاطمة كما لم يحب رجلٌ امرأة. غير أني لن أقول ذلك، فأنا لست أقدر على مقارنة حبي لك بحب رجل آخر لامرأة أخرى. والحب في العالم كثير. وبالتالي فإن العشاق كُثر. والكل يعتقد بأن حبه هو الأقوى. وهذا حق للجميع. ثم إننا لا نستطيع أن نكيل الحب بالميزان. لا نستطيع أن نقيس المشاعر الإنسانية بالسنتمترات الطولية. ولهذا فإنني لن أقول: أحببتك كما لا ولم يحب أحدٌ أحداً. ولكني سأقول: أحببتك يا فاطمة. أما أنت.. لست أدري. قد تقولين: وأنا أيضاً أحببتك يا حسن. وقد تقولين أكثر من ذلك، أو قد تقولين دون ذلك. لست أعرف كيف ستبررين ما حدث بيننا سابقاً. أعرف الخطوط العريضة لمبرراتك. تذكرين طبعاً رسالة كتبتها إليّ في مطلع عام ١٩٨٢، لم أعد أتذكر تفاصيل ما ورد في تلك الرسالة، ثم إنني لم أحتفظ بها منذ زمن بعيد. مزقتها، وبالأصح: أحرقتها.. (بعد عودتي من بيروت في أواخر صيف العام ذاته، أي بعد انتهاء الحرب أحرقت مجموعة كبيرة من الأوراق، بما في ذلك مشاريع أدبية، وبما في ذلك رسائلك القليلة أيضاً. كان عندي إحساس باليأس المطلق بعد تدمير بيروت، فأحرقت كل ما كنت أعتبره كنزاً أدبياً مخبوءاً).. أعود إلى الرسالة. تفاصيلها ليست عالقة في ذاكرتي الآن على نحو طيب، غير أنها في عموميتها، شيء من التبرير لما حصل بيننا في الصيف الذي سبق كتابتها. وقد

أجبتك على رسالتك تلك في حينها برسالة آلمتك ألماً شديداً كما كتبت تقولين لي بعد أكثر من إحدى عشرة سنة. ولست أدري إن كنت تحتفظين برسالتي إلى الآن. أتذكر أني شتمتك فيها، ووصفتك بأبشع الكلمات في قواميس العرب بدءاً من (الصحاح) وانتهاء بـ(المحيط). واعترفت في رسالتي تلك بأني غرقت بعدك في المجون مع بنات الهوى، وقلت إن العلاقة ببنات الهوى أفضل، وأرحم من العلاقة بك، فهي، على الأقل، لا تفتقر إلى الوضوح أو إلى الصراحة التي افتقدتها علاقتنا في ذلك الوقت على نحو بشع.. وأرجو منك الآن ألا تسيئي فهمي ثانية، فإنني لا أحمّلك مسؤولية الفيضانات التي اجتاحت جزيرة كورسيكا هذا اليوم. ومن الطبيعي أنني لا أحمّلك مسؤولية رغبتي، التي صرت أعجز عن مقاومتها، بأنثى حمقاء حلو ة. إنني لا أحمّلك مسؤولية شيء من هذا أبداً، فلا تغضبي، واتركيني أسترسل في كتابة هذه الرسالة إليك وهو الأمر الذي لم أعرف كيف أنجزه من قبل، بل إنني حتى لم أعرف كيف أبدأ به على نحو سليم. عندما حملت ليالي رسالتك الشفوية إليّ، كنت واقعاً تحت تأثير مجموعة من المشاعر المتناقضة. كنت أعاني قلة التركيز بسبب فوضى المشاعر وتنافر الرغبات. باختصار: لم أكن على شيء من انسجام. ولهذ أسرعت بالردّ على رسالتك (لست نادماً على ذلك طبعاً)، وأسرعت إلى تعرية روحي أمامك، وإلى نزع قشورها عن جوهرها (ومرّة ثانية لست نادماً على ذلك). ليس الندم ما يشغل بالي هذه اللحظة، وليس هو ما أفكر به، بل إنه ـ أي الندم ـ فقد وجوده عندي بالعلاقة معك تماماً. لكن ذلك التسرع حرمني فرصة إنجاز الرسالة إليك. أو أنه لم يحرمني الفرصة بل عمل على تأجيلها فقط. ويبدو لي الآن أن الفرصة باتت سانحة لذلك من جديد، وأعتقد بأن من الأفضل لي أن أتمسك بها هذه المرّة.. أتذكر اثنين من شجاراتنا، بل إننا لم نتشاجر سوى مرتين. كنت أنا مسؤولاً عن أحد ذينك الشجارين. تأخرت عن موعد بيننا. تأخرت كثيراً، وفي الحقيقة أنه كان لدي في ذلك بعض الأسباب الموجبة وقتئذٍ، فأنا شخص دقيق في مواعيده بوجه العموم، لكن ظرفاً طارئاً جعلني أتأخر عن موافاتك ذلك اليوم. أتذكر ثورتك وأتذكر صمتي أمامك، لم أدافع عن نفسي، شرحت لك أسباب تأخري. لم تقتنعي، فاعترفتُ لك بالذنب، ورضيت بقسوتك عليّ طائعاً. تلك كانت المرّة الأولى، أو الشجار الأول (مع أنه كان شجاراً من طرف واحد). ولكن ماذا عن الشجار الثاني؟ ماذا عن المرّة الثانية؟ هل تتذكرين؟ كان بعض أصدقائك أنت سبب ذلك الشجار. أصدقاؤك أنت وليس أصدقائي أنا. وإن لم يكونوا أصدقاءك فإنهم زملاؤك. لقد لزقوا بنا تلك السهرة. تتذكرين تلك الليلة طبعاً. وتتذكرين أولئك

الناس حتماً. تتذكرين سعاد على نحو خاص. وتكتبين إلي بعد حوالي اثنتي عشرة سنة تلومينني على سوء الفهم الحاصل بينها وبيني، وتحمليننني مسؤولية ما قد وقع. كيف ذلك؟! إنني لا أفهمك حقاً يا فاطمة. فأنت السبب في الأمر الذي تسمينه (سوء فهم) بيني وبين البنت التي لا أعرف كيف ومتى صارت صديقتك. وفي الحقيقة أن عبارة (سوء فهم) غير صحيحة. حتى أنني أجد فيها نوعاً من الخداع اللغوي. على أية حال، لست أسعى الآن إلى نبش ملف سعاد، ولكني أحب أن تعرفي بأني لم أعلم بشيء من الاتصالات التي جرت بينكما إلا منك أنت. وهذا شيء مؤسف، ومؤلم. مؤلم جداً. وبعيداً عن الألم أقول: هذا إثبات جديد على أن "صديقتك" بنت سيئة. فقد كان في مقدورها أن تأتيني وتقول لي: لم أحضر إليك من أجل مصالحتك فأنا غاضبة منك وسوف أظل غاضبة، ولكن عندي لك رسالة شفوية من فاطمة. ألم يكن ذلك في مقدورها؟ ولكنها لم تفعل. فلماذا؟ لا بأس يا فاطمة. لا بأس يا صديقتي. أعود إلى شجارنا الثاني، وأصدقائك. هل تتذكرين؟ همستِ لي أن أتصرف: أن أتخلص منهم. بل إنك لم تهمسي لي بالأمر، وإنما كتبت ذلك على قصاصة ورقية كانت أمامك على الطاولة (أظنها محرمة ورقية). وأنا لم أكن أعرف كيف أتخلص منهم، فهم ليسوا موجودين أصلاً بسببي أو من أجلي أنا، بل بسببك ومن أجلك أنت. وكان الأجدى بك أن تتصرفي بدلاً من أن ترمي عليّ لاحقاً (بعد أن صرنا وحدنا) بمسؤولية إضاعة السهرة مع أشخاص نحن في غنى عن رفقتهم. وهذا ما قلته لك. وهذا ما جعلك عصبية. وهذا ما جعلني لا ألوذ بالصمت. وتصاعدت لهجة كل منا، وتعقد الموقف، وتأزم، وكدت أتركك وأمشي مع أن الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحاً. أتذكر بين كل الذي قلته لي خلال ذلك الشجار عبارة معينة. وأظن بأني سوف أظل أتذكرها حتى أموت. عبارة واحدة بذاتها، قلت لي وأنت في أوج غضبك عليّ، وأصر على أنه لم يكن لذلك الغضب ما يبرره: "يبدو أنك لا تعرف بعد من أنا. يبدو أنك لا تعرف بعد من هي فاطمة".. لم يكن يخفى عليّ بالطبع أنك امرأة جميلة، وفيك تتوافر جميع الصفات التي تستخدمها اللغة العربية بوصف المرأة عند الحديث عن محاسن قوامها، أو عينيها، أو أنفها، أو صدرها، أو شفتيها، الخ.. وأستطيع الآن من فوري أن أسرد قائمة طويلة من محاسن قامتك ووجهك: هيفاء، ميلاء، وطفاء، دعجاء، لمياء، ... الخ. وأسمح لنفسي بالشك تماماً في أنك كنت تلّمحين إلى جمالك بعبارتك تلك. وذلك لسبب بسيط هو أنني لست رجلاً قبيحاً، بل يمكن اعتباري وسيماً على نحو من الأنحاء. وربما كان هذا أحد الأسباب التي جعلتني مقبولاً من النساء عموماً. إذن، فأنت لم

تكوني تقصدين بعبارتك تلك شيئاً من قبيل: "إن لي عليك منّة إذ أرضى بصداقتك". أسمح لنفسي بالشك في مثل هذا التفسير، بل إنني أعتبره تفسيراً سطحياً. ولهذا أجيز لنفسي الغوص في أعماقك واستخراج المغزى الحقيقي من وراء تلك العبارة: إنها الأنفة، ولا شيء سوى الأنفة التي مصدرها ذلك الإحساس، غير القابل للتزعزع، بعمق الانتماء إلى عراقة النسب. كنتِ كمن يقول لي: أنا كريمة الجدود، فمن تكون أنت؟! وفي هذا المجال تكونين قد أصبت كبد الحقيقة. فمن أكون أنا؟ من يكون جدودي الأبعدون؟ جدي الأول، ربما كان أحد أولئك الجنود الذين جاؤوا من أوروبا وحاربوا العرب بسلاح الصليب. أقول: ربما. ومن دون ربما أقول: إنني لست سوى لاجئ من أرض فلسطين حكموا عليه بالتشرد الأبدي. طفل حديث الفطام، عمره سنتان أو ثلاث، اتفق ضده أباطرة عصره: ترومان، ستالين، تشرشل، أو ونستون تشرشل أو: W.C كما يسميه بعضهم. جميع هؤلاء الأباطرة اتفقوا ضد ولد في الثانية أو الثالثة من عمره، فطردوه من أرض آبائه وأجداده (حتى لو كانوا صليبيين)، وأعطوا تلك الأرض لأحفاد (روتشيلد) الذي يقال إنه أغنى رجالات الدنيا. ثم كان على ذلك الولد أن يواجه المرض، والجوع، والفاقة، واليتم المبكر، فقد مات أبوه وهو في الثامنة من عمره وكان على ذلك الولد أن يقاوم ما يتربص به من ذل، وحرمان، وكراهية الآخرين الذين أبدو فرطاً في الحماس لإلغاء فلسطين من الخرائط بعد ولادة "اسرائيل" المباركة، وأن يكبر مع الأيام في المنافي، ويدرس، ويشتغل، ويعيش، ويلتقيك ذات يوم ربيعي في غرفة لم يسبق له أن دخلها من قبل، وأن يتشاجر معك بعد ذلك اللقاء بأيام قليلة، وأن يسمعك تقولين له: "يبدو أنك لا تعرف بعد من هي فاطمة"، وأن يعترف لاحقاً بجهله بك وقتئذٍ، وأن يعترف بتعلقه بك بعدئذٍ، وبحبه لك كما لم يحب امرأة في حياته، بل ويعترف بأنه كان مريضاً بك، وما زال، كما قالت وجدان أكثر من مرّة.. عندما سافرتُ إلى الجزائر، فقدت وجدان عقلها. كانت تعتقد بأني ذاهب إليك فقط. ولم أكن قادراً على إقناعها بأن الجزائر شيء والمغرب شيء آخر، وبأني لن أتابع طريقي إلى الدار البيضاء. ولمّا رجعتُ تشاجرنا أنا وهي. قلت لها: "إنني لم ألتق فاطمة وإنني لم أسع جاداً إلى لقائها". ولم أعترف لها بخوفي منك. ذلك الخوف الذي منعني من خطوة جادة للقائك. ولم تصدق ما قلته لها. وتشاجرنا، هي تعرف قصتي معك منذ البداية. أو من قبل البداية. أقصد من قبل الزواج. كنت قد حدثتها عنك، وعن مقدار الألم الذي عانيته بسببك، فأشفقت عليّ (هذا ما أظنه)، وقالت لي: "سوف أجعلك تنسى فاطمة. هذا وعد". ثم إذ بها لا تفي بالوعد الذي قطعته لي. وفي الحقيقة أنني

أنا نفسي لم أساعدها في ذلك. قالت لي مرّة (قبيل الطلاق): "أعرف بأنك تحبني. ولكني أعرف بأن درجة حبك لي ثانية، فأنت تحب فاطمة أولاً". وقالت: "ليتني كنت فاطمة"!. وفي مرّة بعيدة نسبياً قالت لي: "أنت مريض يا حسن. أنت مريض بهذه المرأة".. أتذكر أواخر العام ١٩٨٩ . لقد تشاجرت معها. حتى أنها تركت البيت فترة طويلة: عشرين يوماً أو أكثر. كان ذلك بعد مهرجان دمشق السينمائي السادس، وبعد أن فزتِ بجائزة أحسن ممثلة. كانت علاقتنا أثناء المهرجان من أروع ما يكون. أما بعد إعلان النتائج، وبعد مأدبة العشاء التي أقيمت تكريماً للوفود المشاركة، وبعد أن رجعنا إلى البيت، قلبت الدنيا على رأسي. اتهمتني بأنني (بصفتي عضواً في لجنة التحكيم) كنت وراء هذه الجائزة، وأن الجائزة بذاتها ليست إلا رسالة حب إلى فاطمة. قضينا الليل في شجار. وفي الصباح تركت البيت. التقيتها بعد أيام في المؤسسة (كانت تشتغل هناك). لم تكلمني. ناولتني ورقة، وانصرفت. أظن بأني ما زلت أحتفظ بهذه الورقة التي جاء فيها: "أعرف أنك تريد أن ترجع إلى فاطمة، فارجع إليها، ولكني أرجو أنها لن ترميك كما رمتك من قبل". انظري إلى الفعل الذي استخدمته: (رمى). لم أعلق على رسالتها بشيء. طويتها، ووضعتها في جيبي، وانصرفتُ. خرجت من المؤسسة. ثم سرعان ما رجعت إلى هناك بعدما تذكرت بأنها لا بد مفلسة. وهي دائماً مفلسة. هي امرأة كريمة، ولكن من دون تبذير. تركت لها مع أحد الأشخاص مبلغاً من المال يكفيها لشراء ما تحتاجه من ملابس شتوية، فقد تركت البيت دون أن تأخذ شيئاً من أغراضها. حتى أني، عندما التقيتها، كانت ترتدي ثياب إحدى أخواتها.. وبعد تلك الحادثة بيومين أو ثلاثة سافرتُ إلى القاهرة. إلى المهرجان، وأتذكر أني اشتقت إليها وأنا هناك. اشتريت مجموعة من الثياب والأحذية النسائية. وفي طريق العودة، اشتريت كمية كبيرة ومتنوعة من الشوكلاته السويسرية، فهي تحب الشوكلاته السويسرية. اشتريتها من السوق الحرة في مطار عمان. لم يكن في ذلك الوقت طيران مباشر بين دمشق والقاهرة بسبب القطيعة السياسية القائمة بين البلدين الشقيقين منذ اتفاقية (كامب ديفيد) بين مصر و"اسرائيل". وعندما رجعت إلى البيت عند الواحدة ليلاً وجدتها في انتظاري. قالت: "أنا أسفة". وقالت: "اشتقت إليك". وفوجئتُ بحجم الهدايا التي أحضرتها لها. قلت: "كنت أعرف بأني سأجدك في البيت حين عودتي". وقضينا ليلة ممتعة، أو حتى ممتعة جداً. وفي أوج تلك المتعة سألتني: "هل كانت فاطمة موجودة في القاهرة"؟. قلت لها: "لا". وقلت في نفسي: ليتها كانت موجودة! وعشنا بعد ذلك فترة من الهدوء أو الهدوء النسبي.. عندما كنت تغيبين عنا، على نحو أو آخر، لسبب

أو آخر، كانت وجدان تعمل على استعادتك إلينا. إذ طالما سألتني عنك فجأة. أكون جالساً إلى الطاولة أكتب مثلاً، أو أكون صافناً في أمر ما، وإذ بها تطرح عليّ سؤالاً على علاقة مباشرة بك. كان يهمها أن تعرف إن أنت مثلها جميلة. وفي الحقيقة أنني لم أحب يوماً أن أقارن بينك وبينها. وكانت تغتاظ مني بسبب هذا الموقف. وفي بعض المرات، تكشر عن أسنانها، كما يفعل الأطفال الغاضبون، وتقول متوعدة: "طاب الموت"!، وتهجم عليّ، وتطبق بأصابعها حول رقبتي، وتأمرني بالاعتراف. إنها حقاً طفلة! وكنت أقول تحت إلحاحها: "بصراحة يا وجدان أنت أجمل". فتفرح، وترفع يديها عن رقبتي، وتصفق من نشوة النصر.. أظن بأنها لم تكن تحب أن تعيش من دونك. أو: لم تكن تستطيع أن تعيش من دونك.. أتذكر رحلتنا إلى القاهرة في أواخر عام ١٩٩١ كانت المؤسسة تشارك بوفد صغير في مهرجان القاهرة السينمائي، ريمون وأنا.. وأنا لم أكن أرغب بالسفر وقتئذٍ، ولكن وجدان تموت شوقاً لزيارة القاهرة، فقلت في نفسي: لا بأس يا ولد، سافر من أجل وجدان على الأقل. سبقني ريمون إلى القاهرة بثلاثة أيام أو أربعة ورجع قبلي إلى دمشق بثلاثة أيام أو أربعة.. أتذكر يومي الأول مع وجدان هناك. يوم جمعة. وصلنا مطار القاهرة بعيد الظهر، ووصلنا الفندق قبيل العصر (فندق ماريوت). استحمّينا، ونزلنا إلى المطعم لتناول وجبة الغداء. كنا جائعين جداً. لم نأكل في الطائرة، ولست أدري لماذا. حتى أننا خرجنا من بيتنا في الصباح دون طعام فطور، ولست أدري لماذا أيضاً. كان المطعم المخصص لضيوف المهرجان صغيراً. والضيوف كلهم جياع في تلك الساعة كما بدا لي. طلب إلينا النادل أن ننتظر خارجاً إلى أن تشغر إحدى الطاولات. أتذكر أننا وقفنا في الممر بجانب نافذة قريبة. وضعت وجدان يديها على كتفي الأيسر، وأراحت هناك خدها الأيمن. قلت: "ماذا؟ هل رأسك تؤلمك"؟. قالت: "لا. إني جائعة فقط". قلت: "تبدين مريضة". قالت: "بصراحة؟. إنني أفكر بفاطمة. أليس من المحتمل أن تكون موجودة في المهرجان"؟. قلت: "لا أعرف". قالت: "سوف أسأل عنها بعد الغداء في قسم الاستعلامات". (وقد سألت عنك لاحقاً، وبدت خائبة حين أخبروها بعدم وجودك). وفي اللحظة ذاتها ـ ونحن ننتظر أمام المطعم ـ جاءتنا دعوة من (جمعية اصدقاء نجيب محفوظ) إلى حضور حفل يقام في مساء اليوم نفسه بمناسبة الذكرى الثالثة لفوزه بجائزة نوبل، أو الذكرى الثمانين لميلاده. نسيت. على أية حال، اعتذرنا عن الحضور لأننا مدعوان في المساء إلى سهرة يقيمها منير راضي احتفاء بنا. إنه من اصدقائي. هل تعرفينه؟ مخرج فيلم (أيام الغضب). كان الرجل في انتظارنا على المطار. وأوصلنا إلى الفندق بسيارته.. سهرنا

تلك الليلة في أحد المطاعم (عوامة في النيل) حيث ثمّة فرقة موسيقية، ومطرب يغني: أنا كنت بحب المشمش، دلوقت بموت بالمانجا.. قلت لوجدان: "أليس من الأفضل لك لو قضيت السهرة مع نجيب محفوظ"؟. قالت: "ولماذا أسهر مع كاتب عجوز ما دمت قادرة على السهر مع كاتب شاب؟ ثم بصراحة، إنني أريد أن أرقص". قال لها منير: "لا أنصحك بذلك، فهذا غير مستحب هنا عموماً". فزّمت شفتيها، وقالت: "ليتنا كنا في حلب الآن! كنت رقصت حتى الصباح". وبدا عليها بعض الاكتئاب. قلت لها: "لا تحزني. نسهر غداً في الديسكو، وترقصين". وصمتت طويلاً قبل أن تقول: "لو أن فاطمة موجودة"!. كانت على استعداد لأن تخترعك اختراعاً لأنها لا تستطيع العيش من دونك أو من دون سيرتك حتى لو انتهت بنا سيرتك إلى الشجار واحتمالات الطلاق كما حدث في أواخر عام ١٩٨٩ ، أو في مرات أخرى قبل ذلك التاريخ وبعده. لست أدري كيف ستعيش مستقبلاً بعد أن تتزوج. ما عدت رأيتها. ولا أعرف إن جاء خطيبها من كندا أم لا. أظنه جاء في الوقت المحدد، وأظن بأن الخطوبة قد تمّت أو على وشك أن تتم. ولكني لست أفهم حقاً كيف ستعيش من دونك، فأنت الأوكسجين الذي تتنفسه رئتاها. هذا ما أؤمن به. وسيرتك هي المفضلة لديها، حتى لو كانت تنتهي باحتمالات الطلاق. هذا ما حدث في عز صيف ١٩٨٩ مثلاً. وقبل أن أحدثك عما جرى في عز ذلك الصيف، سأروي لك تفصيلاً من زمن (التطليق). زارتني وجدان مرة أثناء تصوير فيلم (صهيل الجهات). كنا قد صرنا في مدينة حمص وسط سورية. حدث هذا بعد إشهار الطلاق بأسبوع تقريباً. جاءتني مريضة، شاحبة، ومحبطة. دخلت غرفتي، ولم تعد ترغب بالخروج منها. لا تريد أن تقابل أحداً من الناس الذين تعرفهم. ولمّا علم بعضهم بوجودها، وجاء من أجل السلام عليها، تظاهرت بالنوم.. جاءتني ببعض الثياب. كنت قد غادرت دمشق، بعد الاتفاق على إشهار الطلاق، بحقيبة صغيرة أعلقها على كتفي. وفكرت لحظة مغادرتي البيت بشراء ما أحتاجه من ثياب في حلب أو حمص أو اللاذقية.. والثياب التي جاءتني بها حجّتها في الزيارة. حجّة ساذجة طبعاً. كانت ما تزال تأمل بإصلاح ذات البين، وتسعى إلى ذلك. وكانت أيضاً تريد أن تعرف إلى أين وصلت أموري معك. سألتني عنك. قلت لها: "فاطمة خارج الموضوع تماماً، وإنني لا أسعى إلى الطلاق معك من أجلها أو بسببها". وأقسمت لها بدماء كل شهيد على أنه ليس بيني وبين فاطمة أي اتصال من أي نوع. ولم تصدقني، رغم أنها تعلم بأني لا أقسم بدم الشهداء كاذباً. كانت تعتقد بأني التقيتك لما جئتِ إلى دمشق قبل شهرين من ذلك التاريخ أو ثلاثة. قالت:

"على كل حال، إذا كنت لا تتصل بها، فهذا خطأ آخر ترتكبه. أظن أن من الأفضل لو تتصل بها، ومن الأفضل لو أنها تجيء إلى هنا، ونعيش نحن الثلاثة معاً". وكانت جادّة في اقتراحها وصادقة. ومشكلة وجدان عموماً أنها صادقة. تصوم وتصلي بصدق. وترتدي تنورة قصيرة بصدق أيضاً. تفعل ذلك، في كلتا الحالين، بقناعة ورضا. تناقضها صارخ في صدقه. وهذا ما يزيد في عدم فهمي لهذه المرأة. إنها شخصية غنية جداً. وكم كنت أحب أن أكتب عنها للتلفزيون من دون وجود أولئك الرقباء المنتشرين في جميع محطات التلفزة العربية. ومن دون وجودهم في رأسي أولاً. أظن بأني كنت سأصنع مسلسلة ممتعة، لأن وجدان نفسها غنية في تناقضاتها، وعليّ أن أعترف قبل هذا بأنها - في العلاقة معي - كانت متفانية. كتبتُ لك قبل أسبوعين تقريباً بأن حبي لها قد تبخر حتى آخر قطرة منه. لكنني تساءلت مراراً خلال هذين الأسبوعين: هل أنا أستحقها أصلاً؟ هل كنت أستحق هذه المرأة التي كم تحملتني؟! كم تحملت أوجاعي، ومسوّداتي غير القابلة للقراءة، وأدويتي، ونزقي، وسجائري، وكحولي، وأصدقائي، ومزاجي المتعكر غالباً!! المسكينة كم تحملت! ومع ذلك.. تقترح بأن نعيش نحن الثلاثة معاً! وما الذي يجعلها ترضى بشيء من هذا؟ لقد آلمني كثيراً، خلال زيارتها لي في حمص، أن أراها ذليلة كما كانت تلك الليلة. لم يكن بعد ذلك الذل من ذل. أبداً. أهو الحب؟ لا أعرف. أو ربما ليس الحب أصلاً. ربما كان شيئاً ما آخر عصيّاً على الفهم. وربما كان ذلك الشيء هو أنت. أنت تحديداً. ولهذا قلت لك قبل قليل إنها لن تستطيع العيش من دونك. لقد صنعت لنفسها صديقاً اسمه فاطمة. صنعت لنفسها عدواً اسمه فاطمة. صنعت لنفسها هدفاً اسمه فاطمة. لكنه هدف غائم. ضبابي، ولهذا، ولهذا بالذات، يصير أجمل، وأحلى، وأحب. إنه الصديق المجهول، والعدو المجهول أيضاً. باختصار: إنه القدر. ووجدان تؤمن بالقدر فهي امرأة متدينة إلى حد لا بأس به. وتؤمن بأنك أنت قدرها. ولهذا ايضاً أشك في أنها سوف تعرف السعادة بزواجها القادم، حتى لو أنجبت طفلاً. بل إنني صرت على قناعة بأن الطفل - إن جاء - سيكون عاملاً إضافياً في شقائها، لأنه سوف يكون عبئاً عليها، فهي في الحقيقة لا تريد طفلاً (كما كانت تدّعي لما كنا متزوجين)، بل تريد شيئاً آخر، لعلّه الهوى الذي غايته الموت.. قالت لي مرة: "إنني أكره كل بنت اسمها فاطمة". وقالت لي في مرة ثانية: "صرت أحب فاطمة". الحب، الكراهية. هذا التناقض، أليس هو قوام الهوى؟ إن رنّ جرس الهاتف في بيتك يوماً، وجاءك صوت وجدان فلا تسمحي للدهشة بأن تأخذك لحظة واحدة. لقد أمسكت بيدي ذات نهار من شهر (أوت) الأخير، لكي نتصل بك

هاتفياً. قالت لي: "أنت لا تتصل. أتصل أنا. أعطني الرقم فقط". حدث هذا بعد أن انقضى أكثر من عام على الطلاق. أترين؟ ومن قبل، عندما علمت بأنك كنتِ موجودة في دمشق، راحت تسأل من التقاك هنا، عنك طبعاً.. "كيف تبدو؟ هل تعرف اللغة العربية مثلنا؟ ما قوامها؟ ما لون عينيها؟ ما شكل أنفها؟ وهل حقاً أن شعرها كالشلال"؟. طرحت أسئلة أخرى كثيرة. كانت تريد أن تشكل صورة عن قدرها الذي هو أنت. ولست أظن بأنها شكلت صورة صحيحة عن ذلك القدر، لأنها ـ في القرارة من نفسها ـ لا تريد أمراً كهذا. بل تريد أن يظل كل شيء عنك ملفوفاً بغلالة من ضباب، وإلا فقد كل شيء قيمته.. عندما طبعت رواية (الفلسطيني) على الآلة الكاتبة (لولا وجدان ما رأى هذا الكتابُ النورَ. أعترف بذلك، بل وأعترف بما هو أكثر منه، فأقول: لولا وجدان لما نشرتُ شيئاً مما كتبت في حياتي، لأنها هي التي أنقذت مسودات (الفلسطيني) من النار)، شعرت بالغيرة من بطلة الرواية، رغم أن تلك المخلوقة تستحق الرثاء. لكن وجدان تفترض أن البطلة هي أنت ما دام اسمها فاطمة. وشعرت بالكراهية لتلك الشخصية أيضاً، أو لك أنت. لكنها من جهة ثانية، كانت شديدة الإعجاب بها، كان إعجابها بفاطمة يصل إلى درجة الحسد منها، أو منك أنت. قالت لي مرة: "أظن بأني أستأهل أن تكتب عني أنا ايضاً". قلت: "ماذا تقصدين بكلمة أيضاً"؟. قالت: "أقصد فاطمة".. لست أدري لماذا أجدني منساقاً للكتابة عنها هذه الليلة. لعلها استراحة المسافر! أو نوع من كشف الحساب مع الذات. تساءلت مراراً خلال الأسبوعين الفائتين إن كنت أستحق هذه المرأة أصلاً؟ إن كنت أستأهلها؟ استعرضت شريط حياتنا معاً أكثر من مرة. استوقفني أكثر من مشهد. أكثر من محطة. استوقفني اليوم الذي جاءني فيه نبأ وفاة أخي (أبو النور). كنا معاً أنا وهي في القاهرة. في الفندق. في الغرفة. كان نهاري ذاك متعكراً مذ استيقظت على الساعة العاشرة صباحاً من دون وجود سبب مباشر لذلك. حتى أن اليوم الذي سبقه كان في غاية الجمال. سألتني وجدان عن أسباب تعكر مزاجي. قلت: "صدقيني يا وجدان أني لا أعرف لماذا. لكن قلبي يوسوس لي بشيء ما غير مريح". قالت: "مثل ماذا"؟. قلت: "لا أعرف". قالت: "تعال نخرج من الفندق لعلك تصير أحسن". وخرجنا. ومشينا طويلاً. ذهبنا إلى مركز المدينة. قالت لي: "ما دمنا في قلب الأسواق فما رأيك أن نشتري الهدايا التي أفكر بشرائها". كانت تريد أن تشتري هدايا لجميع الإناث من أهلي وأهلها وصديقاتها، بل حتى زميلاتها في الشغل. قلت: "تعالي". وابتدأنا نتفرج. هذا الحذاء يناسب فلانة. وهذه الحقيقة تناسب علّانة، ... الخ. وسرعان ما بدأتُ أضجر. قلت

لها: "أخشى يا وجدان أن نتشاجر هذه اللحظة، فقد أخذ مزاجي يتعكر، لهذا أرجو أن تعفيني من هذه المهمة. تستطيعين في يوم آخر أن تنزلي إلى السوق مع غادة، وتشتري كل ما ترغبين بشرائه". قالت: "حسناً، سوف أؤجل شراء الهدايا إلى وقت آخر. ولكني سأشتري لك بعض الأحذية.. الآن". قلت: "حتى ولا هذه. بل نرجع إلى الفندق فوراً". ولم تفهم لتعكر مزاجي سبباً. أنا نفسي لم أكن أعرف السبب. رجعنا إلى الفندق. قالت: "نتغدى في المطعم". قلت: "لا أرغب بلقاء أحد ممن أعرف. نطلب الغداء إلى الغرفة". صعدنا إلى غرفتنا، وطلبتُ من (خدمة الغرف) طعاماً لشخصين. وجاءتنا صينية كبيرة بصحون كثيرة متنوعة. واكتشفتُ أني راغب عن الطعام، فما كان من وجدان إلى أن أضربت عن الطعام أيضاً. قالت لي: "النوم خير وسيلة لاتقاء شرك". ونامت. وأنا لم أكن أستطيع أن أنام. شغلت التلفزيون. ثمّة بث مباشر. مباراة بكرة القدم. اكتشفت أني لا أحب كرة القدم.. وهذا غير صحيح. أطفأت الجهاز، وارتميت على السرير، دخنت عدداً من السجائر. كنت أشعل سيجارة من سيجارة، وأنتظر رنين الهاتف. كنت على يقين بأنه لا بد أن يرنّ أخيراً، ويحمل إلي خبراً لن أسمعه في حياتي مرّتين . وكان عليّ أن أستعد لمواجهة ذلك الخبر، وأن أتحلى بالشجاعة لمواجهة الألم الذي سينجم عنه، مهما كان ذلك الألم كبيراً. ولا بد من أن يكون كبيراً لأن المصاب كبير. كان لا بد من أن أرفع السماعة، وأنصت إلى محدثي على الطرف الآخر، وأسمعه يقول لي: "مات أبو النور". كيف أصف لك هذا الرجل؟ كيف أصف لك الأخ الذي أكاد لا أعرفه؟ قد تستغربين هذا القول، ولكن.. إنها الحقيقة. وإليك الدليل: عندما كان في الخامسة عشرة من عمره ترك البيت. ذهب إلى الأردن. أقام في القدس (كانت ما تزال مدينة عربية). عبر من القدس إلى المحتل من فلسطين. ومن هناك ذهب إلى غزة. وأثناء وجوده في غزة قامت الحرب (العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦). ترك غزة. عبر سيناء إلى قنال السويس. وأفترضُ أنه قاتل الانجليز في بور سعيد. هو لم يكن يتبجح بشيء من ذلك. غاب عن البيت عشرين شهراً. ولمّا رجع إلى سوريا لم تعجبه حياتنا، فما كان منه إلا أن تركنا من جديد. رجع إلى مصر. رجع في باخرة أقلعت من ميناء اللاذقية. لم يكن يعرف في ذلك الوقت شيئاً اسمه جواز سفر. لكنه، على الدوام، كان قادراً على تدبر أموره عند مختلف أنواع الحدود. لم تطل إقامته في مصر. ذهب إلى ليبيا، ومن هناك عبر إلى الجزائر. وأفترضُ أنه قاتل الفرنسيين في الجزائر التي أقام فيها إلى ما بعد الاستقلال. بعد الجزائر عاد إلى سوريا من جديد. وفكر بالاستقرار هنا. لكن فكرته تلك سرعان ما تلاشت. كان يصعب على رجل

مثله تقبل فكرة الإقامة في مطرح واحد. ولهذا كان دائم التسفار. وتلك هي أكبر مشكلاتي مع أخي. كان عليّ بين فترة وفترة أن أجدد معرفتي به. ما إن أتعرف عليه حتى يتركني. وحين يرجع إلينا بعد سنة أو سنتين يصير لزاماً عليّ أن أعرفه من جديد. وما إن أعرفه حتى يغيب ثانية. وهكذا لم نستطيع أن نتعارف أنا وهو إلا في السنوات العشر الأخيرة بعد أن انهكته الحياة، وكادت أن تلزمه الفراش، ولكن حتى خلال هذه السنوات ذاتها غاب عن البيت فترات طويلة قضاها بين أوروبا وأفريقيا.. بعد أن رجع من الجزائر. اشتغل في مهن كثيرة. ولم يكن راضياً. كتبتُ لك مرة: "أكبر مشكلاتي في الحياة هي انعدام الرضا". وأعتقد الآن بأن هذه المشكلة لديّ بالوراثة. لعل أبي أيضاً كان يفتقر إلى الرضا. ولهذا السبب انفجر دماغه وهو في الرابعة والثلاثين من عمره. لعله كان يفتقر إلى الرضا حقاً، شأنه شأن (أبو النور) الذي عاد وترك سوريا في أواسط الستينات. وكان لديه هذه المرة سبب وجيه، أو حتى أكثر من وجيه. اعتقلوه في مطلع عام ١٩٦٥ ، وزجّوا به في أحد السجون العسكرية، بتهمة مقاومة النظام الحاكم.. ولكنهم لم يعرفوا أين يصنفونه. في أية خانة يضعونه. في أي حزب. في أي تنظيم.. (إخوان مسلمون). (الحزب الشيوعي). (القوميون السوريون). (حركة القوميين العرب). ماذا بعد من قوى سياسية في ذلك الوقت على الساحة؟ لم يعرفوا أين موقعه. وكان من المحال أن يعرفوا ذلك، لأنه ـ ببساطة شديدة ـ لا ينتمي إلى أي من هؤلاء. لأنه ـ وببساطة شديدة أيضاً ـ ينتمي إلى نفسه. ينتمي إلى القلق وانعدام الرضا. قضى في السجن ستة شهور. يبدو أنهم عذبوه خلالها. وعندما أفرجوا عنه أخيراً ترك البلد من فوره. ذهب إلى بيروت. مدينة المنبوذين. مدينة من لا مدينة له. رجع إلى سوريا في أواخر العام نفسه ١٩٦٥ . ثم صار كثير التنقل بين سوريا ولبنان والأردن. وكان يكتم عن الجميع الأسباب الحقيقية في تنقلاته. وعرفنا فيما بعد أنه أحد مؤسسي حركة التحرير الوطني الفلسطيني، المعروفة اختصاراً بكلمة (فتح). وللحقيقة أنه لم يكن من المؤسسين الأوائل. خاض أبو النور جميع حروب العرب الحديثة، وخسر جميع حروب العرب الحديثة. قال لي ذات سهرة: "أنا مدمن هزائم". قلت لكي أخفف عنه: "لكنك انتصرت في بور سعيد، وفي الجزائر أيضاً". قال: "كنت ولداً، ولم أكن أعرف ما أنا فاعل. أما الحقيقة فهي أني مدمن هزائم". ورغم ذلك فإنه لم يكن شخصياً يئوساً. بعد نكسة حزيران (يونيو)، دخل الأرض المحتلة. ذهب إلى القدس. كان أحد المسؤولين عن إنشاء خلايا مسلحة لمقاومة الاحتلال. أقام في الأرض المحتلة إلى ربيع ١٩٦٩ ، حيث غادرها إلى الأردن، ومنها إلى سوريا. تزوج. ترك امرأته

عند أمي بعد يومين من الزواج، وذهب إلى جنوب لبنان. كانوا منشغلين في بناء ما أسموه حينئذٍ بـ(الجبهة الثالثة). وفجأة ترك لبنان، وسافر إلى أوروبا الشرقية: (بولونيا، تشيكوسلوفاكيا، هنغاريا، بلغاريا). ولست أعرف ماذا كان يفعل هناك. أقام في تلك البلاد قرابة ستة شهور، عاد بعدها إلى بيروت، وبعد فترة قصيرة سافر إلى أوروبا من جديد، ولكن في اتجاه آخر هذه المرة: (إيطاليا، سويسرا، فرنسا). اعتقلته أجهزة الأمن الايطالية. وجرت حوله بعض المفاوضات بين حكومة إيطاليا وبين منظمة التحرير الفلسطينية. وتم الإفراج عنه شريطة أن يغادر البلاد فوراً. رافقه اثنان من ضباط الأمن الايطالي حتى باب الطيارة، وقالا له: "تشاو سنيور"، فقال لهما: "تشاو يا شباب". ورجع إلى بيروت، ومنها إلى سوريا، ثم إلى جنوب لبنان، حيث أقام هناك إلى عام ١٩٧٨ . حوصر في ربيع تلك السنة شهراً أو يزيد. حوصر مع وحدة صغيرة في بلدة (الخيام). ولم يستسلم. خرج من الحصار مجروحاً. خرج بجروح جديدة أضيفت إلى جروح سابقة كثيرة. كانت بطنه مثل خارطة مشوشة من آثار مشارط الأطباء. أظن أن عدد العمليات الجراحية التي أجريت له (١٢) عملية. وكنت أتعجب دائماً من قدرته على استعادة قوته ونشاطه بسرعة. زرته في المستشفى بعد خروجه من الحصار، حيث أجروا له جراحة جديدة. صافحت يده المحررة من المصل، وقلت له: "شغلت بالنا عليك يا رجل". قال: "أنا بسبعة أرواح". قلت: "هذا أكيد". سألته بعد خروجه من المستشفى عن أصعب الأشياء التي قاساها في الحصار. قال: "الخوف من الأسر". قلت: "ألم تفكر بنا؟ بزوجتك؟ بأطفالك"؟ - لم يسبق له أن حضر ولادة أي من أبنائه الخمسة. قال: "لا أتذكر أني فكرت بكم. لا أتذكر أني فكرت إلا بجنودي، وبنفسي.. كان تفكيري ينصّب، بشكل أساسي، على نقطة واحدة: كيف لا أقع في الأسر عند اليهود".. وما إن مرّت فترة قصيرة حتى استعاد صحته من جديد. وقد ظل قوي البنية إلى عام ١٩٨١ . في صيف ذلك العام دخل في شجار مع بعض الناس. حدث هذا في مدينة (بوخارست). أظن بأنه تشاجر مع أولئك الناس وهو سكران. وبغض النظر عن طبيعة ذلك الشجار فقد أصيب بضرر في عموده الفقري. ومنذ ذلك الوقت لم يعد يعرف الصحة، فلزم البيت فترة، وكاد أن يلزم الفراش. عندما قامت الحرب عام ١٩٨٢ ، ترك البيت من فوره، وذهب إلى جنوب لبنان. حاولت أن أقنعه بعدم الذهاب. كنا قد سمعنا للتو من الراديو أن الطيران الاسرائيلي يقوم - في هذه اللحظات - بغارات مكثفة على المدينة الرياضية جنوبي بيروت. قال: "إنها الحرب". قلت: "ربما كان مجرد عدوان عابر وليس حرباً". قال: "ما داموا يقصفون المدينة الرياضية فهذا يعني أنها حرب

واسعة". قلت: "لماذا؟ وماذا يوجد في المدينة الرياضية"؟ قال: "كل الاحتياطي الذي نملكه موجود هناك. بصراحة؟ هي ضربة ذكية. هي بداية موفقة لشارون. وأرجو ألا تكون النهاية كذلك". ولكن النهاية كانت كذلك، أو حتى أكثر من ذلك. سألته بعد أن رجع من الحرب إن كان ذهابه إليها بالأساس عملاً صائباً. قال: "حركتي صارت بطيئة". لكنه لم يشأ الاعتراف بإخفاقه حتى النهاية، فقال: "لقد أسعفت بعض الجرحى من الجنود السوريين في سهل البقاع".. في خريف عام ١٩٨٣ حوصر في مدينة طرابلس (اللبنانية). وفي الحصار، أصيب بجروح جديدة. تمّ نقله على زورق صغير إلى جزيرة قبرص. ومن هناك جواً إلى بلغراد حيث أجروا له جراحة جديدة. ظل في يوغسلافيا حتى صيف ١٩٨٤ ، حيث عاد أخيراً إلى دمشق، واستقر فيها وقتاً طويلاً نسبياً قبل أن يعود إلى التنقل مع أوجاعه بين أوروبا وأفريقيا.. قضى فترة في اسبانيا، ومثلها في هنغاريا، وفترة أخرى في سويسرا، ومثلها تقريباً في الجزائر، ثم في تونس، ثم أقام زمناً أطول في كينيا وأوغندا، ثم ارتحل إلى تشيكوسلوفاكيا. وكان دائم العودة إلى دمشق. وفي فترة ثانية اصطحب زوجته وأطفاله إلى أوغندا، ثم أعادهم إلى سوريا، وبقي هو هناك.. في ربيع ١٩٩١ رجع إلى دمشق، وقال لي: "سوف أستقر هنا نهائياً. أحب أن أتعرف إلى أولادي". قلت له: "أرجو ذلك يا أخي، فأنت لم تعد شاباً. ويجب أن تعترف بأنك مريض، وبأنك بحاجة إلى من يرعاك".. وقلت له أيضاً: "هل تعرف يا أبو النور؟ أفكر أحياناً: كيف أنجبت خمسة أولاد؟ ومتى؟ هل أنجبتهم بالمراسلة مثلاً"؟. قال: "يبدو ذلك". وقال أيضاً: "لقد حان الوقت بالفعل لكي أتعرف إلى أولادي. لقد حان الوقت لكي أفكر بهم أخيراً. الأولاد صاروا شباباً، والبنت صارت صبية، وأنا لم ألاحظ ذلك إلى عندما كانوا معي في أفريقيا. لقد فاتني أن ألاحظ أن أبنائي يكبرون حتى إني لم أفرح بهم. لقد فاتني ذلك". رأيته آخر مرة قبل سفري إلى القاهرة بشهر واحد. دق باب بيتي على الساعة العاشرة ليلاً. لم يكن يقرع الجرس. ولست أدري لماذا كان يكره الأجراس، أو لماذا يفضل أن يدق الباب بعصاه التي صار يتوكأ عليها في مشيه خلال السنوات الأخيرة. ما زلت أحتفظ بتلك العصا. أظنها مصنوعة في كينيا، قال: "ماذا تفعل"؟. قلت: "أكتب". قال: "أشعر بالملل. ما رأيك لو نذهب إلى مكان ما ونشرب كأساً"؟. قلت: "نشرب الكأس هنا. عندي فودكا". قال: "لا بأس، نشرب فودكا". حضرت لنا وجدان بعض المازة، وسهرت معنا قليلاً، ثم ذهبت إلى النوم. وبقيتُ ساهراً وإياه. قال لي: "أفكر بالسفر". قلت: "رجعنا إلى الاسطوانة القديمة"؟. قال: "إنني أموت" قلت: "سلامتك يا أبو النور، ولكن إلى أين

تسافر هذه المرة إن شاء الله"؟. قال: "إلى أرض نائية. نائية جداً. أفكر بأمريكا اللاتينية. سأذهب إلى تونس أولاً، ومن هناك إلى البرازيل مبدئياً، ولكني سأعرج على ليبيا قبل تونس. ثمة صديق فلسطيني لي في طرابلس أحب أن أراه. أكثر حروبنا خضناها معاً أنا وإياه. أحب أن أراه قبل الرحيل. أحب أن أودعه". قلت: "تودعه"؟!. قال: "أظن بأني سوف أستقر في أمريكا اللاتينية". قلت: "فهل جئت تودعني"؟. قال: "من يعرف"؟ قلت: "طالما سمعت منك هذه العبارة"!.. كان يبدو تلك الليلة حزيناً. بل شديد الحزن. كان يبدو خائباً، محطماً، ومهزوماً أيضاً. قلت: "ولكن لماذا أمريكا اللاتينية"؟. قال: "أريد أن أبتعد. أريد أن أبتعد كثيراً". قلت: "فهل ثمة ما تخشاه من بقائك هنا"؟ قال: "لقد كنت رجلاً شريفاً طوال عمري، ولهذا فإنني لا أخشى أي شيء". قلت: "لماذا البعد إذن"؟. قال: "لأنني قرفت من هذه المنطقة. قرفت العرب، وقرفت اليهود".. لم أكن أعلم تلك الليلة أنه جاء يودعني فعلاً، وأنني لن أراه بعد ذلك، ولن أراه أبداً، أما هو فقد كان يعلم ما ليس لي به علم. كان يبدو متعباً، مهدود القوى. وكان يبدو في حاجة للكلام إلى إنسان يثق به. وربما لهذا السبب جاء إلي، لقد وقع اختياره علي، مع أنه لم يقل شيئاً خطيراً تلك الليلة. أخطر ما قاله لي في لقائنا الأخير (دون أن يتلفظ به صراحة) هو أنه لا يعرف كيف انقضى العمر، ولا يعرف كيف مرّت حياته، ولا إن كان ما فعله طوال تلك العقود من السنين صحيحاً. كان في شكٍّ من نفسه. وكان ذلك الشك يقتله. حدثني عن أمور وقعت في الستينات، والسبعينات، والثمانينات، وكانت تندرج في حينها تحت عنوان: "سرّي جداً". لعلها الآن فقدت كلمة "جداً"، ولعل غالبيتها فقدت كلمة "سرّي" كذلك. وأنا في الحقيقة لم أكن أستدرجه في الحديث. لكنه عندما شرع يتكلم بدا لي مثل خاطئ يجلس على كرسي الاعتراف. وتساءلت في نفسي: لماذا يبوح لي بهذه الأمور التي ما زال بعضها على شيء من سرّية؟ يبدو أنه جاء يودعني فعلا. يبدو أنه كان يعرف بأنه لن يرجع إلى دمشق هذه المرة. لن يرجع إلا في تابوت محكم الإغلاق. ولهذا كان يحب أن يفرغ ما بصدره. ذكر لي أسماء كثيرة: أسماء اشخاص، وأماكن. ذكر لي تواريخ كثيرة. حدثني عن مسلسلة الاغتيالات التي جرت على الساحة الفلسطينية. ابتدأ الحديث بغسان كنفاني. كنت قد سألته: "كيف أغلق ملف قتله؟ وهل تمّت معرفة القتلة"؟. قال: "الموساد وراء ذلك. غير أنهم لم يكونوا وحدهم. ثمة أكثر من جهة عربية ساعدتهم في الأمر". قلت: "مَن مِن العرب"؟. قال: "هل يهمك أن تعرف ذلك حقاً"؟. قلت: "بكل تأكيد". قال: "حسناً، ساقول لك من قتل غسان كنفاني، ومن قتل محمد

الهمشري، وكمال ناصر، ونعيم خضر، وعز الدين القلق، وناجي العلي، وبقية المثقفين الفلسطينيين الذين تمّت تصفيتهم. وسوف أقول لك أيضاً من الذي زرع مئة وعشرين رصاصة في جسد (أبو جهاد) على مرأى من زوجته وابنته داخل بيته في إحدى ضواحي تونس. سأقول لك من قتل الدكتور وديع حداد، ومن قتل ماجد ابو شرار. سأقول لك من اختطف ناصر السعيد، سأقول لك..". قلت مقاطعاً: "معلوماتي أن المخابرات المركزية الأمريكية هي التي اختطفت ناصر السعيد". زمّ شفتيه استخفافاً بهذه المعلومات، وقال: "لم يكن للمخابرات الأمريكية مصلحة مباشرة في ذلك العمل". وعاد يزمّ شفتيه قبل أن يبللهما ببعض الفودكا، وقبل أن يضيف: "نحن من اختطف ناصر السعيد". وجعل يسرد كيف تمّت العملية بالتفصيل. ثم جعل يحدثني عن التنسيق القائم بين (الموساد) وبعض أجهزة الأمن العربية. واستشهد على ذلك بعملية مرّت بصمت، مع أنها برأيه كانت قاصمة لظهر (أبو جهاد)، حيث تمّ قتل ثلاثة من أهم رجاله، وأكثرهم نشاطاً وفعالية على صعيد (الانتفاضة) الفلسطينية. بدا لي أنه يعرف هؤلاء الشباب. تحدث عنهم بحب، وصفهم وصفاً جميلاً. قال: "إنهم جيل آخر. دماء جديدة. إنهم لا يشبهونني. لقد سبقتهم بزمان إلى الشغل في الأرض المحتلة. كنت أعمل مع أبو جهاد حصراً. لكنني لم أحقق شيئاً بالمقارنة مع ما حققه هؤلاء الشباب". قلت: "لا تلم نفسك كثيراً، فلا بد أن خبرتك أنت وأمثالك قد تراكمت، وأفاد منها هؤلاء الشباب الذين جاؤوا للعمل بعدك بأكثر من عشرين سنة". قال: "ربما لكن من المؤكد أنهم حققوا إنجازات جبّارة". ذكر لي اسم الجهة العربية التي تعاونت مع (الموساد) في الكشف عن هوية الشباب الفلسطينيين الثلاثة، وعن تتبع حركتهم بعد خروجهم من الأرض المحتلة خطوة بخطوة إلى أن تمّت تصفيتهم في جزيرة قبرص (نقطة التجمع).. ثم رجع إلى سيرة المثقفين الذين تمّت تصفيتهم. وحدد لي بدقة ـ حسب قناعته ـ الجهة التي كانت وراء مقتل كل منهم. أتذكر أنه توقف مطولاً عند (عز الدين القلق)، وكادت أن تدمع عيناه. وهو يردد هذا الاسم. تحدث عنه كما لا يتحدث عن (فراس) أصغر أبنائه الذي يحبه حباً جماً. تحدث عنه كما لو كان قديساً أو ملاكاً. قال لي: "لست أعرف لماذا قتلوا هذا الشاب". وقال أيضاً: "كنت قد نصحته بعدم الإقامة في باريس ولم يأخذ بنصيحتي". وفي لحظة من اللحظات دمعت عيناه فعلاً.. ورجعتُ أسأل نفسي: لماذا يحدثني بكل تلك التفاصيل؟ وفي لحظة عابرة فكرت: هل كان متورطاً بهذه العمليات على نحو أو آخر؟ وكدت أسأله عن ذلك. وما منعني إلا شيئان اثنان: أولهما معرفتي به، وثقتي بأن رجلاً مثله لا يمكنه أن يرتكب أعمالاً كهذه،

وثانيهما أنني كنت سأوجعه كثيراً لو سمعني أشكك به. ولم يكن ينقصه وجع فوق أوجاعه تلك الليلة، ففضلت الصمت، ولذت بقناعتي الراسخة بأن رجلاً مثله لا يمكنه إلا أن يكون رجلاً على الدوام. ومبعث رجولته الأول ليس في كونه إنساناً شريفاً فحسب، أو في كونه قد عاش حياته في قلب النار دون أن يفكر بالانسحاب ولو مرة واحدة. أظن أن مبعث رجولته الأول، هو أنه ما كان ثمة شيء في العالم يملأ عينيه. لقد كان مترفعاً عن كل شيء، وطالما كان يكرر قول المتنبي: (والمتسعزُّ بما لديه الأحمقُ). كان شخصاً يصعب غوايته: لا المال، ولا الجاه، ولا النساء، ولا أي شيء قادر على إيقاعه في شرك الغواية، كان رجلاً عصياً على الغواية لأنه مترفع عن عرض الحياة الدنيا، رغم أنه لا يؤمن بالحياة الآخرة، وربما لهذا السبب بالذات بدت آلامه مضاعفة تلك الليلة. الحياة تنقضي، أو توشك على ذلك، ثم ليس هناك من بديل أو جزاء. كنت أرى إلى أوجاعه وآلامه وشكوكه العنيفة بجدوى كل ما فعله في حياته مذ ترك البيت أول مرة وهو في الخامسة عشرة من عمره، وحتى تلك السهرة التي قضيناها معاً، والتي استمرّت إلى آذان الفجر. كان صوت المؤذن يأتينا من مسجد الحي بقوة: "الصلاة خير من النوم". سألني: "ما رأيك أنت"؟. قلت: "بماذا"؟. قال: "هل إن الصلاة خير من النوم فعلاً"؟. قلت: "أظن أنها خير لبعض الناس". قال: "معك حق إنها خير لبعض الناس، ولكني لست منهم. لهذا من الأفضل أن أقول لك: ليلة سعيدة، وأذهب إلى النوم". ونهض، وخرج من بيتي يتوكأ على عصاه. وبقيت واقفاً أمام الباب أسمع وقع خطواته على الدرج من دون أن أعلم بأني لن أسمع وقع تلك الخطوات في ما بقي لي من عمر أقضيه بعد افتراقي معه، لما كان المؤذن في مسجد الحي، يقول: "الصلاة خير من النوم". لم أره بعد ذلك الصباح لأني سافرت إلى ليبيا. ثمة ندوة حول السينما العربية عُقدت في مدينة بنغازي. أمضيت هناك عشرة أيام. ولما رجعتُ إلى دمشق كان هو قد سافر فعلاً. سألت: "إلى أين"؟. قالوا: "إلى تونس ولكنه سيعرج أولاً على ليبيا. وربما ذهب من تونس إلى البرازيل أو الأرجنتين". وانقطعت أخباره. وقلت في نفسي: "سوف يرجع رغم ذلك". وقد رجع فعلاً. و لكن في تابوت محكم الإغلاق. وكان عليّ أنا أن أعود بذلك التابوت إلى مرقده الذي لا هروب منه، ولا سفر. هذا ما عرفته بعد أن رنّ جرس الهاتف أخيراً. ومن الطبيعي أن المكالمة من دمشق.. استيقظت وجدان من النوم على الجرس. وأتذكر جيداً أنها استيقظت مذعورة. أجفلت من صوت الجرس الذي لا يختلف بشيء عن أصوات الأجراس التي ترن في غرفتنا أكثر من عشر مرات كل يوم. نظرتُ إليها. كان في وجهها رعب ينذر بالكارثة. أما هي فقد

حدّقت فيّ باستلاب، كمن يسأل: ألن ترفع السماعة أخيراً؟ وحركتُ رأسي أن نعم، سأفعل. رفعت السماعة، ورحت أسمع النبأ الذي لن أسمعه في حياتي مرّتين. نهضت وجدان من السرير، وجلست على الأرض قريباً من جهاز الهاتف، وألصقت أذنها بالسماعة. ويبدو أن أذنها التقطت هذه الكلمة (أبو النور)، فاختلست إليّ نظرة. وبدا أنها فهمت أخيراً السبب الحقيقي في تعكر مزاجي منذ العاشرة صباحاً. كانت كمن يقول لي: كم كنت على حق! اتذكر أني كنت هادئاً أثناء المكالمة الهاتفية. بل إني بقيت هادئاً إلى ما بعد ذلك. أعدت السماعة إلى مكانها ونظرت إلى وجدان. رأيتها صامتة، مستلبة وفي عينيها سؤال واحد: لماذا؟ وأظن بأني حركتُ رأسي علامة الجهل بالجواب عن هذا السؤال. لا أعرف لماذا مات الرجل. لقد مات لأن الناس عموماً تموت. الجميع يموت. كل شيء يموت، ولا شيء يبقى، ظلت تنظر إليّ. أتذكر أنه كان في نظرتها احتجاج. ولكن تحتج على ماذا؟ تحتج على من؟ قلت لها: "يجب أن أسافر إلى طرابلس حالاً لكي أنقل جثمانه إلى دمشق". قالت: "هل يعني هذا أننا لن نراه بعد الآن". قلت: "يبدو ذلك". وقلت ايضاً: "ربما سمحوا لي برؤية الجثمان". قالت: "أنا أيضاً أريد أن أراه. سوف أسافر معك". قلت: "ستكونين عبئاً علي. أنت ترجعين إلى دمشق على أول طائرة. وحتى ذلك الوقت أتركك لمنير. تغادرين الفندق. يأخذك إلى أمه أو أخته عفاف، وتقيمين هناك إلى أن يحين موعد سفرك. سوف أتصل به". وعندما رفعت سماعة الهاتف من مطرحها ارتمت على الجهاز برأسها ويديها، وجعلت تقول بصوت مخنوق: "لن أبقى في القاهرة لحظة واحدة بعدك، ولن أسمح لك بالسفر وحيداً إلى أي مكان". ثم طفقت تبكي. أو لعلها لم تكن تبكي. لم يكن ذلك بكاء. كان أمراً شبيهاً بالعويل، أو ربما كان عويلاً. تركتُ السماعة تسقط من يدي. ولم أفعل شيئاً من أجل وجدان التي وقعت، فجأة، ضحية نوبة من الهستريا. ألقيت برأسي إلى مسند السرير وبقيت هادئاً. وسبب هدوئي، فيما أظن، هو أني كنت مستعداً للنبأ منذ الصباح. ولهذا فإنه لم يفاجئني. ولم يأخذني بغتة، أو غدراً. كان لا بد للرجل أن يموت بعد أن أنفق صحته حتى آخر ذرة فيها. والصحة مثل النقود. يجب إنفاقها وإلا ما حاجتنا إليها؟ وهذا ما فعله أبو النور مذ كان في الخامسة عشرة من عمره، لما ترك البيت أول مرة. وهذا ما رجع وفعله من جديد بعد عودته إلينا. يبدو أنه لم يكن يشعر بنفسه ابناً ضالاً. ولهذا عاد وتركنا. وظل يتركنا بعد كل عودة. ظل يرحل. ظل مسافراً.. وكان مسافراً بلا متاع. لا يحمل في تسفاره شيئاً غير ذاكرة ثقلت بأحمالها، وغير جروح قديمة يضاف إليها جرح جديد في كل مرة.. لقد أحس

بالابتراد وهو يقيم عند صديقه الذي ذهب يودعه قبل الرحيل إلى ارض نائية، فنقلوه إلى المستشفى، وأدخلوه غرفة العمليات على الفور، وأجروا له جراحة قالوا فيها إنها كانت ناجحة، فقد أفاق من التخدير في الوقت المناسب، وتحدث إلى الأطباء والممرضات، وعاش ثلاثة ايام بعد العملية، وكان يبدو أنه يسترد صحته بسرعة مذهلة، حتى أنه طلب فجأة قلماً وأوراقاً. لم يطلب ورقة واحدة، بل أوراقاً. وعندما جاؤوه بالأوراق والقلم، وجدوه قد فارق الحياة. أصيب بنزيف حاد في رئتيه، وخنقته دماؤه النازفة، فمات قبل أن يكتب ما كان يحب كتابته. ولكن ماذا كان يريد أن يكتب؟ ولمن؟ وعن أي شيء؟ لعله أحب أن يكتب عن رحلة الابن الضال. قال لي مرة: "أحب أن أنفرد أحياناً بنفسي.. أشتاق إلى نفسي".. ويبدو أنه اشتاق تلك اللحظة إلى نفسه، وقرر أن يكتب شيئاً عن تلك النفس التي ما عرفت الطمأنينة يوماً. ثم لم تمهله رئتاه حتى يتمم اشتياقه. وتعب الجسد وناس وانطفأ، لم يبق فيه رمق يعينه على البقاء حياً. لقد أنفق الرجل صحته كما ينفق الكريمُ دراهمه. ولم يبق منها شيئاً يساعده على أن يتمم اشتياقه. بعثر الرجل صحته دون حساب. وقد فعل ذلك بكامل إرادته، فقد كان رجلاً حر الجسد، وحر النفس أيضاً.. لا أتذكر أني فكرت تلك اللحظة بهذا الكلام الذي أقول الآن. وأتذكر جيداً بأني لم أكن أفكر بشيء محدد وأنا ألقي برأسي إلى مسند السرير، ربما مرق طيف أمي أمام ناظري، وربما مرق طيف أخي الكبير الذي في دمشق، وأخي الصغير الذي في دولة الإمارات. اعتدنا طوال العمر أن نكون أربعة. لكننا بدءاً من اليوم لن نكون إلا ثلاثة. لقد ابتدأ العد التراجعي. سنصير اثنين. سنصير واحداً. سنصير عدماً.. وماذا؟ أليس الموت غاية الوجود؟ وبقيت هادئاً، بل شديد الهدوء، حتى أن عينيّ لم تدمعا إلا بعد أن مرقت كلمة (الجثمان) في رأسي مراراً حتى فرضت نفسها عليَّ فرضاً. أتذكر أني فكرت عندئذٍ بأخي الكبير.. لا بد أنه يشعر الآن بالوحدة. أعلم بأن الأقارب والأصدقاء لن يتركوه وحيداً، ولكنّ هؤلاء لن يعوضوا عليه غياب الأخوة. ولا حتى الأبناء يعوضون ذلك، كما قال لي لاحقاً. وأبناؤه كلهم شباب، وبناته صبايا، ومع ذلك فقد كان وحيداً من دون إخوته. وكانت وحدته كبيرة إلى درجة أفقدته القدرة على التصرف. كانوا قد اتصلوا به في قلب الليل الفائت. اتصلوا ببيت خالي، فأخي مثلي لا يملك هاتفاً. طلبوا الحديث إلى (يوسف سامي يوسف). وجاء، وتحدث إليهم. أبلغوه النبأ، وسألوه الموافقة على دفن الجثمان في طرابلس، فقال لهم: "أريد أخي". حاولوا إقناعه بصعوبة ذلك، فقال لهم: "أبعث أنا من يأتيني بجثمانه". وأعاد السماعة إلى مكانها. لم يفكر حتى بمناقشة المسألة.. قابيل أين أخوك؟ وقال لأبنائه:

"اتصلوا بعمكم الذي في القاهرة. اتصلوا بعمكم الذي في دبي، وقولوا لهما: أبي يقرئكما السلام، ويرجوكما أن تأتياه بجثة أخيه من طرابلس، لكي يدفنها قريباً منه حتى يتسنى له صباح العيد أن يزوره، فأبي يحب أن يزور إخوته في صباح العيد". أتذكر أن كلمة (الجثمان) قد فرضت نفسها عليّ فرضاً.. الجثمان.. يبدو أن لهذه الكلمة قوة موجعة، إلى حد البكاء، فبكيت. وأغمضت عيني بعد أن اغرورقتا بالدموع. ثم لم أعد أعرف ما الذي جرى بعد ذلك، ولا كيف احتضنت وجدان رأسي بين ذراعيها. أتذكر أنها كانت تضغط على جبهتي بقوة فظيعة، حتى أني أستغرب الآن من أين جاءت بتلك القوة وهي المرأة التي تعاني فرطاً في النعومة. أتذكر أنها كانت تضغط على رأسي فقط، كما لو أن بقية جسدي لا تهمها. ولست أدري لماذا كانت تفعل ذلك. لم أطرح عليها هذا السؤال في أي وقت آخر. هل تخاف على دماغي من الانفجار مثلاً؟ أظن بأن هذا ما كانت تخشى وقوعه في ذلك اليوم، وفي ذلك الفندق، وفي تلك الغرفة حيث سمعت النبأ الذي لن أسمعه في حياتي مرتين.. عندما كنا في المقبرة، وبعد أن أنزلنا الجثمان (ضمن تابوت محكم الإغلاق) إلى مثواه الذي لا رحيل منه، شعرت بأني أختنق. لقد عاد الابن الضال أخيراً ولكنه عاد مرغماً. انسحبتُ من بين الناس المتجمعين حول القبر. انسحبتُ من شعائر الدفن التقليدية. ابتعدتُ قليلاً عن الجميع. كان قلبي يغصّ بالتعب، وعيناي تغصّان بالأرق، وبالدموع ايضاً. ومن خلل دموعي رأيتها تقف غير بعيد مني. وبما أنها امرأة على شيء من تدين غالباً، فهي تؤمن بأن خروج النساء إلى المقابر في الجنازات حرام. ومع ذلك، فقد كانت موجودة في الجنازة. وفي الحقيقة أنني لم أفاجأ بوجودها. كانت تراقبني. لعلّها ما تزال تخشى على دماغي من الانفجار. نظرت إليّ كمن يقول: "لا تخف. أنا بجانبك". من الطبيعي أنها كانت تتسربل بالسواد. بل إنها تسربلت في السواد منذ القاهرة. ولست أعرف كيف تدبرت هذا الأمر وقتئذٍ، ولا من أين جاءت بذلك السواد الذي ارتدته في الفندق. لعلّ ما يصلح للسهر والرقص يصلح، مع بعض التعديلات الطفيفة، للأسى والحداد. وما يصلح للفرح يصلح للحزن. والفارق دائماً بسيط. في القاهرة كان الحزن يليق بها. بل إنه زادها جمالاً. ولست أدري كيف، ولكنّ ذلك بدا جلياً في عيون موظفي الفندق، والنساء منهم خصوصاً. لقد تساءلوا وتساءلن: "ما الذي جرى للحسناء الشامية"؟ وقالوا: "حتى في الحداد تبدو جميلة". وقلن: "بل إنها ازدادت جمالاً". وأظن أن هذا كان صحيحاً، لكن في القاهرة وليس في دمشق. ليس وقت الجنازة، حيث مرت أربعة أيام مذ رن جرس الهاتف في الغرفة. أربعة ايام من الأرق

والسفر والجوع والبكاء، والخوف على دماغ حسن من أن يتفجر. أربعة ايام أهملت خلالها نفسها تماماً، ففقد وجهها نضارته. ثقلت جفونها، وغارت عيناها، وبانت تحتهما خطوط زرقاء، وتغضنت جبهتها، وتهدل شعرها، وزاغ بصرها، حتى بدت مثل مريض هارب من مستشفى المجانين. هكذا بدت لي تلك اللحظة لما نظرتُ إليها من خلل الدموع في عيني اللتين تغصّان بالأرق. اقتربت مني خطوتين، ثم توقفت حائرة. كانت كمن يسألني: هل أقتربُ أكثر؟ وجاءها ردي سريعاً. ابتعدتُ عنها بعد أن أشحت بوجهي إلى ناحية القبر، ثم لم أعد أنظر إليها.. بعد مراسم الدفن عادت واقتربت مني. لكنها اقتربت كثيراً هذه المرة. كانت ترتجف من البرد. كان يوماً بارداً من ديسمبر. قلت لها: "لماذا لا ترتدين معطفك"؟ رفعت كتفيها كالأطفال علامة الجهل بالجواب. قلت: "سوف تمرضين". قالت: "ليس مهماً". ناديت على أحد أبناء أخي الكبير، وقلت له أن يضعها في سيارة ويرافقها إلى البيت فوراً. قالت لي: "سأبقى معك". وكانت تعلم أن بقاءها معي محال، لأن ثمة تقاليد يقوم بها الرجال من أقارب المتوفى، وأنه لا بد من مراعاة تلك التقاليد، وأنني بالتالي لا أملك وقتاً من أجلها، وأن مكانها الطبيعي ضمن هذه التقاليد هو البيت الذي وعدتها بأن أرجع إليه سريعاً ما أمكنني ذلك.. بعد تسعة ايام من الجنازة، وفي حوالي العاشرة ليلاً، تبلل وجهي فجأة بالعرق، وضاق نفسي تماماً، وشعرت بانقباض في صدري، وبألم في كتفي وذراعي اليسرى. كنت أجلس مع وجدان في غرفة المكتبة، نشرب الشاي، ونستمع إلى صوت المطر يضرب سطح البيت بقوة. قالت لي: "ما بك"؟ ولم أعرف كيف أجيب عن هذا السؤال. الأعراض توحي بالجلطة القلبية. مع أني كنت على يقين من أن الأمر ليس كذلك.. إنه الإجهاد الجسدي، والإجهاد النفسي. وكلاهما جعلني في سهاد متواصل، حتى أن الحبوب المنومة لم تكن مفيدة في شيء. كانت أفكاري ناشطة مثل دوامة في محيط. ورأسي مثل طاحونة تهرس بحجرين ثقيلين كلّ الأفكار والصور والتصورات، الخاطئة منها والصائبة، حول الوجود والعدم. كان كلّ شيء في رأسي حاضراً، ومستيقظاً. وكلّ أحد كان حاضراً أيضاً. وكنتِ أنتِ أكثر الناس حضوراً. كنتُ أخاف شيئاً واحداً فقط: أن أموت قبل أن ألقاكِ ثانية.. أخذتني وجدان من ذراعي، وساعدتني في الوصول إلى الفراش، ثم عادت تسألني وقد تملكها خوف مبهم: "ولكن ما بك"؟. ومرة ثانية لم أعرف بماذا أجيبها، فراحت تتمتم: "يا ربي! ألن نخلص من هذه المأساة؟!.. وما إن قالت ذلك حتى اختفت من أمامي. خرجت من الغرفة باندفاع. ثم ما هي إلا لحظة قصيرة حتى سمعتُ صوت انصفاق باب البيت. خرجت إلى الشارع في قميص

النوم. وكانت شبه حافية، ولم تطل غيبتها حتى رجعت بصحبة الدكتور موفق، أحد الأطباء الذين يعرفونني جيداً. جاء بالبيجاما، أو (المنامة) كما نسميها بالعربية الفصحى. جاء يحمل حقيبته الطبية مع جهاز تخطيط القلب بتوصيلاته المختلفة. وكانت وجدان تساعده في حمل تلك الأشياء. كانا غارقين في المطر. دخلا البيت مشوشين، مرتبكين، مستعجلين، ولست أدري لماذا رأيتهما مضحكين أيضاً.. فحصني الطبيب بدقة. وأجرى تخطيطاً للقلب. كانت وجدان تقف عند رأسي وتنقل بصرها بيني وبينه، وتكاد أن تسأله عن حقيقة الحال، وتخاف أن تشوش عليه عمله، فتلوذ بالصمت، وبالدموع التي جعلت تمتزج بحبات الماء التي تنقط من شعرها وتظل تبلل وجهها.. بعد أن انتهى الطبيب من عمله، قالت له: "ماذا يا دكتور"؟. قال لها: "اطمئني". أظنه لم يعثر على شيء سوى الإجهاد. جعل يقرأ عليّ محاضرة حول أهميتي ككاتب، وحول أني لست ملكاً لنفسي، بل من الأملاك العامة، ولهذا فليس يحق لي أن أتصرف بصحتي على هذا النحو غير المسؤول، وأنّ ما أفعله بنفسي لن يعيد (أبو النور) إلى البيت من هذه الرحلة التي ما عاد منها أحد من قبل أبداً. ثم التفت إلى وجدان وسألها: "كيف نومه"؟. قالت: "سيء جداً يا دكتور، رغم الحبوب المنومة. وليس نومه فقط. إنه لا يترك السيجارة من يده، ولا يتوقف عن شرب القهوة المرّة، ولا...". وراحت تسرد قائمة طويلة من مساوئي دون أن تتوقف عن البكاء. قال لي الدكتور موفق: "يارجل حرام عليك. حسناً، سوف أنسى أنك من الأملاك العامة. ولكن ما ذنب وجدان؟ ولماذا تعذبها؟ لماذا أنت أناني؟ يجب أن تستعيد صحتك من أجلها هي على الأقل". وصمت قليلاً قبل أن يضيف: "سوف أكون صريحاً معك، كعادتي دائماً. هذه المرّة وضعك ليس جيداً. بل أستطيع أن أقول: إنه سيء. ولكننا لن نتحدث طويلاً الآن. سأمرّ بك غداً. أما الآن، فسوف أجعلك تنام. سوف أعطيك دواء قوياً جداً. هو دواء سويسري. لم يسبق لي أن أعطيته لأحد من قبل. وسوف أعطيك إياه على مسؤوليتي الشخصية. وليس من عادتي أن أتهرب من المسؤولية. ولكني أعطيك إياه بشرط ـ والتفتَ إلى وجدان وقال لها ـ أن تظلي ساهرة مهما طال نومه. وإذا حدث شيء ما نقيض للمألوف تأتين إلي فوراً. هذا هو شرطي فقط" واندفعت وجدان من فورها تقول: "لن أنام أبداً يا دكتور". قال لها: "قد يطول نومه ست ساعات أو أكثر". قالت: "حتى ولو طال إلى بعد غد". قال: "حسناً إذن. وسوف أعطيه الجرعة القصوى". وتناول من حقيبته شريطاً من حبوب بيضاء كبيرة. وأحضرت وجدان كأس ماء. وابتلعتُ حبتين من ذلك العقار الذي كان له مفعول السحر. وقلت للطبيب: "هل تظن بأني سأنام بعد

هاتين الحبتين"؟. قال: "سنرى"، قلت: "ما رأيك بفنجان قهوة"؟. وصرخت وجدان احتجاجاً. وقال لها الدكتور موفق "لا بأس بفنجان قهوة". وشربنا قهوة أنا وإياه، ودخنّا سيجارة ايضاً. ثم قال لي: "الآن تصبح على خير. أنا ذاهب. ما هي إلا دقائق وتنام". وانصرف. ونصح وجدان قبل انصرافه بأن تتناول البرتقال هذه الليلة لأن ذلك يساعدها على السهر. وقالت له: "من سوء الحظ أن البراد فارغ مذ سافرنا إلى القاهرة". قال لها: "أنت تتحملين جزءاً من المسؤولية إذن". ورافقت الطبيب إلى الباب ورجعت إلي. وسألتني: "كيف تشعر". قلت لها: "أشعر بعيني ثقيلتين". قالت: "ليتك تنام أخيراً"!. وذهبت إلى المكتبة. وأحضرت من هناك رواية (قصة موت معلن) لماركيز. هي مغرمة بأدب ماركيز. تربعت على السريربجانبي. قلت لها: "ولكنك قرأت هذه الرواية". قالت: "أحب أن أقرأها مرة ثانية". ثم بدأتُ أغفو. بدأت لا أتذكر. نمت. نمت ثلاث عشرة ساعة متواصلة. وعندما أفقت من النوم كانت وجدان ما تزال متربعة على السرير بجانبي. وكان من حولها عدد من الكتب والمجلات والأوراق. وكان على الكومدينو التي تخصّها أكثر من فنجاة قهوة. لم أجد علبة السجائر في مطرحها. سألتها عنها. قالت: "لن تدخن على الريق". وقالت: "السجائر في غرفة المكتبة حيث دخنت عدداً منها خلال الليل". وعلاقتها بالتدخين عرضية: سيجارة في الأسبوع، وأحياناً في الشهر. كانت تبدو في ذلك الصباح متعبة، منهكة. وكان واضحاً أنها تخاصمت مع النوم تماماً.. عندما استيقظتُ من النوم لم أستوعب ماحدث مباشرة. ورويداً رويداً تذكرت كلّ شيء. وسألت عن السجائر. وشعرت بالخجل من نفسي بسبب ماحلّ بوجدان من إرهاق مابعده إرهاق. قلت لها: "سامحيني ياوجدان". قالت: "أسامحك على ماذا؟ كم أنا سعيدة بأنك ارتحت أخيراً! كيف تشعر بنفسك"؟. قلت لها: "أشعر بأني قد تجددت". قالت: "ومع ذلك فإنك لن تغادر الفراش. سأحضر لك لقمة تأكلها". وجاءتني ببعض الكعك والحليب. ثم ارتدت ملابسها بسرعة، وقالت: "أنا ذاهبة إلى السوق". وخرجت. رجعت إلى البيت بعد أكثر من ساعة تنوء بما تحمل من خضار ولحم وبيض وخبز وفواكه، وحلويات أيضاً. يبدو أنها قررت رفع حالة الحداد عن البيت. قررت عدم التساهل مع الحزن. قلت لها: "هل أستطيع أن أشرب القهوة"؟. قالت: "فنجان واحد فقط". قلت: "فليكن". وصنعت لي فنجاناً من القهوة، ثم رجعت إلى المطبخ، وجعلت تحضر الطعام. لحقتُ بها إلى المطبخ، وقلت لها: "من الأفضل أن تنامي". قالت: "ليس الآن، وأرجو أن تعود إلى الفراش حالاً". وأطعتها. رجعتُ إلى الفراش. وجاءتني بصنف من الحلويات، وأرغمتني على تناول قطعتين

منه، كما أرغمتني على تناول تفاحة وبرتقالتين. وزارنا الدكتور موفق من جديد. وفحصني. قال: "أرجو أنك لن تغادر البيت قبل أسبوع من الآن، وأرجو أن تخفف من التدخين والقهوة. ثم اسمحا لي أن أقول لكما شيئاً آخر..". وصمت. وانتظرنا منه سماع ذلك الشيء الآخر الذي لم يعرف كيف يعبر عنه بصراحة. إنه رجل خجول عموماً. راح يلف ويدور حول الموضوع. كان يريد أن ينصحنا بممارسة الجنس. ولم يعرف كيف يقول ذلك الأمر الذي اعتبره نصيحة خاصة. ولما أدرك بأننا فهمنا قصده أخيراً، قال: "أظن بأن هذا سيكون مفيداً لكما الاثنين". ثم أعطى وجدان أربعاً من تلك الحبوب البيضاء الكبيرة ذات المفعول السحري، وقال لها: "أعطيه قبل النوم نصف حبة فقط. ولا داعي لأن تسهري عليه بعد اليوم. تستطيعين أن تنامي، فأنت في حاجة إلى النوم أكثر منه، ولكن من الأفضل ألا تسمحي لأحد بزيارته. أما أنا فسوف أعوده غداً أو بعد غد". حاولنا استبقاءه معنا من أجل الغداء. لكنه اعتذر لأنه ذاهب لزيارة أحد المرضى. وانصرف. وتناولنا طعام الغداء، وبعد الطعام، ارتمت وجدان في الفراش ثم سرعان ماغطّت في نوم عميق. أما أنا فرحت أقرأ (قصة موت معلن) للمرة الثانية أيضاً. واستغرقتني قراءة ذلك الكتاب المدة ذاتها التي استغرقتها وجدان في النوم. أفاقت مرتاحة إلى حد ما، ونشيطة إلى حد ما. سألتها: "كيف تشعرين"؟ قالت: "أحبك". وأخذت الكتاب من يدي، ورمته بعيداً، قلت: "ماذا"؟. قالت: "إنني أنفذ نصيحة الطبيب الخاصة. هل نسيت تلك النصيحة"؟. قلت: "لا، لم أنس". قالت: "أم أنك لم تعد تشتهيني"؟. قلت: "بل أشتهيك ياوجدان. أشتهيك إلى الأبد". ونفذنا نصيحة الطبيب الخاصة. وشعرنا بانزياح بعض الكآبة من نفوسنا. وشعرنا ببعض المرح أيضاً.. وقرع أحدهم جرس الباب. وقالت وجدان: "لن أفتح. لن أستقبل أحداً". وقد قُرع جرس الباب كثيراً في بيتنا ذلك اليوم، ولم تفتح الباب أبداً، دون أن تعرف من القادم، أو ماذا يريد. قلت لها: "ربما كان ذلك أخي". أخي يوسف طبعاً، لأن إبراهيم رجع إلى دولة الإمارات بعد الجنازة بستة أيام. قالت: "ولو". قلت: "ولكن..". وقاطعتني من قبل أن تعرف ماذا أريد أن أقول: "اسمع ياحسن. أرجوك أن تسمعني جيداً. في هذه الحياة يهمني شخص واحد. هذا الشخص هو حسن. وسوف أحافظ على حسن. سوف أحافظ عليك من دون النظر إلى مشاعر الآخرين". وطفرت الدموع من عينيها فجأة، وجعلت تنوح، وتتمتم: "أنا لا أحبك. أنا أعبدك. أما أنت.. أعرف أنك تحب امرأة سواي". وتمتمت أيضاً: "ولكنني لا ألومك، فأنا أعلم بأن هذا الأمر خارج عن إرادتك".. لم أرها منذ أسبوعين. لعلّها صارت الآن مخطوبة. ومنذ أسبوعين، وأنا

أسأل نفسي: هل حقاً أن حبّي لها قد تبخر؟ ومنذ أسبوعين وأنا أتساءل: فهل كنت أستحقها بالأساس؟ قالت لي مرّة: "كان لديّ قناعة راسخة بأنك تنتظر مني أية هفوة لكي تطلقني". ومنذ أسبوعين وأنا أتساءل: هل هذا حقيقي؟ لقد استعرضتُ شريط حياتي معها أكثر من مرة خلال هذين الأسبوعين. استوقفتني مشاهد كثيرة في ذلك الشريط. وبتُّ في شكٍّ من أن يكون حبي لها قد تبخر. وبتُّ في شكٍّ من أن أمراً كهذا يمكن أن يحدث ذات يوم. أترين إلى تناقض مشاعري حيال هذه المرأة؟! لابد أن تكون قد تفرجت بالأمس على حفل افتتاح المهرجان في التلفزيون. لست أدري إن بثوه مباشرة أم اكتفوا ببث مقاطع منه في وقت لاحق وضمن برنامج خاص. لكن، وبغض النظر عن طريقة البث، فلابد أن تكون قد تفرجت على الحفل، وتذكرت الأيام الخوالي، لما كان حسن كثير الحضور على الشاشة في مثل هذه المناسبة. ولابد أن تكون قد استفقدتني. ولابد أن تكون قد بكت أيضاً.. إنها سريعة البكاء.. ولابد أن تكون قد دققت النظر في الحاضرين علّها تجد بينهم امرأة شعرها أسود غزير كالشلال. ولابد أيضاً أن تكون قد شعرت بالخيبة حين لم يقع بصرها على فاطمة.

كنت أظن بأني سأكتب هذه الرسالة في جلسة واحدة. في ليلة واحدة. ولكني بالغت في ظنوني. صدقيني أن ليس فيّ شيء لا يوجعني هذه اللحظة: رأسي، رقبتي، أصابع يدي التي تمسك بالقلم، خاصرتي اليسرى، معدتي. أحس بقرص الجوع. من الأفضل لي أن أصيب شيئاً من طعام: تفاحة، أو كعكة، أو حبة برتقال، أو خصلة من عنب.. من الأفضل لي أن أطفيء هذه السيجارة، وأن أطفيء هذا المصباح. قد أحتاج إلى ضوئه في وقت آخر. قد يطول انقطاع النور أياماً. من الأفضل أن أشعل شمعة، وأن أتركك إلى حين قريب. إلى غد وليس بعد غد.. فإلى غد يافاطمة.. إلى غد ياحبيبتي.

٣

صباح الخير يافاطمة!

استيقظت قبل ساعة من الآن تقريباً. إنها العاشرة بتوقيت دمشق. قضيت ليلة سيئة. لاشيء إلا الكوابيس، وكلها على علاقة بوجدان. ربما كان مرد ذلك إلى هذه الرسالة التي أكتبها إليك. هذه الرسالة التي تحتل فيها وجدان مساحة متميزة، لأنها تحتل في حياتي مكانة متميزة مذ افترقنا أنا وأنت قبل اثنتي عشرة سنة.. دخنت سيجارتين على الريق هذا الصباح. ثم نهضت من الفراش. غسلت وجهي وأكلت كعكة من دون سمسم، ثم شربت قهوة مرّة. رجعت بعد ذلك إلى الحمّام. وضعت رأسي تحت الحنفية. قلت علّ ذلك يجعلني أصحو سريعاً كي أعود من فوري للكتابة إليك.. الطقس بارد هذا الصباح قليلاً. ومع ذلك غسلت بماء بارد شعري الذي طال أكثر مما ينبغي.. لم تكن وجدان تسمح بأن يطول هكذا. ولم أذهب خلال فترة الزواج إلى الحلاق أبداً. كانت هي تقصّ لي شعري. كنت، قبل الزواج، أذهب إلى حلاق بذاته. كنت في الحادية عشرة من عمري لمّا فتح هذا الرجل دكاناً للحلاقة في حيّنا. كان الحي صغيراً. بل كم كان حيّنا صغيراً وجميلاً! وكم كنت أنا صغيراً لمّا صار في حينا دكان للحلاقة! لكنني كبرتُ الآن. سبع وثلاثون سنة انقضت على ذلك الزمن لما كنت في الحادية عشرة من عمري. سبع وثلاثون سنة كبرت فيها كثيراً. وكثيراً كبر حيّنا، وشاخ، وشاخت دكان الحلاق. وشاخ الحلاق كثيراً.. لم تكن وجدان تصدّق بأني كنت أقص شعري عند هذا الرجل. وكانت كلما مررنا به تسألني لماذا لم أكن أذهب إلى أحد الصالونات الحديثة؟ وأقول لها! "ماحاجتي إلى تلك الصالونات الحديثة"؟!. قالت لي آخر مرة مررنا به قبل الطلاق: "سوف تحتاج إلى هذا العجوز قريباً". وقلت لها: "أظن ذلك". في آخر ليالينا معاً، قصّت لي شعري في الحمّام. ثم استحمينا نحن الاثنين. وفي صباح اليوم التالي خرجنا من البيت معاً. ذهبت هي إلى الشغل، وأنا ذهبت إلى المحكمة. التقيت بالمحامي (من معارفي القدماء نسبياً. خدمنا معاً في الجيش). كان هو وكيل وجدان أمام القضاء. وقد فعلتُ ذلك لكي لا أجعلها تذهب إلى المحاكم. تأخر القاضي ذلك النهار في الحضور إلى المحكمة.لكن، ولما انعقدت الجلسة فلم تدم أكثر من عشرين دقيقة.

وأصدر القاضي حكمه بأننا ـ وجدان وأنا ـ لم نعد زوجة وزوجاً. وقد أصدر حكمه ذاك باسم الشعب العربي السوري، ولست أدري ماعلاقة الشعب العربي السوري برجل وامرأة قررا عدم العيش تحت سقف واحد. خرجتُ من المحكمة برفقة المحامي. عرضت عليه نقوداً لقاء أتعابه. قال: "عيب ياحسن. كم كنت أتمنى أن أخدمك في أمر غير هذا! ثم بصراحة، وجدان امرأة ممتازة. ولست أدري ماالذي تفعلانه". قلت: "إننا نفعل الصواب". قال: "أرجو ذلك". وتوادعت معه. وانصرفت. أتذكر أني كنت على شيء من حزن. ذهبت إلى المؤسسة مشياً. دخلت غرفة وجدان. كانت وحيدة هناك. نظرت إليّ كمن يسأل: "هل انتهينا"؟. وحركتُ رأسي أن نعم. وترقرقت الدموع في عينيها سريعاً. قلت لها: "أرجوك. من دون هذه الدموع ياوجدان". قالت لي: "مارأيك أن نتغدى اليوم معاً"؟. قلت: "بكل سرور". خرجنا من المؤسسة. ذهبنا إلى مطعم دمشق الدولي. جلسنا إلى ذات الطاولة حيث جلسنا مرة أنا وأنت. قالت لي: "لماذا تحب أن تصحبني إلى هذا المطعم بالذات"؟. قلت: "لأنه قريب ومكشوف". قالت: "لا أصدقك. لعلك كنت تأتي إلى هنا مع فاطمة".قلت: "ربما جئت إلى هنا مع فاطمة ذات مرة. حتى أني لا أتذكر ذلك". قالت: "هل تعرف ماهو أسوأ شيء في علاقتنا ياحسن"؟. قلت: "لا". قالت: "لم يعد أحدنا قادراً على أن يكذب على الآخر. لقد صار كل منا يفهم الآخر بمجرد نظرة سريعة إليه". قلت: "وهل هذا سيء"؟. قال: "نعم". قلت:: "وبماذا هو سيء"؟. قالت: "لم يعد لأي منا خصوصياته". قلت: "معك حق". طلبنا طعاماً كثيراً في ذلك النهار، ثم لن نأكل منه إلا شيئاً قليلاً. كنا نفتقد الشهية إلى الطعام. قالت: "ألن نزور عبد اللطيف أخيراً"؟. كان قد انتقل منذ أيام قليلة فقط إلى بيت جديد. وكان عاتباً علينا لأننا لم نزره، ولاريسا عاتبة أيضاً. قلت: "تعالي نتصل به". اتصلنا، وصف لنا موقع البيت. وجدان أدرى مني بذلك المكان. إنه الحي ذاته حيث أهلها يقيمون منذ طفولتها المبكرة. استقلينا سيارة أجرة، وذهبنا إلى عبد اللطيف ولاريسا. أعلنّاهما نبأ الطلاق. شتمنا عبد اللطيف بقوة. وقالت لاريسا: "إنني لا أصدّقكما. أنتما تكذبان. وحتى لو كنتما صادقين فإن هذا الطلاق باطل. وأنا واثقة من أنكما سوف ترجعان إلى بعضكما قريباً". قالت لي ذلك بالروسية. ثم حاولت أن تقوله لوجدان بالعربية، ولم تنجح، فترجم عبد اللطيف الكلام. ولم تطل زيارتنا لصديقينا. خرجنا إلى الطريق. اشتريت لوجدان بعضاً من الشوكولاته، ورافقتها إلى بيت أهلها. قالت: "أرجو أن ترسل لي حاجاتي غداً مع الشباب". قلت: "أكيد". كانت قد انشغلت ثلاثة أيام بتوضيب أشيائها في الحقائب. وكان يؤلمني أن أراها

تجمع أغراضها. عرضتُ عليها أن تبقى في البيت وأرحل أنا. قالت: "إلى أين ترحل"؟. قلت: "أذهب مبدئياً إلى أي فندق". قالت: "أنا غير موافقة. ثم أنت تعلم أن هذا البيت لا يعجبني. وهناك أيضاً سبب وجيه يجعلني أذهب إلى أهلي. وأنت تعرف هذا السبب". إنه مرض أمها. إنه السرطان الذي قتل تلك المرأة بعد الطلاق ببضعة شهور، وجعلها عاجزة أو شبه عاجزة عن إدارة شؤون البيت حتى من قبل الطلاق. وهكذا جاءت وجدان إلى أهلها في الوقت المناسب تماماً، فهي كبيرة أخواتها. قالت لي عندما وصلنا بيت والديها: "إننا لا نتوادع. أليس كذلك"؟. قلت: "حتماً". قالت: "أراك في المؤسسة". قلت: "أكيد". وتصافحنا. ودخلت في البناء. وتابعتُ طريقي. عرجت على أنطوانيت. تقيم قريباً. كانت قد علمت بالنبأ. اتصل عبد اللطيف بماهر. وماهر اتصل بأنطوانيت. قالت لي: "ولكنكما ستعدلان عن هذا القرار". قلت: "لا أعرف ياأنطوانيت". قالت: "كيف لا تعرف"؟. وكان من الصعب علي أن أجيب عن هذا السؤال. ثمة أمور بين المرء وزوجه لا يعرفها إلا المرء وزوجه، ولا يشعر بثقلها أو مرارتها أحد سواهما. ولو قيلت هذه الأمور لشخص ما غريب فلربما بدت صغيرة، ضئيلة، وتافهة. مع أنها في واقع الحال على العكس من ذلك. وهذا مايعود بي الآن إلى مالم أقله بالأمس حول ماجرى في صيف ١٩٨٩ لمّا كادت تصل الأمور بينا إلى الطلاق.. ثمة كاتب، يدّعي بأنه صديقي، نقل إلى وجدان حديثاً جرى بيني وبينه. وقد نقل ذلك الحديث بشيء من عدم الأمانة، بل بكثير من عدم الأمانة. كنت ساهراً في بيته ذات ليلة. يقيم في ضواحي دمشق. كنا نسهر على سطح البيت، ونشرب (العرق)، ونتحدث في الأدب وفي علاقته بالحياة. أتذكر أني تحدثت بإسهاب عن فاطمة، بطلة رواية (الفلسطيني). وأتذكر أني قلت: "لو كتبت عن هذه المرأة كما عرفتها في الحياة، لكانت شخصية فاطمة في الرواية مختلفة تماماً، فأنا لم آخذ من فاطمة الحقيقية إلا مظهرها الخارجي". وأتذكر جيداً أني اعترفت لذلك "الصديق" بالحنين إليك، والشوق إلى لقياك، وذهبت في اعترافاتي إلى أبعد من ذلك. قلت له: "بدأت أخاف أن ينقضي عمري من دون فاطمة. بدأت أخاف على أيامي وأنا أراها تهرب مني دون هذه المرأة". ثم، وبعد أيام من تلك السهرة زارني في بيتي (محمود الخطيب) مخرج فيلم (الانتفاضة) ـ الفيلم الكارثة. قال لي: "نصحوني باللجوء إليك". وأعطاني نسخة من السيناريو. قرأت النص، ورأيت الكارثة. قلت له في اليوم التالي: "السيناريو يحتاج إلى إعادة كتابة حتماً". وعرضت وجهة نظري. وافقني الرأي، واقترح عليّ أن أقيم مع مجموعة الفيلم في فندق من خمس نجوم في ضاحية بعيدة نسبياً. أخذت بعض حاجياتي،

وسافرت إلى تلك الضاحية. وفي قلب الليلة الوحيدة لي هناك أبلغني محمود الخطيب بأنه لم يعد يرغب في إعادة كتابة النص، وطلب إليّ أن أقوم فقط بتحويل الحوار من اللهجة المصرية إلى اللهجة الفلسطينية. أظنه كان يريد اسمي فقط. يضعه في تيترات الفيلم ويختبىء خلفه، فيبرر إخفاقه المريع قائلاً: كان معي كاتب فلسطيني يمتدحه الفلسطينيون أنفسهم، لكن يبدو أن هذا الكاتب لا يعرف قضية شعبه. أظن أن هذا ماكان يسعى إليه. فقد كان همه الأول أن ينتهي من الفيلم بأقصى سرعة، فالجهة المنتجة (إحدى دول النفط العربية) تريد أن تبرهن عن اهتمامها بالانتفاضة الفلسطينية، فتبعثر ملايين الدولارات في الهواء من دون النظر إلى سوية الفيلم الفنية والأخلاقية.. قلت للرجل: "إنك لن ترى وجهي بعد هذه اللحظة". وتركت الفندق. أخذت تكسي، ورجعت إلى دمشق. وصلت البيت في الصباح الباكر، فوجئتُ بوجدان ساهرة على غير عادتها. كانت قلقة، ومتوترة. سألتها عن أسباب سهرها وهي التي تعشق النوم. صارحتني بما جرى بينها وبين "صديقي" من حوار بعد أن تركتها (وكنت قد تركتهما معاً في إحدى كافتيريات فندق الشام). قالت: "لقد أخبرني بأنك اتصلت بفاطمة من بيته بالهاتف، وأنكما تفكران بالزواج، وأنها سوف تأتي إلى دمشق في غضون شهر من الآن". لست أدري ماذا كانت أهداف ذلك "الصديق" من وراء هذه الكذبة. من الواضح أنه كان يرمي إلى خلاف بيني وبين وجدان. ولكن من أجل ماذا؟ هل تراه يحبها مثلاً، ويسعى إلى طلاقنا، علّه يتزوج بها عندئذ. ماذا كان يريد ذلك الكاتب الذي لا يعرف إلى اليوم كيف يعتذر مني عن فعلته؟. مع أنني سامحته حقاً. لكنني أبقيته خارج حياتي. حرمته صداقتي. وتلك أقصى عقوبة يمكنني أن أنزلها بذلك الكاتب، حتى لو كانت صداقتي ليست مهمة جملة وتفصيلاً. مع أن الصديق شيء مهم في حياة الإنسان. هذا ماعلمتني إياه تجربتي مع عبد اللطيف. وهذا ماأعتقد به بقوة. أتعرفين كيف أفكر أحياناً؟ أفكر (وأرجو أن تكون أفكاري هذه غير صحيحة) بأننا شعب لا يحب الجمال، بل يكره الجمال، ويسعى إلى تدميره أو تشويهه. الجمال بكل أشكاله ومفاهيمه. وأظن أن أكبر مصائب وجدان في الحياة هو أنها امرأة جميلة، أو جميلة زيادة عن اللزوم، في بعض الأوقات. إذ أن ذلك "الصديق" لم يكن حالة استثنائية. فقد قام آخرون بشيء مشابه أيضاً. سعوا إلى تدمير وجدان. وليس بالضرورة عبر فاطمة. وهكذا لا تظني بأني أحملك مسؤولية ماجرى بيني وبين هذه المرأة. لقد كان في حياتنا عدد لابأس به من الثغرات التي يمكن للأصدقاء قبل سواهم، أن ينفذوا منها إلينا.. غياب الطفل من حياتنا مثلاً. وبخاصة أني أنا المسؤول عن ذلك

الغياب. أنا عقيم. أما وجدان فهي ليست عاقراً. أظن أن غياب الطفل كان أكبر الثغرات جميعاً. ثم هناك ثغرة لا يستهان بها: اختلاف زاوية النظر بيني وبين وجدان إلى الحياة. وهذا ماعرفناه نتيجة التجربة المشتركة طبعاً. أنا لم أنجح في أن أجعلها فلسطينية، وهي لم تنجح في ألا تجعلني فلسطينياً. أنا لم أنجح في تغيير بعض مفاهيمها، التي أعتبرها سطحية، للحياة. مع أنها تقول دائماً: "حسن هو الذي ربّاني، وليس أبي وأمي". وهنالك أيضاً نقطة في غاية الأهمية.. وهذه النقطة تتعلق بالتركيبة الجوانية لوجدان. أنا شخصياً لم أعرف في حياتي امرأة، بل إنساناً، يملك قدراً من التناقض كما وجدان.. كانت ترفض الطلاق رفضاً باتاً. وكانت في الوقت نفسه تسعى إلى الطلاق. إنني على ثقة من ذلك رغم أنها لم تعبر عن الأمر صراحة. قالت لي مرة: "ولكني أخاف عليك أن تضيع من بعدي، فأنت حتى لا تعرف كيف تقشر بيضة مسلوقة". قالت لي ذلك في أوائل ربيع العام الفائت ١٩٩٢ . قالته في شهر (مارس) - إنني أستخدم أسماء الشهور كما أعتقد بأنك تفهمينها. نحن هنا (في المشرق العربي) لا نقول مارس بل آذار. في مصر يقولون مارس. وهي كلمة محرّفة قليلاً عن الانجليزية. ولست أدري كيف تكون هذه الكلمة باللغة الفرنسية التي لا أعرف منها شيئاً. أعرف فقط أسماء الشهور التي سبق أن استخدمتها أنت، مثل (أوت) الذي هو الشهر الثامن. نحن هنا نسميه آب. و(جوليا) الذي نسميه نحن تموز. وهو الشهر السابع. على أية حال، آب وتموز وسواها ليست من لغة العرب. هي، فيما أظن، سيريانية، فليس للشهور الشمسية أسماء في لغة العرب. ولو أجهدت فكري قليلاً لاستطعت أن أحدد اليوم الذي قالت لي فيه هذا الكلام. أظنه يوم ٢٢/ ١٩٩٢/٣ وقالت لي أيضاً: "ولكنّ المصيبة أني أحبك". وهذا اعتراف آخر برغبتها في الطلاق. وقالت: "من سيطبع لك ماتكتب؟ وهل غيري أحد يحسن قراءة مسوداتك هذه"؟. اعتراف ثالث. وقالت لي أيضاً: "أشعر في بعض اللحظات أنك ابني. أشعر بأني أمك". قلت: "كيف هذا؟ ألا تشعرين بأني زوجك"؟. قالت: "أشعر بأني أمك". اعتراف رابع. وقالت: "ليت عندي ولداً! كنت تسليت". قلت: "فماذا عني أنا؟ ألست ابنك"؟. قالت: "ليت عندي ولداً"! اعتراف خامس. والاعترافات كثيرة. كثيرة إلى درجة أنه ليس بمقدوري حصرها. وكان يؤلمني منها جميعاً اعتراف واحد، وهو هذا الأخير الذي أعطيته رقم خمسة. في صيف عام ١٩٨٩ طلبت وجدان الانفصال. كانت تؤمن تماماً بأني أتصل بك. يبدو أنها صدّقت ذلك الكاتب. أو لعلها كانت تحب أن تصدّقه. قالت: "فهل تردّ لي الجميل حين تسعى إلى فاطمة"؟. قلت: "عن أي جميل تتحدثين"؟. قالت: "إنني أعيش في

تضحية مستمرة". قلت: "تضحّين بماذا"؟. قالت: "لا تتظاهر بالجهل". وأنا لم أكن أتظاهر بالجهل. لم أكن أتظاهر بالجهل حقاً. أصرّيت على معرفة قصدها من هذه العبارة. واضّطرت على أن تقوله لي. وفهمتُه. إنها تعيش بلا طفل. يالله كم آلمتني وجدان في ذلك الوقت! كان يوم ثلاثاء في قلب شهر أوت من عام ١٩٨٩ . وقصة العقم طويلة. طويلة ومملة. عندما اكتشفنا الأمر في ربيع ١٩٨٦ ، شرعتُ بالعلاج. ومنذ اليوم الأول وحتى اليوم الأخير كانت وجدان معي خطوة خطوة. كنت أصرّ على وجودها معي، لأن هذا الأمر لا يخصّني وحدي. عرضت نفسي على أطباء كثيرين. خضعت لفترات علاج طويلة بالهرمونات وسواها. خضعت لجراحة تبيّن لاحقاً أني كنت في غنىً عنها. هذا ماقاله أكثر من طبيب. وقد سمعت وجدان الكلام بنفسها. هذا ماقاله لي أيضاً أحد الأطباء الذين من حولي هنا، والذين لم ألجأ إليهم في موضوع العقم، ولم أستشرهم فيه. كم كنت غبياً! لقد لامني ذلك الطبيب بسبب موافقتي على الجراحة التي خضعت لها والتي لم يكن لها، حسب قناعته، مايبررها. ومن الجائز أن تعود عليّ بأضرار في المستقبل. كانت وجدان معي عند هذا الطبيب أيضاً. وهي تعرف بأنه من الأطباء المهمين هنا في علاج العقم عند الذكور. قال لنا: "الإنجاب ممكن في حال واحدة فقط". قلنا: "ماهي"؟. قال: "أن يتدخل الله في الأمر، وإلا ليس ثمة أمل". قلت: "وهل يتدخل الله عادة في مثل هذه الأمور"؟. قال: "أنت تعرف بأني شخص علماني". قلت: "هل هذا جواب"؟. قال: "نعم". في ذلك المساء، قلت لوجدان بعد أن رجعنا إلى البيت: "اسمعي ياوجدان. أنت امرأة شابة، وإذا كنت تريدين طفلاً، فإني أرى الأمر طبيعياً جداً. وفي هذه الحال أقترح الطلاق. فكّري بالأمر، ولا تردّي عليّ الآن. خذي الوقت الذي تحبين". قالت لي بعد أسبوع: "إن كنت أريد طفلاً فإنما أريده منك أنت، وإلا فلا حاجة لي به. هذه إرادة الله. وأنا راضية بما أراده الله لنا". كان هذا في خريف عام ١٩٩١ ، أي قبل سفرنا إلى القاهرة بوقت قصير.. وفي ربيع ١٩٩٢ ، رجعت وجدان تؤلمني. ولكن بقسوة أكبر هذه المرة. أتذكر يوماً كنت عائداً فيه من بيروت. أظنه يوم ١٦/ ١٩٩٢/٤ كنت في بيروت أنا وريمون. اشتريت هناك شوكولاته كثيرة. قال لي ريمون: "لمن كل هذه الشوكولاته"؟. قلت: "هل نسيت أن عندي في البيت طفلة صغيرة"؟. قال: "والله وجدان تستاهل".. وصلتُ البيت على الساعة العاشرة ليلاً. ولم أكن قد غبت عن وجدان إلا يومين فقط.. كانت تتمدد على ديوان قبالة التلفزيون. لم تتحرك من مطرحها، ولم تُبدِ نحوي أي اشتياق. وهذا ليس من عادتها. كانت تبدو حزينة. أو: كانت تتظاهر بالحزن. هذا ماأؤمن به الآن. قلت

لها: "مابك"؟. قالت بجفاء: "لاشيء". قلت في نفسي: صبراً ياولد! وقلت لها: "انظري ماذا أحضرت لك من بيروت"، ووضعت الشوكولاته الكثيرة على تريزة بجانبها. لم تحرك ساكناً. ألقت على الشوكولاته نظرة استخفاف. قلت: "مابك". قالت: "أشعر بالملل. يعرضون فيلماً سخيفاً". قلت: "لماذا لا تستخدمين الفيديو؟ لدينا مجموعة من الأفلام الجيدة". قالت: "لا أرغب". قلت: "مابك ياوجدان"؟. وشرعت بالبكاء فجأة. ثم دفنت وجهها بالوسادة. خشيتُ أنّ مكروهاً قد وقع لأحد من أهلها، أو أهلي، أو أصدقائنا. انحنيت عليها وقلت: "وجدان! إن كان هناك خبر سيء فلا تؤجليه. قوليه لي حالاً". قالت: "أهلي يحرضونني.. أهلي وأصدقائي أيضاً". لم أفهم شيئاً. قلت: "كيف يحرضونك؟ أقصد يحرضونك على ماذا". قالت: "أنت تعرف". قلت: "لا. لا أعرف". قالت: "تعرف أني أعيش بلا طفل". فقدتُ أعصابي مرة واحدة. شتمتها كثيراً. شتمتها بأكثر الكلمات بذاءة. شتمت أهلها، وأصدقاءها، كيف يسمح أحد لنفسه بأن يقيمني من خلال عدد الحيوانات عندي في السائل المنوي؟! كيف يمكن للناس أن تكون بهذه القسوة؟!! كم شتمتها تلك الليلة!! حتى أني كدت، في إحدى اللحظات، أن أضربها. لم أفعل طبعاً. وفي لحظة ثانية خفت على قلبي أن يتشقف. خفت عليه أن يتشظى في صدري. تركتها في مطرحها، وذهبت إلى غرفة النوم. وابتلعت ثلاثة أقراص (موغادون). وانقبرت في الفراش. في الصباح، أبدت ندماً كبيراً تجاه ماحل بي. وطلبت مني الغفران. قلت لها: "إنني أغفر لك ياصديقتي". وقد غفرت لها. ولكني فكرت بالطلاق جدياً. ثم جعلت أرسخ هذه الفكرة بين أضلاعي. جعلت أجذرها في نفسي. وقد ساعدتني وجدان على ذلك، فقد رجعت تقول: "أهلي وأصدقائي يحرضونني". قالت هذه العبارة بعد أسبوع واحد على تلك الليلة التي فقدت فيها أعصابي، وشتمتها للمرة الأولى منذ عرفتها قبل أكثر من تسع سنوات.. قلت لعبد اللطيف: "لقد اتخذت قرار الطلاق". قال: "أنا لا أريدك أن تندم في المستقبل". كنا في مدينة الرميلان، في أقصى شمال شرق سوريا. كانت الوقت بعد المغرب. بل كان قد حل الغسق. لعل الساعة شارفت التاسعة، فقد أخذت النجوم مواقعها في السماء. نظرت إليها فوجدتها لا تشبه النجوم التي في سماء دمشق. ودمشق في الجنوب. ولكل جنوب شمال. وفي شمالنا ذاك رحابة لا تنتهي. كنت أتمشى مع عبد اللطيف في طريق خاوية، هادئة، قريبة من البيت حيث أقمنا في واحد من مجمعات سكن عمال النفط. تركنا أنطوانيت ولاريسا تحضران طعاماً للعشاء. وخرجنا، كان عبد اللطيف قد لاحظ أني مضطرب مذ وصلنا إلى الشمال، بل مذ غادرنا دمشق. قال: "هل

تحب أن تتحدث في الذي يزعجك"؟. قلت: "نعم". قال: "ماذا"؟. قلت: "وجدان". قال: "ماذا"؟. قلت: "لقد اتخذتُ قراراً بالطلاق لن أعدل عنه". ونظرتُ إلى سماء الشمال. كانت النجوم تتلألأ أكثر من المعتاد في مساء ذلك اليوم/ ٢٣/٥/ ١٩٩٢ . هذا التاريخ لا يمكن تضييعه، ففي الصباح، وعند الساعة الثامنة تمّ تصوير أول لقطة في أول مشهد من (صهيل الجهات) فوق تل يشرف على نهر النمر، أو نهر الدجلة كما نسميه نحن العرب. كان مشهداً سيئاً فيما أتذكر. أو بالأصح، لم يكن سيئاً، بل كان فائضاً عن الحاجة. حاولنا أنا وعبد اللطيف إقناع ماهر بعدم تصوير هذا المشهد. لكنه أصرّ على تصويره من دون أن يدحض رأينا حول عدم ضرورته في سياق الحدث. قلنا: لعلّ في رأس الرجل شيئاً لا يريد أن يبوح لنا به، فلذنا بالصمت.. بالمناسبة: سقط هذا المشهد من الفيلم أثناء المونتاج. على أية حال، هو مشهد صغير.. وقلت لعبد اللطيف: "بدأ يتعمق في داخلي شعور لن أقدر على حمله طويلاً بين أضلاعي. بدأت أشعر بأني مجرم أبدي. أحرم امرأة من أن تصير أماً. وأحرم حياة من القدوم إلى الحياة. وأنا لن أقدر على المصالحة مع شعور كهذا في المستقبل. بت أتصور نفسي مثل (راسكولنيكوف). مجرم أبدي. مجرم مدى الحياة". قال عبد اللطيف: "إنك تؤذي نفسك بهذه الأفكار المشوشة ياصديقي". ورجعنا إلى البيت. وقالت لي أنطوانيت: "يجب أن تأكل ياحسن". وقلت للجميع: "أنا ذاهب إلى جورج. أريد أن أشرب كأساً". خرجت من البيت، وذهبت إلى جورج في البيت المجاور. إنه مدير تصوير الفيلم. صبَّ لي كأساً. وصبَّ لنفسه كأساً. ثم انضمَّت إلينا (ماكييرة) الفيلم. جاءت تتذمر من السكن. جلست، ولم تشرب. نظرت إلي وقالت: "ماالذي تفعله أنت هنا؟ ماذا جئت تفعل في هذا الشمال الملعون"؟. قلت: "أساعد صديقي ماهر". قالت: "لقد أعطونا هذه الغرف البائسة في مجمع العمال السكني. ولكننا سنرحل قريباً إلى الصحراء. وعندئذٍ، الله أعلم كيف ستكون حياتنا. فما حاجتك أنت إلينا؟ سمعت أنك تتقاضى أعلى الأجور عن الكتابة للتلفزيون. فلماذا لا تجلس في بيتك في دمشق، وتكتب مسلسلة تلفزيونية، وتحصل على نقود كثيرة؟ ماالذي تفعله هنا حقاً؟ أم أنك هارب من دمشق؟ ولكنك لست هارباً من زوجتك. أليس كذلك؟ إنها امرأة لطيفة جداً". قلت: "نعم. زوجتي امرأة لطيفة جداً". قالت: "فمن أي شيء أنت هارب إذن"؟. لقد وضعت الماكييرة إصبعها على الجرح تماماً، إذ لم يكن لوجودي في مجموعة الفيلم جدوى أكيدة. صحيح أن ماهراً صديقٌ لي، ولكني لست مخرجاً أو مصوراً. لست عبد اللطيف الذي يمكن اعتباره مخرجاً جيداً بين السينمائيين العرب. كنت

قد قدمت لماهر بعض المساعدة في كتابة السيناريو، أما في مجال التنفيذ فقد كان وجودي مفيداً لماهر من الناحية المعنوية فقط.. إذن، لقد كنت هارباً من دمشق. بل كنت هارباً من وجدان. لكن، ورغم هروبي منها، رجعت إليها أربع مرات خلال ثلاثة شهور، هي مدة تصوير الفيلم. رجعت مرة من نهر الدجلة، وثانية من مدينة (دير الزور) على نهر الفرات، وثالثة من حلب: ٩٢/٧/٢٦ ، والمرة الرابعة والأخيرة من مدينة حمص.. وأعترف بأن الشوق إليها كان يقتلني أحياناً، رغم أني هارب منها. انظري إلى هذه الفوضى في المشاعر.. ورجعتْ الماكييرة في اليوم التالي تقول: "من أي شيء أنت هارب ياحسن"؟. قلت: "إني هارب من نفسي".. وقالت لي غانيا: "لماذا تجلس بعيداً؟ بماذا تفكر"؟. قلت: "أفكر في النزول إلى الماء. أفكر في أن أعبر نهر الدجلة. ارفع قميصي في يدي راية بيضاء، فلا يطلق عليّ الجنود الأتراك النار. يعتقلونني. أطلب اللجوء". قالت: "اللجوء عند الأتراك؟! ولماذا؟ لابد أنك تمزح". قلت: "لست أمزح". ونادت غانيا على زوجها. قالت: "تعال اسمع ياماهر". قلت: "اتركي ماهراً وشأنه. تكفيه هموم التصوير". قالت: "ولكن ماذا بك ياحسن"؟. قلت: "لست أعرف ماالذي بي. أو ربما كنت أعرف ولا أريد أن أتكلم". قالت: "فهل تعتقد بأنك تريحني بهذا الجواب؟ إنك تشوشني بدلاً من ذلك". قلت: "أوشكوا على الانتهاء من التحضير للقطة. قد يصورون قريباً. اذهبي وتفرجي". قالت: "وأنت"؟. قلت: "سأظل جالساً أتفرج على النهر الزاحف بين هذه الجبال والوديان الكثيرة. إنه حقاً يشبه الأفعى، فلماذا يسمونه النمر"؟!.. وقال عبد اللطيف: "ماتفعله بنفسك ليس حسناً". وقالت أنطوانيت: "أنت تضرب رقماً قياسياً بسرعة تدمير الذات". وقال ماهر: "أنت تظلم وجدان". وقالت وجدان: "أنا لا أفهم لماذا تصحبني إلى هذا المطعم بالذات". قلت: "لأنه قريب ومكشوف". قالت: "لست أدري لماذا لا أصدقك". قلت: "لأنك لا تثقين بي". قالت: "فهل تثق بي أنت"؟. قلت: "لا. أنا لا أثق بك ياوجدان. وهذا هو جوهر مشكلتي معك". قالت: "ما العمل إذن"؟. قلت: "الطلاق". قالت: "بئسَ الحل هذا". قلت: "ليس أمامنا سواه". قالت: "إنني أرفض الطلاق". قلت: "أنا عائد إلى ماهر. إنه في حاجتي. اضطر عبد اللطيف هو الآخر على المجيء إلى دمشق". قالت: "أنت ذاهب إلى أصدقائك، فماذا أفعل أنا"؟. قلت: "هذه مشكلتك". وقال ماهر: "تأخرت". قلت: "لم أغب إلا ستين ساعة". قال: "كثير. هذا كثير. في رأسي موال أحب أن أناقشه معك، وبسرعة. يجب أن نحسم الأمر قبل أن نتوجه إلى حلب وبقية المدن". قلت: "ماذا"؟. قال: "نعود إلى نهر الدجلة. مازلنا قريبين من الدجلة، نصور مشهداً آخر

هناك". قلت: "أي مشهد"؟. قال: "نكتبه". قلت: "نناقش الأمر". قالت غانيا: "رجعت تتفرج على النهر"؟. قلت: "اجلسي". قالت: "كم اشتقت إلى هذا المكان"!. قلت: "الشمس حارقة". قالت: "متى برأيك نغادر إلى حلب"؟. قلت: "بعد ثلاثة أيام أو أربعة". قالت: "كم الأكسجين كثير هنا"!. قلت: "أريد أن أنام". قالت: "أنت تظلم وجدان ياحسن". قلت: "سوف أنام في حلب". قالت: "هل تستطيع أن تعيش من دون وجدان"؟. قلت: "كل شيء بات سيّان عندي". قالت: "ولكنك لا تأكل، ولا تنام، فكيف تقول سيّان عندي"؟. قلت: "لولا أخشى أن يبدو الطلاق تعسفياً، لمارست الحق الذي منحني إياه الشرع حتى النهاية". قالت: "سوف يبدو تعسفياً". قلت: "ولهذا أريده أن يتم بالمخالعة". قالت: "أين طاقيتك"؟. قلت: "لا أعرف، ربما ضاعت لما كنا على نهر الفرات". قالت: "والله إنك مثل ولد صغير. والله إنك سوف تضيع بعد وجدان". ومضت تبحث لي عن طاقية جديدة. قلت: "مع القهوة لو سمحت. ولكن بلا سكر". قالت: "كم فنجاناً شربت اليوم"؟. قلت: "إنني لا أعد". قالت: "لن آتيك بأية قهوة". قلت: "كما تحبين".. قال عبد اللطيف: "لابد من وجود لغة للتفاهم". قلت: "كنت أنتظر مجيئك إلى حلب، يجب أن أعود إلى دمشق يوماً أو يومين". قال: "لن أترك حلب قبل أن ترجع أنت من دمشق".. قالت غانيا: "عندي جلسة في المحكمة على الساعة الحادية عشرة". قلت: "نصل دمشق على العاشرة أو العاشرة والنصف". قالت: "تصور أني أدافع في المحكمة ضد العمال"!. وقالت: "لقد أعجبتني كثيراً مهنتكم. أشعر بسعادة عظيمة حين أزوركم في مواقع التصوير. ليتني درست السينما وليس الحقوق"!. وقالت: "لقد فات أوان الأمنيات. ولكني في جميع الأحوال، أفكر بترك الوظيفة. لن أظل أدافع عن الدولة ضد العمال. أفكر في أن يكون لي مكتب خاص بي". قلت: "كنت عهدت إليك بقضية طلاقنا أنا ووجدان". قالت: "كنت سأرفض جميع قضايا الطلاق، لا أحبُّ الطلاق". قلت: "ولكنه يصبح ضرورة أحياناً". قالت: "أعتقد بأنك تبالغ في الأمر كثيراً، وأعتقد بأنك تظلم وجدان".. وقالت وجدان: "ألا ترى إلى حالي"؟. قلت: "أرى". قالت: "فهل هذا منظر امرأة تقدر على الطلاق"؟. قلت: "ماالحل إذن"؟. قالت: "أي شيء آخر. لماذا الطلاق بالذات"؟. قلت: "لأن كلاً منا صار يدمر الآخر. فهل ترين إلى حالي أنا أيضاً"؟. قالت: "أرى". قلت: "وحدها البداية تكون صعبة". قالت: "هذا ليس صحيحاً". قلت: "سوف نتجاوز هذه المحنة ذات يوم. أنا واثق من ذلك". قالت: "متى"؟. قلت: "قريباً". قالت: "إذن، فأنت مصمم على الطلاق". قلت: "نعم". قالت: "لابأس،

ولكني أريدك أن تكون على ثقة من أني سوف أستعيدك ياحسن". قلت: "سنرى". قالت: "حسناً، إني موافقة على الطلاق". قلت: "نشهره اليوم". قالت: "تريد أن تقطع عليّ احتمالات العودة عن هذا القرار"؟. قلت: "بصراحة؟ نعم". قالت: "نشهر الطلاق اليوم". الأحد ١٩٩٢/٧/٢٦ . ولست أظن بأنها وافقت أخيراً على شيء لا تريده. أنا واثق من أنها كانت تريد الطلاق مثلي، أو أكثر مني، رغم أنها كانت تقاومه بشدة. ولكن لماذا كانت تريد الطلاق؟ بل، عموماً لماذا يسعى رجل متزوج أو امرأة متزوجة إلى الطلاق؟ إن أول مايتبادر إلى الذهن، في أية قضية طلاق، هو وجود طرف ثالث. هذا، على الأقل، مايفعله الكتاب المبتدئون عادة. وهذا مايفعله عادة أيضاً كتاب المسلسلات التلفزيونية العرب، فهم يرون أن في غياب الطرف الثالث حرمان للحكاية التي يكتبونها من أحد عناصرها الرئيسية الثلاثة، أو فلنقل إحدى ركائزها الرئيسية الثلاث، فتكون بالتالي محرومة من حقها في أن تصير حكاية ممتعة يقصها ذلك الكاتب على المشاهدين في بيوتهم، فيسليهم، ويساعدهم على قتل الضجر الذي يعانون. وأنا لا أرى في كاتب المسلسلات التلفزيونية العربية إلا حكواتياً. لكنه للأسف حكواتي يفتقر إلى الخيال الذي كان يتمتع به أولئك القصّاصون الشعبيون الذين تركوا لنا أعمالاً عظيمة مثل (ألف ليلة وليلة)، أو (حكاية الزير سالم)، أو عشرات الكتب الأخرى التي تكشف عن خيال بلا حدود. رغم أن أولئك القصاصين الرائعين اعتمدوا في بناء بعض حكاياتهم على التاريخ. فشخصية (الزير سالم) مثلاً، لها وجود حقيقي، بل وجود كبير في تاريخ العرب القديم. إذ لا يخفى عليكِ أن (الزير) أو (مهلهل) - ولست أدري لماذا أحب أن أضيف (ال) التعريف إلى الكلمة الأخيرة بحيث تصير (المهلهل) - هما لقبان للشاعر الجاهلي (عُديّ بن ربيعة) أخو (كليب) - أمير تغلب التي هي أقوى قبائل العرب في الجاهلية، والتي قال فيها محمد عليه سلام الله وصلاته: "لولا الإسلام لأكلت تغلبُ العرب". ولقد لقّبوه مهلهلاً لطيب شعره ورقته، فقد هلهل الشعر أي أرقّه (كما جاء في كتاب الأغاني). ولقّبوه الزير لأنه كان زير نساء. ويقال إن كليباً هو الذي لقّبه كذلك. ولمّا مات كليب (قتله بنو بكر)، هرعت الرسل إلى مجلس الزير تحمل إليه نبأ الفاجعة، وقد كان في ذلك اليوم، كعادته، يعاقر الخمرة وينادم النساء. وفوجيء الجميع بأنه لم يكترث للنبأ، ولم يفهموا سبباً لموقفه، فنظر إليهم، وقال عبارته الشهيرة: "لا صحوَ اليوم، ولا سكرَ غداً. اليومُ خمرٌ، وغدٌ أمر". (ملاحظة على الهامش: يقال إن هذه العبارة ليست للمهلهل بل لامرىء القيس. وكان هو الآخر زير نساء. وكان في مجلسه يعاقر الخمر وينادم النساء لما جاءه نبأ مقتل أبيه - ملك

كندة ـ فقال للجميع: لا صحوَ اليوم، ولا سكرَ غداً. اليومَ خمرٌ، وغداً أمر.. ويقال أيضاً إن امرأ القيس ليس قائل هذا الكلام، بل إنه قد كرر قوله من بعد المهلهل بثلاثين أو أربعين سنة، ولكنه أدخل عليه تعديلاً واضحاً حين استبدل ظرف الزمان المنصوب من المبتدأ المرفوع. لقد كان امرؤ القيس شاعراً متعالياً دون ريب).. ومن غده أقلع المهلهل عن الخمرة، وصام عن النساء إلى الأبد، وخاض حرباً من أجل الثأر لأخيه كليب. إنها حرب (البسوس) التي دامت أربعين سنة، لم يشبع خلالها (الزير سالم) من قتل أعدائه، ولم يتوقف خلالها عن قرض الشعر في أخيه كليب. بكاه كثيراً، وقال فيه قصائد كثيرة أيضاً. ولعل أشهر هذه القصائد، تلك التي مطلعها: أليلتنا بذي حسم أنيري/ إذا أنت انقضيت فلا تحوري.. وأعود إلى الكاتب التلفزيوني العربي فأقول: لعلّه ليس يفتقر إلى الخيال، ولكنه محكوم بمجموعة أنظمة رقابية صارمة تكبح انطلاقة خياله، فالمحظورات أكثر من كثيرة: السياسة، الجنس، الدين، الخ.. وبما أن قصة الحب التقليدية (مثلثة الأضلاع، أو مثلثة الزوايا) ليست من المحظورات، شريطة عدم الدخول في التفصيلات طبعاً، وبخاصة التفصيلات الجنسية، فإن الكاتب التلفزيوني العربي لا يفكر لحظة واحدة في احتمالات تغييب الطرف الثالث. لا يجهد نفسه بالتفكير في أن غياب الطرف الثالث قد يقوّي الحكاية، وليس العكس. والمشكلة فيما أقوله الآن هي أن الكاتب التلفزيوني العربي محق تماماً عندما يصر على وجود الطرف الثالث، لأن هذا الطرف موجود حتى لو كان غائباً. لكن إصرار الكاتب على تجسيد هذا الوجود هو المشكلة الحقيقية في الكتابة التلفزيونية العربية، لأن تجسيد الطرف الثالث هو أسهل الحلول، وأقلّها مشقة، وأكثرها سلامة أمام الرقباء.. كل شيء على السطح، ولا شيء في العمق، نكتب عن الظاهر فقط. أما الباطن! أما الجواني! هذا ليس من اختصاصنا. أي بؤس!! وللمناسبة فقط، لست أستثني نفسي هنا، فقد سبق لي ولعبت هذه اللعبة. وأعترف بأني تعاملت مع التلفزيون باستخفاف وعدم مسؤولية. وربما كنت مخطئاً. وأتمنى لو أستطيع الآن أن أتبرأ مما كتبت. عرضت على الشاشة شخوصاً ذوي بعد واحد. وما أبشع البعد الواحد! وما أبعده عن الحقيقة! فهل ثمة إنسان على الأرض ذو بعد واحد؟ وأين هو ذلك الإنسان؟ إن كلاً منا ذو عشرين بعداً، أو ثلاثين، أو خمسين، أو الله وحده يعلم بعدد أبعاد كل منا.. إن الطرف الثالث موجود حتماً وتلك حقيقة يصعب التهرب منها، بل من الحماقة عدم أخذها على محمل الجد. وليس عند التفكير بالطلاق فحسب، وإنما بوجه عام أيضاً. فأنا شخصياً أشك في وجود رجل متزوج على الأرض لم يفكر يوماً بامرأة غير زوجته. وأشكّ في وجود امرأة متزوجة

لم تفكر يوماً برجل غير زوجها. بل من غير الممكن تصور وجود مثل هذا الرجل أو تلك المرأة. وأشك أيضاً بوجود إنسان متزوج لم يفكر يوماً في أنه أخطأ الاختيار بزواجه هذا، أو في أنه لن يكون أكثر سعادة لو تزوج من شخص آخر غير شريكه الحالي. وأذهب إلى أبعد من ذلك، فأقول: ليس على الأرض كلها إنسان واحد متزوج لم يفكر مرة (حتى لو كانت هذه المرة مجرد لحظة عابرة في الزمان) بأن شريكه يغشه، وبأن هذا الشريك لا يخلص له تماماً. المشكلة هي أننا لا نعترف بذلك. لا نجرؤ على الاعتراف، لأن الأمر على علاقة وثيقة بكرامتنا الشخصية، لذا فإننا نعمل على دفنه بين أضلاعنا، رغم مايسببه لنا من قلق وحيرة.. نعم، شريكنا يغشنا. إنه يفكر في شخص آخر، في طرف آخر، هو الطرف الثالث طبعاً، والذي ليس بالضرورة أن يكون وجوده حقيقياً في هذه اللحظة. نحن قادرون على أن نصنعه في خيالنا حين لا يكون موجوداً في الواقع. لن أجعل من نفسي مثالاً هنا، فأنا مثال سيء، وذلك لسبب بسيط: صحيح أنني لم أخن وجدان، لكن الصحيح أيضاً أني كنت أخونها معك أنت كل يوم تقريباً. كنت أخونها معك رغم بعدك، ورغم القطيعة التي طالت كثيراً بيننا أنا وأنت. إذن، أنا مثال سيء. لكن، ورغم كوني كذلك فإنني أبرهن على شيء ما حتماً في سلوكي هذا. أبرهن على أني لم أكن مخلصاً لوجدان تماماً. وأنا في الحقيقة لم أكن أقدر على الإخلاص لها، وذلك لسبب آخر بسيط أيضاً هو أن هذا الأمر فوق طاقتي. شأني شأن الجميع، فلا أحد يقدر على الإخلاص، لأن الإخلاص بمفهومه السائد إنما هو أمر ينافي، على نحو فاقع، طبيعتنا البدئية. إنه يتعارض مع هذه الطبيعة تعارضاً كلياً. ولهذا فإن جميع الشرائع، الأرضية منها والسماوية، إنما تهدف بالأساس إلى تهذيب هذه الطبيعة، وتنظيمها، والارتقاء بها من البدائية إلى التحضر. والحضارة ليست من طبيعتنا البشرية. إننا نسبح عكس التيار. ونحن نفعل ذلك مرغمين، لأننا إن لم نفعل، فماذا يمكن أن يحدث وأية فوضى يمكن أن تصيب حياتنا جميعاً؟! أخشى ماأخشاه هذه اللحظة هو أنني أسرق أفكار الكاتب الفرنسي العظيم (دي رجمون)، الذي تأثرت بكتابه العظيم أيضاً (الحب والغرب) تأثراً كبيراً. وفي الحقيقة أني قرأت هذا الكتاب منذ زمن بعيد. والكتاب دراسة في أسطورة (تريستان وإيزولدا) التي هي من أكثر أساطير الحب شهرة في تاريخ البشر، أو في تاريخ أوروبا على الأقل. وإن كنت لا أسرق أفكار دي رجمون ـ وهذا ماأرجوه ـ أجدني ملزماً على الاعتراف بأني أكتب هذا الكلام بوحي منه.. ليس صدفة أن المسيحية حاربت الطلاق بقوة، حتى قالت: ليس يحق للإنسان أن يفرّق ماجمعه الله. ومن غير الصدفة كذلك أن أبغض الحلال

عند الله ـ في الإسلام ـ الطلاق. وهذا فيما أظن حديث نبوي.. ولا هو صدفة أيضاً ذلك الكمُّ الهائل من القوانين والتشريعات في مختلف بلدان العالم والتي تهدف إلى حماية الطفل والطفولة، أو حماية المرأة، أو تنظيم الأسرة، الخ... هذا كله ليس صدفة وليس عبثاً. إنه عمل مدروس، ومنظم، غايته الأخيرة كبح جماح الإنسان في سعيه اللاهث وراء الحب. أي وراء الفوضى وتدمير الذات، وتدمير الآخرين أيضاً. فالإنسان في زواجه البائس كثير الاقتناع بخطأ فعلته، وكثير الاقتناع أيضاً بأنه لو حصل على فرصة ثانية لكانت حاله أفضل، لأنه في المرة الأولى لم يحصل على نصفه الضائع، ولأن نصفه الضائع مازال ضائعاً. وكل إنسان ـ على رأي أفلاطون ـ يقضي عمره في البحث عن نصفه الضائع. ومهما تظاهرنا بأننا سعداء في زواجنا فإننا نظل نفكر بنصفنا الذي ضاع منا مذ جئنا إلى الوجود. وهكذا نجد أنفسنا مرغمين على التفكير بالعثور على ماسبق وضاع منا. ليس بالضرورة أن نعمل على الطلاق. بل إننا غالباً لا نستطيع ذلك. هناك أنظمة، وقوانين، وأعراف سائدة، وأخلاق سائدة أيضاً. وهناك ظروف الحياة الصعبة. هذه الأشياء مجتمعة تمنعنا من العودة إلى طبيعتنا البدئية. ولكن لا شيء يمنعنا من التفكير بذلك. لاشيء يمنعنا من التفكير بالفرصة الثانية. وعند الحديث عن الفرصة الثانية لابد من دخول طرف آخر على الخط، بغض النظر عما إذا كان دخوله حقيقياً أم وهمياً. وفي جميع الحالات فإن الطرف الآخر ـ في تصوراتنا ـ أفضل حتماً مما هو لدينا الآن. وذلك لأحد أو بعض الأسباب المثيرة التي يمكن أن تخطر في البال: إنه أكثر شباباً، أو جمالاً، أو غنىً، أو شهرةً، أو ثقافةً، الخ.. وقد يكون الأمر صحيحاً تماماً. لكنه لن يكون صحيحاً إلا اليوم. وماهو صحيح اليوم ليس بالضرورة أن يكون صحيحاً غداً، فالشباب مثلاً لا يدوم. وحُسنُ الوجوهِ ـ على رأي المتنبي ـ حال تحولُ. والإنسان ـ أي إنسان ـ لا يمكنه أن يكون الأفضل أبداً. لا يمكنه أن يكون الأول على الدوام. سوف يكتشف قريباً أن أحداً قد سبقه إلى المرتبة الأولى. فماذا بعد؟ إننا سرعان ماسوف نكتشف أن فرصتنا الثانية ـ عندما نحققها ـ لا تفي بمتطلباتنا الحقيقة، لأن شريكنا في فرصتنا الثانية لم يعد الأول. ومن جديد: ماذا بعد؟ هل سنفكر في فرصة ثالثة؟ قد نفعل. قد نحقق الفرصة الثالثة. غير أننا سرعان ماسنكتشف أننا لسنا سوى حمقى بائسين. هل تفلسفت؟ ربما. تحمّليني. أرجوك. أترك الفلسفة جانباً، وأعود إلى وجدان. لماذا كانت تريد الطلاق، كما أعتقد أنا؟ من الصعب طبعاً القفز عن مسألة هي في غاية الأهمية بالنسبة إلى الأنثى. من الصعب القفز عن غريزة الأمومة. ولكن هل عدم تحقيق هذه الغريزة سبب كافٍ من أجل الرغبة في الطلاق؟ الجواب:

نعم. بل هو سبب أكثر من كاف، لأنه، وباختصار شديد، الوسيلة إلى الفرصة الثانية. ليس عندي شك في هذا. وربما كنت أصرّ على الطلاق، في حينه، لهذا السبب، أكثر مما كنت أصر عليه بسبب إحساسي بالجريمة الأبدية التي كنت أمارسها بحق وجدان. هذا ماأعتقد به اليوم. لعلني أيقنت في لحظة من اللحظات أن وجدان لا تحبني. وعدم الحب سبب وجيه للطلاق طبعاً. ومن يدري؟ ربما كان هنالك أسباب أخرى. وربما أقول غداً أو بعد غدٍ كلاماً غير هذا. كلاماً ينقض هذه الفكرة من أساسها. مرة ثانية: تحمّليني. أعرف أني رجل متناقض. فأنا في النهاية إنسان، وألعن مافي هذه الحياة هو الإنسان نفسه. إنه كومة من ألغاز. ومن يستطيع الادّعاء بأنه يعرف الطبيعة الإنسانية؟! من هو الأحمق الذي يستطيع ادّعاء ذلك؟! على أية حال، هاهي وجدان تحقق فرصتها الثانية بعد أن حققت رغبتها في الطلاق الذي كانت تقاومه بشدة.. ربما لاح لها ـ في أفكارها ـ طيف ذلك الرجل الذي سوف يصير خطيبها لاحقاً، ثم زوجها، أكثر من مرة. وليس بالضرورة أن تكون قد تحدثت إليه بشيء خاص لما كانت متزوجة بعد. بل أشكّ في أن شيئاً من هذا قد وقع. معرفتي بها هي التي تجعلني في شك من ذلك، مثلما جعلتني سابقاً في شك من أن تكون قد خانتني، رغم أن بعضهم قال بخلاف ذلك. لكن، وبغض النظر عن شكوكي، فقد كان ذلك الرجل موجوداً، فهو يزور دمشق مرة في العام أو مرتين، أو ثلاثاً. تلتقيه ويلتقيها لأنه يزور بيت أهلها، إذ أنه قريب أبيها، وصديقه إلى حد ما، حتى أن بين الرجلين تجارة مشتركة، أو شيئاً من هذا القبيل. ثم إن هذا الرجل ـ وبالمقارنة معي ـ يفضلني في عدد من الأمور. وربما تكون وجدان ـ في اللاوعي على الأقل ـ قد أجرت مقارنة بيني وبينه. هو أصغر مني بستة أعوام. وهو رجل غني. ثم إنه يحمل الجنسية الكندية. أي أنه يملك جواز سفر كندياً محترماً في جميع أنحاء المعمورة، بينما أملك أنا (وثيقة سفر للاجئين الفلسطينيين). وهذه الوثيقة لا تحظى باحترام أحد في العالم، بما في ذلك موظفي سفارات الدول الأكثر تبجحاً بحقوق الإنسان، مثل: سويسرا، وفرنسا، وأمريكا، وألمانيا، وسواها. بل إن هذه الوثيقة لا تحظى باحترام موظفي سفارات الدول العربية ذاتها.. وعلى رأي طَرَفَة بن العبد: وظلمُ ذوي القربى أشدّ مضاضةً/ على النفس من وقع الحسام المهند.. فلماذا ألوم سويسرا وفرنسا وأمريكا، وسواها، مادامت العرب نفسها تضطهد الفلسطينيين الذين منهم وفيهم؟ وأبتعد قليلاً عن الموضوع، فأقول: إن حماس بعض الفلسطينيين لاتفاق (غزة ـ أريحا) إنما يجيء أولاً من الرغبة القاتلة في أن يصير لنا وطن أخيراً، حتى لو كان هذا الوطن مجرد خيمة نرفع فوقها علمنا، ونصنع فيها هويتنا، ونخلص بالتالي

من الاضطهاد الأبدي الذي نتعرض له من الأقربين والأبعدين على حد سواء. وهي وجهة نظر تبدو مقنعة. لكنها في الحقيقة لا تبدو كذلك إلا للوهلة الأولى. أما لو أمعنا فيها النظر، لوجدناها فكرة غبية من أساسها. هذا ماأراه أنا. كل شيء أو لاشيء. هذه هي فلسطين بالنسبة إلي.. وللمناسبة، أنا شخصياً ليس لي مشكلة مع السفارات المختلفة لأني أحمل غالباً جواز سفر سورياً صادراً عن وزارة الخارجية، وذلك لأني أشتغل في مؤسسة حكومية سورية، حتى أن دراستي في موسكو كانت على نفقة وزارة الثقافة من أجل العمل لحسابها بعد التخرج. والمؤسسة العامة للسينما هي إحدى مؤسسات وزارة الثقافة. غير أن جواز السفر هذا الذي أتحدث عنه غير صالح للاستخدام إلا في المهام الرسمية فقط. أما في أسفاري الخاصة فإني أكون مضطراً للعودة إلى (وثيقة السفر للاجئين الفلسطينيين) التي لا يحترمها أحد في العالم، والتي لا يمكن مقارنتها، في حال من الأحوال، بجواز السفر الكندي. وهكذا تكون المقارنة بيني وبين الطرف الآخر في غير صالحي أنا. وهذا كله طبعاً إن كانت وجدان قد فكرت بالأمر على هذا النحو بالذات ـ لعلها فكرت أيضاً ببعض محاسني غير الموجودة عند الطرف الآخر، أو ببعض مساوىء الطرف الآخر غير الموجودة عندي. وأعود إلى تناقضي فأقول: أشك في أن تكون قد فعلت ذلك بدقة. لعل أكثر ماكان يسيطر على أفكارها هو: الإغراء الذي يحمله إلينا وهم الفرصة الثانية بالسعادة. وهأنذا أسمعك تتذمرين، وتقولين لي: وبعد؟! إلى متى ستظل تنفي في السطر الثاني ماتثبته في السطر الأول؟! ولا أجد جواباً لدي سوى: إن الإنسان كومة من ألغاز. لكن الذي أنا واثق منه تماماً هو أن وجدان كانت ترفض الطلاق وتسعى إليه في آن. لعلها كانت تخاف الطلاق. كانت تخاف الفرصة الثانية (من الواضح أنها لم تكن متبلورة في ذهنها تماماً خلال تلك الفترة). كانت تخاف المستقبل باحتمالاته التي لا حصر لها. وكلها احتمالات مجهولة الطابع، وربما بدت لها مرعبة في بعض اللحظات. وكانت تخاف بشكل خاص الشائعات حول سمعتها في فترة التطليق، لما كنت أنا غائباً عن دمشق. كان الطلاق سيبدو تأكيداً لتلك الشائعات. وأنا فهمت مخاوفها هذه. وعملت على مساعدتها في تجاوز تلك المخاوف دون أن أجعلها تشعر بأني أفعل ماأفعله عمداً. صرت أكثر من الظهور معها في الأماكن العامة، حتى بعد الطلاق. بقينا نزور بعض الأصدقاء معاً، ونذهب إلى المطاعم معاً. وكنت كلما ذهبت إلى المؤسسة أعرج على غرفتها، وأشرب عندها القهوة. حتى أن كثيرين كانوا يعتقدون بأن الطلاق لم يقع، وبأننا نلعب أنا وهي، أو نتسلى. كم كنت أخاف على مشاعرها تلك الفترة من أن تتأذى! وكنت أدرك بأني

لو تخليت عنها فوراً، أو فجأة، لعملت على تدميرها. وأنا لم أكن أسعى إلى تدميرها في يوم من الأيام. ولماذا أدمرها؟ لقد تحملتني كثيراً. إنني أتذكر بمرارة الألم الذي كانت تسببه لي في بعض الأحيان، ولكني أتذكر أكثر السعادة التي طالما حملتها إليّ هذه المرأة. ثم "هل جزاء الإحسان إلا الإحسان"؟ ولهذا بقيت مهتماً بشؤونها المختلفة. كم ظهر من الناس الراغبين في الانتقام من هذه المرأة الجميلة المتكبرة بعد أن سمعوا بالطلاق! لعلهم فكروا في أنفسهم: إنها لم تعد الآن محمية من حسن. ثم كم فوجيء هؤلاء الناس بموقفي الذي خالف جميع تصوراتهم. قلت للجميع: "أمر هذه المرأة يهمني، وإلى الأبد، ومن يزعجها يزعجني أنا". لم يكن من الهيّن علي أن أراها تحت رحمة الآخرين. قالت لي بعد الطلاق بفترة قصيرة، وكنا نتناول الغداء في أحد المطاعم: "هل تخاف علي"؟. قلت: "بصراحة؟ نعم". قالت: "وهل تخاف على فاطمة"؟.قلت: "لا". قالت: "لماذا"؟. قلت: "أظنها امرأة قوية". قالت: "هل يعني هذا أني امرأة ضعيفة"؟. قلت: "بل إنك شديدة الضعف ياوجدان". قالت: "يبدو أني كذلك. وقد عرفت نفسي أكثر بعد الطلاق". وقالت: "هل تجيبني بصراحة"؟. قلت: "نعم". قالت: "هل كنت تسعى إلى الطلاق معي من أجل فاطمة"؟. قلت: "لا". قالت: "بصراحة". قلت: "بصراحة". قالت: "ألا تتصل بها"؟. قلت: "فكرت مرة بذلك، ثم عدلت عن الفكرة". قالت: "لماذا"؟. قلت: "أظنني الآن في حاجة إلى الابتعاد عن النساء". قالت: "حتى عن فاطمة"؟. قلت: "حتى عن فاطمة". قالت: "هل تعرف؟ أفكر في أن أتحجب". قلت: "هذا شأنك". وفي الحقيقة أنني لم أكن لأستغرب لو رأيتها محجبة ذات يوم، فهي بالأساس امرأة متدينة على نحو من الأنحاء. تصوم شهر رمضان، وتصلي في رمضان، كما تصلي أحياناً خارج رمضان، وتدفع الزكاة. مذ تحسن وضعنا المالي وهي تدفع الزكاة. وأنا لم أكن أتدخل في معتقداتها. ذلك شأنها. حتى أني كنت في ليالي رمضان أحضر لها طعام السحور، ثم أوقظها من النوم في الوقت المناسب. كانت تقوم من الفراش، تغسل وجهها، تأكل، تتوضأ، ثم تتحجب من قمة رأسها حتى أخمص قدميها. ثم تروح تقرأ في القرآن إلى أن يحين موعد صلاة الفجر. كان حجابها أبيض ناصع البياض. هي امرأة تعشق النظافة. كان حجابها ذاك يتألف من قطعتين كبيرتين: علوية وسفلية. لست أعرف كيف يسمون هذا النوع من الحجاب. عندما ترتديه فوق البيجاما أو قميص النوم، تغيب فيه تماماً، بحيث لا يبين منها إلا بعض وجهها فقط؟ العينان، والأنف، والفم، وجزء من الذقن. حتى كفاها وقدماها تختفي تماماً تحت القماش ناصع البياض. كم كان يطيب لي النظر إليها وهي في حجابها ذاك تقرأ

القرآن، وقد انكمشت على نفسها في جزء من الأريكة! كم كانت تبدو عفيفة، طاهرة، نقية، بريئة براءة طفل رضيع! وكم كنت أهمس لنفسي: في هذه المرأة بعض من قديسة! كانت بعد أن تنتهي من قراءة القرآن، تطبق الكتاب بهدوء، وتقبّل غلافه بخشوع قبل أن تعيده إلى "بيته"، الذي من قماش أبيض طرزت عليه زركشات مجردة. تقوم بعد ذلك إلى الصلاة. تفرد سجادة صغيرة أمامها (هي سجادة من النوع العادي)، وتيمم وجهها شطر البيت الحرام، وتكبر بصوت خفيض، وتتعوذ من الشيطان، وتبسمل، وتغرق في العبادة. كانت في بعض الأحيان تصلي عدداً كبيراً من الركعات. وبعد الصلاة تشرع بالدعاء، وبالكاد تلتقط أذناي صوتها: اللهم اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب.. اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.. اللهم ارحمنا على الأرض وارحمنا تحت الأرض وارحمنا يوم العرض.. اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب بفضلك ياأرحم الراحمين.. ومن جهة ثانية: لم تضع وجدان منديلاً على رأسها (خارج أوقات الصلاة) في أي يوم، ولا حتى في رمضان (لكن، وبعد موت أمها، وضعت على رأسها شالاً أبيض قرابة شهر ونصف شهر). أما إذا خرجنا من رمضان فقد كان يحلو لها أن ترتدي بنطلوناً ضيقاً يبرز مفاتنها. وفي الصيف كانت تحب أن ترتدي تنورة قصيرة وقميصاً بلا أكمام. ومثل هذه الثياب تليق بها كثيراً، فقوامها جميل مثل وجهها. قلت لها ذات مرة: "هل تحبين أن تكوني مثار اهتمام الآخرين بهذه الملابس"؟. وأتذكر أنها قالت لي: "مامن امرأة إلا وتحب ذلك". وقلت في نفسي: في هذه المرأة بعض من عاهرة. وقلت لها: "ولكن كيف توفقين بين عرض ساقيك على الملأ وبين الصوم والصلاة"؟. قالت: "لا أعرف. ثم إنك تحب النكد". وفي الحقيقة أنني لم أكن أحب النكد. فقط، كنت أحب أن أفهم. أن تكوني امرأة متحررة فهذا أمر أفهمه. وأن تكوني امرأة متدينة فهذا أمر أفهمه أيضاً. أما أن تكوني امرأة متحررة ومتدينة في آن، فهذا مالا يمكنني فهمه أبداً. لقد كانت امرأة متناقضة بحق. وأعترف بأني لم أستطع أن أفهمها حتى النهاية. كانت تريد أن تكسب الأرض، وتكسب السماء، دون أن تخسر شيئاً من الأرض أو في السماء. وأعترف ثانية بأني لم أفهمها حتى النهاية. لكني، وفي المقابل، كنت أشفق على بعض العاهرة الذي فيها، وأشفق على بعض القديسة أيضاً. كان ينحسر طرف التنورة القصيرة إلى أعلى كلما جلست في مقعدها في أحد الأماكن العامة، فتمتد كفا القديسة بحركة آلية لتغطي ساقي العاهرة. كنت أنظر إليها، وأرى قلقها وارتباكها، وأبتسم، وأشعر بتناقضها، وأعترف بأني لا أفهمها، وأرفع الراية البيضاء. كتبت لي من باريس مرة

(كانت زيارة باريس أحد أحلام حياتها، ولما صار وضعنا المالي جيداً، حققتُ لها ذلك الحلم)، قالت في تلك الرسالة التي حملها إلي محمد ملص: "إذا أراد الله أن يبتلي إنساناً بمصيبة يجعله يحب إنساناً آخر كما أحبك ياحسن". وبعد عودتها إلى دمشق بأسبوعين أو ثلاثة تشاجرنا بسبب خطأ ارتكبته أنا. وأنا لا أستطيع أن أتذكر خطأي لأنني كنت سكران لحظة ارتكابه. وأن أسكر بحيث أفقد الوعي (في حفلة زفاف) هو بذاته خطأ كبير. والذي حصل في تلك الليلة، كما قيل لي فيما بعد، هو أني تغزلت بإحدى النساء، بحضور وجدان طبعاً. ولو رأيت تلك المرأة صباح اليوم التالي لما عرفتها، لأنني حقاً لا أتذكر أي شيء. قالت لي وجدان: "لقد عانقتها. عانقتها طويلاً". وقالت: "وتلك الكلبة كانت مسرورة. من المؤكد أنها كانت تغيظني". وقالت: "لقد أحسستُ بالصغار أمام الناس". هذه هي الحادثة. قلت: "أنا آسف ياوجدان، ولست أدري كيف تصرفت على هذا النحو الذي يفتقر إلى الكياسة حتماً. وأرجو أن تتجاوزي عن هذا الخطأ، وأن تغفريه لي". لكنها رفضت تجاوزه. وثارت ثائرتها، وانفجرت في نوبة من بكاء محموم. كنا نجلس على السرير في غرفة النوم. نهضت فجأة، وغادرت الغرفة وهي تتميز من شدة الغيظ. بقيتُ في مكاني. وسمعت صوتاً من المطبخ أرعبني. خشيت أن تكون قد صنعت بنفسها مكروهاً. قفزت من السرير، وذهبت إلى المطبخ راكضاً. كانت قد فقدت صوابها.. كانت تكسر الصحون. تضربها بالأرض بقوة. كسرت أكثر من عشرين صحناً في نوبة الغضب تلك. عملتُ المحال حتى جعلتها تهدأ. ثم حاولت مصالحتها. لكنها رفضت ذلك. رفضته بشدة. حتى أنها تركت البيت. ثم راحت تشكوني إلى بعض أصدقائي وأصدقائها. راحت تدخل الآخرين على خط حياتنا. وكان هذا أكبر أخطائها في العلاقة معي. وتفاقمت خلافاتنا وقتئذٍ لدرجة أنها طلبت الانفصال. قالت: "ليس الطلاق، بل الانفصال فترة من الزمن". قلت لها: "لكن الله ابتلاك بحبي، أفلا تغفرين"؟. ولم تغفر. ظلت تطلب الانفصال. قلت: "لست أرى مبرراً لهذا الانفصال. إنني أقترح الطلاق". وكدنا نطلق في ذلك الوقت أيضاً لولا تدخلت أختها في الأمر، وأصلحت مافسد بيننا. كان هذا في أواخر عام ١٩٨٨ .. إذن، هناك مجموعة من العناصر التي لعبت دوراً في جعل الطلاق ضرورة.. وأنت يافاطمة أحد تلك العناصر فقط. وحتى في غيابك، كان الطلاق حتمياً. لكنك كنت موجودة. وبخاصة في صيف عام ١٩٨٩ لما طلبت وجدان الانفصال من جديد بعد أن صدّقت ماقاله لها ذلك الكاتب عن زواجنا الوشيك أنا وأنت. اتفقنا على الطلاق، وذهبنا إلى مكتب المحامي من أجل إجراء المخالعة، وهو المحامي ذاته.

لكنه رفض إجراء المخالعة فوراً، وارتأى أن نتريث بعض الوقت. وتريثنا. وانصلحت الحال. وجاء مهرجان دمشق السينمائي. وكانت جائزتك في ختامه، وعادت الأمور وانقلبت. وسافرتُ إلى القاهرة. ورجعت محملاً بالشوكولاته السويسرية. واستقبلتني وجدان بالشوق. وقضينا ليلة ممتعة. وسألتني إن كانت فاطمة موجودة في القاهرة. وقلت لها: "لا". وقلت في نفسي: ليتها كانت موجودة! وتلك أمنية حملتها إلى كل مكان سافرت إليها من بعدك.. وقد سافرت كثيراً..

بعد ٩٢/٧/٢٦ ، رجعت إلى حلب، إلى (صهيل الجهات). قضيت هناك بضعة أيام مع المجموعة. غادرنا بعدها إلى حمص. وبقينا فيها بضعة أيام أُخر. زارتني وجدان خلالها أربعاً وعشرين ساعة. رجعت بعدها إلى دمشق. ورجعت أنا في اليوم التالي، وهو اليوم الذي انطلقت فيه المجموعة إلى اللاذقية لتصوير مشهد على البحر. قلت لماهر: "أعتقد بأني لن أتحمل جو البحر. الرطوبة مرتفعة جداً هناك في هذا الوقت من السنة. اعذرني يا صديقي. وإلى اللقاء". وفي حقيقة الأمر أنه كان لدي في العودة إل دمشق سببان: إجراء معاملة الطلاق من جهة، ومن جهة ثانية، كانت فكرة رواية (الغفران) قد بدأت تلوح في رأسي، فارتأيت أن ابدأ العمل دون إبطاء. وبدأتُ. لكن الكتابة سرعان ما تعثرت. واعتقدت وجدان بأن وجودها في البيت هو السبب في ذلك التعثر، فذهبت إلى أهلها، ثم رجعت إلى البيت بعد أربعة أيام، وزرنا المحامي في مكتبه، وأجرينا المخالعة، ورجعت هي إلى أهلها، ثم زارتني في البيت من جديد. ثم لم تطل إجراءات الطلاق إلا أسبوعاً واحداً بعد المخالعة، وأصدر القاضي حكمه باسم الشعب العربي السوري. وقالت لاريسا: "هذا الطلاق باطل". وقالت أنطوانيت: "لكنكما ستعودان عن هذا القرار". وقلت لها: "لا أعرف". وخرجتُ إلى الشارع. ورجعت إلى بيتي مشياً رغم طول المسافة. وأكلت سندويشاً في الطريق وأتذكر أني كنت أشعر بالرضا. وبقيت كذلك حتى فتحت باب البيت، ودخلت إليه. آلمتني رؤية الحقائب حيث أغراض وجدان. آلمني المنظر كثيراً. سمعت في الطريق أصوات أبناء أخي أبو النور(لا أحب أحياناً أن أنصب أو أجر كلمة أب. ولست أدري لماذا أرتاح لإبقائها في حالتها الابتدائية). ناديت على اثنين منهما. طلبت إليهما أن ينقلا الحقائب في الغد إلى وجدان. فوجئا بالأمر كله. لكنهما نفذاه في اليوم التالي.. وجلستُ إلى الطاولة. رجعت أكتب (الغفران). لكن ما إن مرت أيام قليلة حتى بدأتُ أحس بالوحدة. صرت أستوحش. وبدأت مظاهر الهلهلة تبدو في البيت جلياً.. في الليل كنت أشعر بالوحدة والوحشة أكثر من النهار.. في زمن

الزواج كنت أسهر خلف الطاولة أكتب، لكني لم أكن وحيداً رغم أن وجدان نائمة. كان يأتيني صوتها أحياناً من غرفة النوم: "عطشانة". وكنت أحضر لها الماء. وكانت تفاجئني في أحيان أخرى باستيقاظها من النوم. تأتيني إلى غرفة المكتبة. تمسك بالأوراق التي أمامي على الطاولة، وتدعكها، وترميها بعيداً، وتأخذ بيدي إلى غرفة النوم، وتقول: "بلا أدب بلا بطيخ. يجب أن تنام. أرجوك أن تنام". وفي بعض الأحيان أيضاً، كانت تناديني من الفراش، ولا أستجيب لندائها، فتروح تعزف بيديها على خشب السرير انغاماً تعلمتها، فيما أظن، لمّا كانت تلميذة في المدرسة، وتظل تعزف حتى أستسلم، فأنهض من وراء الطاولة، أذهب إلى غرفة النوم. وما إن تراني حتى تصفق بحرارة، فقد انتصرت علي. وأحياناً كانت تزغرد من نشوة النصر. وكنت أقول لها: "الناس نيام". وترد علي: "لا يهمني". مع أنها لم تكن تحب أن تزعج أحداً من البشر.. بعد أيام من الوحدة بدأتُ أفكر جدياً فيما إذا كان الطلاق عملاً صائباً. وفي بعض اللحظات شعرت بالندم. وفي لحظة ثانية شعرت بالأسى والحزن. حتى أني قلت مرة لعبد اللطيف: "ما عدت أحس بطعم الحياة من دون وجدان". لقد بدا لي جلياً أني متعلق بهذه المرأة. بل وأكثر من ذلك: بدا لي جلياً أني أعاني من فرط انتمائي إليها، تماماً كما عانيت وأعاني إلى اليوم من فرط انتمائي إليك أنت.. واستمريت أكتب. وبدأ أهلي يشفقون علي، فأزعجني هذا الأمر. وقنّنت في البداية علاقتي بهم. كدت أحصرها بإحدى بنات أخي الكبير. صارت تزورني كل يوم تقريباً. ترتب البيت، وتحضر لي لقمة. كانت الكتابة تساعدني. لكنها لم تكن تمنعني من الألم. وكنت أسأل نفسي: ماذا أفعل كي أتجاوز البداية. كنت أعتقد بأن البداية وحدها صعبة.. وفجأة يأتيني وهم الخلاص من ألم البداية.

في صباح اليوم الأول من اكتوبر قُرع جرس الباب في بيتي. ثمة سائق إحدى سيارات المؤسسة. جاء يحمل إلي رسالة من الإدارة. من شخص المدير العام: "هل أنت على استعداد للسفر إلى مهرجان طشقند السينمائي؟! إن كنت كذلك، جهز حقيبة السفر". وطشقند تعني موسكو بالضرورة، في ذلك الوقت على الأقل. وكدت أصيح من الفرح، لأني ما كنت في حاجة إلى شيء بقدر حاجتي إلى موسكو. لم يكن ثمة شيء في العالم ينقذني من الألم غير موسكو.. قالت لي وجدان: "هل حقاً أنك مسافر إلى موسكو"؟. قلت: "غداً. موسكو. طشقند. ثم موسكو من جديد". قالت: "هل ستتأخر هناك"؟. قلت: "لا أعرف". وقلت: "هل أحضر لك شيئاًخاصاً؟ هل تريدين شيئاً خاصاً"؟. قالت: "لا شيء خاص. لكن إن جئتني بهدية فلن أرفضها، بل سوف أكون سعيدة بها". قلت: "سآتيك بمجموعة

هدايا". قالت: "هل تمانع في أن نتغدى معاً اليوم"؟. قلت: "لا. ولكن بشرط. أنت تحددين المطعم، حتى لا تقولي لي: لماذا تصحبني إلى هذا المطعم بالذات"؟. قالت: "أعرف مطعماً قريباً. لكنه يقدم طعاماً أوروبياً فقط". قلت: "سيان". اتصلت بالبيت. تحدثت إلى إحدى أخواتها. قالت لها: "سوف أتناول الغداء مع حسن. تدبري أمر غيابي عن البيت مع أبيك وأمك". وقالت لي: "هل بقي ما تفعله في المؤسسة"؟. قلت: "لا. هذا هو جواز السفر. وهذه هي تذكرة الطائرة". قالت لي في المطعم: "ولكن هل أنت جاهز للسفر"؟. قلت: "كيف ذلك"؟. قالت: "ثيابك. هل هي نظيفة؟ مكوية؟ هل تعرف كيف توضبها في الحقيبة؟ وهل يوجد في البيت حقيبة أصلاً؟ أتذكر أني أخذت جميع الحقائب". قلت: " والله يا وجدان إنك تطرحين أسئلة صعبة". قالت: "يا ربي! أخشى أنك سوف تسافر من دون أي شيء. على أية حال، سأقول لك ما تفعله بالضبط". وتناولت من حقيبتها اليدوية قلماً وورقة، وجعلت تسجل لي إرشادات تفصيلية حول الكيفية التي يجب أن أتصرف بها حيال هذا الأمر. أخذتُ الورقة، وقلت: "سأحاول تنفيذ هذه الإرشادات بدقة ما أمكنني ذلك". قالت: "نشتري الآن حقيبة سفر. أخشى أنك لن تعثر في البيت على واحدة". قلت: "نشتري"، قالت: "أنت الآن في حل مني، وهكذا ستجد مبرراً لكي تتسكع مع النساء في موسكو". قلت: "لن أفعل". قالت: "لماذا"؟. قلت: "أظنني في حاجة إلى الابتعاد عن النساء". قالت: "حتى عن فاطمة"؟. قلت: "حتى عن فاطمة". قالت: "لست أدري لماذا لا أصدقك يا حسن". قلت: "لأنك لا تثقين بي". قالت: "هل تثق بي أنت"؟. قلت: "الآن، نعم". قالت: "ماذا تقصد بكلمة الآن"؟. قلت: "أقصد بعد الطلاق". قالت: "هل أفهم من هذا شيئاً خاصاً"؟. قلت: "هل أبوح لك بسر"؟. قالت: "نعم". قلت: "إنني أتألم من دونك". قالت: "هل أفهم من هذا شيئاً خاصاً"؟ قلت: "ليس لحياتي طعم من بعدك". قالت: "هل أفهم من هذا شيئاً خاصاً"؟. قلت: "لا". قالت: "لماذا"؟. قلت: "من السابق لأوانه الإجابة عن هذا السؤال". وسافرت إلى موسكو. هل سبق أن كنتِ في هذه المدينة؟ أظنني طرحت عليك السؤال من قبل. زرتها أول مرة حين سافرت للدراسة فيها. مضى الآن على ذلك خمس وعشرون سنة غير منقوصة. ربع قرن من الزمان انقضى. كنت شاباً بعد. كنت في عز الشباب. كان لي ثلاثة وعشرون عاماً. وما كنت قبل موسكو قد عرفت من المدن سوى بيروت وعمان ودمشق طبعاً. أما عمان فلست أشعر بأي حنين إليها. وأما بيروت فإنني أحس بالخشوع أمامها. وأما دمشق، فقد كرهتها بقدر ما أحببتها. وأما موسكو، فقد عشقتها. أظنني عشقت هذه المدينة.

ولست أمانع في أن أزورها كل عام، كل شهر، كل أسبوع، كل يوم، وكل ساعة. زرتها، بعد التخرج من الدراسة، ست مرات. كانت آخرها تلك التي بعد الطلاق. خمس وعشرون سنة انقضت على المرة الأولى التي ركبت فيها طائرة. كان خط سير تلك الطائرة: دمشق ـ براغ ـ موسكو. وصلت مطار موسكو على الحادية عشرة ليلاً من اليوم الثالث من شهر اكتوبر عام ١٩٦٨ . إنه مطار (شيريميتفا). البناء القديم من المطار ـ ليس حيث وقعت لي تلك الحادثة التي سبق وأخبرتك بها، فقد وقعت لي في البناء الجديد الذي شيدوه بمناسبة أولمبياد موسكو ١٩٨٠ . ولست أدري لماذا أجدني راغباً في أن أقصها عليك بالتفصيل. قد أفعل فيما بعد.. أتذكر أني كنت مشوشاً تلك الليلة. وربما كنت خائفاً أيضاً، من دون وجود سبب مباشر لذلك. أو لعل السبب هو الغربة للمرة الأولى في العمر عن الأهل والديار واللغة. ربما لو كان سفري الأول إلى بلد يتحدث أهله اللغة الانجليزية لمّا شعرت بالخوف. مع أنني، للمناسبة فقط، لا أعرف اللغة الانجليزية جيداً. على أية حال، من حسن الحظ، أنني لم أكن وحدي. كنا مجموعة كبيرة من الشباب (بينهم، ممن تعرفين، محمد ملص). ومن حسن الحظ أيضاً أن بعض الطلاب السوريين من (الاتحاد الوطني لطلبة سوريا)، والذين مضت أعوام على وجودهم هناك، كانوا في انتظارنا على المطار. وقد ساعدونا في إنجاز إجراءات المطار الروتينية. أخذونا في أحد الباصات إلى بيت كم تمنيت لاحقاً لو عرفت مطرحه! بيت كبير. بناء ضخم. أتذكر أن البناء كان خاوياً أو شبه ذلك. قالوا لنا: "هنا مركز تجميع الطلبة الأجانب قبل أن يتم توزيعهم على الجامعات والمعاهد المختلفة، أكان في موسكو أو في أية مدينة أخرى". وزعونا على الغرف بمساعدة القائمين على شؤون البيت، وتمنوا لنا ليلة طيبة، وانصرفوا. أقمت في غرفة واحدة مع شاب من حلب. نسيت اسمه. ولا أعرف ماذا درس لاحقاً فقد سافر إلى مدينة بعيدة، وما عدت رأيته. أتذكر أني كنت متعباً، وجائعاً. وربما كنت خائفاً بالفعل. وأتذكر أني غفوت رغم خوفي وجوعي، ورغم أن زميلي الحلبي يشخر بقوة. نمت على حوالي الساعة الثانية. واستيقظت باكراً. على السادسة أو السادسة والنصف. نهضت من الفراش، ونظرت من الشبّاك فلم أرَ شيئاً سوى الضباب. كان الشارع غارقاً في الضباب، وقد ساءني هذا الأمر، حتى أنه جعلني كئيباً.. أخذونا في وقت مبكر نسبياً إلى مطعم في البناء نفسه من أجل الفطور. قدموا لنا نوعاً من النقانق. وخشيت أن تكون هذه النقانق من لحم الخنزير، فأنا لا آكل لحم الخنزير. وعبثاً سألت، فلا أحد يعرف اللغة الانجليزية. يا ربي! ماذا أفعل! اكتفيت بقطعة خبز أسود ـ وجدت طعمه حامضاً، وشربت كأساً من الشاي.

وبقيت جائعاً، ثم لم أعد أعرف ماذا أفعل. كان علينا أن ننتظر يومين أو ثلاثة قبل أن يذهب كلٌ منّا في حال سبيله، صرنا نتسكع في الممرات. نصعد أدراجاً. نهبط أدراجاً. نعزم على بعضنا السجائر. نتعارف. ندردش في أي شيء، وفي كل شيء، وبخاصة في الانطباع الأول عن هذه المدينة. وفي الحقيقة أننا لم نكن قد رأينا من المدينة شيئاً بعد.. وبدا لي أنه ليس في البناء كله من طلبة أجانب سوانا نحن السوريين. لم أرَ أحداً. وربما كان السبب في ذلك أننا جئنا إلى الدراسة متأخرين، فالدراسة في الاتحاد السوفياتي تبدأ حتماً بتاريخ ٩/١ . وفجأة اكتشفت أننا لسنا وحدنا تماماً في هذا البناء الضخم، فقد ظهرت في آخر الممر حيث كنت أقف مع زميلي الحلبي شابتان شقراوان. كانت كل منهما تحمل بشكيراً على شكل صرّة. لا بد أنها تلف به ثياباً داخلية وصابوناً. كانت البنتان حائرتين. ولم أفهم بعد لماذا. لكني سرعان ما عرفت السبب. قالت إحداهما بصوت مسموع: "أليس في هذه المدينة الحمقاء من يعرف اللغة الانجليزية"؟!. قلت من مكاني "أنا أعرف اللغة الانجليزية يا آنسة". فقالت من مكانها ايضاً: "الحمد لله". واقتربتا مني. واقتربت منهما. قلت: "ما المشكلة"؟. قالت إحداهما، وكان اسمها (لوبا): "نريد أن نستحم، ولا أحد يدلنا على الحمّام". قلت: "وأنا لن أدلكما عليه أيضاً". قالت: "لماذا". قلت: "لأني لا أعرف مكانه". قالت: "فهل أنت جديد هنا"؟. قلت: "وصلت بعد منتصف الليل". قالت: "ونحن وصلنا بعد منتصف الليل أيضاً"؟. قلت: "من أين"؟. قالت: "من براغ، وأنت"؟. قلت: "من دمشق". قالت: "أنت غريب إذن"؟. قلت: "مثلك". قالت: "نعم". لقد كان كلانا في ذلك الصباح غريباً. وكلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ.. قالت لوبا: "لماذا أنت متردد"؟. قلت: "ألن نضيع"؟. قالت: "لماذا نضيع"؟. قلت: "فهل تعرفين المدينة"؟. قالت: "لا". قلت: "إذن"؟. قالت: "ها هي محطة المترو. إنها بعد الحديقة مباشرة". قلت: "وماذا يعني ذلك"؟. قالت: "يعني أننا لن نضيع". قلت: "كيف"؟. قالت: "يا إلهي! أليس عندكم مترو في دمشق"؟. قلت: "لا". وقلت: "حتى أني لا أعرف ما تقصدين بهذه الكلمة". قالت: "أنت تترك الأمر لي. وأنا أضمن عودتك إلى هنا". قلت: "كما تحبين". وقلت أيضاً: "ولكنني جائع يا لوبا". قالت: " أشتري لك طعاماً". قلت: "فهل عندك نقود"؟. قالت: "أملك عشرة روبلات". قلت: "هل هذا مبلغ كبير"؟. قالت: "إلى حد ما، نعم".. وقالت: "هذه هي الساحة الحمراء". قلت: "وما أدراك أنها الساحة الحمراء"؟. قالت: "ألم تشاهدها في التلفزيون؟ ثم إن ضريح لينين في الساحة الحمراء. وها هو الضريح. ألا ترى إلى كل هؤلاء الناس يقفون في

صف طويل"؟. قلت: "كنت سوف أسألك لماذا يقف هؤلاء الناس في هذا الصف الطويل". قالت: "لكي يدخلوا إلى الضريح، ويتفرجوا على جثمان لينين المحنّط". قلت: "فهل سنقف معهم"؟. قالت: "ما حاجتنا إلى ذلك؟ ثم ألست جائعاً؟ تعال أطعمك، أنا أيضاً جائعة. نأكل معاً، ونشرب نبيذاً أبيض. ما رأيك"؟. قلت: "إني جائع". قالت: "تعال نبحث عن كافتيريا قريبة".. وقالت: "إنه نبيذ طيب، أليس كذلك"؟. قلت: "ماذا جئت تدرسين"؟. قالت: "إنني أحضر رسالة في أدب دوستويفسكي. أظن بأني سأدرس في مدينة لينينغراد. سوف أكتب رسالة حول رواية الأخوة كارمازوف. وعلى نحو أدق، حول الابن الأوسط في الأسرة. إيفان كارمازوف". قلت: "ماذا تعنين بكلمة رسالة، فهل أنت لست طالبة"؟. قالت: "أنهيت دراستي الجامعية في براغ". قلت: ""تبدين صغيرة". قالت: "عمري اثنتان وعشرون سنة". قلت: "تبدين أصغر". قالت: "شكراً على هذه المجاملة". قلت: "وهل شخصية إيفان كارمازوف تستأهل رسالة دكتوراه"؟. قالت: "ماذا تقول؟ كيف تقول هذا الكلام؟! أعتقد حتى بأنك لم تقرأ هذه الرواية". قلت: "في الحقيقة أنني لم أقرأها. بل إنني عموماً لم أقرأ كتباً كثيرة. ولكني شاهدت فيلماً مأخوذاً عن هذه الرواية". قالت: "هل تعرف ما هو أسوأ شيء صنعه أديسون في حياته"؟. قلت: "لا". قالت: "اختراعه لهذه المسخرة التي يسمونها سينما". قلت: "فهل هي من اختراع أديسون"؟. قالت: "لا أعرف ولكن من غير الأمريكيين ينتج مثل هذه الحماقات"؟. قلت: "ولماذا تعتقدين بأن السينما حماقة"؟. قالت: "لأنها مهنة العاطلين عن العمل. ثم إن هؤلاء السينمائيين يعشقون تشويه الأدب العظيم الذي أنتجه رجال عظماء مثل دوستويفسكي". قلت: "ولماذا تبدين غاضبة؟ إنه مجرد سؤال. وقد اعترفت لك بأني لم أقرأ الرواية". قالت: "حسناً، فلننس الموضوع. وأنت. ماذا جئت تدرس"؟. قلت: "السينما". قالت: "ومع ذلك، لن أغير رأيي بالسينمائيين". قلت: "لست أطلب إليك ذلك". وقالت: "ولماذا تنظر إلي هكذا"؟. قلت: "عيناك جميلتان". قالت: "أعرف". قلت: "ليس عيناك فقط. شفتاك أيضاً. وأنفك. وشعرك. ورقبتك. كل شيء فيك جميل يا لوبا". قالت: "أنت تبالغ". قلت: "لا. لست أبالغ". قالت: "إنه النبيذ يجعلك تراني هكذا". قلت: "ربما".. وقالت: "كم هو الطقس جميل!". وقلت في نفسي: لماذا تعذبني هذه الشقراء؟ ولماذا تشبك ذراعها بذراعي في عرض الطريق؟ وبأي حق تفعل ذلك؟ قالت: "انظر إلى تلك الشجرة". قلت: "ما بها"؟. قالت: "ما هذه الألوان"؟. قلت: "ألوان الخريف". قالت: "لا". قلت: "ماذا إذن"؟. قالت: "يا إلهي"!. قلت: "ماذا"؟.

قالت: "ما هذه الألوان"؟. قلت: "إن لم تكن ألوان الخريف فإنني لا أعرف ماذا تكون". قالت: "حتى يبدو لي أنك لا تراها". وقلت في نفسي؛ معك حق يا لوبا. وقلت في نفسي أيضاً: وكيف أراها وذراعك تشبك ذراعي؟ قالت: "ما بك"؟. قلت: "المطر". قالت: "ألا تحب المطر"؟. قلت: "بلى". قالت: "ماذا إذن"!. قلت: "لا أعرف". قالت: "تعال نركض". قلت: "ماذا"؟. قالت: "نركض على الرصيف تحت المطر". قلت: "هل هذا ضروري"؟ قالت: "ما بك؟ هل أنت مريض"؟. قلت: "لا". قالت: "أم أنك تفكر بصديقتك التي تركتها في دمشق"؟. قلت: "لم يكن عندي صديقة في دمشق". قالت: "كيف ذلك"؟. قلت: "لقد أحببت إحدى البنات. ولكنها لم تحبني". قالت: "لماذا؟ يبدو لي أنك ولد طيب". قلت: "لا أعرف لماذا لم تحبني". قالت: "أوه يا صديقي، بالمناسبة، كم عمرك"؟. قلت: "ثلاثة وعشرون عاماً". قالت: "غير معقول". قلت: "الكل يقول غير معقول". قالت: "تبدو في السادسة عشرة لا أكثر". قلت: "نعم. ولست أدري لماذا". قالت: "ولكن لماذا لم تحبك تلك البنت؟ حتى أنك وسيم. فهل أنت ولد سيء"؟ قلت: "لا أعرف. ربما". قالت: "أوه يا صغيري"!. وقلت في نفسي: لماذا تعذبني هذه الشقراء؟ لماذا تعذبني هذا العذاب كله؟ لماذا تعانقني؟ قالت: "لا أظن بأنك ولد سيء. ولكني لا أعرف لِمَ لم تحبك تلك البنت. ماذا كان اسمها"؟. قلت: "نبيلة". قالت: "وهل لهذا الاسم معنى"؟. قلت: "نعم". قالت: "ماذا"؟. قلت: "من النبل". قالت: "وهل هي نبيلة حقاً"؟. قلت: "لم أعرفها جيداً. لقد رفضتني". قالت: "وكيف تبدو؟ هل تبدو نبيلة"؟. قلت: "إنها سمراء البشرة. عيناها سوداوان. شعرها اسود أيضاً. تسرحه على طريقة كليوباترا". قالت: "يبدو أنها نبيلة حقاً. ولكن لماذا لم تحبك"؟. قلت: "لا أعرف". قالت: "تعال نركض. سوف نمرح. وقد يساعدك هذا الشيء". قلت: "تعالي".. قالت: "هل تعبت"؟. قلت "لا". قالت: "أم أنك رجعت تفكر بتلك البنت التي مثل كليوباترا"؟. قلت: "لا. إنني لا أفكر بها الآن". قالت: "ما بك إذن؟ إنك مضطرب". قلت: "لا أعرف". قالت: "لقد حلّ الظلام. تعال نرجع إلى البيت". قلت: "تعالي".. وقالت: "ما بك؟ حتى أنك ازددت اضطراباً". قلت: "هل أقول لك سراً"؟. قالت: "إن كنت ترى في ذلك ضرورة". قلت: "ليس فيه ضرورة كبيرة. ولكني أحب أن أقوله". قالت: "تكلم". قلت: "هذه هي المرة الأولى التي أعاشر فيها امرأة". قالت: "غير معقول". قلت: "إنها الحقيقة. لم يسبق لي أن نمت مع امرأة قبل هذه الليلة". قالت: "لا أصدقك".. قلت: "أنت أول النساء في حياتي يا لوبا". قالت: "لا أصدقك".. وقال محمد: "أنت لا تعرف عنوانها. وهي لا

تعرف عنوانك. يجب أن تنساها. أنصحك بأن تنساها. ها قد مر أكثر من شهرين على فراقكما. فماذا"؟. قلت: "لا أعرف كيف أنساها". قال: "الأمر بسيط. تصادق بنتاً غيرها. وداوها بالتي هي الداء. اسمع، نسهر رأس السنة في جامعة موسكو. ما رأيك؟ جامعة موسكو تغصّ بالبنات الجميلات". قلت: "كما تحب". قال: "ثم ألن تتعلم الطبخ؟ ألا تحب ذلك؟ الطبخ فن عظيم. تعال. سوف أعطيك درسك الأول. سوف نبدأ بالرز". قلت: "ومتى تعلمت الطبخ أنت"؟. قال: "أمي علمتني. أمي خير من يطبخ بين نساء الأرض جميعاً. سوف أصنع فيلماً عن أمي ذات يوم". قلت: "ولماذا تطبخ وتقرأ في آن"؟. قال: "لا أحب أن أضيع وقتي". قلت: "ما هذا الكتاب"؟. قال: "دون كيخوت. هل قرأته"؟. قلت: "لا". قال: "أعيره لك فيما بعد".. وقالت غاليا: "أنا أحب محمد". قلت: "هل تطلبين مني أن أنقل إليه هذا الشيء"؟ قالت: "لا. لقد قلت له ذلك بنفسي". قلت: "ماذا إذن"؟. قالت: "أردتك أن تعلم الأمر لأنك صديقه". قلت: "شكراً". وقال محمد: "أنا مسافر إلى دمشق خلال العطلة الانتصافية". قلت: "بهذه السرعة"!. قال: "سوف أتزوج". قلت: "تمزح". قال: "لا". قلت: "غاليا تحبك". قال: "أعرف". قلت: "إذن"؟ قال: "لا أعرف". وقالت غاليا: "لماذا سافر محمد إلى دمشق"؟. قلت: "لم يخبرني بالأسباب". قالت: "لا أصدقك". قلت: "لا يهمني ذلك". قالت: "ثم كفاك تلعب بالثلج كالأطفال. سوف تمرض. الطقس بارد جداً. تعال نرجع إلى البيت". قلت: "أحب هذا الثلج". وقال محمد: "تزوجت". قلت: "ألست صغيراً على الزواج"؟. قال: "لا أحب أن أضيع وقتي". وقالت غاليا: "سوف أنتحر". وقال محمد: "غاليا حاولت الانتحار". قلت: "سمعت بالنبأ". وقال محمد: "تعال نذهب إلى عماد في الجامعة". قلت: "لا أريد أن أذهب إلى الجامعة". قال: "لماذا"؟. قلت: "قد أصادف نينا هناك". قال: "فهل تشاجرت معها"؟. قلت: "نعم". قال: "لماذا"؟. قلت: "إنها متحمسة لإسرائيل". قال: "غير معقول". قلت: "هي قالت لي ذلك". قال: "لكنها ليست يهودية". قلت: "من يعرف"؟. قال: "إنها روسية". قلت: "ليس أكيداً". قال: "إذن، تعال نذهب إلى فاروق". قلت: "لا أريد أن أذهب إلى الجامعة". قال: "فاروق يقيم في الطرف الآخر من الجامعة". قلت: "أعرف أين يقيم فاروق". قال: "إذن"؟. قلت: "هيا بنا". وقال فاروق: "جئتما في الوقت الميت". قلت: "لماذا"؟. قال: "لأنني مسافر الآن إلى دمشق". قال محمد: "نرافقك إلى المطار". قال فاروق: "هيا. التاكسي ينتظرني خارجاً".. وقال محمد: "كم هي جميلة موسكو في الصيف! انظر إلى الأشجار كم هي خضراء! لا أظن بأنك قد ترى اللون الأخضر

أخضر كما في موسكو. لا أظن بأنك قد ترى ذلك في أي مكان في العالم". قال فاروق: "حتى أنه ليس أخضر. يجب أن يجدوا لهذا اللون تسمية خاصة". قلت: "فعلاً". قال فاروق: "خسارة أني مضطر على السفر. كنت أحب لو أبقى الصيف هنا". وقال: "ماذا تريدان من دمشق"؟. قال محمد: "أنا مسافر إلى هناك بعد أيام. اشتقت لزوجتي. ولكن حسن باقٍ هنا". قال فاروق: "هل تريد شيئاً من دمشق"؟. قلت: "لا". قال: "الوداع". قلت: "الوداع". قال محمد: "أراك في دمشق".. وقال محمد: "هل تسمع"؟. قلت: "كنت سوف أسألك السؤال ذاته"؟. قال: "عجيب"!. قلت: "عجيب حقاً!". قال: "من أين يأتي هذا الصوت"؟. قلت: "لا أعرف. لست أرى أحداً من البشر، ولا حتى بيتاً، لا شيء سوى الأشجار على جانبي الطريق. إنني لا أصدق أذنيّ". قال: "معك حق". أمانة عليك ياليل طول، وهات العمر من أول.. قلت: "أريد أن أبكي". قال محمد: "هل لهذه الأغنية ذكريات خاصة عندك"؟. قلت: "لا". قال: "ماذا إذن"؟. قلت: "أريد أن أبكي". قال: "تعال نغني معاً". أمانة عليك ياليل طول، وهات العمر من أول، بحب جديد، وقلبي سعيد، ياريتني عشقت عام أول. أمانة.. أمانة.. قال محمد: "لماذا تبكي"؟. قلت: "لا أعرف". قال: "تعال نذهب إلى مطعم باكو". قلت: "هل عندهم مخلل الملفوف"؟. قال: "مايذكرك بمخلل الملفوف"؟. قلت: "لعلها أغنية كارم محمود". قال: "أظن أنهم يقدمون مخلل الملفوف". قلت: "هيا بنا". وقال محمد: "هاهو مخلل الملفوف". قلت: "إنني أحبه". قال: "ماذا تريد من دمشق"؟. قلت: "إنني مسافر معك". قال: "أنت تحيرني". قلت: "اشتقت إلى دمشق".. وقال محمد: "كيف تقضي وقتك في دمشق"؟. قلت: "أريد أن أرجع إلى موسكو". قال: "لماذا"؟. قلت: "اشتقت إلى موسكو". قال: "والله إنك تحيرني، فلم يمض على وجودك في دمشق إلا أسبوع واحد". قلت: "أموت بعيداً عن موسكو". قال: "أنت شخص غريب الأطوار". قلت: "ربما". قال: "ولكنك لا تستطيع السفر الآن. لقد جئنا في رحلة جماعية. وتذكرة الطائرة لا تصلح إلا لهذه الرحلة". قلت: "أعرف". قال: "إذن"؟. قلت: "اشتقت إلى موسكو". تركت كل شيء وراء ظهري: وجدان و(الغفران)، ومتاعب الطلاق، وشفقة الأهل، وكل شيء آخر. كانت تلك زيارتي السادسة للمدينة مذ انتهيت من الدراسة فيها. كان المطار وسخاً، وقد صدمني هذا الشيء. وكانت الكلمة الوحيدة المتداولة هي: (الدولار)، وقد صدمني هذا أيضاً. لم أكن وحدي. كان معي أحد الزملاء في المؤسسة. بقينا في موسكو عشر ساعات فقط. سافرنا بعدها إلى طشقند.. تحرشت بي هناك إحدى النساء. قلت لها: "انقلعي

من وجهي". قال لي زميلي: "حرام عليك تتعامل معها هكذا". قلت: "والله ياأبو فراس إني راغب عن النساء". قال: "أفهمك". وقال: "أظنها حقدت عليك. لاحظت ذلك ونحن في سمرقند. لو كانت تملك قنبلة نووية لضربتك بها". قلت: "أشتري لها واحدة". قال: "تشتري ماذا"؟. قلت: "قنبلة نووية. أظن أنهم يبيعون الآن مثل هذه القنابل على أرصفة الشوارع في موسكو". قال: "أنا أرى أن تعود إلى وجدان. أظن أن هذا أفضل لها ولك أنت أيضاً". قلت: "أريد أن أعود إلى موسكو. وهذا أقصى ماأريده الآن".. وفي موسكو قلت له: "أنا أدرك ياأبو فراس أنك تعتمد علي هنا لأني أعرف المدينة، وأعرف لغتها. وسوف أقدم لك كل مساعدة. لكن، ومن جهة ثانية، أحس بحاجة كبيرة إلى أن أكون وحدي في بعض الأوقات، وأرجو منك أن تقدر حاجتي هذه". قال: "أفهم هذا، وأقدره. أعرف أنك مررت بظروف صعبة خلال الشهور الأخيرة. ثم لا تخف علي، فأنا لن أضيع في موسكو. سبق وزرتها مرتين".. خرجت من الفندق على العاشرة في الصباح. كان ثمة مطر ناعم. قلت في نفسي: لن آخذ سيارة أجرة. لن آخذ أية وسيلة مواصلات. سوف أمشي. دائماً سوف أمشي. كنت أقف عند نهاية شارع كوتوزوف. عبرت الجسر من فوق نهر موسكو. مررت بالبرلمان. تجاوزت الطريق الدائري العريض. تابعت سيري باتجاه شارع نوفي أربات. كنت أمشي على الرصيف الأيسر. قلت: لا، ليس هذا الرصيف. هبطت الدرج إلى أحد الأنفاق. عبرت الشارع من تحت الأرض. صرت على الرصيف الأيمن. قلت: نعم، هذا هو الاتجاه الصحيح. بل هذا هو الرصيف الصحيح. توقفت عند أحد الأكشاك. اشتريت ثلاث علب سجائر (دنهل). اشتريت ولاعة أيضاً. لا أعرف أين فقدتُ ولاعتي الأخيرة. تابعت طريقي. توقفت أمام صالون للحلاقة. قلت: أقصّ شعري. وقلت: ليس الآن، فليس هذا ماأريده الآن. ماأريده الآن شيء آخر، وفي مكان آخر أيضاً. نظرت يميناً وشمالاً. لقد تجاوزت المكان الذي أسعى إليه. كيف تجاوزته؟. كيف فاتني أن أمرّ به من دون أن ألاحظه؟ أم أنني لست أسعى إليه فعلاً؟ رجعت أدراجي. توقفت أمام باب زجاجي كبير. دفعته، ودخلت، صرت في ممر عريض يفضي إلى درج عريض. صعدت الدرج. وصلت الطابق الثاني. قلت: نعم، هنا. هذا هو المكان الذي أبحث عنه، هذا هو المطعم. انحرفت بعد الدرج إلى اليمين. واجهني باب زجاجي آخر. فتحته، ودخلت.. صرت في المطعم. لم أكن جائعاً. مشيت في خط مستقيم بين صفين من الطاولات. وخاطبت نفسي: لا تنحرف يميناً، ياولد، أو يساراً، إلى أمام، وفقط إلى أمام، إلى أمام حتى النهاية، حتى الجدار، تلك هي الطاولة شاغرة، الطاولة التي في

الزاوية، اجلس وظهرك إلى الجدار، النافذة الكبيرة في يمينك، نعم، هكذا بالضبط، لا ينقصك الآن سوى الكونياك الأرمني، وناتاشا، إلى هذه الطاولة كنت تحب أن تجلس معها في الأماسي، هنا اعترفت لها بالحب، هنا قلت لها: إن حضورك على خشبة المسرح مدهش ياناتاشا، وهنا قالت لك: جاءني عرض لبطولة أحد الأفلام، لكنه فيلم كوميدي، فهل تراني أصلح للكوميديا؟ وهنا قلت لها: أظنك تستطيعين أن تلعبي أي دور وأية شخصية فأنت ياناتاشا موهوبة على نحو غير عادي، وهنا قالت لك: كم أحب أن ألعب شخصية سونيا في الجريمة والعقاب! وهنا قلت لها: من يدري؟ قد يأتي يوم وتلعبين فيه هذه الشخصية، فأنت مازلت صغيرة ياناتاشا، أظنك لم تتجاوزي العشرين بكثير، وهنا قالت لك: تجاوزتها بثلاث سنوات، وهنا قلت لها: تستطيعين أن تجسدي هذه الشخصية حتى وأنت في الثلاثين، وهكذا مازال أمامك سبعة أعوام كاملة، وهنا قالت لك: فهل هذا كثير؟ وهنا قلت لها: سبعة أعوام ليست بالشيء القليل ياناتاشا.. "عفواً أيها السيد. ماذا تطلب"؟. قلت: "كونياك أرمني لو سمحت". قال: "وسوى ذلك"؟. قلت: "لا شيء". وانصرف النادل، وجعلت أنظر إلى الطريق. مطر ناعم. غيم منخفض. غيم منخفض جداً. الرؤية سيئة. سيئة في عز النهار. ماهمّني! لابأس! سيّان عندي! أنا أحب هذه المدينة في جميع الفصول، وأحبها في جميع العهود، شيوعية كانت أو غير شيوعية. أحبها اليوم كما بالأمس. أحبها في المطر والصحو، وفي الربيع وفي الخريف وفي الصيف وفي الشتاء وفي الليل وفي النهار. أحب هذا المطعم. أحب هذه الطاولة. هنا جلست مع ناتاشا أول مرة بعد التعارف. هنا تناولنا معاً عشاءنا الأول قبل عشرين سنة من اليوم. وهنا أيضاً.. "عفواً، هل تسمح لي بالجلوس"؟. قلت: "وهل هذا ضروري"؟. قالت: "أرجو أن تسمح لي بالجلوس". قلت: "اجلسي". قالت: "اسمي لودميلا. تستطيع أن تناديني لودا". قلت: "إنك ترتجفين من البرد، فما هذه الملابس التي ترتدينها؟ أظنك لا ترتدين شيئاً تحت هذا القميص". قالت: "في الحقيقة أنني تركت معطفي في المشلح". قلت: "لا أتحدث عن المعطف". قالت: "ليس عندي نقود للثياب". قلت: "كم عمرك"؟. قالت: "سبع عشرة سنة". قلت: "كان يجب أن تكوني في المدرسة". قالت: "الوضع صعب هنا. الوضع صعب جداً". قلت: "رأيت ذلك".. وقالت ناتاشا: "أعطني يدك". قلت: "لماذا"؟. قالت: "ماهذا السؤال الغبي! ثم لماذا أسألك؟ ولكن انتظر. لست أريد هذه اليد. أريد تلك. اليسرى". قلت: "وماذا بعد أن أخذت يدي"؟. قالت: "أغمض عينيك". قلت: "لحظة". قالت: "ماذا"؟. قلت: "أريد أن أخمّن المفاجأة التي تخبئينها لي. دعيني أنظر إلى ماحولي".

قالت: "ماذا ترى"؟. قلت: "إنني لا أفهمك ياناتاشا، أية مفاجأة يمكن أن تخبئيها لي في هذه الأرض النائية"؟. قالت: "ماذا ترى"؟. قلت: "إلى أين سوف نمشي"؟. قالت: "إلى الأمام". قلت: "لا أرى شيئاً سوى هذه الرابية المعشوشبة". قالت: "فهل ترى شيئاً آخر"؟. قلت: "لا، إلا إذا نظرت إلى فوق". قالت: "ماذا ترى فوق"؟. قلت: "سماء نظيفة. نظيفة جداً. ثمة بعض السنونوات فقط. ثم لا شيء آخر". قالت: "وماذا أيضاً"؟. قلت: "لو حولت بصري إليك لرأيت نهديك القاسيين". وقلت أيضاً: "لماذا لا ترتدين حمّالة صدر"؟. قالت: "لا أحب ذلك". وقالت: "هل ترى شيئاً بعد"؟. قلت: "لا". قالت: "أغمض عينيك إذن". قلت: "إننا نصعد الرابية". قالت: "نعم إننا نصعد الرابية". قلت: "وصلنا إلى قمة الرابية". قالت: "نعم وصلنا قمة الرابية". قلت: "ماذا بعد"؟ قالت: "افتح عينيك". قلت: "أي سحر"!!. قالت: "ماذا ترى"؟. قلت: "أرى أن الله كان منحازاً لكم منذ البداية". قالت: "هذه هي روسيا. هذا هو الفولغا العظيم. وأولئك هم بحارته على زوارقهم الكبيرة والصغيرة، هل تسمعهم يغنون؟ هل تفهم كلامهم؟ حتى أنا لا أفهمه. إنها أغانٍ قديمة. قديمة جداً. قديمة قدم الفولغا نفسه. ولكن انظر إلى مابعد الضفة الأخرى. انظر إلى تلك الهندسة البديعة، انظر إلى تلك الحقول الخضراء، وتلك الغابات الداكنة. انظر إليها جيداً. هل تستطيع أن تعدد الألوان التي تراها"؟. قلت: "هي كثيرة بحيث يصعب عدّها". قالت: "ولكن، هل تسمع اصطفاق جناحي فراشة"؟. قلت: "أسمع". قالت: "هذه الفراشة تحوم هناك". قلت: "هناك أين"؟. قالت: "فوق الضفة الأخرى".. وقالت لودا: "هل تطلب لي كأساً"؟. قلت: "ماذا تشربين"؟. قالت: "شمبانيا لو سمحت". قلت: "سوف أطلب لك شمبانيا". قالت: "هل تعطيني سيجارة"؟. قلت: "أكيد". قالت: "هل أنت أجنبي"؟. قلت: "نعم". قالت: "من أين أنت قادم"؟. قلت: "وصلت من طشقند، ولكني قبل ذلك.. وهل هذا مهم"؟. قالت: "إنك تتحدث اللغة الروسية بشكل ممتاز". قلت: "إنني أتحدث اللغة الروسية". قالت: "اسمي لودميلا. ينادونني لودا. وأنت"؟. قلت: "هل هذا ضروري"؟. قالت: "ليس جداً". وقالت: "هل أنت وحيد"؟. قلت: "نعم". قالت: "هل تبحث عن الرفقة"؟. قلت: "لا". قالت: "سوف أكون لك رفيقة طيبة". قلت: "لست أبحث عن الرفقة". قالت: "إنني لست مريضة. صدقني أني لست مريضة". قلت: "وأنا أيضاً لست مريضاً". قالت: "إذن"؟. قلت: "لست أبحث عن الرفقة". قالت: "لا تريد أن تخون زوجتك. أليس كذلك"؟. قلت: "إنني لست متزوجاً". قالت: "رغم أنك في هذه السن"؟. قلت: "كنت متزوجاً. ثم تركتني زوجتي".

قالت: "إذن، لماذا لا تريدني؟ لن آخذ منك نقوداً كثيرة". قلت: "منذ متى تمارسين هذه المهنة"؟. قالت: "منذ سنتين". قلت: "اللعنة"!. وقلت في نفسي: لقد أفسدت عليّ هذه البنت لحظتي كلها. وخرجتُ إلى الشارع، رجعت إلى المطر. مشيت بطول الرصيف. وصلت إلى مطعم براغ. قلت: لا، يجب أن أعبر هذا النفق، فلم يعد اتجاه اليمين يلزمني بشيء، سأعود إلى الرصيف المقابل. نزلت إلى النفق! استوقفني أحدهم. عرض عليّ صوراً خلاعية. قلت له: "لا أريد هذه الأشياء. لست أبحث عن هذه الأشياء". قال: "عن أي شيء تبحث إذن؟ هل تريد مخدرات؟ لدينا كل شيء، فماذا تريد"؟. قلت: "الذي أبحث عنه ليس موجوداً عندكم، وليس موجوداً عند سواكم أيضاً". صعدت إلى الشارع من جديد. انحرفت إلى اليمين، ومشيت إلى أمام. والآن.. انحرف إلى اليسار، انحرف إلى اليسار. انحرفتُ إلى اليسار. هذا هو الاتجاه الصحيح. امشِ في خط مستقيم، ثم انحرف يميناً عند أول منعطف تدخل في طريق يقودك إلى شارع غوركي مباشرة. ولكن مابك؟ هل نسيت؟ ألست واثقاً؟ استوقفتُ أحد المارة. قلت له: "كن طيباً، وقل لي، أليس هذا الطريق يصبّ في شارع غوركي"؟. قال: "شارع ماذا"؟. قلت: "غوركي". قال: "لم يعد لهذا الشارع من وجود". قلت: "كيف"؟. قال: "لم يعد لهذا الاسم من وجود". قلت: "تقصد أنهم غيروا اسم الشارع"؟. قال: "إن كانت إقامتك هنا طويلة أنصحك بأن تتعلم الأسماء الجديدة التي لصقوها في كل مكان من المدينة". قلت: "شكراً". وانصرفت. وقلت في نفسي: مالي أنا وللأسماء؟! وقلت: لا يمكنني أن أكون قد نسيت. ولكن ماذا كان رقم البناية؟ لن أضيعها حتى لو نسيت الرقم. ثمة مخزن صغير في البناية التي قبلها. وهذا المخزن سوف يكون دليلي إليها: سوف يكون دليلي الأكيد إليها. وهكذا لا أضيع. لا يمكن أن أضيع رغم تلك السنين الكثيرة التي انقضت على آخر يوم جئت فيه بيتها. سبع عشرة سنة انقضت على ذلك اليوم، وثلاث عشرة على آخر مرة رأيتها فيها. ومع ذلك، ورغم ذلك، لا يمكن أن أضيّع إليها الطريق. هذا هو المخزن الصغير. ادفع الباب، وادخل. دفعتُ الباب ودخلت. هذا الرجل لابد أن يتذكرك. مادمت تتذكره فلابد أن يتذكرك. اقتربت منه. كان يقف خلف طاولة صغيرة. قلت: "مرحباً". قال: "بماذا أستطيع أن أخدمك"؟. قلت: "أريد قنينة بيرة. ماركة موسكو". قال: "عندي بيرة ألمانية، عندي بيرة هولندية. عندي بيرة تشيكية. أما هذه البيرة التي تطلبها فإني حتى لم أسمع بها". قلت: "كيف ذلك؟ يبدو أنك نسيتني". قال: "ومن تكون"؟. قلت: "انظر إلي جيداً". قال: "نظرت". قلت: "وماذا"؟. قال: "لم أسمع بهذه البيرة من قبل". قلت:

"كنا نشتريها من عندك". قال: "كنتم؟ من"؟. قلت: "أنا وهي. هي وأنا". قال: "ومن تكون هي"؟. قلت: "لا يمكن أن تكون نسيتها. لا يستطيع أحد أن ينساها".. قال: "عفواً ياسيد. ليس لدي وقت". قلت: "عندما كنت أجيء معها إلى هنا، كنت تقول لي: يارفيق". قال: "كنت أقول: يارفيق، لجميع الناس. والآن اختفت هذه الكلمة من حياتنا. فماذا تريد"؟. قلت: "أريد زجاجة بيرة. ماركة موسكو". قال: "ليس عندي مثل هذه البيرة". قلت: "كم تخيّب ظني! حتى أنك تجرح مشاعري جرحاً عميقاً". قال: "البيرة الألمانية لذيذة جداً، فلماذا لا تأخذ بيرة ألمانية"؟. قلت: "لا أريد". وانصرفت. سحبت الباب الزجاجي إلي، وخرجت إلى المطر. إنها البناية التالية. بابها أسود. وهاهو الباب مازال أسود. ادخل. اصعد الدرج إلى الطابق الثالث. الشقة الأولى إلى يسار الدرج. ادخل. وابتعدتُ. ثمة حديقة صغيرة مقابل البناء. كان يحلو لي أن أنظر إلى هذه الحديقة الصغيرة في الأصباح من الشبّاك الذي في الطابق الثالث. كم كان يحلو لي ذلك في المطر! عبرتُ الشارع من غير مكان عبور المشاة. وصلت طرف الحديقة. جلست عل سورها المعدني الضيق. رفعت رأسي إلى نافذتها التي في الطابق الثالث. أشعلت سيجارة. وغرقت بالمطر.. قال لي: "هل أنت مجنون"؟. قلت: "نعم". قال: "ستموت في المطر". قلت: "سيّان". قال: "لقد تذكرتك أخيراً. نعم تذكرتك. اسمع يا.. هل تحب أن أقول لك يارفيق"؟. قلت: "سيّان، فأنا لست شيوعياً. ولم أكن شيوعياً في يوم من الأيام". قال: "إنني أفضل كلمة سيّد. لذا، اسمعني أيها السيد. لقد تذكرتك فعلاً. كنت تأتي معها إلى مخزننا. ولكنني أقو ل إن جلوسك هنا سوف يقتلك. فلماذا لا تصعد إليها؟ أظنها موجودة في البيت. لمحتها على الرصيف من المخزن قبل ساعة تقريباً. كانت تحمل بعض الحاجيات في يدها. كانت عائدة إلى البيت كما أتصور". قلت: "كيف صارت تبدو"؟. قال: "منذ متى لم ترها"؟. قلت: "منذ فترة غير قصيرة". قال: "لقد تزوجت". قلت: "أعرف". قال: "أنجبت طفلاً". قلت: "لا أعرف". قال: "تركت زوجها". قلت: "لا تفاجئني". قال: "منذ متى لم ترها"؟. قلت: "هل مازالت نجمة إلى الآن"؟. قال: "إنها محبوبة من الناس. ولكن الظروف صعبة كما ترى. فلينقذنا الرب يسوع مما هو أخطر من الذي نحن فيه الآن. فلينقذنا الرب يسوع من حرب أهلية. روسيا مليئة بالسلاح. ونحن الروس لا نرحم بعضنا عادة. فلينقذنا الرب يسوع من نتائج تفكك ذلك الوحش الذي كان اسمه الاتحاد السوفياتي". قلت: "إنك لا تجيبني عن سؤالي. هل مازالت نجمة؟ هل مازات كثيرة الظهور على الشاشة"؟. قال: "لا أظنها تشتغل كثيراً هذه الأيام، فالشغل عموماً

قليل. ثم إنها قد صارت كبيرة إلى حد ما. لم تعد قادرة على أداء تلك الأدوار التي كانت تؤديها قبل عشرين سنة، أو حتى قبل عشر سنوات. أظنها صارت في الأربعين من عمرها". قلت: "في الثالثة والأربعين".. وقالت تانيا: "غير معقول"!. قلت: "أنا آسف ياتانيا أني أدق بابك في هذا الوقت المتأخر من الليل". قالت: "ادخل". قلت: "ألم أزعجك؟ ألم أوقظك من النوم أنت وساشا"؟. قالت: "لم توقظ ساشا لأنه لم يعد موجوداً في البيت، ولم توقظني لأني كنت ساهرة أشتغل، إنني أشتغل كثيراً هذه الأيام. إنني أرسم لوحة أعتقد بأنك سوف تحبها". قلت: "ولكن مهلاً! ماالذي تقصدينه بأن ساشا لم يعد موجوداً في البيت"؟. قالت: "لقد انفصلنا". قلت: "إنه خبر سيء ياتانيا". قالت: "لا أعرف إن كان سيئاً أم لا. انفصلنا منذ الخريف الماضي. ثم تعال لا نتحدث في الأمر. وقل لي: مذ متى لم أرك؟ أظنني لم أرك منذ زيارتك الأخيرة لموسكو قبل خمس سنوات. أم أن تلك الزيارة لم تكن الأخيرة"؟. قلت: "زرتها في صيف العام الفائت أيضاً". قالت: "لم أرك". قلت: "كانت ناتاشا قد تزوجت". قالت: "ألم تر ناتاشا أيضاً"؟. قلت: "بلى رأيتها خلال تلك الزيارة". قالت: "والآن"؟. قلت: "لا". قالت: "هل تأخذ كأساً"؟. قلت: "أظنني في حاجة إلى كأس". قالت: "هل أنت هنا من أجل الأولمبياد"؟. قلت: "لا. حتى أني سأرحل قبل أن يبدأ الأولمبياد". قالت: "ألن ترى ناتاشا". قلت: "لا أريد". قالت: "هذا ليس عدلاً". قلت: "حدثيني عنها". قالت: "ماذا أقول"؟. قلت: "هل هي سعيدة بزواجها"؟. قالت: "لا أعرف. لا أظن". قلت: "فهل زوجها رجل سيء"؟. قالت: "بل إنه شخص ممتاز". قلت: "هل صار عندها طفل"؟. قالت: "لا. حتى أنها ليست حاملاً". قلت: "والشغل؟ ماذا عن الشغل"؟. قالت: "إنها لا تهدأ. من ستوديو إلى ستوديو. ومن مسرح إلى مسرح. ومن مدينة إلى مدينة. إنها تفرم شبابها هذه البنت. لقد نصحتها بألا تشتغل بهذه الطريقة المجنونة. حتى أنها في بعض الأيام تنسى أن تتناول طعامها. بل إنها لا تنسى، ولكنها لا تجد وقتاً لذلك. هي الآن لا تشعر بخطورة ماتفعل. مازالت شابة. مازالت قوية. ولكن ماذا سيحدث لها بعد عشرين سنة، أو حتى بعد عشر سنوات إن هي استمرت على هذا الإيقاع؟! ثم من أجل ماذا تشتغل كثيراً؟ تصور أنها لا تملك سيارة. إنها تنفق كل قرش. ودائماً تنفق هكذا. من دون مبرر".. وقال لي: "انظر". قلت: "ماذا"؟. قال: "انزاحت الستارة عن شبّاكها المغلق". قلت: "لن أنظر". قال: "ثمة وجه نسائي يلوح من خلف الزجاج. إنه وجهها دون ريب. إنه وجه ناتاشا، فليس في هذا البيت من امرأة ثانية". قلت: "لن أنظر". ونهضت من فوري. وعبرت الشارع بسرعة. ركضت إلى الرصيف حتى

صرت تحت شباكها المقفل. لم يكن بمقدورها أن تراني من هناك. ورحت أركض على طول الرصيف. رحت أهرب.. وقالت لي: "اعذرني أني لم أتمكن من دعوتك إلى البيت". قلت: "من الرجل الذي رد على مكالمتي أولاً"؟. قالت: "زوجي". قلت: "هذا ماتوقعته". قالت: "تزوجنا قبل ثلاثة شهور". قلت: "هل أعرفه؟ هل هو ممثل أيضاً"؟ قالت: "إنه يشتغل في العلوم". قلت: "وهل أنت سعيدة بزواجك"؟. قالت: "كيف أشرح لك الأمر؟ لا أعرف إن كنت سعيدة أم لا". وقالت: "أظنك لا تلومني". قلت: "لا. لست ألومك ياناتاشا". قالت: "مابك إذن"؟. قلت: "أشعر بأني مخلوق تعيس". قالت: "لماذا؟ ألأنني أحبك؟ الا ترى أنني أحبك؟ ألا تعتقد بأن زوجي قد تشكك بي حتماً بعد مكالمتك، وبعد خروجي من البيت دون سبب مقنع؟ كنت وعدته بأن أقضي الأمسية معه في البيت. حتى أني بصراحة لم أكن أفكر في خيانته. وها أنت.. ياإلهي! ألا ترى أنني أعرّض سمعتي للخطر حين أجيء إلى غرفتك في الفندق حيث جميع الناس يعرفونني؟ ألا يعني لك هذا كله شيئاً"؟. قلت: "أشعر بأني تعيس ياناتاشا". قالت: "كل هذا بسببي"؟. ولم يرد على سؤالها بأكثر من ابتسامة باهتة.. ماهذه المحنة؟! ماهذا البلاء؟! وهل من مخرج للنجاة؟ سألت نفسها وهي تتأمله بقلب طافح بالعواطف النبيلة. والعواطف وحدها لا تكفي لدرء البلاء، أو مداواة الجروح. الله وحده قادر على ذلك.. وبعد الله يأتي الزمان الذي هو خير علاج للجروح مهما كانت ثخينة. أما الآن، فليس غير الرحمة من معين. مدّت يديها إلى رأسه، وأخذت أصابعها تلعب بشعره الخرنوبي المتجعد في حلقات صغيرة متتالية، فاستشعر بلمسة من حنان الأنثى، وعطفها، وحنوّها. وأغمض عينيه على قناعة راسخة بحب الموت بين يدي هذه المرأة، وفي حضنها، وعلى صدرها. أحاط خصرها العاري بذراعيه العاريتين، وشدها إليه برفق ولين كمن يخاف عليها أن تتكسر، وأجلسها في حضنه، ودفن رأسه بين نهديها، وهدأ الوحش الذي في داخله بعد أن أسلم قياده للمرأة التي قبضت على زمام اللحظة. كان قلبها يختلج من الحب لهذا الرجل. وكان كل مافي جسدها يرتعش من الشهوة. وكانت روحها تتمزق تحت سياط هذا الشقاء الذي بدا لها مضاعفاً.. الخيانة.. كلمة طالما بدت لها مجانية. أما الآن فما من كلمة مثلها في لغات العالم تثير الشهوة في نفسها، وتدفعها دفعاً إلى التلاشي بين أطياف الحب الذي "خانته" بالأمس غير البعيد، فراحت تذوي من الوجد واللوعة والخوف من احتمالات فقدان مادة الحب نفسها، أو الرجل الذي ماشعرت يوماً بالهوى إليه كما بعد الزواج من غيره. ذلك الزواج الذي بدا لها قدراً محتوماً، أو حتى قدراً ضرورياً، فضح إفراط الغرام لديها

تجاه هذا الرجل، وفضح حبها للبقاء أبد الدهر في مجال هيمنته عليها. إن كل مافي نفسها الآن يضجّ بالرغبة في الخيانة وعبودية المحرمات القاتلة. أما العفة، أما الرصانة، أما الأدب، فما هي إلا قشور يجب تكسيرها دون رحمة.. حتى الرحمة لم يعد لوجودها مايبرره. لا، لن تقع فريسة الرحمة و"الحرام"، فليس فيهما ملاذ لروحها الوثّابة إلى البهاء المطلق، أو لجسدها المتفجر بالشهوة وحب التلاشي في المعشوق إلى حد الفناء.. "ياربي"!. تمتمت وجسدها المحموم يتشابك مع جسده على عرض السرير الضيق في وحدة لا تنفصم. كانت تشعر بسخونة لا قبل لها بمثلها. وكل شيء فيها كان ساخناً رغم برودة الهواء الناعم الذي يبثه المكيف الأبكم في أجواء الغرفة.. "كيف أجازيك ياحبيبي؟ كيف أجازيك"؟، تمتمت من حمّى الجنس، ومن لهيبه المتقد الوهّاج. ولم تكن تفكر تلك اللحظة بمغزى لهذا السؤال، كما لم تكن تفكر في أي شيء، فقد كان التفكير آخر مايمكن أن تفعله وهي غارقة في المجون وفي متعة الخيانة التي لا تطاق.. "لا تتركني"، تمتمت وعيناها العسليتان نصف مغمضتين، ورأسها يروح بطيئاً إلى يمين وشمال مثل بندول ساعة جدارية عملاقة. "لا تتركني" وشعرها الأشقر الناعم يغطي وجهها تارة ويكشفه تارة أخرى. "لا تتركني".. وراحت تضرب كتفيه اللاهثين فوقها بقبضتين واهنتين أتعبتهما ثورة العشق الذي لم تعرفه من قبل أبداً. أبداً. "ياربي"!. صرخت من اللذة وهي تنشب في ظهره ورقبته أظافرها المتقصفة، مقشورة الطلاء.. "ياربي"!.. وتواترت أنفاسها، وتصاعدت ضربات قلبها، ولهثت العروق في أجناب رقبتها الملساء ونفرت زرقاء واضحة جلية تكاد أن تفجّر الجلد الأبيض الناعم.. كانت كمن يتزلج على أمواج بحر هائج مضطرب. وكانت كل موجة تحملها إلى قمة جديدة من قمم اللذة الثائرة، ثم تقذفها إلى موجة أخرى شاهقة الارتفاع، فتصرخ من الخوف، وتلهث من شقاء السعادة، ومن قلق المتعة، وعذاب الحب، ونشوة الجسد اليانع السابح في بحر من العرق الذي تم نضحه خلال دقائق معدودات من الرحيل في عالم المجردات اللا متناهي.. ثم لا يبقى بعد هذه الفورة الجامحة، وبعد هذه الرحلة المضنية غير الاستسلام للرضا، والسقوط في شباك غوايته، فيصبح كل شيء إلى همود وانطفاء. ويخمد الجسد المتعب، ويحل فيه الوسن، والرغبة في النوم دقيقة أو دقيقتين. وهكذا بقيت في مكانها بلا حراك، وأغمضت عينيها، وأسبلت ذراعيها وساقيها، وأغفت دقيقة أو دقيقتين. ولمّا فتحت عينيها كانتا ذابلتين تماماً. نظرت إليه فرأته مبلولاً بالعرق. كان يدخن سيجارة. والتدخين بعد الجنس واحدة من عاداته الثابتة. مدّت إلى وجهه يداً مرتخية. وراحت تمسح عنه العرق،وتتمتم: "أراك واجماً. فماذا؟ ألم

تستمتع"؟. قال: "استمتعت كثيراً. وربما كان هذا هو سبب وجومي". قالت بصوت من استيقظ للتو من التخدير: "لست أفهم. لست أفهم". قال: "في كل مرة جديدة أضاجعك فيها أشعر بأنها المرة الأولى. سبق وقلت لك هذا الكلام مراراً. واليوم أيضاً شعرت بأنها المرة الأولى، ولكني شعرت بأنها المرة الأخيرة كذلك". ونهضت من سكونها. اقتربت منه، وانحنت عليه، وأبعدت السيجارة من فمه، وطبعت على شفتيه قبلة، وهمست له: "من الخطأ أن تعتقد بأن هذه المرة هي الأخيرة".. وبقيتُ أركض حتى وصلت شارع نوفي أرباط من جديد. عاد واستوقفني رجل الصور الخلاعية. قال: "هل أنت واثق أنك لا تبحث عن مخدرات"؟. قلت: "ماأبحث عنه تركته ورائي". ولم أنزل إلى النفق. ولم أعد أركض. لكني بقيت سريع الخطو. وصلت إلى كافتيريا لا أعلم متى استحدثوها. كانت مكشوفة تماماً لولا غطاء من زنك يمنع المطر عن الزبائن. كان الزبائن قلة. أو لعلني كنت الزبون الوحيد هناك. قالت لي صاحبة المكان: "ماذا تطلب ياسيّد"؟. قلت: "أريد قهوة. ولتكن ساخنة جداً من فضلك". قالت: "آوه، إنك غارق تماماً بالمطر. سوف تمرض". قلت: "نعم، سوف أمرض".. وقالت لودا: "هاقد التقينا من جديد". قلت: "هل أطلب لك قهوة"؟. قالت: "بكل سرور". وقالت: "إني جائعة". قلت: "أطعمك يالودا. ماذا أطلب لك"؟. قالت: "لا أريد أن آكل هنا". قلت: "أين إذن"؟. قالت: "هل تصحبني إلى أحد المطاعم"؟. قلت: "لا بأس. إلى أين تريدين أن أصحبك"؟. قالت: "إنني أحب مطعم باكو". قلت: "هل مازالوا يقدمون مخلل الملفوف في مطعم باكو"؟. قالت: "لا أعرف. لم أكن هناك إلا مرة واحدة. لقد دعاني أحدهم إلى ذلك المكان. ولكنهم يقدمون طعاماً لذيذاً جداً". قلت: "كم اشتقت إلى مخلل الملفوف"!. قالت: "يبدو أنك تعرف موسكو من زمان". قلت: "كان بقي سبع سنوات على ولادتك لمّا جئت أنا هذه المدينة أول مرة".. وقالت: "إنني سعيدة جداً لأنك رضيت باصطحابي إلى هذا المطعم". وقال النادل: "ماذا تأمرون"؟. قلت: "انظر ماتريد الصبية". قالت لودا: "أريد شوربة ساخنة. أريد لحم عجل مشوياً، أريد سلطة روسية. أريد ماروجنا. أريد قهوة. وأريد أولاً شمبانيا". وقال النادل: "وأنتم أيها السيد"؟. قلت: "أريد مخلل الملفوف". قال: "لا يوجد لدينا مخلل الملفوف". قلت: "لا تقل هذا". قال: "أنا آسف". قلت: "سأكتفي بالكونياك إذن". قال: "كم تريد"؟. قلت: "زجاجة". قال: "حاضر". قالت لودا: "زجاجة كونياك؟ هذا كثير". قلت: "حتى لا أمرض من المطر". قالت: "تمرض من الكونياك". قلت: "هذا أرحم". قالت: "مازلت لا أفهم لماذا لا تريدني". قلت: "وأنا لا أفهم لماذا اسمك لودا".

قالت: "ألا تراه حلواً"؟. قلت: "كان اسم سونيا يليق بك أكثر". قالت: "لماذا"؟. قلت: "لا أعرف". قالت: "ولكنك لا تقصد سونيا في رواية الجريمة والعقاب". قلت: "هاأنت تعرفين الجريمة والعقاب أيضاً". قالت: "ومن لا يعرف دوستويفسكي"؟. قلت: "إذن، فأنت تعرفين راسكولنيكوف". قالت: "طبعاً. الشاب الذي قتل امرأتين عجوزين وسرق نقودهما من أجل أن يساعد سونيا". قلت: "فهل من أجل أن يساعد سونيا قتل العجوزين"؟. قالت: "طبعاً". قلت: "لا أعتقد بذلك"؟. قالت: "كيف لا تعتقد بذلك؟ فقد كان يحب سونيا". قلت: "فهل أحبها"؟ قالت: "ألم يحبها"؟. قلت: "ربما أشفق عليها. لكني لا أظنه قد أحبها. لعلها هي قد أحبته. على أية حال، ذاكرتي لا تسعفني هذا اليوم جيداً، ثم إني قرأت هذه الرواية قبل عشرين سنة، وليس هذا كله ماكنت أريد أن أقوله عن راسكولنيكوف". قالت: "ماالذي كنت تريد أن تقوله إذن"؟. قلت: "فلننس الأمر. إنه ليس مهماً". قالت: "ولكنك تهربت من الإجابة عن سؤالي". قلت: "أي سؤال"؟. قالت: "لماذا لا تريدني؟ إنني لست مريضة حقاً". قلت: "اسمعي يالودا. أنت تريدين نقوداً. أليس كذلك"؟. قالت: "نعم". قلت: "وأنا سوف أعطيك هذه النقود". قالت: "من دون مقابل"؟. قلت: "بلى. أريد منك شيئاً مقابل ذلك". قالت: "ماهو ذلك الشيء". قلت: "ثمة امرأة حمقاء في مكان ما من هذا العالم، أريد أن أشتري لها بعض الهدايا، ولكني لا أعرف كيف أشتري شيئاً، فتساعديني أنت في ذلك". قالت: "هل هذا كل ماتريده مني"؟. قلت: "نعم". قالت: "فهل تحب هذه المرأة"؟. قلت: "أحياناً". قالت: "كيف ذلك"؟. قلت: "لا أعرف". قالت: "اسمح لي أن أقول لك إنك شخص غامض". وقالت: "بالمناسبة، ماذا تشتغل"؟. قلت: "أكتب". قالت: "ماذا تكتب"؟. قلت: "أكتب كلاماً فارغاً". وقلت: "لكنهم يدفعون لي نقوداً طيبة لقاء هذا الكلام الفارغ". قالت: "إنني لا أصدقك. إنك تحب أن تبدو متواضعاً". قلت: "بل هي الحقيقة يالودا". قالت: "مانوع الهدايا التي تريد أن تشتريها لتلك المرأة التي وصفتها بأنها حمقاء"؟. قلت: "لا أعرف، نتفرج". قالت: "ولكن لماذا تشتري لها هدايا مادامت حمقاء كما تقول"؟. قلت: "جميع النساء اللواتي أحببت كنّ حمقاوات". قالت: "الجميع"؟. قلت: "نعم". قالت: "من دون استثناء"؟. قلت: "من دون أي استثناء".. وقالت ناتاشا: "هل تعرف لماذا أتيت بك إلى الفولغا"؟. قلت: "لكي أعرف روسيا على نحو أفضل". قالت: "أنت غبي ياحسن". قلت: "إذن، لماذا"؟. قالت: "لكي أجعلك تحبني كما أحبك". وقالت وجدان: "أنا لا أحبك. أنا أعبدك". وقالت فاطمة:

"أحبك". وقالت: "أفكر بك وألعن جسدي". وقالت ناتاشا: "بدأ زوجي يشك بإخلاصي له. بدأ يتعذب. ليس عدلاً أن أتركه يتعذب. ماذنبه؟ إنه شخص رقيق وحساس. ليس من العدل أن أجعله يتعذب". وقالت لودا: "كم هي لذيذة هذه الشوربة"!. وقالت فاطمة: "كانت الظروف أكبر مني. كانت أكبر مني بكثير. كانت أكبر من أن تسمح لي بالمجيء إلى أثينا لمّا كنت أنت تنتظرني هناك". وقالت وجدان: "أهلي وأصدقائي يحرضونني". وقالت لودا: "إنها شوربة لذيذة حقاً". قلت: "سوف أشتري لك حذاء يالودا". قالت: "إنني بحاجة إلى حذاء شتوي". قلت: "سوف أشتري لك حذاءً شتوياً".قالت: "إنك ترتجف. كان يجب أن نذهب إلى الفندق أولاً حتى تبدل ثيابك هذه المبللة. أخشى أنك سوف تمرض". قلت: "ولماذا تخشين ذلك"؟. قالت: "كيف هذا؟ أليس يهمّني أمرك"؟. قلت: "لا أعرف".. وقال أبو فراس: "ماذا تفعل"؟. قلت: "خرجت من الحمّام تواً". قال: "اتصلت بك عدة مرات. أظن أن هذه المكالمة هي السابعة". قلت: "يبدو أني تأخرت في العودة إلى الفندق قليلاً". قال: "اتصلوا بك من معهد السينما. واتصل شخص من السفارة أيضاً". قلت: "هل هو عيسى"؟. قال: "لقد اتصل عيسى. لكن اتصل شخص آخر اسمه توفيق. واتصل أبو غانم أيضاً. إنه يدعونا اليوم إلى حفل افتتاح فيلم من إنتاجه". قلت: "على أية ساعة"؟. قال: "على الثامنة". قلت: "مازال لدينا وقت حتى الثامنة". قال: "سوف يمرّ بنا على السابعة والنصف ليصحبنا في سيارته". قلت: "إذن، نلتقي في البهو على السابعة والنصف، أو حتى قبل ذلك. سأعرج على صيدلية الفندق. أظنني في حاجةإلى دواء ما. أخشى من الأنفلونزا". قال: "حتى صوتك يبدو مريضاً". قلت: "أصابني مطر كثير". قال: "ولكن ماذا كنت تفعل تحت المطر"؟. قلت: "لا شيء. كنت أتسكع في الشوارع. وأنت؟ كيف قضيت وقتك"؟. قال: "لابد وأنك تعرف هذا الشعر". قلت: "أي شعر"؟. قال: "عاجَ الشقيّ على رسم يسائله/ وعجتُ أسأل عن خمارة البلد". قلت: "صدقت والله ياأبا فراس، فقد أمضيت يومي بين الأطلال الدارسات. يبدو أني شقي فعلاً ياصاحبي". قال: "أنصحك بالعودة إلى وجدان".

٤

رجعت إلى دمشق يوم ٢١ أكتوبر. ماابتعدت مرة عن هذه المدينة إلا واشتقت إليها سريعاً. وما رجعت إليها إلا، وسريعاً كذلك، شعرت فيها بالضجر. أقيم في دمشق منذ عام ١٩٥٦ . غير أني أعرفها من قبل ذلك التاريخ. قضيت فيها فصل الصيف من عام ١٩٥٥ . كنت في العاشرة من عمري. جئتها من لبنان حيث أقمنا في مخيم للاجئين الفلسطينيين قريباً من مدينة بعلبك الأثرية منذ عام ١٩٤٨ . كان أبي قد مات منذ سنتين أو أكثر لمّا زارتنا فجأة في ذلك المخيم امرأة جميلة وأقامت بيننا أياماً ثلاثة. أتذكر جيداً لقائي الأول بتلك المرأة. أتذكر أن الوقت كان عصراً. وأتذكر أني اندهشت كثيراً من سلوكها حيالي، ومنذ اللحظة الأولى، قالت لهم: "هاذا حسن". لقد عرفتني. وأنا لم أعرفها. لأني مارأيتها من قبل. أو لعلّني رأيتها وأنا رضيع بعد. ثم لم يجمعني بها مكان أو زمان. أخذتني إلى صدرها، وأشبعت وجهي، بعد يديّ، لثماً وتقبيلاً، دون أن تكف عن البكاء لحظة واحدة. كم بكت تلك المرأة في عصر ذلك اليوم البعيد الذي رأيتها فيه أول مرة! وأنا لم أفهم أبداً لماذا تبكي بتلك الطريقة المحمومة، وتقبلني تلك القبلات كلها. هي امرأة شابة، شعرها أشقر. عيناها زرقاوان. بشرة وجهها بيضاء، ناعمة، ونقية. لاشك في أنها امرأة جميلة، مرهفة، وحساسة. ولاشك في أنها، قبل هذا كله، تحبني على نحو خاص. أما أنا، فلم أفهم لماذا وماذا وكيف ومتى وأين. وبقيت لا أفهم حتى بعد أن قالوا لي: "هاي عمتك". وأردفوا موضحين: "عمتك فاطمة". وأظنهم كانوا في غنى عن تسميتها. إذ ليس لي إلا عمة واحدة. ليس لأبي أخ أو أخت إلا فاطمة التي لم تر أخاها، فيما أظن، منذ عام ١٩٤٨ ، أي منذ الشتات الفلسطيني الأول، أو الشتات الكبير. مات الرجل بعيداً عن أخته التي تقيم في دمشق مع أسرتها حيث يشتغل زوجها في إحدى الهيئات الدولية ـ الأمم المتحدة، أو شيء من هذا القبيل. وأظنه كان موظفاً كبيراً إلى حد ما في تلك الهيئة الدولية التي لا تسعفني الذاكرة الآن في تحديد اسمها بدقة. أتذكر أني شعرت براحة كبيرة لوجود تلك المرأة بيننا. كانت شيئاً مختلفاً، وعالماً مختلفاً. كل إنسان، دونما ريب، عالم مختلف. أما تلك المرأة فإنها عالم شديد الاختلاف عن كل مايحيط بي. شعرت بالحب في حضنها.

وشعرت بالأمان أيضاً. إنها تشبه أبي الذي راح إلى غير مارجعة. تشبه جدتي لأبي. هي دليل آخر على أني أتحدر من سلالة أحد أولئك الرجال الذين جاؤوا إلى المنطقة حاملين الصليب راية في حربهم ضد العرب. ولعلّ عمتي تحبني على نحو خاص لأني أشبه أخاها. فأنا الوحيد الذي يشبه أخاها بين أولاد ذلك الأخ الذي انفجر دماغه في الرابعة والثلاثين من عمره، وهي السن التي انفجر فيها دماغ أبيه من قبل أيضاً. كان الرجل على ظهر جواده العربي الأصيل لما انفجر دماغه ومات في الطريق إلى عكا، ملبياً دعوة أحد وجهاء المنطقة لحضور حفل زفاف ابن ذلك الوجيه. وبما أن الجواد عربي أصيل فقد عرف طريق العودة إلى البيت حاملاً جثة فارسه. يُحكى أن مأتماً عظيماً قد أقيم في قرية (لوبية)، وأن قوماً كثيراً من أنحاء الجليل حضروا لتشييع جثمان يوسف عبد الرزاق إلى مثواه الأخير عند صلاة الظهر من أحد أيام الربيع سنة ١٩٣١ .. قالت لي عمتي: "تروح معاي عالشام"؟. والشام، كما أخبرتك من قبل، هي الاسم الثاني لدمشق أو لعلها الاسم الأول، وهي أيضاً، كما تعلمين، اسم جميع الأرض الواقعة في شرق البحر المتوسط. قلت: "إمي مابترضاش". قالت: "المهم إنت ترضى". قلت: "ياريت"!. وقلت أيضاً: "اشتقت ليوسف". كان أخي يوسف الذي يكبرني بسبعة أعوام، قد غادرنا منذ تسعة شهور تقريباً. وتلك هي المرة الأولى التي يتركنا فيها. جاء إلى دمشق من أجل دراسة الشهادة الإعدادية.. ركبت مع عمتي الباص (البوسطة - كما يسميها اللبنانيون. لعلّها من كلمة Post - البريد، ثم عربة البريد، وهكذا). باص متوسط الحجم من نوع مرسيدس. غادرنا بعلبك في حوالي التاسعة صباحاً. أتذكر أنه كان صباحاً ينذر بنهار قائظ، رغم أننا في أوائل الصيف بعد، أو حتى في أواخر الربيع، إذ لم يمض إلا وقت قصير على انتهاء العام الدراسي في المدارس الابتدائية. جلسنا في الباص أنا وعمتي متجاورين. هي من جهة الممر، وأنا من جهة الشبّاك. ألصقتُ وجهي بالزجاج الذي أصرّت عمتي على أن يظل مغلقاً، رغم أنها لاحظت، دون ريب، معاناتي من ارتفاع الحرارة داخل الباص. كانت تخشى أن أمدّ رأسي إلى خارج الشبّاك لو تركت الزجاج مفتوحاً. جعلتُ ألصق وجهي بالزجاج، وأتفرج على الأرض تهرب من أمامي: البساتين، والحقول، والناس، والبيوت، وأعمدة الهاتف، وأعمدة الكهرباء، والطيور، والسيارات، والأصوات، والمواشي. كل شيء كان يهرب. كل شيء دائم الهروب، وكل منظر دائم التغير. والأصفر والأخضر أكثر الألوان حضوراً في تلك المناظر دائمة التغير. إنها حقول القمح التي نضجت أو أوشكت على ذلك، وبساتين الفاكهة بأثمارها المختلفة الكثيرة. واللون الأحمر يلوح

في تلك المناظر بين حين وحين. لعلّها أزهار الرمان البرّاقة، أو لعلّها شقائق النعمان، أو بقايا تلك الشقائق التي يسمونها البرقوق أيضاً. لعل الفلسطينيين وحدهم من يسميها بهذه الكلمة بين العرب جميعاً. كنت ألصق وجهي بالزجاج وأنغمس بفرح اكتشاف الأرض، وبسحر تلك الجنائن بكل مافيها من سواقي وأشجار وأنغام تتصاعد من بين الزرع، ومن قلب التربة، ثم تروح تلف من حولي مثل دوّامة في صحراء، وتجعلني في عطش دائم إلى عذوبة الحلم بفرح اكتشاف هذه الكنوز التي ماكنت أتصور وجودها في الأرض لولا عمتي فاطمة، فتلك هي المرة الأولى التي أركب فيها سيارة مذ جئت إلى الدنيا قبل عشر سنوات على ذلك الصباح الذي ينذر بنهار قائظ. أو لعل تلك هي المرة الأولى التي أقطع فيها مسافة طويلة في سيارة. كنت مندهشاً لكل مايقع عليه بصري. وكنت أختطف أحياناً نظرة إلى المرأة التي في جواري، والتي تغطّي شعرها الأشقر بمنديل أسود، فأراها لا تكف عن النظر إلي، وأراها لا تهتم بالأرض وأسرارها. ولا تشبع من سؤالي بين حين وحين: "مبسوط"؟. وأهز لها رأسي بالإيجاب. وتقترب مني أكثر، وتحتضنني، وتتفرج معي على الأرض الهاربة من أمامنا، وتوضح لي شيئاً على علاقة بشيء تركناه للتو خلفنا، وتقبل رأسي، ورقبتي، وتتشممني أيضاً. وأعتقد الآن بأنها كانت تشعر بمتعة عظيمة من ذلك الأمر. لعلها تبحث فيّ عن رائحة الأخ، ورائحة الأب اللذين تركاها باكراً. أو باكراً أكثر مما ينبغي، وعن رائحة الأهل والوطن، والأرض والبيت الذي كان، والماضي الذي لن يعود، ولن يعود أبداً.. أي حسرة!! والأرض تهرب من أمامي، والدوّامة لا تتعب من الدوران، ورأسي يلفّ من المتعة في متاهات الضوء الشفيف المتبخر من الأرض في قيظ ذلك النهار الذي يهرع بي إلى فرح لم أكن مستعداً لملاقاته فقد كان فرحاً قاسياً. لم يتوقف الباص بنا إلا عند الحدود. الحدود اللبنانية أولاً. ولم أفهم معنى لكلمة الحدود، ولم أفهم لماذا كل ذلك الانتظار، وكل تلك الإجراءات المعقدة. ولا فهمت أيضاً لماذا نزل الركاب من الباص. نزل الجميع إلا عمتي وأنا. أتذكر أني في لحظة شعرت بالخوف. لقد استقرت الأرض في مكانها. توقفت عن الدوران، وكل بهجة أصبتها في الطريق انسحقت عند تلك النقطة من الأرض التي يسمونها الحدود. ثمة من يصرخ ومن ينادي ومن يأمر ومن ينهى. وثمة أوراق، ورجال يضعون مسدسات في أحزمتهم، ويرتدون زيّاً موحداً بدا لي جميلاً رغم خوفي من أولئك الرجال الذين أمروا الأرض بالكف عن الدوران. شعرت بالخوف من أن يأخذني أولئك الرجال من عمتي التي لاحظت خوفي فاحتضنتني وقالت: "الحدود". قلت لها: "ليش نزلوا الناس"؟. قالت: "الحدود". وهي تعتقد

بأني أفهم معنى هذه الكلمة، لأنني ذكي حتماً. وكيف لا أكون ذكياً مادمت ابن أخيها؟! وربما كانت خائفة مثلي، فلم يترك لها خوفها فرصة من قول كلمة تبدد بها قلقي واضطرابي غير كلمة: "الحدود". قلت لها: "ليش مانزلناش من الباص زي بقية الناس"؟. قالت: "مافيش داعي ننزل". وشعرت بصوتها أجش أو أبح، فهي مثلي خائفة ومضطربة. كانت تخاف أن تفقدني إذ أنني لا أملك الأوراق التي تخوّلني عبور الحدود. جعلت أراقب اضطرابها. رأيتها تكثر من النظر عبر هذا الزجاج وذاك الزجاج. إنها تبحث عن شخص ما، هو في الغالب شخص لا تعرفه. بل إنها لا تعرفه حقاً. وهاهو الشخص يظهر فجأة. صعد إلى الباص رجل في حوالي الثلاثين من عمره: أسمر، مربوع القامة، ذو شارب أسود كث. اقترب منا وقال لعمتي بلهجة لبنانية: "الست فاطمة يوسف"؟. قالت عمتي: "آه. أنا فاطمة يوسف ياخوي". كان الرجل يرتدي زيّاً مدنياً. وهو، باختصار، من طرف زوج عمتي. أتذكر أنه مدّ يده لمصافحتها، فرفعت يدها عن ظهري، وبسطت كفها على صدرها. لا تصافح الغرباء. إنها امرأة متدينة. قالت له: "معاي ابن أخوي. بدي تساعدني إنه يمر". قال الرجل: "تكرمي ياست فاطمة". أخذ منها أوراقها، وغادرنا. ثم لا أدري كيف تدبر أمر عبوري الحدود من دون تعقيدات تذكر. ومثلما ساعدنا في عبور نقطة الحدود اللبنانية، ساعدنا في عبور نقطة الحدود السورية أيضاً، ولم يتركنا إلا بعد أن صرنا في الأراضي السورية بعيداً عن آخر نقطة لرجال الأمن ورجال الجمارك.. لم يتوقف الباص بعد ذلك إلا في قلب دمشق. ومنذ غادرنا الحدود خلفنا رجعت ألصق وجهي بالزجاج، وأتفرج على الأرض الهاربة من أمامي. بدت لي الأراضي السورية أقل جمالاً من جاراتها اللبنانية. بدت لي جرداء قاحلة محروقة بالشمس والعطش، وفقيرة بتلك السرابات الخدّاعة، أرض جرداء بنية اللون بأودية وهضاب كثيرة تتماثل تماثل أمواج البحر المتعاقبة حتى بدا لي أن ليس لذلك اللون البني من نهاية. وكم كان ذلك اللون رتيباً! حتى أني أشحت عنه في لحظة من اللحظات، بعد أن أصابني بالضجر، فأنا لا أحب تلك الأشياء ذات البعد الواحد. وهل اللون إلا بعد من الأبعاد؟! والمرأة التي بجواري أكثر سحراً وفتنة من تلك الطبيعة البخيلة. نظرتُ إلى خصلة من شعرها الأشقر الوهّاج تهرب من تحت منديلها الأسود. لماذا تخبىء عمتي شعرها الجميل تحت ذلك الغطاء؟. وكدت أسألها عن السبب. وأظنها أدركت مايجول في خاطري، فامتدت يدها إلى رأسي، وجعلت تمسد على شعري الأشقر المائل إلى الخرنوبي، كمن يقول لي: ثمة ضرائب في هذه الحياة ندفعها طائعين أو مرغمين. وتبسمت، وقالت: "شوف"، وأومأت برأسها إلى الأرض الهاربة من أمامنا.

لقد تغير المنظر بسرعة مذهلة. ثمة تحولات غير مفهومة في أسرار الأرض المليئة بالأسرار التي لا تنتهي. انعطافة سخية إلى حد جعل رأسي يفتل من المتعة. حتى الطريق ذاتها فقدت الرتابة التي تميزت بها منذ مابعد الحدود. صارت تتلوى بين مجموعة من التلال الخضراء، رغم كثرة الصخور المزروعة فيها منذ الطوفان العظيم. تلال صخرية خضراء تحيط بالطريق من جانبيه إحاطة أكيدة مثل القدر الذي حمل السفينة إلى براري الأمان. ثمة بساتين متفرقة هنا وهناك، وثمة سكة حديد، وثمة مجرى مائي بدا لي قوياً، هادراً، صاخباً.. "هاذا نهر بردى". قالت عمتي. وقالت: "أعجبك"؟. وقلت: "هاذا كثير". وقالت: "شوهو اللي كثير"؟. شلالات صغيرة لا حصر لها تتفجر مياهها من كل مطرح في التلال المحيطة بالطريق. تتفجر من الصخور الراسية في الأرض منذ ماقبل الطوفان العظيم. قالت لي عمتي: "هاي الربوة". ومرة ثانية، تظنني ذكياً إلى الحد الذي لابد أن أكون فيه على دراية بهذا الاسم، بدا لي أن الأمر بالنسبة إليها محسوم تماماً، لأن كلمة (الربوة) اشهر من الشمس. هززت رأسي موافقاً على أن هذه هي الربوة. هززت برأسي موافقاً على أني "مررت على الرياض بربوة غنّاءة" ـ والكلام لأحمد شوقي، وإن كنت إلى اليوم لا أعرف المكان الذي قصده شوقي بهذه الكلمات.. شلالات صغيرة متفجرة حتى من قلب الصخر، تفرّ هاربة من أمامي كما يفر كل شيء آخر. ولكنها من الكثرة بحيث ظلت دائمة الحضور في ناظري بزبدها الأبيض المتناثر في أشعة شمس الظهيرة وسكون الهواء وصخب عجلات القطار الذي ظهر فجأة في اتجاه معاكس لاتجاه الباص ينفث دخاناً رمادياً في حزمة غليظة لا تتشتت إلا في الأعالي ويزعق بصافرة تمتزج بلغط الركاب وبصوت مطربة ينساب من المذياع حزيناً يروي قصة وعد قدّمه أحد الرجال إلى إحدى النساء ثم لم يتمكن من الوفاء بوعده إلا بعد فوات الأوان. وأنا أطارد الأشياء بعينيّ، وأذنيّ، وقلبي، وأجاهد ألا يفوتني أي تفصيل من ذلك الفرح عديم الرحمة. كنت سعيداً بصحبة عمتي. وكنت أحس بأن تلك السعادة كثيرة علي. ولعل هذا ماعنيته لما قلت لها: "هاذا كثير". قالت لي: "بعد شوي منصير بالشام". إلتفت إليها كمن يحتج على قرارها بإنهاء الطريق. أريد أن تظل الأرض تهرب، وأن تظل الدوامة تلف بي، وتلف من حولي. وعمتي تصير مثل رجال الحدود. تتخذ القرار، وتتوقف الأرض.. أكثر ماأدهشني في دمشق منظر أولئك الرجال الذين يقفون وسط الشوارع ويلوحون بأذرعتهم شمالاً أو يميناً فيطيعهم سائقو السيارات وينفذوا تعليماتهم بدقة. إنهم شرطة المرور طبعاً. ظننتهم مجانين. لم أكن قد رأيت شرطة للمرور من قبل في حياتي. عندما كنت في

الخامسة أو السادسة من عمري انكسرت ذراعي. أخذني أبي إلى المستشفى حيث جبروا ذراعي المكسورة بجبارة لونها أبيض، وربطوا الذراع برباط علقوه في رقبتي لكي لا أحرك ذراعي، لأن ذلك يساعد في شفائها من الكسر كما قالوا لي. وفي دمشق رأيت أولئك الرجال (ذوي الأذرع المكسورة) يعملون بخلاف نصائح الأطباء. إنهم يرتدون في أذرعتهم أكماماً بيضاء فوق بدلاتهم الرسمية. وأنا لم أكن أستطيع أن أرى في الكم الأبيض إلا جبارة. وهكذا، أدهشني أمر هؤلاء الرجال المجانين، وكدت أسأل عمتي حقيقة الأمر لولا أننا لم نعد وحيدين أنا وهي، ثمة شخص ينتظرنا في (كاراج لبنان)، وهذا الشخص الآخر من طرف زوج عمتي أيضاً. كان قد أحضر سيارة تكسي. جلس هو بجانب السائق، وجلست أنا وعمتي في المقعد الخلفي. ثم انطلقت السيارة بنا فرأيت مزيداً من أولئك الرجال ذوي الأذرع المكسورة، وترددت في سؤال عمتي عن السبب الذي يدفعهم إلى مخالفة تعليمات الأطباء، وفضلت الصمت بسبب وجود رجلين غريبين في السيارة السوداء الصغيرة من طراز مرسيدس أيضاً. وتلك المرة الأولى التي أركب فيها سيارة صغيرة. كم من الأشياء وقعت لي أول مرة بصحبة المرأة الشقراء التي هي عمتي والتي تقيم في حي بعيد عن (كاراج لبنان). إنه حي المزّة في أقصى غرب دمشق لكن، ورغم بعد المسافة، بدت لي الطريق قصيرة. ألصقت وجهي بالزجاج من جديد لأن المرأة أغلقت النافذة من جديد، فهي لا تشبع من الخوف علي، والنظر إلي، أو إلى أثر من آثار أخيها وأبيها وماضيها الذي لن يعود. ولن يعود أبداً.. وصلنا البيت بعد العصر. بيت واسع. فيه عدد من الغرف أكثر مما تحتاج إليه الأسرة في الواقع، مع أنها أسرة كبيرة. أظنها كانت تتألف من عشرة أشخاص في ذلك الوقت. بيت واسع ونظيف، بل شديد النظافة. ولاشك في أن عمتي كانت تصرف وقتاً وجهداً عظيمين في تنظيفه وترتيبه. لكن ومن حسن حظها دون شك، ان اثنتين أو ثلاثاً من بناتها كنّ قد صرن صبايا.. لمّا وصلنا البيت وجدنا الجميع حاضراً إلا زوج عمتي. كان غائباً عن دمشق في مهمة وظيفية قصيرة. قالت عمتي للجميع: "هاذا حسن". وقالت أيضاً: "هذا أخوي". ولم أفهم لماذا تسميننني أخاها. سألت عمتي: "وين يوسف"؟. قالت: "يوسف بعيد من هون". وقالت: "والله ياحبيبي ياحسن أنا زعلانه من يوسف". قلت: "ليش"؟. قالت: "صار له تسع شهور بالشام، ومازارنيش غير مرتين. تقول إنه مش أبوي"!. إذن، كنت أنا أخاها. وكان أخي أباها. كم هي امرأة طيبة عمتي فاطمة! قلت لها: "بس أشوفه بدي أقول له إنها عمتي زعلانه منك". قالت: "والله ياقلبي أخوك مابيأثر فيه الحكي. أبوي وبعرفه". ولم أفهم طبعاً لماذا تصر على أنه

أبوها الذي لا يؤثر الكلام فيه.. احتفى بي الجميع. حتى أنهم بالغوا بالحفاوة. الجميع إلا واحد، هو ابن عمتي الذي من جيلي تقريباً. لم يعجبه منظري. ربما كان الأمر كذلك. أو، وهذا أقرب إلى الصحة، لم يعجبه أن يأتي طفل غريب إلى دارهم ويصير فجأة محور اهتمام الجميع، ومحط أنظارهم، ثم يحتكر الدلال كله. وكم دللوني! وهكذا ضمر ابن العمة ذاك أمراً غيّر مسار نهاري كله. افتعل شجاراً معي. وضربني في نتيجة الشجار. ضربني بقوة، حتى أنه أبكاني. أبكاني كثيراً حتى صارت دموعي تكوي مقلتيّ.. منذ طفولتي وأنا ضعيف البنية. وهكذا فإنني لم أكن أحسن الشجار مع الأولاد، فلا أتشاجر مع أحد منهم إلا نادراً.. وابن عمتي أقوى مني. ضربني، وأبكاني، وهرب، ترك البيت وخرج إلى الحارة بعد أن أشفى غليله من أمه التي تدلل ولداً غريباً، فجعلها في غيظ مابعده غيظ. فقدت المرأة عقلها وهي تراني أبكي على ذلك النحو المرير، لست لأني ضيف فحسب، أو لأني ابن أخيها أو أخوها فحسب، بل لأني، قبل هذا كله، ولد يتيم.. "وأما اليتيم فلا تقهر". وكنت أموت من القهر. وما عدت أريد البقاء عند عمتي. جعلت أقول وأكرر القول: "بدي أروح لعند أخوي. وما بديش أظل هون. بدي أروح لعند يوسف". ولم تنفع محاولات عمتي وبناتها في تهدئتي وإرضائي. لم تنفع محاولاتهن الكثيرة معي في شيء. بقيت أنتحب وأنشج، وبقيت في حاجة إلى أخي الذي بدا كمن سمع بحاجتي إليه فجاء ينقذني.. كانت تلك زيارته الثالثة لعمته خلال تسعة شهور.. ماإن أطل من الباب، ولمحت عيناي قامته الطويلة حتى هرعت إليه وارتميت عليه ارتماء وقد ارتفع نحيبي وازداد حدة.. جميع أخوتي طوال القامة لأبي إلا أنا. جميع أخوتي سمر البشرة لأمي إلا أنا. لست أعرف الآلية التي كانت تعمل بها الجينات الوراثية لحظة قرر أبي وأمي أن يجيئا بي إلى هذه الدنيا. لقد خالفتُ أخوتي الثلاثة مخالفة لا لبس فيها ولا غموض. وشعرت بالأمان بين يدي أخي القويتين حين رفعني إلى صدره وجعل يقبلني، فوجيء طبعاً بوجودي في دمشق، وفوجيء بدموعي وقهري، وأخذ يهدئني. عرض علي أن يصالح بيني وبين ابن عمتي، غير أني رفضت المصالحة، قلت له: "بدي أروح معاك". وبقيت مصراً على طلبي هذا الذي رضخت له عمتي أخيراً بعد أن تهامست مع أخي بكلام ما غادرنا بعده ذلك البيت الواسع النظيف. قال لي أخي: "إيش جاي ع بالك؟ تروح عالسينما"؟. قلت له: "ياريت"!. قال: "تكرم. أنا كم حسن عندي"!. أخذني إلى سينما دمشق. موقعها في قلب المدينة. كانت تعرض فيلماً عربياً. لا أتذكر اسمه، ولكني أتذكر الممثل شكري سرحان. ربما هو ذلك الفيلم المأخوذ عن رواية (تراجيديا أميركية). ربما. لا أتذكر

الأمر جيداً. أظنني أرهقت أخي في ذلك اليوم، لأن السينما بالنسبة إليه من الكماليات، أو ربما كانت ترفاً، لأن دخله شحيح. كان يدرس للشهادة الإعدادية، وفي الوقت ذاته، يشتغل لكي يطعم نفسه ويدفع أجرة المكان حيث يقيم، وأكثر من ذلك، يرسل إلينا بين حين وحين بعض النقود التي تعيننا على الحياة. وبما أنه لا يملك غير قوة ذراعيه فقد اشتغل عاملاً في الحفريات. وكان يوازن بين دخله الشحيح من جهة واحتياجاته واحتياجاتنا من جهة ثانية، فقد بدأ يتحمل مسؤولية الأسرة منذ وفاة أبي، أي مذ بلغ الرابعة عشرة من عمره. حتى أنه اضطر على ترك المدرسة ثلاث سنوات بعد وفاة أبي، وذلك طبعاً من أجل أن يشتغل وينفق علينا. كان إحساسه بالمسؤولية كبيراً تجاه أمه وأخوته وهو لم يزل ولداً.. قال لي بعد السينما: "إيش إسّه - الآن باللهجة الفلسطينية - جاي ع بالك"؟. قلت: "جاي ع بالي أركب بهاي العربايّة". قال: "هاي العربايّة اسمها ترمواي". قلت: "جاي ع بالي أركب بالترمواي". قال: "بكل الحالات بدنا نروح عالبيت بالترمواي. بس قبل مانروح عالبيت إيش بدك؟ جوعان"؟. قلت: "جوعان". قال: "تعال نوكل - نأكل - فلافل". الفلافل هي مايسمونها في مصر الطعمية، مع فارق واحد أنها مصنوعة من الحمّص وليس الفول. اشترى لي سندويشة فلافل من دكان قريبة، واشترى لنفسه واحدة أيضاً، وجعلنا نأكل في الطريق إلى موقف الترامواي بعد أن حل الظلام وأنيرت مصابيح الشوارع التي بدت لي عريضة واسعة نظيفة، وجيدة التنظيم. كنت مندهشاً من كل ماتقع عليه عيناي، مثل مخلوق جاء من كوكب غريب، وحطّ فجأة بين أناس لا يشبهون في شيء أولئك الناس الذين تركهم وراءه. ودمشق أولى المدائن التي أزورها. كانت في ذلك الوقت مدينة صغيرة. ولكن كم بدت لي كبيرة! لم أتصور يوماً بإمكانية وجود أناس بهذه الكثرة وسيارات بهذه الكثرة، وعربات بهذه الكثرة، وأبنية بهذه الكثرة، ومصابيح بهذه الكثرة. مدينة غارقة في النور، سابحة في الضوء الكثير. كل شيء في دمشق كثير. ودمشق أكبر مدائن العالم. تلك هي النتيجة التي خلص إليها عقل ذلك الولد ذي السنوات العشر وهو يأكل سندويشة الفلافل ويشعر بالأمان والرضا تحت جناح أخيه في طريقهما إلى موقف الترامواي، وعيناه لا تتركان شيئاً يمر بهما من دون أن تمرا عليه.. وأخي ينظر إلي بين لحظة ولحظة، وأنا أرفع بصري إليه بين لحظة ولحظة، وأبتسم من فرط السعادة. ولا يسألني إن كنت مسروراً. سوف يبدو سؤالاً غبياً، فكل شيء فيّ ينضح بالسرور من الدهشة، ومن اكتشاف هذا الكوكب الغريب.. ومن جديد، كان فرحاً شديد القسوة.. ركبنا الترامواي. وقفنا في مؤخرة العربة، وألصقت وجهي بالزجاج،

وجعلت أنظر إلى سكة الحديد تهرب وتهرب تحت أضواء المصابيح إلى أن تتلاشى عند نقطة ما في العمق بعد أن يتوحد جزءاها تماماً. من قال إن الخطين المتوازيين لا يلتقيان أبداً؟ أي غبي قال ذلك؟ حتى أني منذ الطفولة أملك الدليل على بطلان هذه الحقيقة... كان أخي يقيم في حي (الميدان). في آخر نقطة من ذلك الحي الذي يحتل الجزء الجنوبي من المدينة. يقطن غرفة صغيرة في بيت قديم أو حتى قديم جداً يتألف من طابقين. وغرفة أخي في الطابق الثاني. صعدنا الدرج إلى غرفتنا. درج عتيق، لكنه مضاء على نحو جيد. أدار أخي المفتاح في قفل الباب وفتحه. وامتدت يده إلى مكان ما من الجدار. وسمعتُ طقة خفيفة أنيرت بعدها الغرفة بمصباح كهربائي معلق في سقفها. وليس ذلك أول مصباح كهربائي أراه في حياتي طبعاً، غير أنه أول مصباح أمتلكه في حياتي. كان ذلك المصباح أول احتكاك لي مباشر مع الكهرباء. قلت لأخي: "الكهربا أحسن من لمبة الكاز". قال: "بس أحسن"؟!. قلت: "مين اللي اخترع الكهرباء"؟. قال: "اللي اخترع اللمبة مهندس من أمريكا اسمه أديسون. أما الكهربا فمش عارف. أظن إنها كانت معروفة من أيام البابليين، بس طبعاً مش بالمفهوم تبع اليوم. بهذا المفهوم يمكن الأمريكان أول مين عرف الكهربا. ويمكن أول مدينة ضوت باللمبات هي شيكاغو قبل حوالي خمسين سنة". وقال أيضاً: "بس أنا مش متأكد من هالحكي. ببقى بتأكد منه وبخبرك". كان يحب أن يخبرني بما يعرف لأنه مهتم بي حتى من قبل أن يموت أبي. كان يهمه بشكل خاص أن أتعلم اللغتين: العربية والانجليزية. ولعل السبب في ذلك أن هاتين اللغتين هما مجال اهتمامه هو. كان ـ ونحن بعد في ذلك المخيم الفلسطيني قرب بعلبك ـ يحضر إلى البيت كتباً كثيرة. يستأجر الكتاب بثمن زهيد من دكان في المدينة. وأنا أسميها مدينة على سبيل التجاوز، فهي ليست كذلك أبداً. في ذلك الوقت على الأقل. ليست أكثر من بلدة صغيرة. أتذكر أن أول كتاب أمسكته بيدي ـ غير كتبي المدرسية ـ هو ديوان المتنبي. وأتذكر أن ذلك الكتاب، مثل عشرات غيره، يزورنا في البيت أربعاً وعشرين ساعة أو ثمانياً وأربعين ساعة كحد أقصى، ثم يرحل. يرجع إلى مكانه في تلك الدكان الصغيرة. وأتذكر أن أول كتاب جاءنا مقيماً، أو غير زائر، هو (المعلّقات العشر)، أو (القصائد العشر)، والتي قيل إنها لم تكن عشراً بالاساس. قيل: هي تسع قصائد وقيل: سبع. وقيل: أربع فقط. ولعل أخي ما زال يحتفظ بتلك النسخة من هذا الكتاب إلى اليوم رغم أنه أخذ، ومنذ عامين تقريباً، يوزع كتبه على المكتبات العامة بعد أن ضاق بيته بتلك الكتب. حتى أن بناته كنّ يقلن له: "والله يابا خايفين عليك يصيبك ما صاب الجاحظ". وأعتقد أن البنات كنّ على حق، فقد

غُصّ بيت أخي بالكتب تماماً. أنا نفسي قلت له مرة: "مش خايف توقع هاي الكتب عليك بيوم من الأيام؟ أظن أنها بتقتلك". يبدو أن الرجل قد ملّ أو تعب من كثرة ما قرأ في حياته. أو لعله فقد الحماس إلى القراءة لسبب أو آخر. لا أعرف، ولكنه وزّع إلى الآن كمية كبيرة من مكتبته. وأظنه سائراً في اتجاه توزيع البقية. وكم هي عجيبة هذه الدنيا! كان اقتناء كتاب واحد حدثاً في غاية الأهمية لأخي، ولي أنا أيضاً. ثم.. إنها دنيا عجيبة حقاً! لعل أكثر كتاب قرأته في حياتي هو (المعلّقات)، بغض النظر عن العدد الحقيقي لتلك القصائد، فهذا أمر لم يتم حسمه من قبل مؤرخي الأدب العربي، ولا أظنه قابلاً للحسم. يبدو أن الأدلة قليلة، أو تكاد تكون معدومة. وبغض النظر، مرة ثانية، عن العدد الحقيقي لتلك المعلّقات، فالذي حدث أني تعلقت بها. ولعل السبب في ذلك هو أن هذا الكتاب ظل يتيماً في بيتنا زمناً غير قصير. أتذكر أن معلّقة طَرَفَة بن العبد أثّرت بي أكثر من أي معلّقة أخرى.

لخولة أطلالٌ ببرقَةِ ثهمدِ تلوح كباقي الوشمِ في ظاهر اليدِ

كانت تعجبني تلك الصيغة التقريرية التي يستهل بها طَرَفَة قصيدته الطويلة.. لخولة أطلال. واضح أنها جملة اسمية بسيطة رغم تقديم الخبر على المبتدأ، فالتقدير طبعاً: أطلال لخولة... وأتذكر أني لم أكن أحب معلّقة أمرئ القيس:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسَقط اللوى بين الدَخول فحوملِ

لم أكن أستسيغ هذا الاستهلال: فعل أمر ثم فعل مضارع مجزوم بحذف حرف العلة من آخره. وهل هذا الفعل مجزوم لأنه جواب الأمر؟ لا أظن بذلك، فالأمر لا جواب له. إذن، فهل هو مجزوم لأنه جواب شرط مقدر؟ لا أعرف. إلى اليوم لا أعرف. وهل كان يخاطب رفيقين؟ أم كان يخاطب رفيقاً واحداً، وثنّى، لأن العرب قد تخاطب الواحد مخاطبة الاثنين؟ أم أن أصل الكلمة: قفن؟ ثم أبدل الألف من النون؟ لا أعرف. إلى اليوم لا أعرف، رغم شروحات الخطيب التبريزي. كنت أرى في هذا المطلع شيئاً من التعالي الذي لا لزوم له. وكان أخي، في المقابل، معجباً أيما إعجاب، بقصيدة امرىء القيس، ويجاهد في إقناعي بعظمة تلك القصيدة التي بقيتُ عنيداً في رفضها.. "ما حبيتهاش"... ثمة شيء آخر في قصيدة امرئ القيس ضرب على عصبي، كما يقول العوام. إنه ذلك البيت الشهير:

أفاطمَ مهلاً بعضَ هذا التدللِ وإن كنتِ قد أزمعتِ قتلي فأجملي

هل تصدقين أني إلى اليوم لا أعرف لماذا لم يرفع كلمة فاطمة؟ إنني لا أعرف إلى

اليوم لماذا أبدل امرؤ القيس الفتحة من الضمة. على أية حال، إنني لست ممن يُشهد لهم بالتبحر في علم النحو. ثم إن هذا الأمر ليس إلا جزءاً من مشكلتي مع ذلك البيت الشهير. لم أكن أحب حرف الهمزة الذي استهل به البيت، والذي هو بمثابة حرف نداء. وبما أنه حرف نداء يتوجب الضم وليس الفتح، إلا إذا اعتبرناه حرف ترخيم أيضاً. وأظن أن (سيبويه) كان يقول بشيء من هذا. ولكن هل حروف الترخيم تنصب الاسم العلم؟ لا أعرف. ومرة ثانية: لم تكن مشكلتي هنا. الذي (ضرب على عصبي) في هذا البيت هو حذف التاء المربوطة من كلمة (فاطمة)، حتى لو من أجل الترخيم. كيف يجرؤ هذا الرجل على مثل هذه الفعلة؟! كنت أرى في حذف التاء المربوطة انتقاصاً من أنوثة تلك البنت التي اسمها فاطمة.. وأخي يحاول إقناعي بأن الحذف هنا إنما يؤكد التأنيث ولا ينفيه، بل إنه يزيد في أنوثة فاطمة بدلاً من الانتقاص منها.. وأنا لا اصدق أخي. كنت طفلاً. وتلك حدود فهمي. وامرؤ القيس لم يكتب قصيدته تلك للأطفال. لا شك في أنه كان رجلاً متعالياً. ومن الواضح أنه لا يحب الصيغ التقريرية التي يستخدمها غيره من الشعراء مثل طَرَفَة بن العبد. لا شك في أنه كان شاعراً متعالياً، فهو من حرَّف كلام المهلهل حين قال: اليومَ خمرٌ، وغداً أمر.. حذف المبتدأ المرفوع، وجعل مكانه ظرف زمان منصوب. أو ربما كان اسماً منصوباً بحرف مشبه بالفعل محذوف، بحيث يصير التقدير: إن اليومَ خمرٌ، وإن غداً امرٌ. لست أدري أيهما أقرب إلى الصواب، فأنا لا أعرف اللغة العربية جيداً، لقد خيّبت ظنّ أخي بي، فلا تعلمت العربية، ولا تعلمت الانجليزية. حتى أن لغتي الانجليزية ساءت كثيراً مقارنة بالطفولة والمراهقة والشباب. أما لغتي العربية، وبالمقارنة مع تلك الفترة ذاتها، فقد تحسنت قليلاً. لكنها ما زالت تشكو من العرج إلى حد لا بأس به. ففي الطفولة والمراهقة لم أستطع فهم امرئ القيس. ولعلني لم أفهمه إلا بعد أن بلغت العشرين من عمري. فهمته، وتأثرت به، وأحببته، دون أن أتوقف يوماً عن حب طَرَفَة الذي قيل إنه أشعر أهل الجاهلية بعد امرئ القيس. حتى أن بعضهم قال: طَرَفَة أشعر من امرئ القيس. قيل من أشعر الناس يا رسول الله؟ قال: الذي قال:

ويأتيك بالأنباء من لم تبع له بتاتاً، ولم تضرب له وقت موعدِ

ولما جاءتني ليالي منك بتلك الرسالة الشفوية، قلت في نفسي: صدق رسول الله، وصدق طَرَفَة بن العبد.. لعل حبي لطَرَفَة وأنا صغير مرتبط بعامل آخر هو قصة موته. كانت تلك القصة تجعلني، كلما قرأتها، حزيناً. والذي يحزنني فيها، بوجه خاص،

ليس أنه مات مقتولاً فحسب، أو أنه مات غدراً فحسب، بل لأنه مات ولداً. يحكى أنه مات في العشرين من عمره. وفي بعض الروايات أنه بلغ الرابعة والعشرين لما قتلوه، وبعض المؤرخين يأخذون برواية ثالثة تقول بل إنه عاش ستاً وعشرين حجّة. أي ستاً وعشرين سنة. لكن المؤرخين كلهم يجمعون على أنه كتب رائعته الأدبية وهو في العشرين من عمره، أو دون ذلك بقليل.. إذن، عن أية أطلال يتحدث هذا الولد؟ وعن أية خولة؟ من الطبيعي أني قادر على عقد صفقة من التفاهم مع طَرَفَة والموافقة على أن خولة مجرد بنت افترض هو وجودها من دون أن يكون لها وجود حقيقي. إنني قادر على عقد مثل هذه الصفقة، فأنا أعرف أن العرب تحب أن تبدأ قصيدها بالوقوف على الأطلال. ولكن ألا يعقل من جهة ثانية أن يكون وجود خولة حقيقياً في حياة طَرَفَة، وليس افتراضياً؟ حتى أن بعض المؤرخين يذكرون تلك البنت باسمها الثلاثي أو حتى الرباعي. وأجدني في هذه الحال، أفكر بها وبأشيائها في الرابية التي اسمها (ثهمد). تلك الأشياء التي تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد. وأجدني حزيناً من أجلها، ومتسائلاً عن حالها لما وصلها نبأ مقتل ذلك الولد الذي اسمه طَرَفَه، والذي كان يسحقني قصيده: "وأفردتُ إفرادَ البعير المعبّدِ". لقد نبذته العشيرة إلى خارج حدودها بعد أن داس على قيمها السائدة، فلفظوه كما يلفظ الأصحاء مريضاً بالجرب، فزاده ذلك عناداً وتشبثاً بازدراء قوانين العشيرة وقيمها السائدة البالية، وتمرداً على الإقطاعية الأبوية بجميع أشكالها. كان يفرحني عناد طَرَفَة في ثباته على ازدراء جميع القوانين والأعراف القبلية، وعدم رضوخه لغير ما يؤمن به من نواميس في الأرض التي جعل يتسكع في أرجائها.. ولهذا كله أحببت ذلك الولد، وحزنت من أجله، ومن أجل خولة لما جاءها نبأ مقتله.. لست أظنها كانت قادرة على أن تقول: اليوم خمر، وغداً امر. فمثل هذا القول ليس وقفاً على الرجال فحسب، وإنما على نوع خاص من الرجال مثل المهلهل، وامرئ القيس الذي لم أفهمه لما كانت (المعلقات) الكتاب اليتيم في بيتنا.. حتى قصة موته لم تؤثر بي في ذلك الوقت، رغم أنه مات غدراً هو الآخر. مات مسموماً في بلاد الروم. هذه أكثر الروايات شيوعاً حول موته. قيل إن ملك بيزنطة هو الذي أمر بدس السم لضيفه العربي. وقيل إن السم كان بطيء المفعول، وإن المنية أدركت شاعر العرب، في طريق عودته، بأرض يقال لها عسيب. يحكى أن عسيباً جبل في ضواحي دمشق. ويحكى أنه جبل في ديار بكر في أعالي بلاد الشام. ويحكى: لما أدرك امرؤ القيس أنه مائت، قال لمن معه: ما اسم هذا المكان؟ قالوا: عسيب. قال: ادفنوني هنا. ويحكى أيضاً أنه كان في سفح ذلك الجبل قبر مهجور، فسأل: لمن هذا القبر؟ قالوا: هو قبر بنت رومية

هي ابنة أمير هذه الأرض، وقد عشقت شاباً من الرعاع، وزنت معه، فقتلها أبوها، ودفن جثتها في هذا المكان البعيد. فقال امرؤ القيس: اجعلوا قبري قريباً من قبر هذه البنت العاشقة، وقال يخاطب ساكنة القبر:

أجارتنا إن المزار قريبُ وإني مقيمٌ ما أقام عسيبُ

أجارتنا إنّا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيبُ

كم عشقت هذين البيتين من الشعر لذلك الرجل الذي كان شديد التعالي دون ريب! ولماذا لا يكون شديد التعالي وهو الأمير أباً عن جد؟ وربما كان هذا هو السبب الذي أعاقني عن حبه في طفولتي. لست أحب الأمراء، أحببت طَرَفَة لأنه ولد متسكع، وأحببت (الشنفرى) ـ خالق لامية العرب ـ لأنه صعلوك متمرد على أسياد العرب. وللسبب ذاته أحببت (عروة بن الورد)، (وعنترة بن شداد) الذي صنعت الذاكرة الشعبية من حوله حكاية تفوق حكاية (الزير سالم) شهرة ومتعة... كنت أحب ذوي الطبائع الحادة، والأمزجة المتقلبة، والنفوس الهائجة التي يصعب إرضاؤها. وكنت، في المقابل، لا أحب المترفين من الشعراء، دون النظر إلى القيمة الحقيقية لنتاجهم. وهكذا لم أفهم امرأ القيس إلا متأخراً. لم أفهم حقيقته الصعلوكية إلا بعد أن صرت شاباً. وبعد أن صرت شاباً أيضاً استطعت أن أفهم المتنبي.. لعلني لم أتأثر بشاعر إلى اليوم مثل تأثري بالمتنبي. وطالما أحسست بأن لهذا الرجل هيمنة علي، لدرجة أنه جعل مني تابعاً له! وطالما فكرت بتبعيتي لهذا الرجل! من أين جاءت هذه التبعية؟ وماهي جذورها؟ وهل هي إلا نوع من الشغف بالأوهام التي يخلقها الشعر في نفوسنا نحن العرب؟ فالعربي عبد للكلمة.. وربما كان أبو الطيب المتنبي العربي الوحيد الذي حاول أن يكون للكلمة سيداً. وربما أصاب نجاحاً في ذلك، فصار مالىء الدنيا وشاغل الناس. ونتيجة لهذا وقعت الأجيال التي تعاقبت من بعده، خلال مئات كثيرة من السنين، تحت هيمنته وسلطانه. ولكن.. هل حقاً أن العربي عبد للكلمة؟ أشعر بالقلق من احتمال سخافة هذا الاستنتاج أو هذه الفكرة، بل حتى أجدني سلبياً تجاهها.. يبدو أني تفلسفت قليلاً. لابأس علي. لاضير من بعض ذلك أحياناً.. أترك الشعر جانباً، وأرجع إلى تلك الليلة الصيفية لمّا امتلكتُ مصباحاً كهربائياً أول مرة في حياتي. قال لي أخي: "صار لازم تنام". قلت: "مش جاي ع بالي أنام". مع أني كنت أموت من النعاس والتعب. قال: "ليش"؟ قلت: "مش عارف". قال: "فرحان بالكهربا"؟. قلت: "آه". قال: "بس أنا خيّا ـ أخي ـ لازم أدرس. مش باقي للامتحان غير يومين". قلت: "وأنا مش رايح أعطلك". قال:

"زي مابتحب". وتركني إلى دروسه. أخذتُ، فيما أتذكر، مصوراً جغرافياً، ورحت أتصفحه تحت ضوء المصباح الكهربائي.. الخرائط واضحة تماماً كما لو كان الوقت نهاراً. ليس ثمة أخيلة تتراقص أمامي أو ظلال.. كم هو عظيم أديسون هذا، وكم هو نبيل ذلك المهندس الأمريكي العظيم! بقيت أكثر من ربع ساعة أتفرج على الخرائط وأغالب التعب والنعاس. كان يومي ذاك طويلاً، حافلاً بالوقائع الغريبة والمصادفات الرائعة والاكتشافات العظيمة. جعلت أتردد بين الصحو واليقظة. جعلت أغفو وأصحو، وأهز رأسي كمن ينفض عنه أسباب النعاس، وأفتح عينيّ على اتساعهما، وأغمضهما بعد ذلك مكرهاً. لكن طاغوت النوم أقوى من لمبة أديسون وبقية إنجازاته، فغفوت، ونمت في فرشة على الأرض، هي الفرشة الوحيدة في الغرفة. ثم لم أعد أدري بشيء، ولم أعد أعرف كيف صرت محمولاً بين ذراعي أخي الذي راح يهبط الدرج إلى الطريق بقفزات سريعة. كان الطريق يعج بالفوضى. خرج الناس من بيوتهم في المنامات، أو بأية صيغة كانوا عليها لحظة ضرب الزلزال المدينة.. أنزلني أخي إلى الأرض، وقال: "من هون بسرعة"، وأخذ بيدي، ورحنا نركض باتجاه الغوطة، أو "بستان هشام" كما تحب فيروز أن تسمي تلك الغابة الرائعة التي تحيط بدمشق.. كنت حافي القدمين. أصابتني خشبة أو زجاجة في باطن قدمي اليمنى، وانغرست في اللحم، وجعلت فيه شقاً كبيراً. صرختُ من وجعي. قال أخي: "مالك"؟. قلت: "يمكن قرصتني حيّة". توقفنا بين أشجار زيتون بدت لي مثل غابة كثيفة من الجان. قال أخي: "ورجيني". أجلسني على الأرض، وجعل يعاين مكان الإصابة، وقال من فوره: "لازم أوخذك عالمستشفى دغري". وحملني، ورجع بي إلى النقطة حيث انطلقنا.. الناس منتشرون في كل مكان من العتمة في غابة الجان الكبيرة. يلوحون كالأشباح المذعورين، ويتبادلون فيما بينهم أنصاف نظرات وأرباع كلمات.. إنها سيادة الرعب. كان بعضهم ينظر إلى السماء كمن يستجدي من الله اللطف في قضائه. أما أنا فلم أكن أفهم شيئاً. حتى أني لم أشعر بالزلزال لحظة وقوعه. لعلني شعرت باهتزازة ما. أتذكر أني شعرت بشيء من هذا القبيل. شعرت بهزة، وسمعت خشخشة، وظننت أن ذلك جزء من الحلم الذي كان يزورني لحظة الزلزال. ثم استمر الحلم على ذلك النحو غير المفهوم. حتى إصابتي بتلك الخشبة أو الزجاجة بدت لي تتمة للحلم لا أكثر، فكل شيء وقع لي ذلك اليوم، مذ غادرت بعلبك في الصباح، كان حلماً. دمشق كلها كانت حلماً. ولعلها مازالت إلى اليوم حلماً. وأي حلم! هنا كنت صغيراً. وهنا كنت كبيراً. هنا فرحت وحزنت وضحكت وبكيت ومرضت وشفيت وعشقت وكرهت وخدعت وخُدعت

وسعدت وشقيت وبقيت ورحلت وعرفت وفارقت وصحوت وسكرت وشتمت وشُتمت. كم هنا ياالله كم!! حتى أنت يافاطمة كان مكتوباً علي أن ألقاك هنا، وأن أودعك هنا. أي سر كامن هنا؟!! أي سر؟ في ذات مساء ربيعي سنة ١٩٧٧ دق باب بيتي فجأة أحد الموظفين في المؤسسة. قال: "أستاذ حسن، بتعرف ممثلة روسية اسمها ناتاشا"؟. قلت: "شوهاذ؟! تحقيق"؟ قال: "أنا آسف ياأستاذ حسن. ماقصدت هالشي. بس هي البنت بدها تشوفك. فوراً". قلت: "فوراً وين؟ بموسكو"؟. قال: "لا تمزح. هي هون بالشام. في فندق سميرأميس".. وقالت لي ناتاشا: "تأخرت. أنا هنا منذ العصر" وقالت: "كنت أتوقع أن أراك على المطار". قلت: "لم أكن أعلم بقدومك ياناتاشا". قالت: "كيف ذلك؟ ألم يخبروك في المؤسسة بالأمر"؟. قلت: "إنني لست في المؤسسة هذه الأيام. إنني أخدم في الجيش". قالت: "إذن، لن أسألك أين ذهب شعرك الخرنوبي المتجعد في حلقات صغيرات. لن أسألك. وصلني الجواب. ولكن كيف أخذوك إلى الجيش؟ حتى أنني لا أصدق ذلك". قلت: "بل أنا من لا يصدق أنك هنا ياناتاشا". قالت: "لماذا لا تصدق أني هنا"؟. كل شيء كان مكتوباً عليّ هنا، فأية (هنا) هذه المدينة التي اسمها دمشق؟! أية (هنا) هي؟!! قالت عمتي لأخي تعاتبه على ماحلّ بي: "ماعرفتش تظل حامله يابوي"؟!. قال أخي: "والله ياعمتي ماعرفتش كيف صار اللي صار. حتى ماكنتش منتبه إنه حافي". كانوا قد نظفوا لي الجرح في (مشفى دمشق) الذي لا يعرفه أحد من سكان المدينة إلا باسم (مستشفى المجتهد)، ولا أظن بأن أحداً من الناس هنا يعرف معنى هذه الكلمة أو من أين جاءت التسمية.. نظفوا الجرح، وقطبوه، ولفوه بالشاش الأبيض، وحقنوني بمادة في العضل، هي على الأرجح من مضادات الكزاز. وكان ينبغي علي بعد ذلك كله أن أصير قعيد الدار سبعة أيام أو ثمانية... وجدت ابن عمتي الذي ضربني حزيناً لأجلي حتى أنه بادر إلى الاعتذار مني، وطلب أن أسامحه. وسامحته. بدا لي ولداً مختلفاً عن ذاك الذي كان لمّا دخلت بيتهم أول مرة. ولست أدري إن كان هذا التغيير الذي طرأ في موقفه ناتجاً عن الإشفاق عليّ بعد إصابتي، أم هو نوع من التسامح الذي تتحلى به النفوس في أوقات المصيبة. لعل المصائب تجعلنا أكثر نقاء، وأكثر قدرة على الغفران والبراءة. ولعل الزلزال الذي ضرب المدينة قد فعل فعله عند ابن عمتي أيضاً. أعتقد أن الأمر كذلك. فالمصائب لا تجعلنا أنقياء فحسب، بل إنها توحدنا أيضاً. أو فلأقل: الذي يوحدنا هو الخوف.. أتذكر حرب أكتوبر ١٩٧٣ . أتذكرها جيداً. كنت قد أنهيت دراستي في موسكو قبل شهرين على الحرب. لا أعتقد بأن أحداً في هذه المدينة كان يكره أحداً قبل الحرب ثم ظل يكرهه بعد أن

قامت، فقد وحّد الخوف هذه المدينة التي اسمها دمشق. صار التسامح أكبر مزايا الناس فيها منذ الطلقة الأولى في الجبهة على الساعة الثانية من بعد ظهر السادس من اكتوبر، التسامح، والغيرية، ونبذ الأحقاد، وحب الآخرين، وحب البقاء في الآخرين. تلك كانت مزايا دمشق لمّا كان الجيش يقاتل على الجبهة. وقد رأيت تلك المزايا بعيني، وسمعتها بأذني، وعشتها بقلبي. حتى المواد التموينية توافرت زمن الحرب كما لم تتوافر بأي وقت سبق أو لحق. لم يحتكر أحد شيئاً. كل شيء متوافر للجميع.. أما في زمن السلم! لقد عاشت دمشق أزمة اقتصادية خانقة في أواسط الثمانينات. حتى الدواء صار نادراً. وفي الحقيقة أن التجار كانوا يحتكرون البضائع المختلفة، ثم يبيعونها بأضعاف سعرها الحقيقي. لقد فعل الناس في السلم مالم يفعلوه في الحرب، بل مالم يفكروا بفعله لمّا كان الخوف يوحد المدينة.. إنها مدينة عجيبة حقاً! لعلها أكثر مدن العرب عشقاً للتجارة. "لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف". ولكن مع من كانت تتاجر قريش إلا مع دمشق أولاً وربما حتى آخراً؟ في الصيف على الأقل. يحكى أن الرسول في تجارته، قبل النبوة طبعاً، كان يرفض أن يدخل هذه المدينة التي اسمها دمشق. كان يتوقف عند مدخلها الجنوبي، ثم لا يمضي إلى أبعد من ذلك. حتى أن المكان الذي كان يقيم فيه صار الآن جزءاً من المدينة. إنه أحد الأحياء التي نمت بكثرة، وعلى نحو طفيلي، في أجناب دمشق. هذا الحي اسمه (القدم)، نسبة إلى قدم الرسول التي لم تطأ أرضاً إلى شمال تلك النقطة. والسؤال الذي لا أجد عنه جواباً هو: لماذا كان يرفض الرسول دخول دمشق؟ ماالذي كان يخشاه لو دخل هذه المدينة؟ ألم يكن يثق بأهلها؟ هل كان يخشى أن يسرقوه مثلاً؟ ما الذي كان يخشاه الرسول حقاً من دخول المدينة التي يسمونها رغم ذلك (شام شريف). الأتراك وغالبية الأقوام التي اعتنقت الإسلام من غير العرب تسمي دمشق: (شام شريف)، رغم أن الرسول لم يشرفها في يوم من الأيام الكثيرة التي جاء فيها إلى هذه المدينة. عجيب! أليس عجيباً؟ ومن البديهي أن الرسول كان يأتي دمشق من قبل أن يجيئها (تيمورلنك). الذي استباحها على نحو نادر في تاريخ الحروب بين الأمم. ويبدو أنه استباح نساءها على وجه الخصوص. لعله أعجب بجمالهن فأعطى لجنوده كامل الحرية في فعل مايشاؤون. لمّا كنت في (سمرقند)، أخذوني مع زميلي (أبو فراس) في زيارة إلى قبر تيمور. كان معنا مرافق، وكان ثمة دليل سياحي هناك جعل يشرح لنا تاريخ هذا الرجل. قال فيما قاله: "وقد فتح دمشق أيضاً". ثم استكمل الدليل السياحي جولته معنا في أنحاء المدينة. وقال فيما قاله عن تاريخها: "وفتحها محمد القاسم". ومعلوماتي أن قائد الجيش العربي الذي فتح سمرقند هو

(قتيبة بن مسلم). قلت للدليل: "أليس قتيبة من فتح هذه المدينة"؟. قال: "لا. محمد القاسم". وقلت في نفسي: سوف أتأكد الأمر حين عودتي إلى دمشق. ولم أتأكد الأمر إلى اليوم. لا أظنه أمراً مهماً لي الآن. أما في ذلك النهار في سمرقند، ولست أدري كيف أو لماذا، شعرت ببعض التعصب لبني قومي، فقلت للدليل مازحاً: "واحدة بواحدة. بعثنا إليكم بمحمد القاسم، وبعثتم إلينا بتيمور. ولكن لدي سؤال: هل استباح جنود محمد القاسم مدينة سمرقند بعد فتحها"؟. قال: "لا أظن". لم يجزم. قلت: "أما تيمور فقد استباح دمشق". قال الدليل: "ربما". مرة ثانية لم يجزم. يصعب عليه طبعاً أن يصف تيمور بالفاتح المستبيح السفّاك السفاح، الخ... وأنا أفهم ذلك الدليل، ولكني لم أفهم لماذا لم يجزم إن كان محمد القاسم قد استباح سمرقند أم لا. غير أن قلة فهمي لم تطل. سرعان ماتبددت. أدخلوا تعديلاً بسيطاً على برنامج الزيارة: ثمة لقاء مع (المفتي). فوجئت بهذا الأمر. قلت: لماذا المفتي؟ ماحاجته بنا، وما حاجتنا به؟ وسرعان ماجاءني الجواب أيضاً. وعندما رجعنا إلى طشقند فوجئت بدعوة من (حاكم المدينة). نحن هنا نسميه المحافظ. أظنكم تسمونه الوالي. ولم أفهم ماذا يريد مني حاكم طشقند الذي كم كان راغباً في هذا اللقاء! ومن جديد سرعان ماجاءني الجواب. والجواب دائماً في هاتين الكلمتين: "شام شريف". وكنت أود في بعض اللحظات أن أقول لأولئك الناس جميعاً: "ولكن الرسول امتنع من دخول دمشق". وحسب معلوماتي ـ ويبدو أن معلوماتي ليست موضع ثقة ـ لم يدخل هذه المدينة بعد الرسول من كبار الصحابة إلا عمر بن الخطاب بعد أن صار أميراً للمؤمنين. ولم يأتها سائحاً بالطبع. جاء يتفقد أحوال العباد، وهو الرجل الذي اشتهر بأمرين اثنين: العدل والتقشف. يحكى أنه كان يدير شؤون الدولة الآخذة بالاتساع يوماً بعد يوم وهو يفترش الرمل حتى في الرمضاء. ولم يكن يعلم طبعاً أن تحت تلك الرمال بحوراً من النفط سوف تعود على أحفاد أحفاده بالويل الفظيع. جاء ابن الخطاب إلى دمشق في زيارة خاطفة. يحكى أنه لم يكن راضياً خلال إقامته فيها مما جعله يختصر الزيارة. ويحكى أنه كان غاضباً غضباً شديداً، بوجه خاص، على معاوية بن أبي سفيان الذي كان عاملاً على الشام. استقبل العاملُ أميرَ المؤمنين في منطقة القدم كما يستقبل الرومُ القيصرَ، أو كما يستقبل الفرس الشاه. كم تحب دمشق الاحتفاء بحكامها! ويحكى أن أمير المؤمنين رفض أن يأكل من طعام هذه المدينة، أو أن يشرب من مائها خلال إقامته القصيرة فيها. لعلها كانت في نظره مدينة مدنسة، فغادرها سريعاً، ورجع إلى الحجاز تاركاً معاوية يضرب أخماساً في أسداس حول مستقبله السياسي. ولعله ـ أي معاوية ـ وفي تلك اللحظة بالذات قدح

زناد ذهنه فأومضت في رأسه فكرة أن يصير امبراطوراً على العرب والعجم والديلم. ولعله في تلك اللحظة أيضاً قرر أن يجعل من دمشق عاصمة لامبراطوريته التي سوف يمتد بها إلى حدود الصين شرقاً وحدود فرنسا غرباً.. لست أجد لحظة في تاريخ العائلة الأموية أكثر ملاءمة من تلك التي خرج فيها ابن الخطاب غاضباً على دمشق، وعلى عامله فيها، للتفكير الجدّي في حكم العالمين. لعل معاوية، ومنذ تلك اللحظة، جعل يفكر في قميص عثمان الذي كان من المرشحين الأقوياء للخلافة بعد ابن الخطاب. وعثمان ليس إلا الوسيلة التي سوف تبرر الغاية: أن يصير معاوية امبراطوراً، وأن تصير دمشق عاصمة الدنيا، وأن تصير شريفة رغم النبي وصحبه. وكيف يمكن أن تصير شريفة بغير حد السيف؟ أظن أن الأمويين قد جعلوا من دمشق مدينة شريفة بالسيف، وبالسيف وحده. ولست أجد تفسيراً آخر لشرف هذه المدينة.. لما شرع أحد أقوى خلفاء بني أمية (الوليد بن عبد الملك) ببناء المسجد الكبير، أو مسجد بني أمية ـ هل زرته؟ لا أتذكر أني اصطحبتك إليه، وأتذكر أننا وصلنا في أحد مشاويرنا إلى مشارفه فقط، فهل زرته في سفرتك التالية؟ إنه دون شك صرح أثري عظيم ـ جمع سكان دمشق، وقال لهم: لقد فضلكم الله على العباد باثنتين: الماء والخضرة، وأنا سأضيف إليها ثالثة. وكان المسجد الكبير، الذي صار رمز دمشق منذ الوليد وحتى يومنا الراهن. والطريف في الأمر أن رمز دمشق هذا محاط بالأسواق التجارية كما يحيط السوار بالمعصم بحيث يصير من الصعب الجزم إن كان المسجد هو رمز المدينة أو تلك المحال التجارية التي لا حصر لها. أهو الله رمز هذه المدينة أم أنه المال ورأس المال؟! إنها مدينة عجيبة حقاً. وأنا أعترف بأني لا أستطيع أن أفهمها. ولو فهمتها فلربما فهمت وجدان، ولربما في هذه الحال ماكانت أمورنا قد انتهت إلى الطلاق، أو ماكان الزواج قد وقع بالأساس. لست نادماً بالطبع على أني تزوجت بوجدان. لست أقول هذا أبداً. توارد أفكار فحسب، لأن وجدان بنت دمشق، ولكن دمشق بنت من؟ من أبوها؟ ومن أم هذه المدينة؟ من أنجب هذه الحسناء الغانية؟ حتى اسمها جعلوا منه حكاية. ولكن ماذا لو لم يكن الاسم عربياً؟ وهو ليس عربياً. إنه لاتيني. لكنهم أقنعونا بأن الكلمة عربية. الأمويون طبعاً. لم يلجأوا إلى السيف هذه المرة. ولماذا السيف مادام علماء اللغة أكثر من الهمّ على القلب، كما يقول المثل الشعبي؟ نسجوا من حول الاسم اسطورة. قالوا: إنها كلمتان في واحدة: اسمٌ وفعل. أما الاسم فهو: دمٌ، وأما الفعل فهو: شقٌّ.. أما لماذا الدم وماذا شق، فإنهم يعيدون أصل الحكاية إلى بدء الخليقة. هنا، وفي مكان ما من جبل قاسيون، الذي تنام دمشق على سفوحه آمنة مطمئنة، قتل قابيل أخاه هابيل. وسال

دم الأخ القتيل، وشق ستة من الجداول في صخور الجبل صارت فيما بعد من شدة طهرها جداول ماء رقراق ـ هي متفرعات نهر بردى الذي يخترق المدينة من الغرب إلى الشرق. وشيّدوا للنبي هابيل ضريحاً في الجبل، وجعلوا من الضريح مزاراً للمؤمنين. لكن ولمّا قتل ابن آدم أخاه لم تكن المدينة موجودة طبعاً. فمن الذي بناها إذن؟ وهل بقي من أحد سوى قابيل؟ هل بقي من أحد سوى قاتل أخيه؟ وهل قامت المدينة بالأساس على الجريمة؟ أم تراها قامت على الإحساس بالندم، وعلى الإحساس بهول الخطيئة الأولى؟ لا أعرف. وكم أحب لو أعرف! فكم يحزنني أن أعيش حياتي في مدينة لست أفهمها! وكم حاولت أن أفهم هذه المدينة التي اسمها دمشق مذ جئتها اول مرة بصحبة عمتي فاطمة! كان بيت عمتي واسعاً ونظيفاً. فيه ساحة مكشوفة للسماء، وفي أجناب الجدران التي تحيط بالساحة أشجار كبّاد ونارنج، وشتلات ورد وحبق، وشجرة كرمة عرشت أغصانها وأوراقها بسخاء على المكان، وشجيرات ياسمين يضوع في الليل عطر أزهارها البيضاء فيملأ الجو برائحة قوية نفّاذة تجعلني أسكر من النشوة.. ودمشق مدينة الياسمين أيضاً.. بعد أسبوع أو أكثر قليلاً من الزلزال الذي ضرب المدينة دون أن يوقع فيها سوى أضرار بسيطة، أخذتني عمتي إلى أحد الأسواق القريبة. كانت قدمي قد شفيت تقريباً. اشترت لي بعض الملابس، وبعض الجوارب، وحذاء. ثم رجعنا إلى البيت. قالت لي: "صار لازم تتغسل". لم أكن قد استحمّيت منذ الجرح. كانت عمتي تغسل لي رأسي كل يوم. أخذتني من يدي إلى الحمّام، وقالت: "بدي أغسلك ياحبيبي". قلت لها: "أنا بتغسل لحالي". قالت: "لأ خيّا، بتعرفش".. قلت بعناد: "بعرف". قالت: "بتعرفش يعني بتعرفش". كنت أخجل من أن أتعرى أمام عمتي التي أدركت أخيراً سبب عنادي، فعانقتني، وتشممتني، وقالت: "صرت زلمة ـ رجل ـ خيّا؟ أعيش وأشوفك زلمة ياحسن! يارب تطعمني عمر تشوفه صار زلمة هو وأخوته". وبكت. كنت أقف بين يديها، وأتأمل وجهها. بشرة بيضاء ناعمة. شديدة البياض وشديدة النعومة. عينان زرقاوان واسعتان. أنف صغير دقيق أبيض تشوبه بعض الحمرة عند أرنبته.. كان وجهاً سمحاً.. كانت امرأة طيبة. قلت لها: "تعيطيش ياعمتي". وقلت أيضاً: "منشان الله". قالت: "طيب ياحبيبي. ماعدتش أعيط"، وأخذت بيدي من جديد، فلم أمانع هذه المرة. تخليت عن عنادي السابق، فرضخت لرغبتها، وتركتها تحممني.. ألبستني بعد الحمّام ثيابي الجديدة. كان بنطلوناً كحلياً، وجوراباً كحلياً، وحذاء أسود. أما القميص فكان بلون السماء في فصل الصيف. كم أحنّ اليوم إلى ذلك القميص! فكم بدوت في ذلك القميص طفلاً جميلاً! بدوت جميلاً إلى درجة

أن عمتي طلبت إلي عدم الخروج من البيت. وما كنت قد ارتديت ثيابي إلا من أجل الخروج إلى الحارة مع ابن عمتي. لكنها أصرّت على عدم خروجي من البيت. قالت لها إحدى بناتها: "حرام عليكي يمّا. خليه يطلع للحارة يلعب ويغيّر جو. هاي صار له أكثر من جمعة محبوس بالبيت". وسمعتُ رد عمتي على ابنتها، رغم أنها قالته بصوت خفيض: "خايفة يصيبوه بالعين". وبما أنها امرأة متدينة فهي تؤمن بالحسد. وهذا الإيمان حرمني متعة التسكع في الحارة ذلك اليوم الذي ارتديت فيه القميص الذي بي إليه الآن حنين كبير. ولو كان لعمتي الأمر كله لحبستني في البيت تماماً. لامتها بناتها. ولامها زوجها أيضاً. قال لها في اليوم التالي: "هو صحيح بينصاب بالعين، بس كمان ماأجاش من لبنان حتى يقعد عندك بالبيت". وشعرت عمتي، رغم خوفها علي، بصحة كلام زوجها الذي لا تخالفه في رأي له. أظنه كان قاسياً على وجه العموم، لكنه مستقيم ونزيه. كان ذا عادات ثابتة لا يحب أن يبدلها. يستيقظ من النوم على السادسة صباحاً. يبدأ يومه باكراً. لا يتناول طعام الفطور. يشرب خمسة أو ستة فناجين قهوة ثقيلة وهو في الفراش بعد، ويدخن خمس أو ست سجائر. ينهض من الفراش. يستحم، يحلق ذقنه، ثم يرتدي ثيابه ويخرج إلى شغله، كان موظفاً كبيراً إلى حد ما في تلك الهيئة الدولية التي ربما كانت الأمم المتحدة. ولمّا يرجع إلى بيته من الشغل لا يتناول طعام الغداء مع أسرته. أبداً. لم يفعل ذلك مرة في حياته. يتناول طعامه في غرفته بعد أن يكون قد ارتدى البيجاما. وأصناف طعامه ثابتة في كل يوم. اللحم المشوي، والسلطة الخضراء. وكان يشرب على الغداء كمية ثابتة من (العرق) لا تزيد أبداً، ولا تنقص أبداً. شيء من قبيل نصف ليتر. وبعد الشراب والطعام، يخلد إلى النوم. ينام ساعتين، صيفاً أو شتاء، سيّان، يستيقظ من النوم، يستحم، يشرب كمية كبيرة أخرى من القهوة الثقيلة، يرتدي بعدها ثيابه ويخرج من البيت إن كان لديه عمل، أو يقضي جزءاً من السهرة مع زوجته وأولاده وبناته قبل أن يرجع إلى غرفته، ويرتدي البيجاما، ويقرأ. كان لديه مكتبة لابأس بها تضم كتباً في القانون والتاريخ والأدب. ومن عاداته الثابتة أيضاً أنه لا يتناول طعام العشاء. كان يعيش على وجبة واحدة كل أربع وعشرين ساعة. ومن عاداته كذلك أنه لا يرتدي في المساء القميص الذي ارتداه في الصباح، ولا الجوارب أيضاً. كان رجلاً أنيقاً، يهتم بمظهره الخارجي دون تكلف. وكان على وجه العموم في بحبوحة من العيش، لأن مرتبه الشهري الذي يتقاضاه من تلك الهيئة الدولية كبير دون شك. وكان في بيته رجلاً مهيباً. الجميع يهابه، بل حتى يخافه، مع أنني لم أره يضرب أحداً في يوم من الأيام. كان رجلاً مهيباً خارج بيته أيضاً. قامته طويلة

ومستقيمة. كلامه قليل، شعره قصير على الطريقة الانجليزية، يفرقه من جهة اليسار. أظنه كان في أواسط الأربعينات من عمره لما نزلتُ عليه ضيفاً في ذلك الصيف البعيد سنة ١٩٥٥ .. وعمتي اقتنعت بصحة كلام زوجها، أو لم تجرؤ على مخالفته الرأي، فسمحت لي بمغادرة البيت، وليس إلى الحارة فحسب، بل إلى قلب المدينة. كان ثمة رجل لا أتذكر الآن من هو بالضبط، قد جاء زائراً إلى بيت عمتي. أظنه من أقرباء زوجها. وأظنه يقيم في مدينة غير دمشق التي جاءها لبعض حاجة له فيها. كان ذاهباً إلى السوق. قال له زوج عمتي: "خذ حسن معاك. خليه يتفرج عالبلد". واصطحبني الرجل معه. وقبل مغادرتي البيت أعطتني عمتي، أتذكر ذلك جيداً، ثلاث ليرات معدنية. لم أكن قد أمسكت عملة سورية بيدي حتى ذلك اليوم. ولم أكن أعرف أن ثلاث ليرات يمكن اعتبارها، بالنسبة إلى طفل، ثروة حقيقية. قالت لي: "اشتري اللي بيجي ع بالك ياحبيبي". لم تشأ لي أن أكون عالة على ذلك الرجل، فالأطفال غالباً مايشتهون حاجة تظهر أمامهم فجأة. ركبنا الباص أنا وذلك الرجل إلى قلب المدينة. ذهبنا إلى سوق طويلة مسقوفة بنوع من المعدن الثقيل. أظنه شارع (مدحت باشا). جعل الرجل يشتري بعض ماجاء من أجل شرائه. حان أثناء ذلك موعد صلاة الظهر. قال لي الرجل: "بدي أصلي بالجامع الأموي". قلت: "زي مابتحب". ذهبنا إلى مسجد بني أمية. وكان ذلك لقائي الأول بالمسجد الكبير: الجدران الصلبة العالية الصامدة في وجه الزمن مذ قرر الوليد بن عبد الملك أن يعطي شيئاً إلى دمشق خاصاً غير الذي حباها الله به، وأعمدة الرخام العملاقة، والأروقة الفسيحة، والصحن الذي بمساحة ملعب لكرة القدم، والحرم الذي ربما اتسع لخمسين ألفاً من المصلين، ولوحات الفسيفساء بألوانها اللا متناهية في كل مكان.. لم أدخل المسجد من أجل الصلاة، فأنا لم أكن أصلي في ذلك الوقت، كما لم أكن أصلي في جميع أوقات حياتي اللاحقة. دخلت المسجد لأني برفقة رجل أراد الصلاة لما حان موعدها.. لقد أعجبني ذلك البناء العملاق. غير أنه لم يستوقفني كثيراً، فقد سبق لي أن رأيت في (بعلبك) آثاراً عملاقة أيضاً. غير أن شيئاً واحداً في المسجد لفت انتباهي إليه بقوة. شيء واحد لم أفهمه في حينه. ولعلني مازلت لا أفهمه جيداً إلى اليوم. إنني أزور هذا المسجد بين حين وحين. أدخل إلى الحرم، وأجلس بعيداً عن المحراب والمنبر، مستنداً بظهري إلى أحد الأعمدة العملاقة التي تحمل سقفه، وأروح أتأمل.. مذ كنت في العاشرة من عمري وحتى اليوم وأن أتأمل لوحات (الأرابسك) التي تزين كل مكان من المسجد.. كم في التجريد من قدرة على التعبير! إن كان الإسلام قد نهى عن التشخيص فإنه، بالمقابل، شجّع على التجريد. وإن كان في

التشخيص تعبير واضح عن أمر من الأمور فإن في التجريد تعبيراً غامضاً عن أمر من الأمور، أو لعله ليس غامضاً. لعله ضبابي. لكنه. وفي جميع الحالات، يبعث على الحيرة والدهشة. تبدو لوحة الأرابسك ساكنة. ولكنها في الحقيقة ليست كذلك. بل هي على النقيض من ذلك. أو هي كذلك للوهلة الأولى فقط. ثمة شيء في الأرابسك يدور ويدور. ثمة شيء لا يكف عن الدوران. ولكن يدور حول ماذا؟ حول البؤرة طبعاً. حول المركز. لكن أو ليس الله مركز الكون كله؟ وما يبعث على الدهشة هو أنك، وفي كل نقطة من نقاط اللوحة تعثرين على ذلك المركز. كل نقطة في اللوحة هي مركز اللوحة الذي تدور من حوله بقية النقاط، لأن الله موجود في كل نقطة من الأرض والسماء وما بينهما. موجود في كل مكان، وفي كل زمان، وفي كل حركة وسكنة. ولوحة الأرابسك لا تعرف السكون. إنها دائمة الحركة، ودائمة الدوران بحيث تجعل الدماغ يفتل بعد أن يعجز البصر عن مطاردة تلك الحركة التي لا تنتهي، وتجعل القلب يخرّ مؤمناً بالله السرمدي العلي العظيم.. خرجنا من المسجد وكنت متأثراً بما رأيت. قال لي الرجل: "مبسوط"؟. قلت: "مبسوط". قال: "على طول إنشا الله".. رجعنا إلى الأسواق فأضاعني الرجل. أو ربما تعمدت أنا أن أضيعه. لعلني أحببت أن أتسكع في المدينة وحدي من دون وصيّ عليّ. تركت الرجل في واحد من المحال التجارية، ورحت أتفرج على أحد الحواة. كان يقف على الرصيف الذي يقابل المحل ويخرج من فمه سلسلة طويلة من شفرات الحلاقة. وكنت أصدق أنه يستخرجها من جوفه. لم أجد مبرراً لاتهامه بالغش. أحببت ذلك الحاوي. فبقيت أتفرج عليه بين جمع من الناس. وطالت الفرجة. وهكذا أضعت الرجل الذي تركتني عمتي لديه وديعة. أتذكر أني لم أشعر بالخوف على فراقه. لم أشعر ولا حتى بالحزن. أو بأني قد أضيع من بعده. عندما صرت وحدي عرفت أهمية المبلغ الذي أعطتني إياه عمتي. كان في مقدوري أن أصنع العجائب بمثل ذلك المبلغ. وقد صنعت العجائب فعلاً. قد لا تصدقين، وأنصحك بأن تصدقيني: لقد اشتريت جريدة. كنت قد مررت بمقهى، ورأيت عبر الزجاج، غالبية الحضور تقرأ في جريدة أو تحمل جريدة أو مجلة أو كتاباً. وكان بباب المقهى بائع جرائد، فقلت في نفسي: ماذا ينقصني؟ أشتري جريدة. واشتريت جريدة. كان ثمنها خمسة قروش (الليرة مئة قرش). وكان اسم تلك الجريدة: (الصرخة).. إنها أول جريدة في حياتي.. ولعلني اشتريتها هي بالذات بسبب اسمها. اخترتها بين مجموعة كبيرة من الجرائد. أعجبني الاسم. فهل كنت أريد أن أصرخ؟ ومرة ثانية أنصحك بأن تصدقيني: دخلت المقهى ذاته. وطلبت شاياً. وفردت الجريدة أمامي متظاهراً بالقراءة فيها. وكنت، دون شك،

لافتاً لأنظار الناس الجالسين في ذلك المقهى. وأنا لا أعرف مايكون هذا المقهى ولا من يكون هؤلاء الناس. لم أكن أعرف أنهم أولئك القوم الذين نسميهم: "المثقفون". إنه (مقهى هافانا) ـ مازال قائماً إلى اليوم، أظنه صار من أملاك الحكومة. اشترته لتحافظ عليه كمقهى، نظراً لقيمته التاريخية في الثقافة السورية منذ الاستقلال عن فرنسا عام ١٩٤٦ . لا أظنه الآن مركزاً من مراكز تجمع المثقفين. أجلس فيه أحياناً ـ كنت أفرد الجريدة أمامي على الطاولة، وأتظاهر بالقراءة، وأسمع كلاماً غريباً من هنا وهناك. وكانت أكثر الكلمات تردداً هي: "الديمقراطية". أتذكر أني شعرت بالضجر من أولئك الناس. أعتقد أن المثقفين يبعثون دائماً على الضجر. ألا توافقينني الرأي؟ شعرت بالضجر منهم ومن الديمقراطية التي لا أعرف ماتكون، وخرجت إلى الشارع بعد أن دفعت عشرة قروش ثمناً للشاي. كان المقهى محاطاً باثنتين من صالات السينما، تعرض إحداهما فيلماً هندياً، وتعرض الأخرى فيلماً خيالياً من فصيلة (فلاش غوردون). كان الوقت مازال باكراً بعض الشيء على موعد الحفلة التالية. قلت: أمشي. مشيت. كم أحببت المشي ذلك النهار في شوارع دمشق! وكم مشيت رغم قدمي التي ماتزال تؤلمني بعض الألم.. رحت أقرأ الآرمات المعلقة فوق المحال التجارية المختلفة أو في أي مكان آخر، وصرت أقارن بين هذا الخط وذاك الخط. كان بعضها معقداً تستعصي عليّ قراءته. وكان بعضها الآخر سهل المنال. أحببت الخط العربي، وقررت أن أصير خطّاطاً.. وبعد سنتين من ذلك التاريخ أو ثلاث، ولمّا كنت لا أفهم كيف يمكن حذف التاء المربوطة من (فاطمة)، ولما عجز أخي عن إقناعي بأن الحذف لا ينقص من أنوثة فاطمة، قال مستسلماً أمام غبائي: "على أية حال، يجوز للشاعر مالا يجوز لغيره". ولم أكن قد سمعت بتلك العبارة الشهيرة من قبل، فأعجبتني، وأعجبني أن أكون ذا امتيازات خاصة إن صرت شاعراً، فقررت أن أصير شاعراً وليس خطاطاً.. وكم بدلت من المهن في حياتي دون أن أمارس أياً منها! مع أنني، للحق، حاولت كتابة الشعر ذات مرة، وأصبت إخفاقاً مريعاً. كتبت قصيدة حب (سرقت أكثر من نصفها من بعض الشعراء المعاصرين الكبار، مثل نزار قباني) لتلك البنت التي كان اسمها نبيلة، والتي لم تعجبها "قصيدتي". فأيقنتُ يومئذٍ أن الشعر ليس مهنتي..! اشتريت سندويشة بخمسة وعشرين قرشاً. كان البائع قد سألني "بقديش"؟. قلت: "أغلى إشي". وتبين أنها سندويشة كبيرة تكفي لإطعام ثلاثة أولاد آخرين. غير أني مع ذلك، أكلت نصفها. وفي مكان آخر شربت كأساً من عصير البرتقال بعشرة قروش أخرى. ورجعت أتسكع في الشوارع. وجعلت أراقب السيارات. أتذكر أني كنت شديد الحماس

للسيارات التي تحمل إشارة المرسيدس. جعلت أعد السيارات التي تحمل تلك الإشارة، والتي تمرق من أمامي في الطريق. وكان يغيظني أن أجدها أقل عدداً من تلك التي لا تحمل الإشارة نفسها. ولعل السبب في حماسي للمرسيدس أنها أول سيارة أركبها في حياتي لمّا كنت بصحبة عمتي من بعلبك إلى كاراج لبنان في قلب دمشق، ثم إلى بيتها في حي المزة.. شاهدت فيلماً من فصيلة (الكاوبوي) بنصف ليرة. كانت النقود لا تنتهي. ماكان ثمة طريقة لإنهائها، كما لو أنه يتحتم إنهاؤها. ولست أدري لماذا كان لدي هذا الشعور. بل إن هذا الشعور لم يفارقني إلى اليوم. هل تصدقين؟ عندما أشرب كحولاً أومن بضرورة بل بحتمية إفراغ القنينة التي أمامي من آخر قطرة فيها. أومن بحتمية القضاء على آخر سيجارة قبل أن أذهب إلى النوم. أومن بحتمية إنفاق آخر قرش في الجيب لما أكون مسافراً. غير أن هذه الحتمية كانت تفاجئني في بعض الأحيان على نحو غير سار. أتذكر رحلتي من بانكوك إلى دمشق عبر دلهي. كان المقطع الأول من الطريق طويلاً نسبياً: خمس ساعات، أو حول ذلك. كان الوقت ليلاً، والطقس في غاية الرداءة. وفي الحقيقة أنني لا أخاف الطيران. مادمت وافقت على صعود الطائرة، وافقت بالضرورة على صفقة من نوع ما مع القدر. أقول له: افعل ماتراه مناسباً ياسيدي. ثم لا أعود إلى التفكير بالأمر.. لما كنت قد يئست من قدومك إلى أثينا، ذهبت إلى جزيرة كريت بحراً، ومن هناك بالجو إلى جزيرة رودوس، ثم رجعت إلى أثينا عن طريق الجو أيضاً. والرحلة بين رودوس وأثينا تستغرق أربعين دقيقة في الطائرة. كانت الطائرة كبيرة من طراز (إيرباص). وأظن أن أحد محركيها تعرض لخلل من نوع ما بعد حوالي ربع ساعة على الإقلاع. صارت الطائرة عصيّة على السيطرة. ولاشك في أن الربّان والملاّح بذلا جهداً خارقاً حتى لا يموت الناس من الرعب قبل أن يموتوا من أي شيء آخر. كان الوقت ليلاً. وكان ليلاً بلا قمر. لا شيء من حولنا سوى فراغ أسود. والأرض من تحتنا لا تبين، وذلك لسبب بسيط هو أننا نطير فوق البحر. كان بحراً مظلماً هو الآخر. كل شيء كان مظلماً. والطائرة تهوي، فجأة ودفعة واحدة، مئة متر أو أكثر بقليل أو أقل بقليل قبل أن يتمكن ربانها من فعل شيء يمنع المسافرين الذين يربو عددهم على ثلاثمئة رجل وامرأة من الموت خوفاً. كانت غالبية أولئك الناس من السائحين. وغالبية أولئك السائحين من الشمال، وبخاصة من ألمانيا. كان يجلس بجواري شاب وصبية يونانيان، هما في العمر دون العشرين بقليل. وتلك رحلتهما الأولى إلى عاصمة بلدهما. لقد شدّا انتباهي إليهما ونحن على الأرض بعد. يد كل منهما تشتبك بيد الآخر بقوة. عاشقان صغيران، سعيدان بعشقهما أيما سعادة، يركبان الطائرة أول مرة

في حياتهما. ومن حسن حظي أنهما كانا جاريّ في المقعد. دردشت معهما قليلاً قبل أن تبدأ المتاعب. ثم صار عليّ أن أفعل شيئاً من أجلهما بعد أن ابتدأت، وبعد أن دبّ الرعب في المسافرين جميعاً إلا أربعة شباب أو خمسة يونانيون جعلوا يتحدثون إلى الناس بالانجليزية والفرنسية والاسبانية والألمانية في محاولة لتهدئة روعهم. لقد بدا لي أولئك الشباب خارجين للتو من (الإلياذة) أو (الأوديسة). إنهم يشبهون أبطال هوميروس شبهاً عظيماً. كان طاقم الطائرة قد اختفى بعد أن اعطوا كل أنواع التعليمات والإرشادات حول كيفية التصرف في داخل الطائرة. ثم انقطع كل اتصال بينهم وبين المسافرين، مما زاد في رعب الناس جميعاً إلا تلك القلة الخارجة من أساطير هوميروس بالإضافة إلى شخص آخر هو أنا. لم أشعر بالخوف لأني لم أكن مبالياً. كل شيء سيّان عندي.. لما كانت الطائرة تجنح يميناً أو شمالاً تتجه الأنظار كلها إلى الخارج عبر الطاقات الزجاجية.. الناس يتعلقون بأي أمل. إنهم ولاشك يبحثون عن الأرض، ويتمنون لو يظهر لهم نور أو أنوار من هذا المكان أو تلك الأمكنة. لكن مامن شيء سوى الظلام. حتى النجوم اختفت في تلك الليلة من قبة السماء.. ظلام أعمى. لا أضواء. لا أرض. لا ملجأ. أين الأرض؟ ياإلهي! ياإلهنا! ياربنا! وارتفعت التضرعات إلى الله، وابتدأت الصلوات بجميع اللغات.. الصلوات والأدعية والتمتمات الخفيضة والاستغاثات الحادة. والطائرة تهوي بالخاطئين التائبين. والقلب يسقط إلى البطن، وتطحنه جدران المعدة.. يارب!! وأنا لست مبالياً. وتلك حقيقة أكيدة. لم تكن المسألة بالنسبة إلي مسألة شجاعة أو جبن. لم أكن مبالياً. هذا هو التعبير الصحيح، أظن بأني وصفت لك حالي ذات مرة في (فترة اليونان)، وفيما تبع تلك الفترة أيضاً. كنت أحس بأني مهزوم تماماً. نعم، لقد كنت مهزوماً، وكنت ملعوناً أيضاً. لقد سحقني غيابك يافاطمة. جعلني وحشاً عجوزاً تقصفت مخالبه، واهترأت أنيابه، فبات يستحق الشفقة. كان غيابك يدمرني. بل دمرني وانقضى الأمر "إن الأمر كان مقضياً". وبات كل شيء، من بعدك، سيّان عندي. ولم يعد الموت بأسوأ من الحياة، فأهلاً بالموت وسهلاً، وبأية صيغة أحب أن يجيئني، حتى ولو في طائرة يونانية في رحلة داخلية قصيرة بين رودوس وأثينا.. سأكون شهيد الحب. أو شهيد فاطمة التي غرّها مني "أن حبك قاتلي"، والتي كم تمنيت، والطائرة تهوي "لو كنت معي يافاطمة".. كان لدي إحساس بأن مكروهاً لن يقع، رغم أن كل شيء سيّان عندي. لست أعرف كيف سأموت ذات يوم أو ذات ليلة. ولكني كنت وما أزال أعتقد بأني لن أموت في طائرة. وربما لهذا السبب كنت واثقاً من أفكاري. كنت أنظر إلى اليمامتين العاشقتين بجواري، وأرى إلى خوفهما وإلى مزيد من

تشابك أياديهما، وأقول في نفسي: إن الله سيأخذ بيد هذه الطائرة إلى الأرض بسلام كرمى لهذين العاشقين، فهو الرحمن الرحيم. والرحمن بدل من الله، هكذا أعربها في قولنا: "بسم الله الرحمن الرحيم". هكذا أعربها حتى لو احتج عليّ علماء الدين والفقه واللغة العربية. لست أجد لها في نفسي محلاً آخر من الإعراب. بل إنني لست أحب أن أعربها على أي نحو آخر. وما عنادي في هذا الأمر ـ الذي ربما كان صحيحاً ـ إلا من أجل أن أترك: (الرحيم) في موقع الصفة، بحيث تكون الرحمة أولى صفات الله. وبما أن الأمر كذلك، فلاشك في أن الرحلة سوف تنتهي على خير مادام في الطائرة من يستحق الرحمة بين ركابها. ومن يستحق الرحمة أكثر من يمامتين عاشقتين!! كانا ينظران إلي، ويريان إلى هدوئي ويستمدان منه بعض السكينة. قلت لهما، والحديث بالانجليزية: "المؤسف في هذه الحالات أن يصير التدخين ممنوعاً". ولعل قولي هذا حمل إليهما بعض الطمأنينة أيضاً. وخشيت في لحظة ألا أبدو مفهوماً، فمثل هذه العبارة تحتمل أكثر من تفسير، فأسرعت أقول: "أظن بأننا لن نصل إلى أثينا قبل ساعتين. وأنا لا أستطيع الامتناع عن التدخين مدة طويلة كهذه". إذن سوف نصل إلى أثينا، حتى ولو بعد ساعتين. هذه هي الفكرة التي التمعت في عيون العاشقين الشاخصة إليّ. قلت كمن يرد على سؤال لم يطرحه أحد بلسانه: "نعم لن نصل قبل ساعتين". قالت البنت، وكانت الأقرب إلي: "وكيف تعرف"؟. قلت: "أوه، إني أعرف هذه الأمور، وأعرف ماهو أسوأ منها أيضاً". قالت: "هل تطير كثيراً"؟. قلت: "أطير مرة كل أسبوع، أو مرتين أحياناً، فأنا رجل أعمال". وصدقتني. صدقت كل ماكذبتُ به عليها. وكان هدوئي يجعلها تصدقني أكثر من كلامي. كنت شديد الهدوء. والبنت العاشقة الخائفة تصدق أن الذي مازال أمامنا هو ساعتان فقط، وبأننا سنصل إلى أثينا أخيراً، سننزل إلى الأرض، ولن نذهب إلى جهنم التي لاحت قريباً لنا في ذلك الفراغ الكوني الأسود. لكن السكينة التي كان يصيبها العاشقان الصغيران من هدوئي وكلامي، سرعان ماتتبدد عندما تهوي الطائرة من جديد وترتفع الأصوات بالاستغاثة، وبالتضرع إلى الله، وبالصلاة بجميع اللغات. ولعل جميع لغات الأرض كانت حاضرة في ذلك الفراغ الأسود. ولم يكن الشباب الخارجون من أساطير هوميروس قادرين على تهدئة الأجواء وطمئنة النفوس الخائفة المضطربة أمام احتمالات السقوط في الهاوية.. الألماني لا يستطيع أن يصدق اليوناني. أحفاد نيتشه لا يصدقون أحفاد هوميروس. لو كنا على سفينة في البحر وتعرضت تلك السفينة لمتاعب من نوع ما، فلربما صدقوهم، واعترفوا لهم بأنهم أبناء البحر مذ وجد البحرُ، واعترفوا لهم ليس في أنهم

أحفاد هوميروس، بل في أنهم أحفاد أوديسيوس، فقد صار المخلوق أشهر من الخالق، ولاعترفوا لهم أيضاً بأنهم يعرفون أسرار البحر، ويعرفون غضبه، ويعرفون الدواء الأمثل لذلك الغضب. ربما كان البحر سيكتفي بأضحية من نوع ما، ويكف شروره عن العباد.. أما في الجو، فكيف للألماني أن يثق بأحد والأمر متعلق بأسرار التكنولوجيا المعقدة؟! أظن أن الألماني لا يثق في مثل هذه الحال التي كنا عليها تلك الليلة، ولا حتى بنيتشه، لو قدر لنيتشه أن يكون بيننا. وبقيتُ هادئاً. وتعانقت اليمامتان بجواري. تشابكتا. تلاحم جسداهما تماماً، رغم أن كلاً منهما ظل في مقعده مزنراً بحزام الأمان الذي تخلى عنه أحفاد أوديسيوس الأربعة أو الخمسة، ووقفوا على أقدامهم، وصاروا يصرخون في الناس مطالبين إياهم بالهدوء، ومحذرين من أن هذا السلوك لن يكون في صالحنا لأنه سوف ينعكس سلباً على معنويات طاقم الطائرة فيعرقل سير عملهم. وخطر لي في لحظة أن أنضم إلى أولئك الشباب، وخشيت أن الألماني لن يصدقني أنا أيضاً، سيقول لي: "إننا لسنا في الصحراء أيها العربي". وكنت سأرد على ذلك: "بل إننا في قلب الصحراء. فهل يعد هذا القحط الأسود من صحراء أيها الألمان الحزانى"!!. وبقيتُ هادئاً. نظرت إلى اليمامتين في جواري من جديد. كانت كل منهما قد أطبقت على قرينتها تماماً. كانا نصفين متساويين لشيء واحد. رجع النصفان وتلاحما، وشكلا ذلك الشيء الواحد مرة أخرى. وأغمض كل منهما عينيه. ماعادأحد منهما يراني، أو يرى هدوئي. لقد فقدا الثقة بي أنا رجل الأعمال العربي الذي "لا تشبه العرب"، والذي يطير مرة كل أسبوع أو مرتين في أصقاع الدنيا حتى أني كنت في القطب الشمالي ثلاث مرات". وللمناسبة، لم أكذب تماماً في هذه النقطة، فقد اقتربت من القطب الشمالي في رحلة قمت بها صيف عام ١٩٧٠ .. وصارت اليمامتان يمامة واحدة. وتمنيت لو كانت فاطمة بجواري تلك اللحظة. لست أعرف كيف كنت سأضمك يافاطمة. آه كم تمنيت وجودك بقربي تلك اللحظة! وآه كم تشهيت الخوف! وكم تشهيت عناقك والاتحاد بك إلى الأبد! كنت أدفع مابقي لي من عمر ثمن ذلك الاتحاد. وعمري الباقي لم يكن قصيراً، فها قد مرت اثنتا عشرة سنة على تلك الحادثة. ومادمت قد قلت لك في رسالة سابقة إني قادر على انتظارك اثنتي عشرة سنة أخرى، فلسوف أعيش اثنتي عشرة سنة أخرى. أظن، وبعض الظن إثم، بأني سأعيش اثنتي عشرة سنة أخرى. سأفي بوعدي إليك يافاطمة، أرجو ذلك. وإلا.. لن أقول لك: "شقّي عليّ الثوب"، كما قال عنترة لابنة عمه التي أنشد فيها كل ذلك الشعر الرقيق. كم كان عنترة رقيقاً! كم كان رقيقاً ذلك الشاب الأسمر الذي اشتهر

بالفروسية أكثر مما اشتهر بالشعر، والذي رفض عمه (مالك) أن يزوجه ابنته (عبلة). لست أدري لماذا لا أصدق بأن مالكاً ذاك عم عنترة. لا أستطيع أن أتصور الأعمام بهذه القسوة. ولست أدري أيضاً إن كانت عبلة قد شقّت ثوبها لما جاءها نبأ مقتل عنترة. المؤرخون لا يذكرون شيئاً من هذا، كما لا يذكرون إن كانت خولة قد نعت طَرَفَة بشيء من رثاء، حتى أني لا أعرف إن كان إليها أم إلى سواها قد توجه بالقول: "فإن متّ فانعيني بما أنا أهله". مات طَرَفَة فرثته أخته. هذا مايقوله المؤرخون. ويقولون أيضاً: مات الشنفرى فرثته أمه. والشنفرى أو صاحب (لامية العرب)، مات مقتولاً هو الآخر، يبدو أن العرب كانت تعشق قتل شعرائها. حتى المتنبي مات قتلاً. يبدو أن العرب تعشق قتل شعرائها إلى يومنا هذا. فهل ثمة شاعر عربي أكبر من ناجي العلي في هذا الزمان؟ هو الآخر مات قتلاً. ولابد أنك تعلمين بذلك. أطلقوا عليه النار في لندن. وإن كنت لا تعرفين من قاتله، أنبئك الحق: إنهم العرب. إنهم العرب أيتها المرأة التي "أظنك" نصفي الذي ضاع مني وضعت منه، فقضيت العمر أبحث عنها، وتشهيت عناقها، والذوبان فيها، والاندماج معها، والاتحاد الكلي بها لمّا كانت الطائرة تهوي وتهوي، ولما صار هدوئي الشديد غير ذي نفع لتينك اليمامتين المتلاصقتين بجواري.. والطائرة تسقط إلى البحر أو إلى صفحة الماء.. وبتّ أشك في ثقتي بأن الله سوف يأخذ بيد هذه الطائرة كرمى للعاشقين الصغيرين. بل إني بتّ أشك في أن الرحمة هي أولى صفات الله الكثيرة، حتى أني في تلك اللحظة كنت مستعداً لإعراب كلمة الرحمن: صفة، بحيث لا تعود كلمة (الرحيم) إلا صفة ثانية. كنت مستعداً للتنازل عن عنادي اللغوي، غير أني لم أكن مستعداً للتنازل عن هدوئي. فكل شيء، من بعدك، صار سيان عندي، أما لو كنت معي، تلك اللحظة، في اتحاد لقرأتُ أكثر من سورة من القرآن. أما وأنك بعيدة عني، وضائعة مني، فمن أجل من أقرأ القرآن إذن؟ أمن أجل ذينك العاشقين؟ الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، له مافي السموات ومافي الأرض، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما، وهو العلي العظيم.. وجعلت الطائرة تطير بثبات على ارتفاع منخفض قريباً من سطح البحر، فنظرت اليمامتان أخيراً إليّ مصدقتين ماقاله رجل الأعمال العربي. وابتسمتُ لهما، ونظرت إلى ساعتي، وقلت: "من المؤسف أنني مازلت لا أستطيع التدخين". وقلت أيضاً: "أظن بأننا بدأنا نقترب".. وكنت ماأزال أعتقد بقدوم الكارثة رغم ثبات الطائرة. لعل الطيار لجأ إلى هذا الارتفاع المنخفض جداً تحسباً لنوع من الهبوط الاضطراري ولو على سطح

البحر قريباً من إحدى الجزائر الصغيرة التي شدّنا جميعاً إليها نور منبعث من أحد أرجائها. لقد بدا لنا ذلك النور أهم نور في حياتنا.. كم هو شخص نبيل ذاك الذي كان اسمه أديسون!! فقد كان ذلك النور مبعث الرجاء لنا جميعاً.. إنه الأرض كلها، والحياة كلها، والعالم كله، إنه الوجود الذي هو نقيض العدم. وتضاءل الإحساس بالرعب، غير أنه لم يتبدد، إذ ليس من قوة قادرة على تبديده من النفوس الخائفة. والخوف حق من حقوق الإنسان. والعيش كنز ناقص كل ليلة، كما قال ذلك الولد الذي رثته أخته بعدما قتله ذووه من عرب الجاهلية، والطائرة تطير بثبات أكيد. وخيّل إليّ أنها زادت من سرعتها، مع أن منطق الأمر يقول بعكس ذلك.. وجعلنا نقترب من أثينا ومن مطارها الذي كان في أشد حالاته استنفاراً من أجلنا: الإسعاف، والإطفاء، والإنقاذ، والبوليس، وكل أحد كان يحيط بالمدرج الذي تم إخلاؤه من أجل طائرة الخوف التي جعلت تترنح من جديد وفجأة. فارتفعت الصرخات والأدعية من جديد أيضاً. كان يبدو للجميع أن أحد جناحي الطائرة سوف يرتطم بالأرض حتماً بعد أن صارت تترنح مثل سكير تعتعه السكر لمّا لم يكن يفصلنا عن الأرض أكثر من خمسين متراً بدت مثل كنز ناقص خمسين مرة، وقبل أن يتخذ حفيد أوديسيوس الجالس في قمرته قراره بأن يضرب ضربته الأخيرة، ويرمي برمحه في عين الوحش ذي العين الواحدة، ويخلص من شروره بعد أن تلاعب بنا طويلاً ذات اليمين وذات الشمال، فينجو من غضبه ويغادر جزيرة الخوف.. هاهو يهاجم الأرض أخيراً، حتى لو كان سيرتطم بها ويتشظى. وهاهو يصيب الأرض بنجاح. أصابها بالعجلات الخلفية أولاً، وبالأمامية ثانياً. وترنح السكير على الأرض مرة أخرى، غير أنه لم يقع، فقد استجاب الله لدعائي وصلاتي من أجل ذينك العاشقين الصغيرين.. وصار كل شيء مباحاً في تلك الآلة التي يسمونها الطائرة.. كل شيء صار مباحاً. صدقيني كما صدقني ذلك الولد وتلك البنت اللذان يزوران عاصمة بلدهما لأول مرة لما قلت لهما إننا سنصل إلى أثينا بعد ساعتين. غير أن البنت عاتبتني. قالت: "لقد مر ثلاث ساعات". قلت: "يحدث هذا أحياناً". ولم أحدد ماهو الذي أحياناً يحدث. أشياء كثيرة تحدث في حياتنا، فقد حدث لي أن فوجئت ذات ليلة بأني معلق في الجو في طائرة عملاقة (جامبو) تطير من بانكوك إلى دلهي في رحلة تستغرق نحو خمس ساعات وسط أجواء في غاية الرداءة، ومن دون أن يكون في جيبي أي نوع من أنواع العملة التي يتعامل بها أيٌّ من شعوب الأرض، فأشتري بعض الكحول أستعين بها على رداءة الطقس، وأخلص من التفكير بهموم الطيران، وأخلو إلى نفسي في ذلك الفراغ الكوني الأسود. كان جاري في المقعد

فرنسياً. لكنه رجل أكثر مني عقلانية، لأنه لم ينفق على الأرض آخر قرش في جيوبه، فاشترى زجاجة من نبيذ. ولم يقل لي: "تفضل ياجار". وكدت أن أقول له: "يازلة النبي وصّى بسابع جار". ولا أعرف بأية لغة كنت سأقول له ذلك. أتذكر أني تحدثت إليه في بداية الرحلة بشيء ما. تحدثت بالإنجليزية. وخيّل إلي أنه مستاء من هذه اللغة، حتى أنه أنكر معرفته بها، ورطن بلسان الفرنسيين معبراً عن استيائه ذاك. وأدركتُ أنه لن يسمح لي باقتحام عالمه، فتركته وشأنه، وبقيتُ أموت شوقاً إلى كأس من الكحول.. وشتمتك. فأنت المسؤولة عن كوني في الجو. وأنت المسؤولة عن كوني بلا نقود. ثم رجعت أختطف نظرة إلى جاري الفرنسي. إنه من جيلي. رأيته شديد العزلة، أو شديد الحزن. كنت أجلس بجانب الطاقة الزجاجية في جدار الطائرة الأيمن. وكان هو يجلس إلى يساري. ويدخن كثيراً، ويغمض عينيه، ويشرد لست أدري أين. تركته ثانية مع أفكاره التي لاشك في أنها مضطربة، ومع زجاجة النبيذ الذي بدا لي فاخر الصنف، طيب المذاق حتى من دون أن أجربه.. جعلت أنظر عبر الزجاج إلى الليل وصفحة جناح الطائرة وقد أنيرت بأضواء خافتة متعددة المصادر. الريح، والليل، والسكون، والوحدة.. جعلتُ أتطاول بناظري وأراقب النجوم، فرأيت الزمن يمشي.. أي حزن! كنت قد صرت على يقين بأنه مامن شيء عاد ينقذ، ومن أني وقعت في هواك، وإلى الأبد. ولا شيء عاد ينقذ من رحلة العذاب التي ابتدأت في صبيحة ذلك السبت الذي ودعتك فيه قبل شهور ثمانية. كنت قد صرت على يقين من أني لن أستطيع منك الشفاء يوماً، وبأني سأظل بك مريضاً إلى الأبد، وشقياً إلى الأبد، فارتعبت من منظر الزمن يجري أمامي ساخراً، لا مبالياً. ارتعبت من رؤية أوقاتي تمر بي من دونك أنت. أنت وحدك. كنت قد صرت على يقين بأني منك خائف، وإلى الأبد أيضاً، وعلى يقين بأني لن أرد على رسالتك التي سوف تنتظرني على مطار دمشق لما وصلت مطار دمشق، ولما استقبلني هناك بعض الأصدقاء، مع أنني رديت على تلك الرسالة. كتبت لك جملة، كما تعلمين، من الشتائم التي في غاية البذاءة. كنت كمن يستفزك على قطع العلاقة بي تماماً. إذن، لعلني لم أكن أسعى إليك. لعلني كنت أسعى إلى مزيد من شقاء، أو مزيد من عذابات الهوى التي لا تطاق. فقد بدت لي تلك الشهور الثمانية التي انقضت مذ حلّ ذلك السبت الملعون دهراً كاملاً، فكل دقيقة بعد ذلك السبت أطول الدقائق، وكل ساعة أطول الساعات، وكل وجع أشد الأوجاع. فكيف الحال إن كان الوجع شديداً بالأساس؟ وهل ثمة وجع أشد إيلاماً من وجع الروح؟ فكيف أستطيع إلى فراقك سبيلاً؟ لقد بدا لي أن حبي لفاطمة حقيقة أكثر من ثابتة وأكثر من راسخة،

فوجدت نفسي مكرهاً على العذاب. كان يتملكني قلق فظيع من احتمالات فقدانك إلى الأبد، وحماس فظيع لاستعادتك إلى الأبد. كنت سأغفر لك كل شيء. وكنت لن أغفر لك أي شيء. ولن أتسامح. وكنت، في الوقت نفسه، لا أطيق معك فراقاً. ومرة ثانية وجدت نفسي مكرهاً على العذاب. ولم يكن أمامي من سبيل إلى الخلاص سوى ترك الأنانية، وحب فاطمة بالهيئة التي هي عليها في واقع الحال، لا بالهيئة التي كان يجب أن تكونها في تصوراتي الخاصة، وإلا فالطريق إلى العذاب مفتوحة أمامي على اتساعها، وما علي إلا أن أضع قدمي هناك، وأخطو الخطوة الأولى، التي كنت قد خطوتها. والخطوة الأولى هي بداية المسير مهما كان طويلاً، وشاقاً، ومدمراً للروح والجسد، أو كلاهما معاً.. لم يكن أمامي سبيل إلى النجاة من لجة العذاب إلا الإمساك بخشبة القناعة. فالقناعة هي المنقذ الوحيد للنفوس الهائجة المضطربة. النفوس الأنانية ذوات الحساسية المفرطة التي يصعب إرضاؤها. والرضا هو جوهر الموضوع. لبُّ القضية، ومحور الحياة. وما دمت لست راضياً فإنني لن أعرف السعادة في يوم من الأيام. ومصيبتي أني لم أعرف الرضا من قبل أبداً، فكيف أصير راضياً بعدما أضعتك يافاطمة؟! وكيف أمسك بخشبة القناعة إذن؟! كنت أدرك تمام الإدراك بأني لن أستطيع العيش من دونك، وبأني سوف أموت لو ارتحلتِ عني إلى الأبد، وبخاصة لو ارتحلت عني إلى رجل آخر. ولكني أدرك أيضاً بأني لن أستطيع العيش معك، ومع الطعنة التي وجهتها إلى صميم كبريائي، بل كرامتي، فقد كنت أتصورك تخونينني مع رجل آخر. وكنت أظن بأنك تستمتعين بذلك الأمر. ولست أعرف مصدر هذا الظن الذي كان يرقى إلى درجة اليقين أحياناً.. لقد مرضت بعد عودتي من اليونان. ارتميت في الفراش قرابة سبعين يوماً. صرت متوحداً، مستوحشاً، ذابلاً، ذاوياً، كمن أضرب عن الطعام زمناً طويلاً فتحول إلى شبح من الأشباح. أعضائي كلها تقول بذلك: عيناي المنطفئتان، وجهي الذي تهدلت عضلاته، لساني الصامت. ثم هنالك حقيقة أكيدة هي الانهيار العصبي الذي حلّ بي وأنا مازال في أثينا بعد.. هناك خيبة الأمل، واللهفة على الموت، والشعور بالاشمئزاز، والندم، ولوم الذات، والقلق، والتوتر، وفرط الإجهاد العقلي. صار شعري أشعث، طالت لحيتي كثيراً. قبعتُ في بيتي يأكلني الصدأ، وتفتتني رغبة جامحة في الموت. فاستسلمت للإهمال والبلادة وخواء الروح والعريّ والغبار.. ولا شيء ينقذ.. رجعتُ أراقب حركة النجوم فرأيت الزمن يمشي. وتذكرت جبهتك المتشامخة، وشعرك الأسود الغزير، ورقبتك المتعالية، ونهديك الصاخبين، عندما كنت أتوسد ذراعك بعد الفجر لكي أنام. وكنت أرى مقدار شقائي، وأرى أني مالم أقبل

بنوع من المصالحة الخفية مع أشياء حياتي القادمة، فلربما فقدت عقلي. وعندئذ فلسوف تكونين أنت السبب، وسوف يكون أوان الندم قد فات. كنت على يقين بأني لن أستطيع العيش من دونك يافاطمة. سوف أغفر لك كل شيء. كل شيء. أما جراحي، فأرجو أن تندمل ذات يوم قريب. كنت لن أستطيع العيش من دونك ياكبدي. أو كنت لن أعيش، من بعدك، رجلاً سوياً يافاطمة. ورغم ذلك. رغم ذلك، استقر رأيي على عدم المغفرة في كل مرة. وفي تلك الليلة أيضاً، استقر رأيي على عدم المغفرة وقد اكتشفت في نفسي، من جديد، مقدرة رهيبة على فقدان الانسجام مع أشياء حياتي القادمة، وأنا أراقب حركة الزمن. وأراحني هذا القرار في لحظتي الجديدة تلك، وجعلني أشعر بالتوهج كما في المرات السابقات. لكنه توهج زائف. كان توهجاً زائفاً على الدوام، فبقيت دائم الانطفاء، ودائم الموت من الهوى إليك.. ولا شيء ينقذ. حتى ولا صبية جميلة، أو جميلة زيادة عن اللزوم في بعض الأوقات، بغض النظر عن اسمها. واسمها كان وجدان. وكم كانت وجدان طيبة معي! لعلها أشفقت علي، أو لعلها أحبتني، أو لست أدري ماذا أيضاً دفعها إلى الارتباط بي. لعلها، وهذا ماأؤمن به الآن، أحبت أن تدخل طرفاً في لعبة هوانا أنا وأنت. لعلها أحبت أن تكون شريكاً لنا كاملاً في لعبتنا السرّانية هذه. ثم فضلت الانسحاب وقد أصابها اليأس مني ومنك. وربما كان هذا هو السبب الحقيقي في رغبتها بالطلاق الذي كانت ترفضه بشدة.. وكففتُ عن النظر إلى الزمن، وألقيت برأسي إلى مسند المقعد، وأغمضت عيني.. لو جيت نهار ع بيتي لقيت إنك حبيبي بغيابي جيت، بكتب لك ورقة حتى ماأقول، مابقدر قول، ياريت بتبقى حدي ياريت! وظلت عيناي مغمضتين.. أكذب لو قلت إني أكتب هذه الرسالة إليك على نحو متواصل. ثلاثة أسابيع انقضت مذ ابتدأت بكتابتها، خرجتُ خلالها من البيت مراراً، وتوقفت عن الكتابة مراراً، فأنا، من جهة، أخضع لجلسات علاج فيزيائي منذ عدة أيام، بسبب أوجاع رقبتي التي ماعدت أطيق على احتمالها صبراً. ومن جهة ثانية، ثمة أحداث كبيرة تقع هذه الأيام على صعيد المؤسسة. قال لي الشباب - جميع من تعرفين من السينمائيين السوريين العاملين في المؤسسة العامة للسينما: "بدنا شهادتك". يريدون شهادتي حول واقع السينما السورية هذه الأيام. وأنا لا أريد الدخول في لعبة تصفية حسابات شخصية مع أي إنسان. لن أكون تافهاً. لن أسمح لأحد باستجراري إلى مستنقع من تفاهة. ولكني لا أستطيع أن أحجب شهادتي وأنا على كل شيء شهيد. أعرف أن شهادتي سوف تنفع بعضاً، وتضر ببعض آخر. ومع ذلك، فإنني لا أستطيع إلا أن أدلي بتلك الشهادة، حتى لا يقال: لقد صمت

الشعراء. وشهادتي باختصار: الحالة مزرية ومعيبة.. لا أستطيع أن أحجب شهادتي، ولكني لا أريد الانقطاع عن كتابة هذه الرسالة إليك، والتي بتّ لا أريد كتابة شيء من بعدها، بل حتى لا أبالي إن متّ من بعدها، رغم وعدي إليك بانتظارك اثنتي عشرة سنة أخرى، فكم أنا في حاجة إلى البوح يافاطمة! كم أنا في حاجة إلى البوح إليكِ.. فإليكِ ماجرى.. إنني أراك في منامي كثيراً هذه الأيام، رغم أن نومي وصل حد الندرة. ماعدت أنام دون أن أراك.. أراك عجوزاً. أراك مسبيّة. أراك تائهة. أراك مقتولة.. اللعنة! لا أريد أن أنام. كأنّا خُلقنا للنوى وكأنما/ حرام على الأيام أن نتجمعا.. وفتحتُ عيني، ونظرت إلى جاري الفرنسي. كان مايزال شارداً.. ولك بيسوى هيك ياجار؟ وديغول خبر دولتك باريس مربط خيلنا. ويلعن أبو أبوك ياجار.. ونظر إلي جاري. كان قد أصاب بعضاً من نشوة فانبسطت أساريره بعد أن شرب أكثر من نصف الزجاجة أمامه، وابتسم لي، وقال: "سافا"؟. قلت بالعربية: "والله مش سافا". قال: "كوا"؟. قلت: "يازلمة كيف بدي أشرح لك إني محتاج لكاس؟ ترى شوف، أنا والله مارح أشحد، بس إذا بتضيفني مش رح قول لأ. بعدين لك أخي سدني الدين اللي ع الجنرال ديغول. ترى والله عيب ع فرنسا إنها ماتدفع حق قناني العرق اللي شربها رئيسكن عنا بالشام. ترى ديغول كان يحب يقعد بالربوة".. وجعل الفرنسي يقهقه، وقال: "ديغول....". ولم أفهم من تتمة الكلام شيئاً. لعله كان يسألني إن كنت أحب ديغول. قلت له: "ديغول سافا". قال: "أوه، سافا، سافا". وتجرع مابكأسه، وتذكرني أخيراً بعد أن أعاد الكأس إلى مطرحها. وبسط يده سائلاً إن كنت أحب أن أشاركه الشراب. قلت له: "إنت زلمة سافا. إنت زلمة فيري سافا". وصب لي وشربت. ثم طلب زجاجة ثانية. وصب لي. وشربت. وما أصبت نشوة. تملكني فيض مفاجيء من حنين إلى (عينية العرب).. هذا ماأخشاه من الكحول دائماً. احتلتني تلك القصيدة العظيمة تماماً.. ورجعتُ أنظر إلى الليل والنجوم وحركة الزمن.. كم كان الأمويون محظوظين لما عاش في عصرهم كل أولئك الشعراء: قيس ليلى، وقيس لبنى، وجميل بثينة، وكثيّر عزة، وذو الرمة، والقشيري صاحب العينية العظيمة! ما السر في أن الشعراء العذريين العرب ظهروا في زمان واحد هو الزمان الأموي؟ أي سر في أن زمان سيادة دمشق على العرب هو زمان العذريين، رغم أنه كان زمان الشعراء المتهتكين أيضاً؟! لقد طبعت هذه المدينة العرب كلهم بطابعها هي، وفرضت تناقضها الصارخ على الجميع فرضاً.. وصب لي جاري الفرنسي كأساً جديدة. وشربتُ.. وارتعبت من رؤية الزمن يجري أمامي.. كأنّا خُلقنا للنوى وكأنما حرامٌ على الأيام أن نتجمعا.. فهل من أجل البعاد خلقنا أنا

وأنت؟ وما الذي فعلته بي يافاطمة؟ أي سحر فيك؟ أية فتنة؟ وأي سر يجعلك تقتلينني كل يوم؟! فكم صرخت من الوجع! وكم قلت: "ياقلبي"، لما كان يمرق طيفك في خيالي!! وتوقفتُ عن الشراب. وغطّت عيني غشاوة من دمع رقيق. وشتمتك. وتذكرت تينك اليمامتين في سماء الإغريق، وتلك الطائرة التي كانت تهوي إلى البحر ليلة تمنيت لو كنت معي. كان قد مر على تلك الحادثة ستة شهور تقريباً. وكنت قد أيقنت أن "حبك قاتلي". وكنت ألعن نفسي، "وألعن جسدي"، وألعنك، وأحملك مسؤولية حزني، ومسؤولية حزن جاري الفرنسي.. لست أدري ماالذي كان يفعله في بانكوك. لعله كان يتسكع في دور البغاء! لعله كان هارباً من زوجته في باريس! لعله كان هارباً من امرأة أحبها، لكنها تركته كما تركتني فاطمة! لعله.. لست أدري ماذا أيضاً. لعل قصتينا متشابهتان! أعتقد بأنهما متشابهتان. أحب أن أعتقد بذلك لكي أجدني متعاطفاً معه، ولكي أجده صديقاً لي. وصداقتنا لم تدم إلا أقل من خمس ساعات. ظل هو على متن الطائرة إلى باريس، أما أنا فقد غادرتها. كنت سأركب طائرة ثانية. ودعته وقلت له: "سافا". وقال لي: "سافا". لقد تحولت هذه الكلمة إلى لغة كاملة. أظن بأننا قلنا لبعضنا شيئاً أكثر من كثير، دون أن نستخدم إلا كلمة واحدة. ولعل الكحول هي السبب، فالكحول لغة عالمية. ونزلت في مطار دلهي مع طراءة الصباح، وازددت حزناً عل فراق ذلك الرجل الذي قصته تشبه قصتي. وحمّلتك مسؤولية وجودي في ذلك المطار، ومسؤولية كوني أطير بلا نقود في جيوبي، رغم أن هذا الأمر عادة راسخة لدي مذ كنت طفلاً في العاشرة.. لم يكن من سبيل إلى إنفاق الليرات الثلاث التي أعطتني إياها عمتي في الصباح. ماكان ثمة طريقة لإنفاقها كما لو كان يتحتم إنفاقها. ولست أدري من أين جاءني ذلك الشعور. لعله موجود لدي بالوراثة أيضاً، فقد كان مثل شعور أخي (أبو النور) في أحد الأيام من خريف ١٩٥٨ ، كنا نحن الأخوة الأربعة نتناول طعام الغداء مع أمي. (ليس لي أخت أو بالأصح: كانت لي أخت. وكان اسمها ـ لا تضحكي ـ فاطمة. لكنها لم تعش إلا عاماً وبعض عام، ثم مرضت وماتت. كم أتمنى لو أن لي أختاً)!. كان أبو النور قد رجع من غيبته الأولى. وكان يوسف قد عاد حديثاً من بيروت بعد إصابته بثلاث رصاصات في واحدة من المعارك خلال الحرب الأهلية اللبنانية في صيف ذلك العام. قال أبو النور يسأل يوسف: "إيش رأيك ببيروت"؟. قال يوسف: "يازلمة أقعد بالشام وخلصنا. بعدين الوضع في بيروت مش مستقر، وممكن بأي لحظة تتفجر الحرب من جديد، وبأي لحظة ممكن يرجع الأسطول السادس وينزل المارينز هناك. خليك بالشام وإنس بيروت". قال أبو النور: "لكان

لوين بدي أروح"؟. قال يوسف: "وليش بدك تروح"؟. قال أبو النور: "لأني بقدرش إلا أروح". كم كان حواراً عبثياً بين أخويَّ الكبيرين! لكن ذلك الحوار سرعان ماتحول إلى ملاسنة بينهما. ثم سرعان ماتحولت الملاسنة إلى شجار بالأيدي. ضربا بعضهما بقوة. وجعلت أمي تندب حظها البائس مع أولادها. وجعل أخي إبراهيم يبكي ويبكي. كان في السابعة من عمره. وحاولت أن أفصل بين أخوي. ولم أنجح طبعاً. وأصابتني ضربة طائشة من أحدهما، ورمتني أرضاً، وصرت أبكي أنا الآخر بعد أن احتضنت أخي إبراهيم أحاول أن أهدىء من روعه، ومن روعي. ولم يتوقف الشجار إلا بخروج أبو النور من البيت وهو يهدد يوسف بأنه لن يرى وجهه بعد اليوم.. وارتحل. ذهب إلى اللاذقية. وركب في إحدى السفائن، ولم يكن يملك جواز سفر. لم يكن يعرف شيئاً اسمه جواز سفر. لكنه كان قادراً على تدبير أموره عند مختلف أنواع الحدود، فارتحل إلى مصر، ومن مصر ذهب إلى ليبيا، ومن هناك عبر إلى الجزائر. وأفترضُ أنه قاتل الفرنسيين في الجزائر التي أقام فيها إلى مابعد الاستقلال.. كانت العودة إلى بيت عمتي صعبة، فالحي بعيد، والترمواي لا يذهب إلى هناك. لكنه يذهب إلى غرفة أخي التي في الطابق الثاني من ذلك البيت العتيق. لعلني بيّت أمر ذهابي إليه منذ الصباح. وربما كنت قد اتخذت القرار في اللاوعي. ثم إنني كنت مشتاقاً لأخي الذي لم أره منذ أيام عدة، فقد غرق في الامتحانات. هبطتُ باتجاه سينما دمشق. كنت قد مررت بها في نهاري ذاك. ومن سينما دمشق رحت أمشي على الطريق ذاته الذي مشيته برفقة أخي إلى موقف الترمواي الذي استهديت إليه من دون كثير عناء، رغم أن المساء قد حلّ على المدينة. صعدت الترمواي، ووقفت في مؤخرة العربة، وألصقت وجهي بالزجاج. أي غبي ذاك الذي قال إن الخطين المتوازيين لا يلتقيان؟! نزلت من الترمواي في المحطة الأخيرة. وبيت أخي بجانب تلك المحطة تماماً، ولا يفصله عن السكة إلا عشرة أمتار فقط. صعدت الدرج العتيق جيد الإضاءة. صعدته سريعاً ماأمكنني ذلك، مكابراً على ألمي، فلم أكن مشتاقاً لأخي فحسب. لعلني كنت أريد أن أبرهن له على أني ولد ذكي، وأني لن أخيب ظنه في المستقبل، وسأتعلم اللغة العربية واللغة الانكليزية. وصلت الباب. ضربت عليه بيدي فوجدته أصم، فكانت خيبتي كبيرة. فكرت في أن أخي غائب في مشوار قصير. قررت انتظاره. جلست على بسطة الدرج قريباً من الباب. طال انتظاري. وأخي يرفض العودة إلى البيت. نعست. نمت. أفقت. وأصخيت السمع في الحلم وفي اليقظة. وأخي لا يعود إلى بيته. بردت. الليل في دمشق على شيء من برودة أحياناً، حتى في عز الصيف. وأخي لا يعود. خشيت أن مكروهاً قد وقع له.

سيطرت عليّ هذه الفكرة. مت خوفاً على أخي. أصبح الصباح، وارتفعت أصوات المؤذنين في المساجد تدعو المؤمنين إلى الصلاة. وشعرت بالرهبة. وكبر خوفي على أخي. وكبر خوفي على نفسي. وفكرت باللجوء إلى أحد المساجد القريبة. فكرت باللجوء إلى الله. وتلك هي المرة الأولى التي شعرت فيها بحاجتي إلى الله، لكنها لم تكن المرة الأخيرة.. لما كنت أخدم في الجيش وقعت لي حادثة لا أجد لها تفسيراً إلى اليوم. وقعت الحادثة ليلاً. كانت ليلة حارة في أواخر الصيف من عام ١٩٧٧ . كان اللواء الذي خدمت فيه ينتشر في مجموعة من التلال والوديان إلى الغرب من دمشق بأربعين كيلومتراً. أي قريباً إلى حد ما من خط الجبهة. لم تكن كلمة الجبهة تعني في ذلك الوقت شيئاً خاصاً، فقد كان وقف إطلاق النار ثابتاً، وذلك منذ انتهت حرب الاستنزاف عام ١٩٧٤ . ولم يكن يبدو أننا نرغب في خرق وقف إطلاق النار، ولم يكن يبدو أن اليهود يرغبون في ذلك أيضاً. في ليلة الحادثة المحيّرة تلك كنت ضابطاً مناوباً في الكتيبة، أو في كتيبة المدفعية الملحقة على اللواء. وبما أن وقف إطلاق النار ثابت، فالمناوبة لا تعني شيئاً خاصاً بالنسبة إلي. أقوم ببعض الإجراءات الروتينية. أتفقد السرايا الأربع التي هي قوام الكتيبة. أتفقد المدافع والحرس. أتفقد مقر قيادة الكتيبة. أبدأ جولتي الروتينية هذه بمجرد أن يحل الظلام. ثم أرجع إلى مقرّي، أو إلى البرّاكة التي تخصني. والبرّاكة غرفة عسكرية. أبدل ثيابي. أرتدي بيجامة رياضة، وأتناول لقمة، وأستلقي على السرير، وأقرأ. وكم قرأت في الجيش! قرأت كثيراً خلال مناوباتي. ولم يكن يقطعني عن القراءة إلا رنين الهاتف. غير أني صرت أترك أحد الجنود، لاحقاً، بجانب الهاتف لكي لا أظل أقوم وأقعد، فالمكالمات كثيرة أحياناً.. وسوى هذا كنت أسمح لنفسي نادراً بمغادرة الكتيبة ملبياً دعوة ضابط آخر مناوب في كتيبة ثانية. وأكثر من ذلك، فقد كنا نسمح لأنفسنا، ولكن في مرات قليلة جداً، أن نغادر موقع اللواء كله. نذهب مجموعة من الضباط المناوبين في الكتائب المختلفة إلى بلدة جبلية قريبة حيث يوجد مقصف جميل، بل جميل جداً، يرتادونه حتى من دمشق. كنا نتناول عشاءنا هناك، ونشرب بعض الكحول، ونتفرج على النساء.. وكان يحلو لي أحياناً أن أتمشى ساعة أو ساعتين تحت نجوم الصيف الكثيرة. وغالباً ماكنت أمشي وأنا في بيجامة الرياضة. وحدث، ذات ليلة قمراء، أن اصطدمت ببعض المهرّبين، أو هكذا أظنهم. أظنهم من أولئك الناس الذين احترفوا مهنة التهريب التي ظهرت بظهور الحدود بين الأمم والعباد والبلاد. أظنهم كانوا يهربون بضاعة بين سوريا ولبنان. التقيتهم قريباً من حرم كتيبتنا فطلبت إليهم التوقف. ولم يتوقفوا. حتى أن أحدهم شتمني. كان يرى أولئك القوم

أني وحيد، وأني من دون سلاح، ولا حتى مسدس، فاستخفوا بي، وشتمني أحدهم، وتابعوا طريقهم. كم شعرت بالغيظ! صرت حين أناوب لاحقاً أعمم، في كل مرة، على جميع ضباط الصف والجنود باعتقال أي مهرب يمر قريباً من كتيبتنا. لم أفكر في حياتي بأن أعتقل إنساناً. إني أكره ذلك لأني أكره أن يعتقلني أحد. أظنني سأموت من القهر لو اعتقلوني يوماً. هذا ماأظنه. ولكن غيظي من ذلك المهرب الذي شتمني كبير بحيث تمنيت لو أعتقله. لا أظنني كنت سأوقع به أذىً. ربما اكتفيت بشتمه.. وكم اعتقل جنود كتيبتنا لاحقاً من مهربين! لكني لم أعثر بينهم على الرجل الذي شتمني، فكنت أفرج عنهم فوراً.. علمتني تلك الليلة القمراء ألا أكون مجرداً من السلاح في مناوباتي القادمة. حتى أني صرت أعلق بندقية في عمود السرير الذي أنام عليه. وفي الحقيقة أنني لم أستخدم تلك البندقية إلا مرة واحدة. كنا في الصيف أيضاً. في ذات الصيف الذي وقعت لي فيه تلك الحادثة المحيّرة. كنت، كعادتي، أقرأ وأنا أتمدد على السرير في بيجامة الرياضة. وكان أحد الجنود يجلس إلى الطاولة حيث يوجد جهاز الهاتف العسكري. وفي لحظة ألقيت عليه نظرة من فوق الكتاب فرأيته قد صالب ذراعيه على سطح الطاولة، ووضع رأسه فوقهما، وأغفا. لم أوقظه. لم أجد مبرراً لذلك. سوف يوقظه الهاتف إن رن. ورجعت إلى كتابي. كان باب البرّاكة مفتوحاً. والطاولة حيث الهاتف تقابل الباب تماماً. وسريري في زاوية البرّاكة البعيدة، من جهة الباب. سمعت، فجأة، صراخ الجندي النائم. وسمعت قبل ذلك حركة لم أستوعب حقيقتها. أزحت الكتاب من أمامي فرأيت مخلوقاً لا يشبه في شيء مخلوقات الله كلها. إنه القطّ البريّ. اقتحم البراكة بسرعة لاشك في أنها تفوق سرعة الضوء. ولعل في سرعته العجيبة تلك مكمن خطورته الفظيعة. أظنه أكثر الحيوانات المفترسة شراسة على الأرض، وأظنه قادراً على قتل عشرين رجلاً في أقل من عشرين ثانية. لم تطل إقامته في البرّاكة إلا خمس ثوان، شب خلالها على السقف، وضرب هذا الجدار وذاك الجدار، وزأر وجعر، وارتمى على الأرض بثبات قبل أن ينطلق مغادراً البراكة بالسرعة المجنونة ذاتها. كان الجندي قد أصيب ببعض البكم من هول المفاجأة. أما أنا فلست أدري لماذا كنت خائفاً على عينيّ. أتذكر جيداً أن خوفي كان ينصب على عيني. إن ذلك الحيوان الفظيع قادر على اقتلاعهما من محجريهما بمجرد مداعبة يسيرة من مخالبه التي تجرح الصخر إن لامسته. فأنا أوافق ذلك العالم رأيه حين قال: لقد ارتكبت الطبيعة خطأ جسيماً لما أوجدت هذا الحيوان على سطح الأرض. نهضتُ من السرير بقفزة واحدة بعد أن انكمشت على نفسي محاولاً أن أحمي عينيّ من مخالب ذلك

الوحش. أخذت البندقية، ورفعت عتلة الأمان، ولقّمتها، وتركتها في وضعية الرمي رشاً، وخرجت من البرّاكة بسرعة مجنونة أيضاً. كنت أخشى على الجنود من أن يفاجئهم القطّ الذي ارتكبت الطبيعة خطأ جسيماً لما أوجدته على سطح الأرض بين مخلوقاتها التي لاشك في أن أكثرها شراسة يبدو في غاية الوداعة أمامه، فأنا أعلم أن الجنود يتركون أبواب البراكات مفتوحة في ليالي الصيف. كان بجانب البراكة التي تخصني، مع ضابط مجند آخر، خيمة لاثنين من الجنود الذين يسمونهم في الجيش: "المراسلون". وفي الحقيقة أن هذه الكلمة مجرد تلطيف لكلمة أخرى هي: (الخدم). لكل ضابط مهما صغرت رتبته مراسل. والأصح: خادم، ومراسلي أنا هو ذلك الجندي الذي أصابته المفاجأة ببعض البكم.. كانت الخيمة مضاءة، والقط البري يسرح في داخلها، ويمرح. وقفت قريباً من الخيمة محاذراً أن أكون في مواجهة مدخلها حتى لا أصير عرضة لهجوم مباغت. كان بمقدوري أن أطلق النار وأصيب ذلك الحيوان، فالإضاءة في داخل الخيمة تكشف لي مواقع تواجده في كل لحظة. غير أني لم أطلق النار، فلم أكن أعلم إن كان في الداخل أحد الجنود أم لا، فهم يترددون أحياناً على خيمة (المراسلين). صرخت: "في حدا جوا"؟. لم أسمع رداً. وعدم الرد لا يعني عدم وجود أحد في المكان. ربما أن جندياً آخر أصيب بالبكم. وهكذا لم يبق أمامي سوى الانتظار. على أية حال، هذا الحيوان لا يحب أن يتواجد طويلاً في أي مطرح يذهب إليه، فما هي إلا لحظة حتى خرج مندفعاً من باب الخيمة بسرعة الضوء ذاتها. عاجلته برشقة (عرفت لاحقاً أنها تسع رصاصات). وأخطأته، لاشك في أن سرعته تفوق سرعة الرصاص. ففي مثل لمح البصر اختفى من التل الذي تنتشر فيه السرية الأولى من كتيبة المدفعية الملحقة على اللواء الذي أدّيت فيه خدمة العلم، حيث وقعت لي الحادثة المحيّرة التي لا أجد لها تفسيراً إلى اليوم.. كنت ضابطاً مناوباً، الساعة شارفت العاشرة. أتمدد على السرير وأقرأ كتاباً باللغة الروسية وصلني حديثاً من موسكو، أرسلته لي ناتاشا مع رسالة طويلة كتبت في نهايتها: "أحب أن تقرأ هذا الكتاب". وهو في علم الجمال عند هيغل. كان يبدو لي كتاباً عادياً. حتى أني لم أفهم لماذا تحب ناتاشا أن اقرأه. وأكثر من هذا، شعرت تلك الليلة بالملل من قراءته في أكثر من مرة. وزاد في مللي أن مرقت بضع كلمات لم أفهم معانيها. كان لابد لي من العودة إلى القاموس. ولعل هذا هو السبب الذي جعلني لا أراه ممتعاً. طويت الكتاب، وقلت في نفسي: أقرأه فيما بعد. نهضت من السرير، وخرجت من البرّاكة بعد أن تركت المراسل بجانب الهاتف. لم أفكر بالابتعاد. مرابض مدافع سريتنا على بعد خمسين أو ستين متراً من البراكة. في قمة التل. وأنا

دون القمة بخمسين أو ستين متراً. قلت: أصعد التل، أتفقد المدافع، وأدردش مع الحرس. كانت ليلة مظلمة. بل شديدة الظلمة. غير أني أعرف الطريق إلى المدافع معرفة ممتازة، وأستطيع الوصول إليها دون أن أتعثر بحفرة أو حجر أو حتى شوكة. لم أكن قد ابتعدت عن البرّاكة أكثر من ثلاثين متراً لمّا اشتعلت السماء بنور مبهر جعلني أغمض عيني من شدة وهجه. نور خاطف لم يدم أكثر من ثانية وبعض ثانية. ثم اختفى.. اختفى تماماً نظرت إلى الآفاق من حولي، وقدّرت أن الجبهة هي مصدر ذلك النور المبهر. وأول ماخطر ببالي أن الحرب قامت رغم أن جميع المؤشرات السياسية لا توحي بشيء من هذا. رحت، من فوري، أركض باتجاه مرابض المدفعية. استوقفني أحد الحراس، وسألني كلمة السر فقلتها له. قال: "أهلين سيدي". قلت على الفور: "برأيك شو هاذا النور"؟. قال: "أي نور سيدي"؟. قلت: "النور اللي عبّا السما". قال: "ماشفت أي نور سيدي". قلت: "معناها كنت نايم". قال: "لا والله ياسيدي". قلت: "كنت نايم أكيد، وهي شغلة مابسامحك عليها". وجعل يقسم بالله والمصطفى على أنه لم يكن نائماً. ولمّا وجدني لا أقتنع كاد أن يحلف باللاة والعزة، بسبب ماعُرف عني من قلة إيماني بالله ورسوله. قلت للجندي: "إسّه ببرهن لك إنك كنت نايم. مين المناوب في المحرس الثاني"؟. قال: "جمال سيدي". ناديت على جمال بملء صوتي، وطلبت إليه الحضور فوراً. جاء مهرولاً. قلت له: "إيش هاذا النور اللي عبا السما؟ من وين برأيك؟ مش من الجبهة"؟. قال: "أي نور سيدي"؟. قلت له: "معناها إنت كمان كنت نايم". قال مبتسماً: "ياسيدي أنا بالفراش مابعرف أنام بكير، فكيف بدك ياني أنام بالمحرس"؟. بدا كل من الجنديين واثقاً بنفسه تمام الثقة، وبدوت أنا مهزوزاً، مشتتاً، وضائعاً، ومن الطبيعي أني ماكنت أحب الظهور في هذه الهيئة أمام جنودي، وسيما أنهم ينظرون إلي باحترام خاص، حتى أنهم يفاخرون بي لأني كاتب فيلم (غابة الذئاب) الذي أصاب نجاحاً كبيراً تلك السنة، حتى أنه كان يعرض في ثلاث صالات بوقت واحد في دمشق (لست أعرف سبب ذلك النجاح. كان فيلماً عادياً).. لقد بدوت مهزوزاً حقاً. غير أني ماكنت سأقبل بأن أكذّب عيني اللتين أغمضتهما من شدة الوهج لمّا اشتعل ذلك النور المبهر الخاطف في أرجاء السماء. سمعت حركة في أسفل التل، فصرخت: "مين اللي تحت"؟. وجاءني صوت من العتمة يقول: "هاذا أنا عدنان سيدي". قلت: "تعال بسرعة ياعدنان". وقلت للحارسين: "إسّه بثبت إلك وإله إنكم كنتم نايمين". جاء عدنان. قلت له: "وين كنت"؟. قال: "والله ياسيدي كنت عم شم هوا". قلت: "من زمان"؟. قال: "من حوالي ساعة". قلت: "إيش شفت من شوي"؟. وبدا أنه لم

يفهم سؤالي. قال: "مافي شي ياسيدي. كل شي عادي". قلت: "ماشفت السما لمعت"؟. قال: "لمعت؟ لأ سيدي. ماشفت أي لمعة". قال جمال: "شايف إنك عم تظلمنا ياسيدي"؟. وقررت اختصار الموقف مع الجنود. قررت أن ألملم نفسي المبعثرة. قلت: "كنت عم أمتحنك إنت وياه لشوف إذا كنتو بتناموا خلال الحراسة ولا لأ". قال جمال: "الله يسامحك ياسيدي". وأظن بأني عرفت كيف أتخلص من المأزق الذي وجدت فيه نفسي أمام الجنود. ودعتهم، وانصرفت من فوري. رحت أهبط التل مسرعاً. رجعت إلى البرّاكة. لا أستطيع أن أكذّب عيني وأصدق عيون الآخرين. دخلت البراكة وطلبت إلى المراسل أن يخرج منها حالاً. جلست إلى الطاولة، ورفعت سماعة الهاتف، ورحت أتصل بضبّاط الصف المناوبين في بقية سرايا الكتيبة. سألتهم عن نور مبهر أضاء السماء بقوة. سألتهم إن كان أحدهم أو أحد الحراس أو أي جندي آخر شاهد ذلك النور. كان الجواب واحداً لا يتغير: "ماشفناش". اللعنة على هؤلاء الأغبياء! ماداموا عاجزين عن رؤية ذلك النور المبهر في طول السماء وعرضها فكيف سيكون في مقدورهم رؤية طائرات العدو وآليات العدو وأفراده إن قامت الحرب من جديد مع ذلك العدو الذي لا يبعد عنا أكثر من ثلاثين كيلو متراً؟! كيف؟! قلت في نفسي: لابد أن الكتائب الأخرى شاهدت ذلك النور حتماً. كانت أقربها إلينا كتيبة صواريخ قصيرة المدى. طلبت من عامل مقسم الهاتف أن يوصلني بالضابط المناوب في تلك الكتيبة. إنه مثلي ضابط مجند. قلت له: "إيش عم تعمل"؟. قال: "عم نلعب شطرنج. تعال العب معانا. أو تعال تفرج". قلت: "يمكن آجي. بس بدي أسألك: شو هاذا النور اللي عبّا السما"؟. قال: "أي نور"؟. قلت: "من حوالي عشر دقائق". قال: "ماشفت شي، ولا حدا من الحرس بلغني بشي. بعدين مافي داعي يبلغوني لأني أصلاً قاعد برا البرّاكة، عم ألعب شطرنج أنا وخليل. تعال العب معانا، أو تعال تفرج". قلت: "يمكن آجي بعد شوي. بس أكيد ماشفت شي"؟. قال: "طبعاً أكيد . إنت شو حكايتك"؟. قلت: "أبداً، ولا شيء. يمكن آجي لعندك بعد شوي". قال: "أهلاً وسهلاً". أعدت سماعة الهاتف إلى مطرحها، وازددت بعثرة وتشتتاً. وكنت أقول، وأكرر القول: مش ممكن، مش ممكن أبداً. رفعت سماعة الهاتف من جديد. سألت عامل المقسم أن يستوضح لي من هو الضابط المناوب في قيادة اللواء. جاءني الجواب سريعاً: الرائد أحمد. قلت لعامل المقسم: "ابعث لي السيارة فوراً". قررت الذهاب إلى الرائد أحمد. لابد من وجود تقرير لديه حول نور مبهر أضاء السماء. جميع المعلومات تصبّ عنده في النهاية. ولابد أن تكون معلومة كهذه قد صارت على مكتبه كتابة، أو شفاهة على

الأقل. ركبت السيارة، وذهبت إلى قيادة اللواء. قال لي الرائد أحمد: "إجيت بوقتك". قلت: "خير"؟. قال: "شو رأيك نروح عالمقصف نتعشى وناخذ لنا كاس عرق"؟. قلت: "هاذا معناه إنه الوضع باللواء مستتب. أقصد طبيعي". قال: "طبعاً مستتب. ليش مايكون مستتب"؟. قلت: "مإجاك تقرير، أي تقرير، حول حادثة غريبة صارت من حوالي نص ساعة"؟. قال: "حادثة زي إيش"؟. قلت: "لا أبداً. مافي شي". قال: "اسمع ياحسن، أو ياملازم حسن. صحيح إنك رجل مثقف وإننا منتعامل معك على هالأساس، لكن هذا مابيسمح لك تخفي عني معلومات مهمة إن كان عندك هيك معلومات". قلت: "مابعرف إن كانت المعلومات اللي عندي مهمة أو لأ". قال: "إنت إحكي، وأنا بقدر هالشي". رويت له حكايتي مع النور المبهر الذي ملأ أطراف السماء. قال: "يارجل! افتكرت عندك شي مهم". قلت: "برأيك هاذا مش مهم"؟. قال: "لأ". قلت: "ليش"؟. قال: "لو حصل هيك أمر كنت أنا دريت فيه. هذا أولاً..". قلت مقاطعاً: "يعني برأيك إنه ماحصل". قال: "أظنك توهمت هالشي وإنت رايح باتجاه المدافع. ثم لو حصل، ماممكن يكون برق"؟. قلت: "السما كثير صافية، ومافي أثر لأي غيمة". قال: "طيب يمكن اليهود عم يعملوا مناورة نواحي جبل الشيخ، من جهة الحدود مع لبنان مثلاً. ويمكن يكونوا استخدموا قنابل مضيئة، مع إني بستبعد فكرة المناورة كلها. كنا درينا فيها حتماً. ومع ذلك بقول يمكن". قلت: "ماعنديش مانع أقبل بهذا التفسير: مناورة عند اليهود. وما عنديش مانع أقبل حتى فكرة البرق. بس عندي سؤال: ليش ماحداش غيري شاف النور اللي أنا شفته"؟!. قال: "ماحدا غيرك شافه لأنه أصلاً غير موجود". قلت: "يعني أنا متوهم"؟. قال: "مافي تفسير ثاني. بعدين شيل هالأفكار من راسك، وروح نشرب كاس، وناكل لقمة". قلت: "مش جوعان. بس باخذ كاس". قال: "الكاس بيخليك تصحى". ركبنا سيارة الرائد، وذهبنا إلى ذلك المقصف الجميل، أو الجميل جداً طلبنا طعاماً وشراباً. وكنت أحاول أن أنسى الحكاية كلها. كنت أقنع نفسي بأن ذلك النور ليس إلا وهماً من الأوهام. وبينما كنا نشرب، قال الرائد أحمد: "اسمع، بلكي هاي ليلة القدر طلعت لك"؟. لكن سرعان ماأردف: "بس بعدنا بأول يوم من رمضان، وليلة القدر مابتجي إلا بآخر الشهر. والله قصتك هاي مش ضابطة ولا من جهة". وراح يقهقه. قلت: "معك حق. مش ضابطة ولا من أي جهة. كاسك"!. قال: "كاسك"!. قرعنا الزجاج بالزجاج، وشربنا. شربنا تلك الليلة أكثر مما كنا نشرب في كل مرة. أوشكنا على السكر كلانا. رجعنا إلى اللواء على الساعة الثانية بعد منتصف الليل. كنت قد نسيت حادثة النور المبهر، أو تناسيتها، أو لعل

الكحول أنستني إياها. نزلت من السيارة قريباً من مدخل كتيبة المدفعية. تمنيت ليلة سعيدة للرائد الذي تمنى لي الشيء نفسه، وتابع طريقه في السيارة التي تترنح من السكر. استوقفني الحارس الذي بباب الكتيبة، وطلب كلمة السر. قلت له: "أنا الملازم حسن". قال: "كلمة السر". ولست أدري كيف صرت عدوانياً فجأة. تقدمت من ذلك الجندي، وشتمته. أتذكر أني قلت له: "إنت حيوان". وتجاوزته، وتابعت طريقي إلى سريتي، إلى برّاكتي، إلى سريري، وارتميت عليه، ونمت. كنت ماأزال في بيجامة الرياضة. استيقظت في الصباح على السابعة. كان رأسي ثقيلاً. كتبت تقريري الروتيني حول المناوبة، وشربت قهوة صنعها لي المراسل على عجل، وارتديت بذلتي العسكرية على عجل أيضاً، ولم أحلق ذقني. رشقت وجهي بالماء. وانصرفت حاملاً إلى قائد الكتيبة تقريري الذي لم أذكر فيه حادثة النور المبهر، ولا ذكرت طبعاً أني سهرت في مكان بعيد، ورجعت إلى الكتيبة شبه سكران. كتبت في التقرير: لا شيء يُذكر. قال لي قائد الكتيبة: "وجهك تعبان ياملازم حسن". قلت: "كنت أقرأ طوال الليل". هزّ رأسه، وابتسم بين مصدق ومكذب، وقال: "أنا عارف ليش مابيعفوا المثقفين من الخدمة"!!. قلت: "فعلاً. ليش"؟. قال: "ارجع لسريتك ملازم حسن". أدّيت التحية، وانصرفت. رجعت إلى السرية. كان رأسي يزداد ثقلاً، فقررت أن أنام. طلبت إلى زميلي - الضابط المجند الآخر في السرية - أن يقوم مقامي في تصريف بعض الأمور، فوافق على طلبي. ذهبت إلى البرّاكة. ونمت قرابة ساعتين، استيقظت بعدها أحسن حالاً. غسلت رأسي بماء كثير، وحلقت ذقني، وأكلت لقمة، وشربت شاياً، وشعرت بعد ذلك كله ببعض الراحة. كنت قد نسيت حادثة النور المبهر، أو تناسيتها. وفي جميع الحالات، اعتبرتها حادثة تافهة لا تستحق أن أهتم بها كل ذلك الاهتمام الذي أبديته بالأمس. حتى أني لمّا تذكرتها في لحظة عابرة،تبسمت ساخراً من نفسي. غير أن الذي لم أستطع نسيانه هو عدوانيتي تجاه جندي يقوم بواجبه. بعثت من ينادي ذلك الجندي. كان اسمه محمد. قلت له: "اسمع يامحمد. ليس مقبولاً أن يعتذر ضابط لجندي. ومع ذلك، فأنا بعتذر". قال: "يشهد الله ياسيدي إني بحبك، ويشهد الله إني كنت حزين لما شفتك بهديك الحالة، وخاصة إننا بأول يوم من شهر رمضان الفضيل. كنت حزين لدرجة إني مافكرت بأنك سبيتني". قلت: "ومع ذلك أنا بعتذر". قال: "زي مابتحب. لكن بتسمح لي أقول كلمة"؟. قلت: "طبعاً". قال: "بتمنى إنك تترك المشروب. حرام ياسيدي. حرام. وخاصة في رمضان". قلت: "إنشالله". قال: "الله يهديك". وأدى التحية، وانصرف. وشعرت بالغيظ من ذلك الدعاء. استوقفته.

قلت: "إستنى. إيش بتقصد بكلمتك هاي"؟. قال: "أي كلمة"؟. قلت: "الله يهديك". قال: "عم أدعي لك ترجع للدين الحنيف. في شي غلط بكلامي"؟. قلت: "لأ. انصرف". ثم لم أفكر بكلمته تلك طويلاً. انشغلت ببعض الشؤون اليومية الروتينية. ولمّا صارت الساعة الثانية وانتهى يوم العمل، ركبت باص الضباط، ورجعت إلى دمشق. وفي الباص فكرت بعدم الذهاب إلى البيت فوراً. أمي تصوم في رمضان. كنت أقيم مع أمي. وأنا لا أحب أن أستبيح مقدساتها. هي تعرف أني لا أصوم، وتدعو الله بعد كل صلاة أن يهديني صراطاً مستقيماً. هي تعتقد بأن ابنها ملحد وكافر. مع أنني في الحقيقة لست كذلك. ولم أكن كذلك في يوم من الأيام. إنني لست مبالياً تجاه الدين. وهذا كل مافي الأمر. ولكنني أراعي مشاعر أمي. لا أشرب الكحول في رمضان. وأقلل، ماأمكنني ذلك، من مظاهر عدم الصيام في حضورها. لماذا أغضبها مادام بمقدوري عدم إغضابها؟ وبخاصة أنها امرأة عجوز، والجنة تحت أقدام الأمهات. ثم إن أمي ضحّت كثيراً من أجلي، ومن أجل أخوتي. ترملت وهي في عز الشباب (٣٣ سنة). لم تتزوج. بل ماخطر لها أن تتزوج. كرّست حياتها من أجل أولادها الأربعة. ولهذا كله أحترم مقدساتها. ولهذا أيضاً لم أذهب ذلك النهار إلى البيت. ذهبت إلى أحد المطاعم. وهناك اكتشفت أني لست جائعاً. واكتشفت كذلك أن بي ضجراً. ثم سرعان ماداهمني إحساس بالأسى. ولم أعد أعرف ماالذي بي تماماً، ولا ماالذي أريده تماماً. خرجت من المطعم، ورحت أمشي في الشوارع. لم أكن أحب المشي في المدينة بلباسي العسكري. وكبر إحساسي، في الشوارع، بالأسى. صار شاملاً. وصار بي حزن عظيم. كم كنت حزيناً ذلك النهار! ذهبت إلى أحد المقاهي، وشربت عدداً من فناجين القهوة، ودخنت عدداً من السجائر. ولمّا أذّن المؤذنون لصلاة المغرب خرجت إلى الشارع من جديد. كانت الطرقات خاوية. إنه وقت الإفطار. الناس في بيوتهم بين أهلهم. وليس في الشوارع إلا أمثالي من المتسكعين الحزانى الذين لا يعرفون حتى أسباب حزنهم. مرت بي سيارة أجرة. لعل سائقها فاطر مثلي. أو لعله ليس مسلماً، استوقفت السيارة، وصعدت إليها. جلست بجانب السائق، ولم أذهب إلى البيت، بل رجعت إلى اللواء. إلى كتيبة المدفعية. إلى السرية الأولى. لم تخطر لي فكرة العودة إلى هناك إلا بعد أن صعدت السيارة. كان ثمة نداء خفيّ يصرخ بي أن أعود إلى تلك التلة حيث مرابض مدافع السرية الأول. إنه الحزن الذي بي يشدني إلى هناك، ويأخذ بيدي إلى ذلك المكان حيث وقعت لي تلك الحادثة غير المفهومة. فوجيء جنود السرية المناوبون بحضوري. فوجئوا بحزني، ورغبتي عن الكلام. تبادلت مع بعضهم

كلمة سريعة أو كلمتين. وصعدت إلى البرّاكة التي تخصني. ولما وصلتها اكتشفت أني أضعت مفتاح القفل. لعلني نسيته في الداخل. تركت القفل وشأنه، فأنا لم أرجع إلى اللواء من أجل الجلوس في البراكة، تربعت على صخرة قريبة تحت النجوم. جعلتُ أنظر إلى الآفاق. رحت أستجدي السماء ذلك النور المبهر من جديد. كان بي إليه حنين فوق طاقتي. ولعل حنيني إلى ذلك النور هو مبعث أحزاني كلها خلال ذلك النهار الذي تظاهرت فيه بأني نسيت حادثة الأمس، أو حتى اعتبرتها تافهة لا تستحق أن أتذكرها. كانت السماء بخيلة. كانت ترفض أن تجود علي بتلك الهبة مرة أخرى. وفجأة، وجدتني أتمتم: "يارب"!. لست أعرف من أجل ماذا ناديت ربي. لعلني كنت أستغيث طالباً النجدة، فقد كنت أغرق في الحزن أكثر وأكثر. كنت أغرق في الأسى من دون ذلك النور. أريد أن أراه من جديد. أراه مرة أخرى. مرة أخيرة. قلبي ينفطر من الشوق إلى ذلك الشيء السماوي الذي لم يره أحد من العباد غيري أنا. ليس ذنبي أنهم عُميٌ. ليس ذنبي. جُد عليّ بتلك الهبة مرة ثانية ياإلهي! اشملني برحمتك ياإلهي فإنني أموت ظمأ إلى نورك البهي.. وخُيل إلي أني مائت. أحسست بأطرافي، وأنا أجلس متربعاً على تلك الصخرة، قد تشنجت، أو حتى تصلبت، وتيبست. صارت مثل خشب عتيق، أو مثل جلد عرّضوه للشمس طويلاً. وشعرت بشيء من دوار في رأسي التي ثقلت بطنين رتيب مزعج. وشعرت بزيغان في عينيّ. أحسست أني أموت فعلاً. حتى الأصوات من حولي جعلت تتلاشى. صارت مجرد همسات خفيضة، بعيدة، عميقة، نائية، كما لو كانت تأتيني من كوكب يدور في فراغ أحد تلك الثقوب السوداء في السماء التي بلا حدود. حاولت أن أنادي أحد جنودنا الذين جعلت أصواتهم تتلاشى، فوجدتني عاجزاً عن النطق. أو أنني لم أكن عاجزاً عن ذلك. لقد ناديت أحدهم باسمه. إنه صاحب أقوى الأصوات التي كانت تتلاشى في أسفل التل. ناديته باسمه. أتذكر اسمه جيداً. أمجد. ناديت أمجد باسمه. لم يسمعني. أنا نفسي لم أسمع صوت نفسي. إنه الرعب يزحف إلى بدني، ويدب في عروقي، ويقتل أنواع الحياة في جميع خلاياي، ويسلبني القدرة على السمع والنطق والبصر والحركة قبل أن يحملني ويقذف بي إلى سرداب أو نفق حلزوني عميق عميق ينتهي في اللانهاية.. لقد فقدت الوعي. فقدت الوعي تماماً.. لم أفق من غيبوبتي إلا وأنا في البرّاكة متمدداً على سريري. ثمة أربعة أو خمسة جنود، واثنان من ضباط الصف. كانوا يقفون في البراكة صامتين، متأملين، منتظرين. وكان يجلس على كرسي بجانب السرير ضابط مجند، هو الضابط المناوب في الكتيبة. اسمه محمود. هو من السرية الثانية. كان أحد الجنود قد

اكتشف وجودي على الأرض مغمياً علي، فاتصلوا بالضابط المناوب، وكسروا قفل باب البراكة، وأدخلوني، ومددوني على السرير، واتصلوا بالإسعاف أيضاً. قال لي محمود: "والله شغلت بالنا يابن خالتي". جميع الناس في المعمورة أبناء خالته إلا اليهود. فهم أبناء عمه. وللحق، لم يكن يستخدم ضمير المفرد المتكلم حين يتحدث عنهم. كان يستخدم ضمير (نا) الدال على الجماعة، فيقول: "أبناء عمنا". من الواضح أنه يتبرأ منهم بصفته الشخصية، فيلجأ إلى ضمير الجماعة.. يبدو أن غيبوبتي دامت أكثر من ساعة. ولمّا استيقظتُ لم أتذكر الأمر جيداً. لم أستوعب ماجرى إلا بعد بعض الوقت. قال لي محمود: "كيف حاسس حالك"؟. قلت: "مش سيء". قال: "أول مرة بتصيبك هالحالة"؟. قلت: "والله يامحمود مابتذكر إنه صابتني قبل هلأ". قال: "أنا برجح إنه انخفاض حاد ومفاجيء بضغط الدم". قلت: "يمكن". ولم أحدثه بشيء من ذلك النور المبهر. لعله كان سوف يسخر مني. كان شاباً صغيراً. كان في الثالثة والعشرين من عمره. أنهى دراسته الجامعية في إحدى الكليات العلمية. شاب يمكن لمن عرفه عن قرب أن يقول بكل ثقة: سوف يصير لهذا الولد شأن كبير في مجال العلوم من قبل أن يبلغ الثلاثين. إنه من أولئك الشباب الذين لا يؤمنون بغير العقل إلهاً، ولا بغير لغة الأرقام لغة صالحة للتداول بين الناس. يؤمن بأن حاصل جمع واحد وواحد اثنان، ثم لا يعترف بعد ذلك بلغة أخرى. كان شاباً ملحداً، علمانياً، مادياً، مفرطاً في ماديته. وأسوأ مافي مثل هؤلاء الشباب ولعهم بالحطّ من شأن الروح التي علمها عند ربي.. "انخفاض حاد ومفاجيء في ضغط الدم". هذا هو أسوأ مافي شبابنا العلمانيين، أو لعله أسوأ مافي الفلسفة المادية قاطبة. كيف يمكن أن يحل (رأس المال) محل (القرآن) أو (الإنجيل)؟! وكيف يمكن أن يحل كارل ماركس محل محمد أو المسيح؟! ومن أجل ماذا نفعل ذلك؟! أية سعادة تنتظرنا من وراء عمل أحمق كهذا العمل؟! حتى أننا لا نستطع قراءة (رأس المال) إلا بشق الأنفس. أما غالبيتنا فإنها لا تستطيع قراءته ولا حتى بشق الأنفس. إذ سرعان ماسوف تشعر تلك الغالبية بالضجر من القيمة وفضل القيمة، وسرعان ماسوف ترمي بهذا الكتاب جانباً أو بعيداً، ثم تروح تبحث عن كتاب آخر لا يتحدث بالأرقام ولا عن الأرقام، بل يروي حكايات قديمة، مفرطة في القدم. حكايات غامضة، بعيدة، آسرة، تشبع فضولنا وغرائزنا التي كانت بدائية، والتي ستظل بدائية حتماً مادام علم الروح عند ربي.. ومحمود واحد من أولئك الشباب الصغار الذين نعتز بأننا أنجبناهم رغم القهر والحروب الكثيرة. نعتز ليس في أننا أنجبناهم فحسب، بل في أننا أنجبناهم أقوياء، أصحاء، متكبرين أو حتى متعجرفين. وكنا سعداء، أيما سعادة، بذكائهم،

وقدرتهم على امتهان مقدساتنا المتوارثة منذ عدنان وقحطان ومحمد بن عبد الله بن عبد المطلب. ونعجب بهم، أيما إعجاب، لأنهم شباب هادئون، واثقون من أنفسهم، واثقون من بهاء طلعتهم، واثقون من ثبات أقدامهم على الأرض، واثقون من كل مايفعلونه.. زارني محمود في بيتي قبل شهر من الآن تقريباً. كان قد مر زمن طويل لم أر فيه ذلك الشاب. وفجأة يدق باب بيتي. لابد وأنه شارف الأربعين من عمره هذه الأيام. بدا بعض الشيب واضحاً في رأسه الذي كان شعره أسود مثل ليل بلا قمر ولا نجوم. قلت له: "وينك يازلمة؟! والله اشتقت لك". قال: "أنا بتابع أخبارك. حتى أني قرأت روايتك". قلت: "أي رواية فيهن"؟. قال: "الفلسطيني". قلت: "إنشالله عجبتك"؟. قال: "بصراحة ماعجبتني. عم أقول رأيي بصراحة حتى لو بدك تزعل". قلت: "مش رايح أزعل. بس ياريت أعرف شو اللي ماعجبك فيها"؟. قال: "اللي ماعجبني فيها هذا الهجوم الفظيع على الدين والقرآن". قلت: "ماعندي هجوم على الدين والقرآن لا في هذه الرواية ولا في غيرها. صحيح إني مش متدين، بس في المقابل مابهاجم الدين. قضيت عمري محايد تجاه هذه المسألة". قال: "مبلى. في هجوم عالدين والقرآن. هجوم فظيع".. ماذا أقول في محمود؟ هل أقول رجع الابن الضال إلى جادة الصواب بعدما يئس خلال بحثه الطويل المضني في المادية من العثور على أجوبة شافية عن أسئلة تقلق روحه التي علمها عند ربي؟ ماذا أقول؟ لست أعرف. أم تراه اكتشف في لحظة من اللحظات أن حاصل جمع واحد وواحد ليس اثنين بالضرورة؟ ربما كان الحاصل واحداً. وربما كان ثلاثة، أو حتى أربعة.. قال أحد الجنود متذمراً: "تأخر الإسعاف". نهض محمود إلى جهاز الهاتف، وطلب من عامل المقسم أن يوصله بالنقطة الطبية في اللواء. كان الطبيب المناوب ضابطاً مجنداً مثلنا. ولكنه ليس من دفعتنا. قال له محمود: "وبعدين معاك يادكتور"؟!. لا أعرف بماذا أجاب الطبيب المناوب على سؤال محمود المتذمر، والذي انفجر على نحو غير متوقع. راح يشتم ذلك الطبيب. قال له: "يلعن أبوك وأبو اللي أعطاك شهادة الطب". ثم رفع من وتيرة الشتائم. استخدم كلمات بذيئة جداً وهو يستشيط من الغضب. وكان محقاً في غضبه ذلك دون شك، رغم أني لم أسمع ماقاله الطبيب. كان محقاً لأنه ضابط مناوب تقع على عاتقه مسؤولية كل حادثة، مهما كانت صغيرة، في حدود كتيبته. وهنالك سبب آخر يجعل ذلك الشاب محقاً في غضبه هو أن القائمين على الخدمات الطبية في اللواء كانوا محل شكوى الجميع بسبب تقصيرهم الدائم في أداء واجبهم. حتى أن أي ضابط مناوب في أية كتيبة يتمنى ألا تقع حادثة خلال مناوبته تستوجب احتكاكه بالنقطة الطبية، فكل ضابط منا يعلم أن

النقطة الطبية سوف تخذله حتماً. لقد كانت تلك النقطة أسوأ شيء في اللواء الذي أديت فيه خدمة العلم.. اتصل محمود من فوره بالضابط المناوب في قيادة اللواء. رتبته رائد. واسمه حسن. شكا له تقصير الطبيب المناوب في أداء واجبه، وطلب إليه أن يتدخل في الأمر وإلا فإنه قد يقوم بعمل لن تكون عواقبه حميدة. وما مرّت ربع ساعة حتى جاء الرائد حسن بصحبة الطبيب المناوب. فحصني الطبيب. ضغط الدم طبيعي. نبض القلب طبيعي. قال محمود: "شوهاي الحالة إذن"؟. وكان في نبرة صوته استفزاز. قال الطبيب: "أحياناً بتصير شغلات ماإلها تفسير". قال محمود: "مافي ظاهرة إلا وإلها تفسير علمي". وبدا على الطبيب أنه لا يريد الدخول في مماحكة من أي نوع مع الملازم الغاضب، فقال: "قصدت ماإلها تفسير عندي أنا". قال محمود: "إذن، كيف أعطوك شهادة تسمح لك بعلاج الناس"؟!. وقال الرائد حسن: "شوهاد إنت وياه، كما لو إني ماإلي وجود هون"؟!. وقلت لمحمود: "خلصنا يامحمود من هالسيرة". والتفتُّ إلى الطبيب، وقلت له: "على كل حال، شكراً يادكتور". وقال لي الرائد حسن: "روح معي نلعب شطرنج". قلت: "بفضل أنام. حاسس برغبة إني بدي أنام". احترم الآخرون رغبتي، وانصرفوا. وفي الحقيقة أنني لم أكن راغباً في النوم. ونمت رغم ذلك. غير أني سرعان ماأفقت من نومي. رأيت حلماً. أفقت من النوم أو من الحلم وأنا أشعر بنفسي رقيقة، شديدة النقاء، رغم كونها عميقة الغور. كنت أشعر بتوق لا حدود له إلى كل ماهو طاهر وعفيف. وتملكتني نوبة من حنين إلى أشعار الحلاج والسهروردي وابن الفارض، وبقية الصوفيين العرب. ولم تأخذني الدهشة من هذا الحنين الذي ماعهدته في نفسي من قبل أبداً. علاقتي بالشعر طيبة منذ الطفولة. وشاعري المفضل هو المتنبي. أما تلك الليلة! هاهي حياتي تتشقلب على حين غرّة. وهأنذا أتشوف إلى الذين طالما رغبت عن لقائهم سراً أو علانية. ولم أعتبر هذا التشوف غريباً عن لحظتي مذ رأيت ذلك النور المبهر في السماء. فليس هذا التشوف إلا تعبيراً فاضحاً عن حاجتي إلى البراءة. ولما اصطدمت يدي عرضاً بالكتاب الذي تحب ناتاشا أن أقرأه، أحسست بعبء العلاقة مع تلك الشابة الشقراء. وأكثر من هذا: أحسست أن العلاقة ذاتها عمل دنيء، ومليء بالآثام.. كم كانت حاجتي إلى البراءة كبيرة تلك الليلة! ولكن هل كانت تلك الحاجة طلاقاً مع القائل: (والمستعزُّ بما لديه الأحمق)؟. وهل أستطيع طلاقاً مع الرجل الذي ملأ الدنيا وشغل الناس؟ ومرقت الحيرة في ثنايا رأسي، وشوشت عليّ انتظام أفكاري. وبدا لي في لحظة أني لا أستطيع مع المتنبي طلاقاً لأني، في القرارة من نفسي، بعيد عن ابن الفارض والحلاج والسهروردي وابن عربي و(الحب الإلهي).

وبدا لي أن الحنين الذي انتابني إليهم قبل قليل لا يعدو أن يكون سوى نزوة عابرة، فأنا رجل لا أليق بالسماء لأني مغروس في وحل الأرض. وحطّت على قلبي غمامة من حزن ثقيل. وشعرت بأني مدفوع إلى الصلاة دفعاً. ولما لم أكن أعرف كيف يصلي الناس ذهبت إلى أحد مهاجع الجنود. فوجئوا بي أقف بالباب. نهضوا. قلت من دون مقدمات: "إن كان بينكم من يعرف الصلاة فليعلمني". وقال أحدهم: "هذه أمرها بسيط سيدي". قلت: "ومن دون كلمة سيدي ياخليل". أصيب الجنود بالدهشة من هذا التغير الحاد في سلوك الضابط المثقف الذي اشتهر بعدم إيمانه.. لقد هداني الله. رجعت إلى الدين الحنيف. استجاب الله لدعاء ذلك الجندي الذي كنت عدوانياً تجاهه.. وقضيت الليل بطوله أصلي. لقد لجأت إلى الله تلك الليلة، كما لجأت إليه وأنا في العاشرة من عمري لما كنت أنتظر على الدرج عودة أخي الذي خشيت أن مكروهاً قد وقع له فمنعه من العودة إلى البيت، أو من العودة إلى أخيه الصغير الخائف البردان.. ماإن رآني أخي حتى قال من بين أسنانه: "يلعن دينك". وما إن قال ذلك حتى انهال عليّ ضرباً. وتلك كانت المرة الأولى التي يضربني فيها أخي. والمرة الأخيرة أيضاً. المسكين! قضى الليل يبحث عني. أو قضوا الليل يبحثون عني. لم يتركوا مكاناً في المدينة. وضعوا جميع الاحتمالات. حرثوا المدينة بالطول والعرض. كانوا قد جاؤوا إلى أخي يسألونه عني. كان في غرفته يحضّر للامتحان الذي في الصباح. فقد الولد عقله. قابيل أين أخوك؟ خاف من أن يصير بلا أحد أخوته، وإلى الأبد. جاؤوه في المساء. لو تأخروا في المجيء إليه قليلاً لوجدوني عنده. لكن هكذا تمشي الأمور أحياناً. ضربني أخي بقسوة. وما قسوته عليّ في ذلك الصباح إلا دليل على الخوف، والخوف حتى الموت، من أن يكون قد أضاعني إلى الأبد. كنت بين يديه، وهو يضربني،، مثل عصفور صغير بين يدي ولد يعشق تعذيب العصافير. سال الدم من أكثر من مكان في وجهي. سال الدم من شحمة أذني اليمنى بوجه خاص. سال الدم غزيراً إلى حد ما. ارتطمت مؤخرة رأسي بالأرض بقوة، وشعرت بشيء من دوخة في نتيجة ذلك الارتطام. كنت أبكي بصمت. وكان أخي لا ينطق بكلمة إلا من بين أسنانه: "يلعن دين الساعة اللي شفتك فيها. يلعن دين أبوي اللي خلّفك". وكنت أستجديه أحياناً أن يكف عن ضربي... "منشان الله خيّا". وكنت أقول أيضاً: "إيدي. إيدي انكسرت". ويقول من بين أسنانه: "بدي أموتك. بدي أخلّص عليك". ولم ينقذني من بين يديه إلا الجيران الذين جاؤوا على الضجة. أخذني أحد الجيران إليه. وكم أشفقت علي زوجته! قالت وهي ترى إلى حالي البائسة: "ولي على قامتي!" - تعبير شامي لا

أعرف كيف أترجمه لك. إنه دلالة على الأسى ـ أخذتني المرأة تغسل جروحي، وتهدئني. لم أكن أكف عن النشيج. لكنه نشيج مكتوم. قالت المرأة: "هادا واحد مجرم". لاشك في انها تقصد أخي. وقالت: "والله لازم نجيب له الشرطة". كان النهار قد طلع تماماً. أخذتني المرأة إلى غرفة لعلها الوحيدة في بيتهم، وضعتني في فراش على الأرض، وقالت: "نام تقبرني". وأطعت المرأة التي بدت لي في غاية الطيبة. حتى أني وجدتها أكثر طيبة من عمتي. تمددت في الفراش، ولم أنم. بقيت أنشج وأنتحب بصوت مكتوم. دقّ أخي باب الجيران. جاء يريدني. يريد استعادة أخيه. رفضت المرأة ذلك. وحرّضت زوجها ضد أخي الذي بدا عليه في لحظة أنه على استعداد لخوض حرب ضد العالم كله من أجل أن يستعيدني. كان قد هدأ بعد أن أخذوني منه. ولابد أنه شعر بالندم. ولعله شعر بالخوف من أن يكون قد أنزل بي أذى في نتيجة ذلك الضرب المبرّح. كان يريد أن يتأكد من حالي قبل أن يذهب إلى الامتحان. أظنه ماكان سيذهب إلى الامتحان في ذلك اليوم قبل أن يستعيدني، فأنا بالنسبة إليه أهم من جميع الامتحانات وجميع الشهادات. قال أخي للرجل الذي رفض أن يعيدني بتحريض من زوجته: "إنت مش أحن مني على أخوي". قالت المرأة الواقفة في مكان غير ظاهر لأخي: "لو كنت حنون عليه متل مابتقول ماكنت عملت فيه اللي عملته". قال أخي: "يابتعطوني ياه يابفوت باخده بالقوة". قال الرجل: "والله ماتعتب البيت لأكسر رجلك". قال أخي: "أقسم بالله مستعد أرتكب جريمة". وأنا أسمع الحوار كله. وأخشى من وقوع شجار بين أخي وجيرانه. وأشتاق إلى أخي أيضاً. نهضت من الفراش، واحتذيت، وذهبت إلى الباب حيث يقف أخي الذي هدأ سريعاً لما رآني. أحاط رقبتي بذراعه، وانصرفنا نصعد الدرج تحت أنظار الجيران الذين لابد أن تكون الدهشة قد أخذتهم من سلوكي غير المتوقع. قال لي أخي: "إسّه إنت بتنام. وأنا رايح عالفحص. مابتطلع من هون أبداً. حتى لو أجت عمتك مابتطلع. بتظل تستناني. أنا بطولش. بخلص الامتحان وبرجع لك دغري". تمددت في الفراش. وانصرف أخي إلى الامتحان يعاني تعباً ونعاساً شديدين. ومن حسن الحظ أن مادة ذلك اليوم هي اللغة الانجليزية التي يعرفها، ومنذ ذلك الوقت، على نحو طيب. لم أنم بعد خروج أخي. بدأت أشعر بأوجاع الضرب. وبدأت أشعر بوجع فظيع في أحشائي، لعلّ البرد هو السبب. أو لعله البرد والضرب معاً. شعرت بأن أحشائي تتقطع بفعل عشرات أو مئات شفرات الحلاقة التي يحملها كل منا في بطنه. كنت أموت من شدة الألم وأنا أنتظر عودة أخي الذي وفّى بوعده ورجع إلى البيت سريعاً. لعله أجاب عن الأسئلة من فوره، ثم لم يدقق في صحة الأجوبة وقدم

ورقة الامتحان إلى الشخص المسؤول، وخرج من القاعة والمدرسة، وقفل عائداً بسرعة البرق إلى العصفور الصغير الذي نتف له ريشه حتى جعله يرتجف من الحمّى. لكنه اشترى في طريق العودة طعاماً يقدمه للعصفور رشوة بعدما كاد الندم أن يقتله لأنه نتف له ريشه واحدة واحدة. جاء يحمل بعض (العوامة) ـ نوع من الحلويات الشعبية زهيدة الثمن. جاء يقدم لي تلك الحلويات التي سرعان ماكتشف أنها رشوة سخيفة لا تفي بغرض التكفير عن ذنبه. كنت أرتجف من الحمى. وكنت أتقيأ مافي بطني التي ماعادت أوجاعها محتملة، فالشفرات لا تتوقف عن الحركة، وتفرم أمعائي فرماً. قال لي: "مالك خيّا"؟. قلت: "بطني. بطني كثير بيوجعني". قال: "والله بحياتي ماعدت أضربك. والله لأكسر إيدي قبل ماأمدها عليك". وبقيت أقول له: "بطني خيّا. منشان الله بطني". وسرعان ماخرج من البيت. وسرعان مارجع إلى البيت. جاءني يحمل علبه دواء غلافها بلون الحشيش في الربيع. لا أتذكر اسم ذلك الدواء، ولكني أتذكر أن تلك العلبة الحشيشية هي أول علبة دواء أمتلكها في حياتي. أعطاني أخي حبتين منها، وقال لي: "إسّه بترتاح". وقال لي أيضاً: "لازم نروح لعند عمتك. بتكون ماتت من خوفها عليك".. وقالت عمتي لما رأتني: "والله لأذبح خاروف". وقالت لما رأت ماحل بي: "مين اللي عمل فيك هيك؟ يوسف"؟. وجعلت تبكي وأنا في حضنها مثل عصفور نتفوا ريشه حقاً. قال أخي: "بس ينام بيطيب. جبت له دوا مليح. الصيدلي قال إنه هاذا أحسن دوا". وأخرج علبة الدواء من جيبه، وقدمها لعمتي التي لم تكن تراه من شدة الغيظ والحزن والألم، ففتح إحدى كفّي المطبقتين على رقبة عمتي، ووضع فيها علبة الدواء، وهمس لي: "إسّه بترتاح". وهمس أيضاً: "برجع لك المسا". لعله لم يكن قادراً على البقاء معي وأنا الشاهد على ذنبه الذي لا يستطيع أن يغفره لنفسه. أو لعله لم يكن قادراً على مواجهة عمتي. ثم إنه كان يغالب النعاس والتعب. كان لديه أسباب كثيرة تجعله يفضل الهروب من المكان، فانسل بهدوء، وخرج. وأطبق الباب خلفه بهدوء أيضاً. كنت قد ارتحت قليلاً بفضل جرعة الدواء التي أعطاني إياها أخي. لكن ماإن مرت ساعتان أو ثلاث حتى عاودتني الأوجاع في بطني، وعلى نحو أقوى من السابق، بحيث لم يعد يفيدني لا نوم ولا دواء ولا أي شيء آخر.. لما عاد زوج عمتي إلى البيت من شغله، ورآني على تلك الحال، لم يخلع ثيابه أو حذاءه، بل ترك البيت فوراً. رجع بعد بعض الوقت بصحبة طبيب يعرفه. فحصني الطبيب. قال: "مافي شي بيخوف"، ووصف لي ثلاثة أنواع من الأدوية اشتراها زوج عمتي من صيدلية في الحي. شعرت بكثير من الراحة في بطني بعد الجرعة الاولى. وبعد الجرعة الثانية

توقفت شفرات الحلاقة عن عملها تماماً. ولكني بقيت أعاني أياماً عدة من آثار الضرب الذي تعرضت له. كان أولاد عمتي وبناتها يشفقون علي في تلك الأيام. وربما كانوا معجبين بي أيضاً. لعلهم كانوا يتساءلون فيما بينهم: "إيش هالولد اللي مامنه غير المشاكل"؟!. قرأت شيئاً من هذا في نظراتهم إلي، وفي تعاملهم معي. قال لي زوج عمتي: "بس تطيب أنا اللي بدي آخدك مشوار. معي مابتضيع. إيش رايك"؟. قالت عمتي: "لأ، ماعدش يطلع من البيت". قال زوج عمتي: "أنا وحسن رجال. ولما الرجال بتحكي النسوان بتسكت". قال ذلك الكلام مازحاً. لكن عمتي تعرف زوجها، فابتسمت، وقالت: "إذا أخوي وجوزي متفقين علي أمري لله. روحوا مشوار".. ولما صرت وإياها على انفراد قلت لها: "إذا بدكيش إني أروح مشوار مش رايح أروح". قالت: "لأ ياخوي روح. أنا بدي ياك تغير جو. بس بديش تضيع زي المرة الماضية". قلت: "والله ياعمتي أنا ماكنتش ناوي أضيع. كنت بدي أخلي يوسف يفرح بي لما يشوفني قدامه بالبيت، وبعدين هو كان بيرجعني لعندك". قالت: "الله يسامحه يوسف. كيف طاوعه قلبه يضربك"!. وقالت: "بتعرف إنه أبوي - واستدركت - أبوي الحقيقي. مش أخوك. أبوي كمان اسمه يوسف. مش هيك"؟. قلت: "آه. جدي يوسف". قالت: "أيوه. جدك. بتعرف إنه مرة ضربني زي ماضربك يوسف وأقسى"؟. قلت: "ليش؟! إيش كنت عاملة حتى ضربك"؟. قالت وهي تبتسم لذكرى أبيها: "والله ياعيني ماكنت عاملة إشي يستاهل. جدك الله يرحمه كان صعب. أنا ياقلبي كنت يومها ولد. كان عمري تناشر سنة. شافني بالطريق ألعب وما كنتش حاطّة غطا على راسي، قام إنجن، ونزل فيّ ضرب. كان يضربني ويقوللي: بتورجي شعرك الأشقر للناس يابنت الكلب! والله لأقص لك شعرك وألعن أبوك على أبو أمك". قلت: "وقصّ لك شعرك"؟. قالت: "آه والله ياعيني قصّه. قصّه ورماه بالزبالة". ولم تتوقف عمتي لحظة عن الابتسام، حتى أنها كانت تضحك أحياناً. كانت ذكرياتها عن أبيها الذي رحل باكراً حلوة عذبة، حتى تلك المُرّة منها لما قص لها شعرها الأشقر الذي يشبه شعر أمها.. "كان قاسي جدك الله يرحمه. بس كان زلمة حقيقي. كل البلد بتحلف بحياته. كان زلمة كريم. والخير من حواليه ينعف نعف. خير كثير. ياالله قديش كان عنا خير بفلسطين!! ماهن اليهود أولاد الحرام عرفوا إيش يوخدوا. أي والله الفرس اللي كانت عند أبوي مافي زيها لا عند الإنكليز ولا عند الألمان. وشو كان هيبة جدك!! لما تشوفه راكب عالفرس!! مرات كان يركبني وراه.. ويطير".. قلت: "ماكنتيش تخافي"؟. قالت: "والله ماكنتش أخاف. والله مع أبوي ماكنتش أخاف. كان جدك زلمة. زلمة حقيقي.

عليم الله ماكان في حدا على شكله بين كل الرجال. بس ياحوينته راح شب زي ماأبوك راح شب. أبوي وأبوك راحوا شباب، والأرض أخذوها اليهود. وصرنا لاجئين. ومابقي لنا إشي ياعمتي ياحبيبي. ماتركوا لنا إشي. والله هيك حرام". ساحت دموعها على خديها، واحتضنتني. احتضنتني بقوة كمن يخاف علي من الموت أنا أيضاً. ولست أدري لماذا كان لديها ذلك الخوف. حتى أني كنت قد تعافيت إلى حد كبير في ذلك اليوم الذي حدثتني فيه عن أبيها وعن شعرها الأشقر الذي قصّه. وهو ذات اليوم الذي ظهر فيه أخي يوسف من جديد. كنت غاضباً منه كثيراً. ليس لأنه ضربني. لا. تلك الحادثة مرت وانتهت.. كنت غاضباً منه لأنه لم يرجع إلي في المساء كما وعدني قبل أن ينسل خارجاً من البيت بهدوء بعد أن وضع في إحدى كفي علبة الدواء الذي تبين أنه ليس للأطفال أصلاً. وأخي يعرف ذنبه. يعرف حقيقة ذنبه، وأسباب غضبي منه، ورغبتي عن التحدث إليه. أخذ يبرر لي الأمر. قال: "والله خيّا كنت مشغول بالفحوص. وخاصة مادة اللغة العربية. هون بالشام كثير بيصعبوا أسئلة اللغة العربية. بيعتبروها أهم مادة. وعلاماتها أكثر علامات. كان لازم أستعد لها مليح. بس إنشا لله مشي الحال. أظن إني جاوبت عن كل الأسئلة. جاوبت مليح". وقال أيضاً: "إذا بتظل قالب وجهك أنا بدي أمشي". ونهض متظاهراً بالانصراف. وارتميت عليه، وقلت: "لأ، لا تمشي". وعانقته، وغفرت له ذنوبه. قال لي: "تعال أوخذك مشوار". قالت له عمتي: "ماعدتش أعطيك ياه". قلت: "منشان الله عمتي تخليني أروح مع يوسف". قالت لي عمتي: "والله مافي إشي بيفرحني زي مابفرح لما بشوفك مع أخوك". والتفتت إلى يوسف وقالت له: "بتوعدني إنك ماعدتش تضربه لأخوك"؟. قال: "معقول هالحكي ياعمتي؟ غلطت مرة وضربته. أصلاً ضربته من قهري وخوفي عليه". وخرجتُ من البيت ويدي في يد أخي. أخذني إلى المدينة. وفي الطريق قال لي: "إسّه بدي أحكي لك السبب الحقيقي اللي ماخلنيش أرجع لعندك غير اليوم. أنا خيّا بحبش أظل رايح جاي لعند الناس". قلت: "بس جوز عمتي مافي منه. زلمة كثير طيب". قال: "والله إنه زلمة طيب وكريم، وما عندي إشي ضده، بس أنا هيك عقلي، مابحبش أظل رايح جاي لعند الناس. يابتقبلني زي ماأنا، ياتعال نبطل نصير أخوة". قلت: "كيف يعني نبطل نصير أخوة"؟. قال: "إيش بيعرفني؟ خلص. منبطل. مابتعود أخوي ولا بعود أخوك". قلت: "لأ. بديش". قال: "إذن، بدك تقبلني على عقلي". قلت: "آه، بقبلك". قال: "عفارم عليك. وقال: "إيش جاي ع بالك"؟. قلت: "جاي ع بالي أروح لهذاك الجبل". قال: "هذا الجبل اسمه قاسيون". قلت: "بتعرف الطريق

لهناك"؟. قال: "أكيد في باص أو ترمواي. ماخطر ليش أروح لهناك قبل هاللحظة. تعال نسأل". وسألنا. وركبنا باصاً أقلّنا إلى آخر نقطة من حي المهاجرين في الجهة الغربية الشمالية من دمشق. لم تكن تلك النقطة عالية كثيراً. غير أنها تسمح، مع ذلك، برؤية المدينة في لقطة عامة جداً. المدينة والغابة العملاقة التي تحيط بها. هل تذكرين ذلك المكان؟ وهل تذكرين جلستنا هناك في أولى أماسينا؟ اشترى أخي كيساً صغيراً من الترمس بخمسة قروش. وجلسنا على الأرض متجاورين، وجعلنا نتفرج على المدينة السابحة في بحر من الأوكسجين الذي تطرحه تلك الغابة العملاقة التي يسمونها الغوطة. قلت: "الشام حلوة". قال: "بتعرف ليش اسمها الشام"؟. قلت: "لأ". قال: "لأنها متميزة عن كل أرض العرب. لأنها زي شامة عالخد. زي واحة بالصحرا". ثم شرد بعد ذلك. قلت له وأنا آكل الترمس وأنظر إلى شروده: "مالك"؟. قال: "بتعرف بإيش عم أفكر"؟. قلت: "بإيش"؟. قال: "بفكر إننا نترك لبنان ونيجي نعيش هون". قلت: "بيسمحوا لنا عالحدود"؟. قال: "بشوية واسطة بيسمحوا". قلت: "إيش يعني واسطة"؟. قال: "يتدخل حدا بالموضوع". قلت: "حدا زي مين"؟. قال: "والله مافي غير خالي أبو جاسر". قلت: "صحيح، وينه خالي؟ والله يمكن ماشفته من يوم ماتوفى أبوي". قال: "خالك بيكون مسافر. بيروح لحوران والسويدا وحمص وحلب واللاذقية". قلت: "إيش بيساوي"؟. قال: "بتسمع بحزب البعث"؟. قلت: "لأ". قال: "خالك بعثي. يعني بيشتغل بالسياسة. ولا تسألنيش عن معنى السياسة، لأني مش رايح أعرف أجاوبك. هاي لعبة بيلعبوها الكبار. المهم خالك مسافر، وبس يرجع بدي أحكي معه منشان يساعدنا ننتقل كلنا لهون عالشام". قلت: "وبلكي أمي مارضيتش"؟. قال: "لازم ترضى. إيش إلنا بلبنان؟ إلنا غير قبر أبوي"؟. قلت: "يمكن". قال: "مالناش غير قبر أبوي. إحنا هناك لاجئين، وهون لاجئين. ماهو الفلسطيني لاجيء حتى لو راح عالمريخ. فليش أمك ماتوافق؟! لازم توافق. لأنه مش معقول نظل هيك مشردين كل واحد بديرة. أنا هون وإنتو هناك. هاي مش عيشة. هيك مش رايح أعرف أكمل دراستي. على طول بيظل بالي مشغول عليكو. لازم تنتقل العيلة كلها عالشام". قلت: "أنا بحب الشام".. وبعد سنة من ذلك اليوم الذي صرحت فيه بحبي للشام التي يسمونها دمشق أيضاً، رجعت إليها من جديد. رجعت مع الأسرة كلها. وأقمت فيها إلى اليوم.. وآه كم رجعت إلى (هنا)! آه كم رجعت!!

٥

رجع إلى بيته بعد غياب دام عاماً أو حول عام. كان مشتاقاً لليلى. وكان يؤمن بوجودها، رغم الموت، في انتظاره. الأنوار كلها مطفأة، وتلك هي الصدمة الأولى. أدار المفتاح في قفل الباب. ودخل. أشعل النور في الصالون بيد مرتجفة، فأنيرت أمامه الأيام الخوالي، وبانت له حلوة رغم مافيها من غش ومرارة. أما الآن! لاشيء سوى الغياب، فالموتى لا يرجعون إلى بيوتهم في المساء. استند بظهره إلى الحائط القريب بعد أن شمله إحساس عارم بالندم. كان إحساساً ثقيلاً لدرجة أنه كاد يترنح تحت وطأته. لم يعد لليلى وجود في الحياة. هذه حقيقة أكيدة. أكيدة وقاسية إلى حد الرعب، أو إلى حد الموت الذي جاء يبتغيه. أغمض عينيه عن النهاية التي باتت وشيكة، والتمع في رأسه وميض من تردد، وأشاح بوجهه احتجاجاً على تردده المفاجيء، واحتجاجاً على التفاهة القديمة التي كانت الحدث المنطلق في مجمل الدرامة العاصفة التي سحقته بوحشيتها. غمغم بكلمات لم تسمعها أذناه، بل إنه لم يكن يدري مايريد من وراء تلك الغمغمة، أو من وراء تلك التكشيرة التي علت وجهه، والتي ليس لها من هدف في واقع الحال، غير القسوة على الذات. كان الوقت ثقيلاً عليه. وكان يأتيه من غرفة النوم صوت تكتكة الساعة بارداً وجافاً مثل جفاف حلقه. النهاية تقترب. ومتعة الموت في انتظاره. وفي انتظاره أيضاً الخلاص من بؤس وجوده، أو من وجوده البائس. الخلاص من المعاناة، والخنوع، واللهاث خلف آمال واهية بسعادة لا وجود لها على الأرض. فلماذا جفاف الحلق إذن؟ ولماذا الخوف مادام في طريقه إلى النجاة من الغضب وبلبلة الأفكار ونوبات التمرد والهستريا واستحالة استقرار العواطف الهائجة؟! استدار فجأة حول نفسه بحيث صار وجهه للحائط. وهناك أراح رأسه المتعبة، وشكّ في قدرته على الموت، وأيقن بأن قرار الانتحار الذي اتخذه يوم أمس، بعد أن علم بموت ليلى، ليس نهائياً. وحمل إليه هذا اليقين بعض السكينة، حتى أنه قال يحدث نفسه: "عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم". ولم يكن يعرف، على نحو دقيق، الشيء المقصود من الخير. أهو الموت؟ أم أنه خواء الروح، والحزن، وفرط الحساسية، وتأرجح العواطف؟ ترك مكانه وذهب إلى غرفة النوم خائفاً. كان يخشى اللقاء بأشياء ليلى. تكتكة ساعة الحائط

الكبيرة في غرفة النوم تكسر الصمت من حوله برتابة تبعث على القشعريرة. "من أين جاءت هذه الساعة"؟. وقف بباب الغرفة وجعل يستمع إلى وقع خطوات الزمن. أشعل النور في المكان، ونظر إلى الساعة. كان على يقين بأنه لم يرها إلا صباح ذلك اليوم بعد أن رجع من التحقيق في فرع الأمن "وليلى أنكرت معرفتها بالأمر في حينه". وعصفت به نوبة من تسامح. وتمنى لو ظلت المرأة الشابة في الحياة. إذن، كان سيغفر لها. كان سيغفر لها جميع خطاياها.. "تراها كيف تبدو الآن في التراب"؟. نظر إليها فوجدها هادئة في هذه الصورة وتلك الصورة. كانت تطلّ عليه من أكثر من مكان: من على الحائط فوق السرير، ومن طرفيه أيضاً فوق هذه الكومدينو وتلك، ومن أمام مرآة زينتها الكبيرة، أربع صور ملونة مختلفة المقاسات في إطارات ناعمة من معدن خفيف. اقترب من إحدى تلك الصور، وجعل يتأملها: وجه متكبر تعلوه ثقة بالنفس مطلقة، يتوسطه ثغر باسم يكشف عن أسنان بيضاء مرصوفة بعناية إلى جانب بعضها بعضاً، ومن حول الثغر شفتان تميل السفلى منهما إلى الاكتناز وتضيق العليا بحيث تعطي للوجه جمالاً آخر يؤكد الإحساس بالتعالي، وفوق الشفة الضيقة أنف صغير ودقيق، ثم عينان بنيّتان واسعتان يُشع منهما بريق دائم من شدة صفائهما بحيث يشعر الناظر إليهما بأنه ينظر إلى مرآة نقية نظيفة تماماً، وفوق العينين حاجبان أسودان طويلان ينحنيان في خبث باتجاه الوجنتين، وجبهة ضيقة مملوءة بالتحدي، وشعر أسود مجعد يؤكد بعض إهماله التحدي الذي في جبهة المرأة الحسناء، وفي عينيها وقلبها وروحها الهائجة، رغم الهدوء الظاهر في بشرة وجهها الملساء.. تأمل الصورة طويلاً، وتبسّم من الأسى. مرر إصبعه على الزجاج فترك أثراً نظيفاً في الغبار العالق عليه.. "كم عمر هذه الصورة"؟. لم يتذكر لها عمراً. ربما تم التقاطها قبل ثلاث سنوات. الوقت يمضي. يعبر. ولا يبقى غير الوحدة. وليس من عزاء. وليس إلى الرضا من سبيل. لم يبق إلا الندم، فقد فات أوان كل شيء آخر. فات أوان الماضي لما كان في مقدوره بعد أن يضرب صفحاً عن الماضي.. كان يحلو له الادّعاء بأن ليس في مقدوره أن يغفر أو يتصالح مع العار والغدر والغش، فسقط ضحية الانفعالات المزمنة، والوحشة، والعزف المنفرد على أوتار اليأس والخيانة. وهاهو الآن يسقط ضحية الندم. خطا إلى خزانة الملابس. فتح بابها الأيسر، ومدّ يده إلى الرف العلوي فقبضت كفه على كتلة من معدن ثقيل. "هذا هو"، قال متنهداً، وسحب المسدس من تحت كومة ثياب شتوية مطوية بعناية. نظر إلى المعدن الصامت، وتذكر لحظة حيازته أول مرة. وتذكر وداد، وبيروت، والحرب، والحصار. وتذكر عاره القديم الذي طالما خبأه في طيات قلبه بعد أن عجز

عن إخراجه من ذلك القلب. وعضّ على شفته من الندم، ومن الإحساس بالخزي. حسناً! لن يكون خزي بعد اليوم. بعد الليلة. بعد اللحظة. بعد هذه اللحظة. ترك غرفة النوم، وانصرف إلى غرفة المكتبة. إلى المكتبة ذاتها. إلى أحد أدراجها. إلى مكمن الأسرار. كان مفتاح الدرج في مكانه المعتاد. خلف النسخة الثانية من ديوان (المتنبي).. فتح الدرج، ومدّ يده إلى العمق فوق مجموعة من الأوراق الخاصة. اصطدمت أصابعه بعدد من القطع المعدنية الصغيرة الملساء. "تكفيني واحدة"، قال في نفسه، والتقط اثنتين منها بين أصابعه، ولم يلق عليها نظرة. جلس على أحد الديوانين، وألقى برأسه إلى المسند، وأغمض عينيه، وأحس ببرودة الرصاصتين في كفه. ثم زحفت البرودة إلى أعضاء بدنه كلها، فارتجف. إنها الهاوية تفتح أبوابها، وتترقب القادمين إليها دونما رجعة. أخذ نفساً عميقاً، وقرر عدم التفكير في الأمر على نحو عقلاني، فليس للعقل دور في هذه المسائل. إنه إلحاح العواطف، ولعنة الماضي، واليأس المطبق، والنداءات الخفية إلى النهاية الرائعة. فتح عينيه وراح يلقّم المسدس. ويتمتم: "ماحاجتي إلى الرصاصة الثانية"؟. ومع ذلك، وضعها فوق أختها في المخزن. أعاد المخزن إلى قبضة المسدس، وسحب الأقسام المتحركة إلى وراء فارتدّت إلى أمام على نحو آلي. وأصبحت إحدى الرصاصتين جاهزة في حجرة الانفجار. هاهو كل شيء جاهز تماماً. إلى أين يوجه فوهة المسدس؟! إلى القلب أم إلى الدماغ؟ كلاهما كان عليه متآمراً بنفس الدرجة. واستقر رأيه على تفتيت الدماغ. هكذا يكون الوضع أفضل. وتكون النتيجة مضمونة، وحقيقية، وفعّالة.. وصلتُ مطار دمشق على الساعة الثامنة من مساء يوم ٢١ أكتوبر. كنت على شيء من تجدد ونشاط. أتذكر أني كنت مشتاقاً لوجدان. أتذكر أني كنت مشتاقاً على نحو مجنون، إلى (الغفران). وأتذكر أني كنت مشتاقاً لعبد اللطيف أيضاً!. اتصلت به من المطار. هاتفه لا يستجيب لمحاولتي بالاتصال. كانت شبكة الهاتف في دمشق عموماً سيئة العام الفائت. وصلت بيتي على التاسعة والنصف. وضعت حقيبة السفر في غرفة النوم، وذهبت من فوري إلى غرفة المكتبة. مفتاح الدرج خلف النسخة الثانية من ديوان (المتنبي). استخرجت أوراق (الغفران) من مخبئها، وجلست إلى الطاولة أكتب حتى من دون أن أبدّل ثيابي.. رجع إلى بيته بعد غياب دام عاماً أو حول عام. كان مشتاقاً لليلى. وكان يؤمن بوجودها، رغم الموت، في انتظاره.. لقد أعجبني المشهد.. قررت أن أجعله فاتحة الرواية. لعله ليس مؤثراً تماماً. غير أنه بداية يمكن اعتبارها طيبة. لم أكتبه تحت أي إحساس بالتشاؤم. كان في رأسي بعض الصداع، وهذا كل شيء. حتى أن مزاجي في ذلك المساء كان رائقاً. لكني مع ذلك تركت

المشهد ناقصاً. قلت: أعود إليه في وقت آخر. ربما رجعت إليه في الخاتمة. وقلت: ليس من الضروري أن يطلق الرجل على رأسه رصاصة أو رصاصتين. سوف أتريث، وأنظر كيف تكون الضرورة لاحقاً، فلربما ظهر شيء جديد "في غبار العمل" - (بلزاك)، وقَلبَ الموازين. ربما كنت في غير ماحاجة إلى أن أجعل ليلى تموت، وهو الأمر الذي يدفع بعمر إلى قتل نفسه. أتركها بداية معلقة، ومفتوحة على كل الاحتمالات. ورحت أكتب باتجاه آخر. لم تكن تصوراتي حول بنية الرواية جاهزة، ولذا كنت أتخبط في عملية السرد. وبقيت أتخبط شهراً آخر بعد عودتي من موسكو. لم يكن في رأسي حتى تلك الليلة غير ألم الفراق مع وجدان، وحب الكتابة عن هذه التجربة المُرّة التي يسمونها الطلاق. وكانت تستبد بي أيضاً، ولست أدري لماذا، رغبة كبيرة في الكتابة عن بيروت التي أحس بالخشوع أمامها. أحببت أن أكتب عن هذه المدينة التي كدت أفقد عقلي لما كانوا يدمرونها في صيف عام ١٩٨٢ ، والتي عملت المحال من أجل الوصول إليها رغم الحصار العسكري المضروب من حولها براً وبحراً وجواً. حاولت أن أدخل إليها برفقة بعض المقاتلين، وضعنا في الجبال الشاهقات. وحاولت. أن أدخلها مع الموسيقار اليوناني (تيودوراكيس)، لكنهم منعوني من مرافقته. قمت بمحاولات عدة. ونجحت أخيراً. دخلت بيروت، وعشت فيها عشرة أيام قبل أن يغادرها المقاتلون بناء على الاتفاق الذي تم التوصل إليه برعاية الولايات المتحدة وفرنسا وإيطاليا. غادرت بيروت مع آخر دفعة من المقاتلين: القسم الثاني من اللواء المدرع السوري (٨٥). كتبت عن بيروت على نحو أظنه طيباً في رواية (الغفران)، رغم أني بتّ لا أرى أفقاً قريباً لنشر هذه الرواية. أظنني سأعيد كتابتها، وقد أغيّر عنوانها أيضاً. لست أدري كيف سأتصرف لاحقاً بهذا الشأن، فأنا لا أفكر به الآن، إذ ليس يشغل الآن بالي إلا رسالتي هذه إليك. فإليك ماجرى.. قالت لي وجدان بعد قراءة المخطوط: "جميع من يعرفنا، ومعارفنا كُثر، سوف يقولون: هذه وجدان، وهذا حسن. وأنت تظلمني كثيراً ياحسن". أعتقد بأن أكثر ما أزعج وجدان هو الوصف الذي أقدمه لليلى، وبقلم ليلى نفسها، حين تروي بعضاً من ذكرياتها الزوجية.. وبدا لي صوته شفيفاً رغم انكساره. وشأن الانكسار في صوته شأن الاستحياء في نظرته. كل منهما ينبع من عين واحدة، وينساق في مجرىً واحد، ويصب في بحيرة واحدة اسمها وداد التي أحبها عمر كما لم يحب قيس أو جميل أو بقية الشعراء العذريين العرب، مع أن حبه لم يكن عذرياً لتلك المرأة التي منعته ذكرياته معها من حبي زمناً طويلاً، فكانت هذه المرأة أحد أسباب تعاستي التي سوف تأتي. وما أكثر تلك الأسباب! وما أتفه تلك

الأسباب! كان في مقدوري أن أتجاوزها بطريقة من الطرق، ولكني بدلاً من تجاوزها رحت أغرق فيها نفسي. "لقد غرقت في التفاهة بسببك". هذا ماسيقوله لي بعد تسع سنوات على الزواج. وأظنه كان محقاً. نعم لقد أغرقته في التفاهة. وأغرقت نفسي. والتفاهة كانت قدري. ثم صارت قدرنا. وكل شيء ابتدأ من قبل البداية. ابتدأ بي أنا. كنت طفلة. طفلة تعشق الكذب. مايعنيني هو الظاهر. وليس من شيء سوى الظاهر. أحب أن يمتدحني الآخرون. أحب أن يمتدحوا جمالي، وأناقتي، وماكياجي، وثيابي. وأتظاهر بالترفع عن هذا. أتظاهر فحسب. وهكذا أكذب مرتين. أسعى وراء سماع المديح من هذا وذاك، وهذه وتلك. أسمع. وأستمع. وأتظاهر بالترفع. ولا أزجر أحداً. ولا أقوم بخطوة من شأنها أن تضع حداً لأحد، فسمحت بذلك لبعضهم بالتمادي. ومرة ثانية لم أكن حازمة، فأصبحت في بؤرة الضوء، وفي مركز القيل والقال. كثرت من حولي الشائعات الخبيثة، فصرت عشيقة فلان، وعشيقة علّان أيضاً.. "زوجها متحرر، ولا يهمه أن تخونه". صرت خائنة، وصرت عشيقة لأكثر من عشرين رجلاً يمكن تسميتهم فرداً فرداً. وكان بين هؤلاء العشرين اثنان من اصدقاء عمر. وللأسف، يمكن وضع اسمي ذينك الصديقين في القائمة فعلاً، فقد راودني كل منهما عن نفسي، كما راودني كثيرون غيرهما. ولم أصارح عمر بالأمر. ولا أظن بأني سوف أصارحه بذلك في يوم من الأيام (حتى لو رجعت إليّ يا عمر، فلن أذكر لك اسمي صديقيك. وبالمناسبة، أنا أعرف أنك لست معتقلاً. أعرف أنك حر طليق، وأنك تهرب مني، فإلى متى؟ إلى متى يا عمر؟ إلى متى أستطيع احتمال غيابك؟ هل فكرت في هذ؟ هل فكرت في أني قد أموت في أي لحظة؟!).. لم أكن اهتم للشائعات. يكفيني أني لا أخون زوجي الذي بدوره لا يعير تلك الشائعات اهتماماً خاصاً، مع أنه كان يرمقني بين حين وحين بنظرة متأملة مليئة بالعتاب. كان كمن يسألني بنظراته تلك: "إلى أي مستنقع تجرينني"؟. وكنت كمن يقول له: "إلى مستنقع التفاهة"، ثم يهز رأسه، ويقول: "حسناً، لدي عمل، فإلى العمل". لكن، وفي الوقت نفسه، كان يغيظني أنه لا يعير تلك الشائعات اهتماماً، ويغيظني أنه لا يبالي، ولا يسألني حين أتأخر في العودة إلى البيت: "أين كنتِ إلى الآن"؟، أو: "مع من كنتِ إلى الآن"؟. يغيظني أنه لا يسأل، ولو سأل لأخذ بما أقول على أنه أمر صحيح تماماً. ألا يخاف علي؟ ألا يغار علي؟ أم تراني عديمة القيمة في نظره؟ وحتى لو كنت كذلك، فهل يصل به الأمر إلى حد اللا مبالاة؟! كنت أتمنى لو يمسك بي من كتفيّ ذات مساء ويهزني بعنف، ويضربني، أو حتى يشتمني، ويستجوبني!! صارت تقتلني لا مبالاته. صارت تدفع بي دفعاً إلى

التعاسة، فاللامبالاة خير دليل على انعدام الحب. متى سيحبني إذن؟ وهل سيحبني في نهاية الأمر؟ بتّ أشكّ في هذا. ثم صرت لا أطمع فيه، ولا أطمح إليه. بات الحب أملاً مفقوداً، فماذا بعد؟ ماذا بعد سوى مزيد من التفاهة التي صرت أغرق فيها يوماً بعد يوم؟. رحت أغرق فيها مع سبق الإصرار، وبتلذذ في بعض الأحيان، فلم يبق لي غير التفاهة بعد ما أدركت بأني مطحونة بين شقيّ الرحى: لا مبالاة عمر، والفراغ الذي يحيط بي من كل جانب. كنت أشفق أحياناً على نفسي من هذا المصير الذي آليت إليه، وكنت أشفق على عمر أيضاً. وكنت أتساءل: "ما هذه الحياة الزوجية"!. حتى المحادثة بيننا صارت قليلة. وهكذا جعل كلٌّ منا يغترب عن الآخر من يوم إلى يوم، ويبتعد عن الآخر من يوم إلى يوم. هو لا يحب الخروج من البيت إلا قليلاً. وكان له في ذلك حجته طبعاً: "الكتابة". أما أنا فلست أحب البقاء في البيت الذي لم أعد أرى فيه إلا سجناً، أو فندقاً. وهذا في أحسن الأحوال. ثم هل يمكن أن نسمي غرفة صغيرة وتوابعها الصغيرة بيتاً؟ صحيح أن للغرفة شكل البيت الملحق. صحيح أنّ لها باباً، وأن للباب مفتاحاً. لكن من الثابت أن المكان غير مريح، فالمسافة ضيقة، وزوّارنا كثر، وليس من مكان لضيف، ولا مسافة لعين، إذ لا بد للبصر أن يتكسر على جدار قريب. لم تكن حياتنا الزوجية تنطوي على شيء كثير من المنطق، وبخاصة قبل أن يتحسن وضعنا المالي وننتقل إلى بيتنا الجديد. وإن كان المنطق غائباً، والعوطف متأرجحة، فماذا يبقى إذن؟ ماذا يبقى سوى التفاهة؟ أنا لا أفهم شيئاً. لا افهم نفسي، ولا أفهم عمر. إنه ليس رجلاً غبياً، وقلبه ليس من حجر، ومع ذلك يتركني أستجره إلى المستنقع دون أن يأتي بأية حركة، مهما كنت صغيرة، تكبح اندفاعي باتجاه ذلك المستنقع، أو تجعلني أبطئ السير إليه على الأقل. فقط، لو يكلمني، ولو يفتح لي قلبه، ولو يتركني أفتح له قلبي! كان هادئ المنظر. دائماً هادئ المنظر. يصعب استثارته. يصعب عطف أفكاره التي تتوالد كما البعوض. يصعب ثنيه عن تلك الأفكار. كنت أنظر إليه متأملة في بعض الأحيان، وأتساءل: "بماذا تراه يفكر في هذه اللحظة"؟. وكان يؤلمني أنه لا يبوح لي بشيء من أفكاره. "تراه لا يثق بي"؟. كنت أتساءل. وأجيب: "لعلّه على حق، فأنا لست بالشخص الذي يمكن أن يأتمنه الآخرون على أسرارهم". ولكن هل يوجد أسرار أصلاً؟ أم أنه يكرهني ولا يطيق محادثتي؟ وهل ذلك كله بسبب وداد؟ لا أجوبة عندي عن هذه التساؤلات. كنت أعاني أوقاتاً عصيبة معه. وكان من شأن ذلك أن يهدّ من عزيمتي، ويدمر صحتي، لولا أني رحت أمشي بخطى سريعة على الطريق إلى المستنقع. وكان في ذلك الطريق خلاصي، ولهذا سرت عليه راضية، واحتفظت بصحتي ورشاقتي.

فلماذا أقحم عليه نفسي وهو في حالة مستمرة من التفكير العميق؟! لماذا؟ ومن أجل أي شيء؟ أمن أجل الحفاظ على العلاقة الزوجية؟ وماذا بقي منها؟ يا إلهي! حتى الطفل صار أملاً ضائعاً. لم أكن أريد أطفالاً في البداية. قلت له قبل الزواج: "لست أريد أطفالاً على وجه السرعة. أريد أن أعيش. وهذا رجاء". لم يعلق على رجائي في شيء، فرحت أتشبث بكلماتي: "أريد أن أعيش. أما الأطفال.. يمكننا أن ننتظر بعض الوقت. ألا يمكننا ذلك"؟. "لك ما تريدين"، قال بصوت خفيض وهو ينظر إليّ بثبات. كان كمن يهمس لي: "أعرف أنك أنانية". كنت أفهم مغزى كلامه ونظرته، ولم أكن أبالي، فافترقت شفتاي طواعية عن ابتسامة سرور ورضا. لا يهمني كيف يفكر بي، ولا كيف ينظر إلي. المهم أن أحقق مرادي، وأن أعيش. ومن السابق لأوانه التفكير بالأطفال، وبالأحرى إنجابهم، وهو الأمر الذي اكتشفنا، بالمصادفة، أنه محال بعد سنتين من الزواج ابتلعتُ خلالهما (عبثاً) كمية كبيرة من حبوب منع الحمل.مرضت مرة، كما غالبية النساء، بل كما جميع النساء، فعدت أحد الأطباء المختصين بالأمراض النسائية. وصف لي بعد المعاينة أدوية تحسنت بعدها بعض الوقت. ثم عاودني المرض، فرجعت إلى الطبيب ذاته. قال لي بعد الفحص: "هل يمكن أن تصحبي زوجك إلى هنا"؟. قلت: "سأعرض عليه الأمر". عرضت الأمر على زوجي، فلم يمانع. ذهبنا إلى الطبيب الذي قال لعمر: "ربما كنت أنت السبب في عودة المرض إلى زوجتك، فهل تسمح بإجراء هذه التحاليل"؟. وأجرى عمر التحاليل الموصوفة، ورجعنا إلى الطبيب. سأله عمر: "هل أعاني من التهابات يا دكتور"؟. "لا. ـ قال الطبيب ـ ولكني أخشى أنك تعاني ما هو أسوأ من الالتهابات". "وما الذي يمكن أن يكون أسوأ من الالتهابات"؟. "أخشى أن تكون عقيماً". ولم يبدُ على عمر أية ردة فعل، كما لو أنه لم يفاجأ بالأمر من أساسه. كنت أتمنى أن أرى على وجهه ولو شبه تقطيبة تلك اللحظة. ولكن لا شيء من هذا. حتى أني رأيت على وجهه طيف ابتسامة. فهل كان الخبر مفاجئاً، لكنه مفرح؟ أم أنه لم يكن مفاجئاً له بالأصل؟ طرحت عليه هذا السؤال بعد شهرين تقريباً من تلك اللحظة. كان الوقت مساء. وكنا في غرفتنا التي على السطح. انتفض، وقبض على يدي بشدّة وراح يهمهم: "يمكنك أن تعتبريني أي شيء، إلا أن تصفيني بالكاذب المخادع، فلو كنت أعلم أني عاجز عن إنجاب الأطفال، لأخبرتك الأمر من قبل الزواج. ثم كيف لي أن أعلم بذلك؟ كيف"؟!. قلت من دون استثارة تؤذي رجولته: "ولكنك عرفت نساء قبلي. أليس كذلك"؟. قال: "نعم، عرفت بعض النساء". قلت: "ألم تحمل منك إحداهن"؟. "لست أدري. ولست أعرف كيف كنّ يتصرفن. ربما كنّ

يتناولن هذه الحبوب، أو.. لست أدري"، قال بخشونة، فقلت في لين: "هلاّ تركت يدي لو سمحت؟ إنك تؤلمني". ورجع يهمهم: "إن كنت تريدين أطفالاً، اذهبي إلى سواي. ثمة ملايين الرجال في هذا البلد قادرة على.. تفو.. حسناً، أنا لست قادراً على الإنجاب. وهذا أمر لا يحزنني، ولا يؤلمني، بل ربما كان يفرحني. نعم، ربما كان يفرحني أنني لا أشبه هذه الملايين القادرة على جعل النساء.. - ورجع يبصق على الأرض ويغمغم - إن كنت تريدين أطفالاً فاذهبي إلى سواي من الرجال. ولكن ليس قبل الطلاق". لقد هزّته كلماتي بعنف، فلم يتخلص من تاثيرها سريعاً، بل إنه قد ازداد تألماً. قال: "أنا لست رجلاً. أنا مسخٌ من المسوخ. هل يرضيك هذا الاعتراف؟ وإن كان عدم القدرة على الإنجاب عاراً، فإن عاراً صغيراً إضافياً لن يقدم ولن يؤخر، إذ ليس في القائمة ما هو دون المسوخ". لم أكن أعرف بطبيعة الحال أن سؤالي العابر سيخلق لديه مثل هذه الثورة من الغضب. ثم عن أي عارٍ يتحدث؟ وعن أية مسوخ؟ لقد كان رجلاً مثقفاً، بعيداً عن النفاق والتعصب، وفجأة يصف نفسه بالمسخ الذي يجلّله العار. عن أي عار يتحدث؟ لم أفهم شيئاً من الأمر في حينه، فلم أكن أعرف بعد بقصته مع بيروت. عندئذ فقط لمست العار الذي يسكنه، والألم الذي يحتل كل قطعة من روحه وبدنه. أما في ذلك المساء، عندما شبّه نفسه بالمسوخ لم يكن من السهل عليّ تفسير حالته المفاجئة، فقد بدا عليه الاشمئزاز، وارتمى على السرير، وقال وهو لا ينظر إلي: "حسناً، ماذا تريدين؟ ما الذي تريدينه الآن يا ليلى"؟. لم يكن لدي ما أقوله في الرد على سؤاله. فقد بدا لي واضحاً أن سؤالي كسر شموخه وكبرياءه، وأثار فيه من النوازع ما جعله شخصاً مسكيناً، مهشّماً، مثل حطام سفينة ارتطمت بالصخور في وقت الإعصار. نظرت إليه ملياً وهو على تلك الحال، وكنت أتمنى لو أستطيع الدخول إلى قلبه، وإلى رأسه، كي أعرف الأفكار والأحاسيس التي تعصف به وتسحقه سحقاً إلى أن تجعله ضحية عاجزة مستسلمة للوساوس والندم. اقتربت منه، وجلست على طرف السرير، وهمست له: "لماذا أنت منفعل هكذا؟ ربما كان الأمر كله من حسن حظنا. فأنا كما تعلم لست راغبة في إنجاب الأطفال". كان في كلامي احتجاج مبطن على انكساره، فلم يكن من الهيّن عليّ أن أراه منكسراً. "لا أريد أولاداً"، هذا ما رجعت أهمس له به. قال بعد أن هدأ قليلاً: "حسناً يا ليلى سوف أبدأ العلاج. سوف أذهب غداً إلى العيادة التي وصفها لنا طبيبك". "لا أريد أولاداً". "تكذبين يا ليلى". "بل إنني أقول الحقيقة". وربما كانت تلك هي الحقيقة فعلاً. لكنها سرعان ما صارت حقيقة مؤقتة، ثم سرعان ما صارت أكثر الحقائق مرارة في حياتنا الزوجية. فما الذي تمخضت عنه تلك الحقيقة في نهاية

الأمر؟ أقلعتُ عن تناول الحبوب التي لم يعد لتعاطيها ما يبرره. وبحت بالسر، بعد حين، إلى أقرب صديقاتي. وهذه بدورها باحت به إلى صديقة ثانية، والثانية إلى ثالثة، والثالثة إلى رابع، والرابع إلى تاسع، وكثرت الهمهمات في اتجاهي. بل في اتجاهنا نحن الاثنين. ولم يعد عمر عقيماً فحسب، وإنما صار "عاجزاً جنسياً". "وهذا ما يبرر لزوجته أن تخونه. وهذا ما يجبره على أن يسكت عن خيانتها له". وهكذا صرت في نظرهم امرأة جميلة مباحة، وليس أكثر من ذلك. ومرة ثانية، لم أفعل شيئاً لوقف هذا الهجوم الظالم اللا أخلاقي علينا نحن الاثنين. لم أعاقب صديقتي التي باحت بالسر. بل كافأتها. وطدت علاقتي بها. صرت أكثر من رفقتها، وأبوح لها بكل أسراري الزوجية. وربما كانت هي تستجرني إلى البوح بأوجاعي مبدية نحوي التعاطف، ومسدية إليّ النصائح المختلفة. وكنت أصدق تعاطفها، وأستمع إلى نصائحها، وأنفذ بعضاً منها على الفور، فكنت بذلك أدمر علاقتي بعمر تدميراً. فرحت أجره خلفي إلى ذلك المستنقع من التفاهة، بعد أن صارت حياتي قاحلة تماماً. وعندما حاولت أن أشيح برأسي بعيداً، وأنظر إلى مستقبلي بشيء من الأناة، اكتشفت أنني لا أطيق صبراً على التفكير الجديّ في أشياء حياتي المختلفة، وخشيت أن أصبح امرأة محطمة بفعل تناقضها الذي لا خلاص لها منه.. لقد دارت المطحنة، وصار من الصعب إيقاف حجريها الثقيلين، فكانت النتيجة بيدراً من الضعف واليأس والشك والعار والتفاهة. وكان لا بدّ لي في النهاية من مواجهته بالحقيقة. كان لا بدّ أن اقول له: "أنا لست سعيدة معك".. كتبتُ كثيراً خلال ليلتي الأولى في البيت بعد موسكو. لكني لم أكن راضياً إلا عن ذلك المشهد الذي لم أستكمل كتابته، والذي وجدت فيه بداية طيبة للرواية رغم أنه ليس مؤثراً تماماً. أما الذكريات الزوجية كما تقصّها ليلى (والتي عرضتُ منها مقطعاً صغيراً للتو)، فإنها لم تكن خطرت على بالي بعد. كان عليّ أن أتخبط شهراً آخر من قبل أن تتوصح معالم هيكل الرواية العظمى. حتى اللغة لم تكن تطيعني تلك الليلة. كنت أكتب إنشاءً يفتقر إلى الجملة المفيدة. وليس ثمة ما يقتلني في الأدب، كما الإنشاء. وأعتقد الآن بأن سبب إخفاقي في كتابة شيء ما جميل تلك الليلة إنما يعود إلى الاندفاع والحماس للكتابة. هكذا تجري الأمور دائماً. أقصد هكذا تجري الأمور معي أنا. ولست أعرف كيف الأمر مع غيري من الكتّاب. إن أفضل ما كتبته في حياتي - من وجهة نظري أنا طبعاً - إنما كتبته وأنا في غير ما عجلة من أمري، ودون فرط في الحماس للكتابة. وأخشى أن تكون هذه "الرسالة" إليك أسوأ ما كتبت، أو ما قد أكتب مستقبلاً. أشعر بأني على عجلة من أمري تماماً. أشعر بأني في حاجة

ماسّة إلى البوح إليك بذائقة الحياة. فإليك يا فاطمة ما قد جرى. عزوت إخفاقي تلك الليلة بكتابة شيء مهم إلى بعض الصداع في رأسي مذ كنت في الفندق بعد. ولعل مردّ ذلك الصداع إلى أني راحل أخيراً، فأنا أكره الرحيل. فتشت في صيدلية البيت عن دواء للصداع. لم أعثر على حبة باراسيتامول واحدة. ثمة أكثر من دواء للصداع هناك، لكن الأسبرين يدخل في تركيبة تلك الأدوية. ومعدتي لا تتحمل الأسبرين. ماذا أفعل! فكرت في أن أشرب بعض الكحول. والكحول تعني بالضرورة، التوقف عن الشغل تماماً. كأس واحدة تعطلني عن الشغل. تصوري ذلك. قلت حسناً، أستحّم، أشرب وأنام، وقلت: أشتغل في يوم آخر. استحمّيت، ولم اشرب لأني لم أجد ما أشربه. حتى أني فوجئت بالأمر. لم أجد إلا زجاجة شمبانيا كنت قد اشتريتها بناء على رغبة وجدان. ووجدان لا تشرب الكحول إلا نادراً. ربما شربت خلال فترة الزواج كلها مرتين أو ثلاثاً فقط. قلت لها: "ما حاجتك إلى الشمبانيا"؟. قالت: "سوف يكون لنا يوم أو ليلة، نشرب فيها هذه الزجاجة معاً". كنا قد أشهرنا الطلاق منذ حوالي أسبوعين. قلت: "هل تظنين ذلك"؟. قالت: "يجب أن تكون على ثقة عمياء من أني سوف أستعيدك ذات يوم يا حسن. وعندئذ سنشرب هذه الزجاجة". ما زلت أحتفظ بزجاجة الشمبانيا تلك إلى اليوم. من أجل أي شيء أحتفظ بها؟ هل من أجل أن أشربها مع وجدان لما تستعيدني؟ أم من أجل أن أشربها مع وجدان لمّا أستعيدها أنا؟ وهل أفكر في أمر كهذا؟ أكذب لو قلت إن هذا الأمر لم يخطر ببالي. ورغم ذلك، أفكر في استهلاك زجاجة الشمبانيا في ليلة رأس السنة التي ما زالت بعيدة إلى حد ما.. هذه المناسبة لا تعني لي شيئاً خاصاً. ليلة مثل بقية الليالي. لكني، فيما يبدو، سوف أسهر هذه المرّة. أصرّت لاريسا اليوم على أن أقضي رأس السنة برفقتهم. حاولت ذلك معي العام الفائت. واعتذرتُ. اليوم قالت لي: "سوف نخاصمك أنا وعبد اللطيف وماريا. سوف نخاصمك إن كنت لا تلبي دعوتنا هذه المرّة". زرتهم في المساء. كان نهاري اليوم طويلاً. خرجت من البيت في التاسعة صباحاً. ذهبت إلى المؤسسة. لم تغمض لي عين الليلة الفائتة. كنت أشتغل. كنت أكتب إليك. لا أعرف لماذا أنا على عجلة من أمري في إنجاز هذه الرسالة. هل أخشى الموت فجأة؟ ربما كنت كذلك. لم ألملم أوراقي في الصباح. تركتها منثورة على الطاولة. ارتديت ثيابي، وخرجت. ذهبت إلى المؤسسة.. "تعال واشهد". حسناً، سوف أدلي بشهادتي للمرة الألف، في أي شيء أعرفه ، وفي كل شيء أعرفه، سوف أدلي بشهادتي حول الوضع الثقافي برمته: الحالة مزرية ومعيبة. قالوا: "نريد شهادتك حول الثقافة السينمائية فقط". سوف أدلي بشهادتي حول الثقافة

السينمائية. سأعمل على توصيف المشهد السينمائي. سأقول الحق ولا شيء غير الحق. فأنا على الوضع من الشاهدين. عشرون سنة وأنا أساهم بفعالية في اتخاذ القرار السينمائي. ولن أتهرب اليوم من الشهادة بل إنني لن أتهرب من المسؤولية. عشرون سنة ساهمت خلالها في صنع جميع الإخفاقات التي أصابتها الثقافة السينمائية في البلد. إني أعترف. ولكن مهلاً يا شباب! لا تنسوا أيضاً أني ساهمت في جميع النجاحات خلال هذه المدّة. لا تسجلوا ذلك. لا تدونوه. لست أطلب شيئاً كهذا. لست أطلب أكثر من أن تتذكروا الأمر فقط. أخفق رئيس الجلسة في السيطرة على الاجتماع. قال لي المجتمعون: "نرجو أن تقبل بإدارة هذا المجلس". حسناً يا شباب.. لن أسمح بالتعرض إلى أية أمور شخصية كما حاول بعضنا أن يفعل في الاجتماع السابق. لا أتحدث إليكم الآن بصفتي رئيساً للجلسة. طز. بل أتحدث إليكم بصفتي الشخصية. أمنع التطرق إلى خصوصيات أحد، وبخاصة الغائبين عن هذا الاجتماع، وبخاصة أكثر: الإدارة. تعالوا نحاول توصيف المشهد السينمائي من جديد: الحالة مزرية ومعيبة. دائماً الحالة مزرية ومعيبة.. قال لي بعضنا: "أنت لست ديمقراطياً". طز بالديمقراطية. نحن المثقفين العرب أكثر فاشية من موسوليني. كلنا أحاديو الرؤية. جميعنا أحاديو النظرة. كلنا وجميعنا بلا استثناء. لو أترك لكم الحبل على الغارب فإن هذه الجلسة لن تنتهي قبل تسع سنوات من اللحظة يا أولاد الحرام، ولست أستثني نفسي منكم. كان رأسي يتفجر بعد أربع ساعات من محاولة توصيف المشهد السينمائي الراهن في سوريا، ومن محاولة السيطرة على الفوضى السائدة. تلاسن محمد مع سمير. وتلاسن سمير مع أسامة. وانطوانيت مع ماهر وعبد اللطيف (الذي حرص على حضور الاجتماع رغم أنه يخدم في الجيش). وكاد أحدهم أن يتلاسن مع ريمون. عن أية ديمقراطية تتحدثون يا أولاد الحرام؟! وشعرت بأن رأسي يتفجر.. "رأسي يتفجر يا ديانا". "سلامة رأسك يا أستاذ حسن". قضيت معها اليوم وقتاً طيباً. قضيت اليوم وقتاً طيباً مع ديانا الحلوة كالملاك. تناولنا طعام الغداء في مطعم تحب هي أن ترتاده. لست أدري لماذا قلت لها: "اختاري أنت المطعم الذي تفضلين". ذكرت لي اسم ذلك المكان. إنه قريب من فندق الميريديان. لم أذهب إلى مطعم بصحبة بنت منذ زمن بعيد إلى حد ما. كم بدت اليوم طفلة هذه البنت! طفلة يانعة، غضّة، مرحة، تزقزق مثل عصافير البساتين في الصباح. كنت فرحاً بها، وكنت قد قلت في نفسي: يلعن أبو الناس! فالناس تحب أن تثرثر في جميع الحالات. حدثتني أثناء الطعام عن دروسها، وعن عزمها على التخرج هذه السنة من الجامعة حتماً. وسألتني فجأة عن زوجتي. قلت: "تقصدين طليقتي".

قالت: "نعم. أقصد زوجتك السابقة". هي لا تعرف وجدان، ولا تعرف حتى اسمها. قلت: "أظنها في وضع حسن عموماً. تشتغل الآن في مهنة طالما أحبتها: تصميم الأزياء النسائية. وأظنها سوف تصيب نجاحاً في هذا المجال". وقلت أيضاً: "ربما كانت مقدمة على زواج قريب. ربما. لا أعرف يا ديانا، فأنا لم أرها منذ مدّة طالت قليلاً". وقالت لي ديانا الحلوة كالملاك: "سألوني عنك منذ مدّة. سألني عنك بعض الناس. قالوا: بماذا يذكّرك الأستاذ حسن؟ قلت: يذكّرني بلون السماء في فصل الصيف". قلت: "لماذا هذا اللون بالذات"؟. قالت: "لا أعرف. هكذا أراك". كنا قد التقينا في المؤسسة. جاءت لتعرف رأيي بالقصة التي أعطتني إياها قبل أكثر من شهر. لامتني على تأخري في الاتصال بها. حدثتها عن الوجع في رقبتي. قالت: "يا حرام"!. وصار لديها سبب آخر تلومني عليه. كيف لا أتصل بها ما دمت مريضاً؟! ذهبنا إلى المطعم. تناولنا وجبة الغداء. خرجنا، وتسكعنا قليلاً في الشوارع. استوقفني إعلان في الطريق: صورة ضوئية كبيرة لمدينة دمشق. شيء من الدعاية لندوة أو مجموعة ندوات حول تاريخ دمشق تشترك فيها عدة جهات رسمية مثل وزارة السياحة واتحاد الكتاب. قالت ديانا: "هل أعجبتك الصورة"؟. قلت: "فيها شيء خاص". وقلت: "أين كان يقف المصور لحظة التقط هذه الصورة؟ كيف تظنين أنت"؟. قالت: "في نقطة عالية ما في منطقة باب شرقي. وأظنه قد التقط الصورة لحظة شروق الشمس، أو بعد الشروق بقليل". قلت: "أظن أنه التقطها لحظة غروب الشمس، أو بعد الغروب بقليل. وأظن بأنك محقة في أنه كان موجوداً في نقطة ما من منطقة باب شرقي" - أحد أبواب دمشق القديمة السبعة. كانت دمشق القديمة تحتل مقدمة الصورة، وتحتل دمشق الجديدة وسطها، بينما يربض جبل قاسيون في الخلفية. قلت: "صورة جميلة". وتابعنا طريقنا. التقينا بالإعلان نفسه بعد قليل. استوقفتني الصورة مرة ثانية. جعلتُ أنظر إليها متأملاً. قالت لي ديانا: "ما الذي يشدّك إلى هذه الصورة"؟. قلت: "ألا تلاحظين أن دمشق صارت عجوزا"؟. قالت: "معك حق". وبدا أنها لم تفهم ملاحظتي أو سؤالي جيداً. قالت: "الطرقات صارت سيئة. وكذلك التيار الكهربائي. وشبكة الهاتف أيضاً". وأنا في الحقيقة لم أكن أقصد شيئاً من هذا كله.. لم يسبق لي أن رأيت جبل قاسيون كما رأيته في هذه الصورة. كنت أراه في الماضي جبلاً شاباً، أو حتى دائم الشباب، كنت أحب أن أتفرج عليه، وبخاصة في الأيام التي تعقب المطر. كان يبدو لي في مثل تلك الأيام فتيّاً، جميلاً، نظيفاً، يضجّ بالنشاط والحيوية. أما اليوم! بدا الجبل في الصورة هرماً، عجوزاً، أو شيخاً. بدا وحشاً طاعناً في السن، عاجزاً عن الصيد، قعيداً، متدثراً بوبر

رمادي أغبر ضارب إلى البني.. بدا في أرذل العمر، عاجزاً ليس عن حماية حبيبته التي اسمها دمشق أو الشام فحسب، بل حتى عاجزاً عن حماية نفسه إن هاجمه أحد القوارض من الجرذان أو الفئران، كم أشفقت اليوم على هذا الجبل! وكم أشفقت اليوم على دمشق التي بقيتُ اتسكع في شوارعها بصحبة ديانا الحلوة كالملاك قرابة نصف ساعة قبل أن ندخل إلى إحدى الكافيتريات. شربنا قهوة. وقلت لها رأيي في الذي قرأته. قلت لها رأيي بصراحة. قلم هذه البنت نظيف، لكن ريشته تحتاج إلى صقل. أظنها كانت مسرورة بما سمعته مني. ولم أتعمد أن أقول ما يسّرها. قلت قناعتي. وكانت مسرورة. وحلّ المساء. سألتني أن أسمح لها بدفع قيمة القهوة. قلت لها: "عيب"!. قالت: "لا تعاملني على أني بنت". قلت: "ليس هذا ما قصدته. أنت طالبة، والطلاب غالباً فقراء". قالت: "أبي كريم معي. وأمي كريمة ايضاً". قلت: "إذن، عيب يا بنت"!. وضحكت البنت. كم ضحكت! وكم كنت فرحاً بها! قالت لي: "تعال أعرفك إلى أخي. هل تحب أن تتعرف إلى أخي"؟ قلت: "يسرّني ذلك". إنه صيدلاني. ذهبنا إليه في صيدليته. شاب متنور. بقينا في الصيدلية قرابة ربع ساعة. خرجنا بعدها إلى الطريق من جديد، قالت: "إن احتجت إلى أي دواء في أي وقت، فآمل أنك سوف تجيء إلى هذه الصيدلية بالذات. سوف يؤمن لك أخي الدواء، حتى لو كان غير متوافر في الأسواق". قلت: "أكيد". وقالت: "أرجو طبعاً أنك لن تحتاج إلى أية أدوية، وأرجو أن تكون صحتك دائماً جيدة إن شاء الله". قلت: "إن شاء الله". وقلت: "في الحقيقة يا ديانا أنني الآن لست في حاجة إلى دواء، ولكني في حاجة إلى شيء آخر. لقد فاجأنا الشتاء كما ترين". قالت: "أظن بأني عرفت ذلك الشيء. أنت في حاجة إلى ملابس شتوية. أليس كذلك"؟. قلت: "صحيح" قالت: "نشتريها الآن". قلت: "لا، ليس الآن. ليس بعد أن حلّ الظلام. أرى من الواجب أن أرافقك الآن إلى البيت. أخشى أن تقلق أمك بشأنك". قالت: "أكلمها بالهاتف". قلت: "لا. نؤجل الشراء إلى يوم آخر". قالت: "لا بأس. شريطة أن يكون يوماً قريباً". قلت: "وهو كذلك". رافقتها إلى البيت. وبيتها بعيد. ذهبتُ بعد ذلك إلى عبد اللطيف. كان لديه شغل عاجل. قال: "أمهلني خمس دقائق". قلت: "أمهلك الوقت الذي تحتاج". لامتني لاريسا قائلة بالروسية: "صرنا لا نراك إلا قليلاً". قلت بالعربية: "والله يا لاريسا إني أكتب". قالت: "رواية"؟. قلت: "رسالة، أكتب رسالة". قالت: "لاأفهم. لحظة لو سمحت. نتحدث بالروسية". قلت "نتحدث بالروسية". قالت: "ماذا تكتب"؟. قلت: "أكتب رسالة إلى امرأة". قالت: "تمزح"، قلت: "والله لا أمزح". قالت: "كل هذه المدّة"؟. قلت:"نعم". قالت: "ومن

سيئة الحظ"؟. قلت: "فاطمة". قالت: "لماذا لا تكلمها بالتيلفون"؟. قلت: "لا أعرف". قالت: "لماذا لا تتصل بها حقاً"؟. قلت: "حقاً لا أعرف". قالت: "هل تخاف أن تكلمها"؟. قلت: "ربما كان الأمر كذلك". قالت: "سمعت بأنها كانت ستأتي إلى المهرجان. فلماذا لم تحضر"؟. قلت: "لا أعرف". قالت: "ألا يجوز أنها في وضع صعب"؟. قلت: "يجوز" قالت: "لماذا إذن لا تتصل بها؟ والله إني لا أفهمك يا حسن. أليس من الجائز أنها في حاجة إلى مساعدة ما"؟ قلت: "جائز". قالت: "وتدّعي بأنك تحبها! حتى إني لا أصدقك". قلت: "وأنا لا أصدق نفسي أحياناً". قالت: "أم أنك تحب أن تكون حزيناً"؟... وأنا لا أبدّل أفراح العالم بأحزاني. من قال هذه الكلمة؟ أظنه جبران. جبران خليل جبران. أعتقد بأن مؤرخي الأدب العربي المعاصر لم ينصفوا هذا الكاتب. لم يعطوه حقه. لم يعرفوا قيمته. ولم يفهموا حزنه، وكم كان جبران حزيناً! غادرتُ بيت عبد اللطيف على الساعة الحادية عشرة تقريباً. كنت أضحك بسبب حادثة رواها ريمون على الهاتف. حادثة وقعت لماهر قبل أيام قليلة. ضحكت كثيراً، ضحكت حتى صارت خاصرتاي تؤلماني. وبقيت أضحك حتى بعد أن صرت في الشارع. توقفت على الرصيف، ونظرت إلى جبل قاسيون، ولم أره شيخاً طاعناً في السن، ولم أره فتيّاً. بدا لي كتلة هائلة من ظلام دامس يبعث على الرهبة. ارتجف بدني، وكفيت عن الضحك، وأشعلت سيجارة. مرت بي سيارة أجرة. استوقفتها، وسألت السائق: "مسموح التدخين"؟. قال: "مسموح تفضل". صعدت إلى السيارة، ورجعت إلى بيتي، وأوراقي. رجعت إلى هذه الرسالة التي إليك أكتبها، فإليكِ ما جرى يا فاطمة.. أكثر ما كان يؤلمني بعد عودتي من موسكو الاصطدام بأشياء وجدان. وما أكثر تلك الأشياء! زجاجة الشمبانيا التي قررت، ولا أعرف لماذا، ألا ألمسها تلك الليلة لمّا كان بي صداع مقيم منذ الصباح، أو مذ كنت في الفندق قبل الرحيل. فأنا أكره الرحيل، وأكره الفراق، وأكره الوداع، فكم تؤلمني لحظات الوداع! وكم أجدني أردد من بعد السيّاب: "آه، ما أقسى الوداع"!. أتذكر أني بكيت ذات مرة لمّا كنت أودع بعض الزملاء. لست أقول الأحبّة، ولست أقول الأصدقاء.. عندما انتهينا من تصوير بعض مشاهد (صهيل الجهات) على نهر الدجلة، رجعت مجموعة الفيلم إلى دمشق في إجازة قصيرة. كان مدير تصوير الفيلم قد طلب تلك الإجازة سلفاً بسبب بعض أشغاله الشخصية الملحّة في دمشق. أظن أن المناسبة هي زواج ابنته. وهكذا فقد تمّت برمجة الإجازة سلفاً أيضاً في خطة إنتاج الفيلم. كان هذا في أحد الأيام الأخيرة من شهر (ماي). انطلقت المجموعات، كالعادة، على دفعات. كلٌ حسب جاهزيته

للسفر، أو حسب حاجته إلى ذلك. كنت أنا وعبد اللطيف ولاريسا وأنطوانيت آخر من غادر المنطقة. رجعنا إلى دمشق في أحد باصات النقل العام. وكان مدير التصوير أكثرنا حاجة للإجازة أو لعله الوحيد الذي كان يحتاجها. أتذكر أنه غادرنا، عند منتصف الليل تقريباً، في أحد باصات الفيلم وبصحبة عدد من العاملين فيه. وأتذكر أن سائق الباص كان مرهقاً. حتى أنه في لحظة شكا لي خوفه من السياقة وهو في تلك الحال. تحدثت إلى جورج (مدير التصوير) بالأمر، وطلبت إليه تأجيل السفر حتى الصباح. لكنه لم يكن يملك وقتاً للانتظار إذ عليه أن يتواجد في دمشق عند ظهر اليوم التالي. كنّا في الرميلان. والمسافة إلى دمشق حوالي تسعمئة كيلو متراً. قال جورج للسائق: "عندما تتعب أنت، أسوق أنا بدلاً منك". كان الرجل في أمسّ الحاجة إلى السفر فوراً، ودونما إبطاء.. وسافروا. وقبل ذلك توادعنا. عانقني جورج، وعانقته، وصعد إلى الباص، ثم لا أعرف ما الذي أصابني. شعرت برغبة قوية في البكاء. لم يكن جورج صديقاً لي في يوم من الأيام. ليس بيننا سوى الزمالة. ولكني، رغم ذلك، شعرت برغبة في البكاء وأنا أودّعه. لعلني كنت خائفاً عليهم من السفر ليلاً على الطرقات القفراء في سهوب الشمال وصحارى الشرق. لعلني شعرت بالخوف عليهم من احتمال وقوع مكروه لهم على تلك الطرقات التي تفتقر إلى جميع أشكال الخدمات الضرورية للمسافرين. أو: لعلني كنت واقعاً تحت تأثير قراري الذي اتخذته، منذ أسبوع تقريباً، بالطلاق مع وجدان، أو بالفراق معها، أو بالوداع. وآه ما آقسى الوداع! لوّح لي جورج بيده من خلف الزجاج قبل انطلاق الباص، فرفعت يدي لكي ألوح بالوداع، غير أن يدي لم تطاوعني كثيراً. وشعرت بغشاوة تغطي عيني. وأحسست بأني موشك على نوبة من بكاء، أو نوبة من قهر، فاستدرت على عقبي، وتركت الجميع: من في الباص، ومن على الرصيف، ودخلت إلى البيت بسرعة، وتوجهت إلى غرفتي، وارتميت في السرير، وطفقت أبكي. بكيت بحرقة. وبعد خمس دقائق تقريباً جاءتني أنطوانيت، أخفيت وجهي عنها لكي لا تفضحني عيناي. قالت لي: "ما بك؟ وماذا حدث"؟. قلت: "أريد أن أنام". وفضحني صوتي. ولكني اعتقدت بأنها صدقتني، وسيما أنها قالت: "ليتك تنام فعلاً"!. وخرجت من الغرفة. ورجعتُ أبكي، وقد تصورت بأني خلوت أخيراً بنفسي. ولكن ما هي إلا دقيقتان أو ثلاث حتى انفتح باب الغرفة من جديد. عادت أنطوانيت إلي. ولم تكن وحدها هذه المرة. ذهبت تشكوني لعبد اللطيف. وجاءا معاً من أجل استطلاع الأمر. قال عبد اللطيف: "ما الحكاية"؟. قلت دون أن أرفع رأسي: "لا شيء. أريد أن أنام". ومرة ثانية فضحني صوتي. وأظن بأن عبد اللطيف غمز أنطوانيت طالباً إليها الخروج

من الغرفة، فخرجت، وجلس هو على طرف السرير، وقال: "انظر اليّ". ولم أفعل. قال: "أرجوك يا حسن. دعنا نتحدث في الأمر. انظر إلي". ونظرت إليه بعينين متورمتين. قال: "ما الأمر"؟. قلت: "أحسست بالخوف على جورج والشباب لمّا كنت أودّعهم". قال: "هذا هو السبب المباشر. ولكن ماذا وراء هذا السبب"؟. قلت: "إنني أكره الوداع".. ولكن كم علينا أن نتوادع في هذه الحياة! كم من الناس ودّعنا إلى الآن؟ وكم سنودع بعد الآن؟ وكم هي كثيرة الأمكنة التي ودّعناها! وكم هي كثيرة الأشياء أيضاً! كنت مرة في مجلس ضمّ بعض المعارف. وانفتحت سيرة من الماضي. ذكرنا في ذلك المجلس أسماء أشخاص كثيرين. وكنّا كلما ذكرنا اسم أحد أولئك الأشخاص نقول مردفين: "الله يرحمه". وفي لحظة قلت لجلسائي: "مهلاً! ألا تلاحظون أننا نكثر من استخدام هذه العبارة"؟. وبدا لي أن الجميع فوجئ بالحقيقة. نعم، لقد مات أولئك الناس. ماتوا جميعاً. يا الله كم كانوا كثيرين! يا الله كم ودّعنا من الأهل والأصدقاء والزملاء والمعارف! وآه، ما أقسى الوداع! التقيت مرة أحد الشباب عند قريب لي. حدث هذا في أواخر صيف عام ١٩٧٣ . لم أكن قد رأيت ذلك الشاب من قبل. ثم لم أره من بعد أيضاً. وفي ذات يوم وردت سيرته. سألت: "ما أخباره"؟. قالوا: "ألا تعرف"؟. قلت: "ماذا"؟. قالوا: "استشهد في الحرب". استشهد الشاب في أحد الأيام الأولى من حرب أكتوبر. كان ضابطاً مجنداً برتبة ملازم يقود فصيلة دبابات. ويبدو أن صاروخاً أصاب دبابته، وصهرها، فمات الشاب محترقاً في داخلها. ولمّا علمتُ بمصيره كرهت قريبي ذاك الذي التقيت في بيته بالشاب الذي مات محترقاً في دبابته. أعتقد بأنه كان في الرابعة والعشرين من عمره. ثم ظل في الرابعة والعشرين من عمره. لم يكبر بعد ذلك. ولن يكبر بعد ذلك. أنهى دراسته في كلية الآداب ـ قسم اللغة الانجليزية. ثم ذهب لأداء خدمة العلم قبل أن يتفرغ لمشاريعه اللاحقة. أتذكر أنه كان يحلم بمتابعة دراسته في انكلترا، ويطمح إلى ترجمة الأعمال الكاملة لشكسبير من الانجليزية إلى العربية. وأتذكر أنه لم يكن راضياً عن الترجمات المتفرقة لأعمال شكسبير، والمتوافرة بكثرة في المكتبات العربية. قال لي في تلك الجلسة الوحيدة بيننا: "في شكسبير شيء لم ينقلوه إلى العربية جيداً". قلت: "ما هو"؟. قال: "إنه الشعر". وقال: "النثر فنٌ مبتذل". ولم أوافقه الرأي. ولم أعارضه الرأي. اكتفيت بأن قلت له: "أتمنى لك التوفيق". واحترقت دبابته. وحقدتُ على قريبي فترة بعد أن سمعت النبأ. ثم ما عدت دخلت بيت ذلك القريب إلى اليوم. على اية حال، هذا القريب مسافر منذ سنوات طويلة. ولكن كم تمنيت لو أني ما التقيت ذلك الشاب. إذن، كان موته

سيبدو لي مثل موت جميع من قضى في الحرب أو في غير الحرب. ما كان موته سيعنيني على نحو مباشر، فأصير في حل من ألم الوداع. وهكذا وجدتني، مرغماً، أودع شاباً يبحث عن الشعر في زمان صمت فيه الشعراء. وجدتني أودع شاباً بدا لي أنه يزدري النثر، فقتله النثر. أن تزدري النثر يعني، بالضرورة، أنك تزدري هذا العصر. وأن تزدري عصرك يقتلك عصرك. يقتلك بأدواته، فهل بعد الصاروخ من إنجاز نثري؟! لست أدري لماذا أجدني أفكر أحياناً، وعلى نحو متأمل، بأشخاص لم تربطني بهم علاقة قوية من قبل أبداً، بل هم أشخاص لم تجمعني بهم إلا لحظة سريعة عابرة. إحساس عجيب. اليس كذلك؟ هل يحدث لك شيء من هذا؟ إذن، لم أكتب شيئاً كثيراً ذا قيمة ليلة عودتي من موسكو حيث ارتحت إلى حد بعيد من آثار مشكلاتي العالقة في دمشق، والتي سرعان ما رجعت واصطدمت بها: الوحدة، وشفقة الأهل، والخوف من وجدان، والخوف على وجدان، والحنين إلى تلك الأوقات لمّا كان "يشجيني" أنين هذه المرأة.. كان صوتها قد بدأ يتكسر ويضطرب، ووجهها بدأ يتشنج تحت نظراته الجامدة المملوءة بالشكوك. أبعد يديها الضعيفتين بسهولة عن كتفيه، ودخل إلى غرفة النوم، وارتمى على النصف الأيسر من السرير، وهو النصف الذي يخصّه، وأغمض عينيه، وغطى وجهه بساعده، وتصاعد لديه إحساس مرير بالتفاهة. ومرة ثانية فكر بالمسدس. اللعنة! رفع ساعده عن وجهه ونظر إلى ليلى التي صارت تقف بجانبه. كانت تحمل المسدس بكلتا يديها. وتمدّهما إليه وفي نظراتها توسلات صارخة، واستغاثات عميقة أن اقتلني. "أظنك تخبئ الرصاصات في مكان لا أعرفه. فتشت عنها خلال غيابك الطويل ولم أعثر عليها. وحتى لو وجدتها فإني أشك في قدرتي على حشوها في المخزن. يبدو أنني لن أحسن استخدام هذا السلاح". وصمتت لحظة قبل أن تضيف: "أرجوك". شملها بنظرة نافذة، وغاص في أعماقها، وأحس بالندم تجاهها دفعة واحدة، وتمنى لو يستطيع أن يسامحها، حتى أنه قال في سرّه: الكمال لله وحده. وتذكر أن "كل بني آدم خطّاء"، وتذكر أيضاً أن "خير الخطّائين التوّابون". ومرة ثانية تمنى لو يسامحها. لو يملك القدرة على الغفران، على الرحمة، على نبذ الازدراء، والحقد، على القناعة المطلقة بأن الخطأ حق من حقوق الإنسان. إذن، لتخلص من هذه الأزمة الروحية الخانقة، ومن نوبة الغضب التي تعصف به، ومن الحيرة، والارتباك، وسوداوية المزاج، والظنون الخبيثة. لم يسبق له أن مرّ في أزمة خانقة كما أزمته الراهنة. كان ثمة نداء خفيّ يصرخ فيه أن ارحم هذه المخلوقة البائسة. ظلت يداها ممدودتين إليه بالمسدس فترة طويلة قبل أن يشيح بنظره إلى الناحية الأخرى. وضعت المسدس على الكومدينو

بجانبه، ولفّت من حول السرير حتى صارت في مرمى بصره من جديد، وراحت تحدق فيه كمن يقول له: لا تستطيع أن تتبرأ مني. وحين أدرك مغزى نظراتها إليه أسبل جفونه، فلم تستطع المرأة أن تصبر أكثر مما صبرت إلى الآن. شعرت برأسها يتشقق. وشعرت بالغثيان (الذي حلّ بها، مذ كانت تجلس خلف ماكينة الخياطة ومن قبل أن تسمع طقة المفتاح في قفل الباب) يصير أقوى. إذ لم يكن في مقدورها أن تتحمل عدم اهتمامه بها. فقدت توازنها، ولفّت الارض من حولها، ودارت، وتحول كل شيء إلى ظلال كئيبة أمام ناظريها بعدما زاغ منها البصر، فارتمت على السرير، وتملّكها نحيب قوي ما لبث أن تحول إلى نوع من النشيج المصحوب بشيء من هستيريا مصدرها الشعور بتفكك الاعتزاز بالنفس، والرطوبة التي حلّت بها، وظهر بعض الزبد في طرفي فمها الذي طالما كان عذباً، وسيطرت على رأسها وجذعها وأطرافها تشنجات قصيرة، وراحت فجأة تشتم الله وملائكته وكتبه ورسله وهي تضرب مسند السرير الخشبي بقبضتيها المتشنجتين وتذرف دموعاً غزيرة لا يمكن وصفها بأنها كاذبة.. كان التشتت أول المظاهر التي استولت على عمر أمام هذه الحالة المفاجئة من الصرع غير العائد إلى أضرار في الدماغ، أو إلى التهابات في الأعصاب، بل إلى أسباب أخرى منشأها الروح الذي تتلاطم فيه أمواج الأسى والندم والحب والكراهية. وكل موجة تسجل، مقارنة مع سابقتها، رقماً جديداً في الارتقاء بالوجع الساكن في هذا المخلوق البائس الذي اسمه ليلى إلى ذروة جديدة من اهتراء النفس. نظر إليها وهو جاهل بما يتوجب عمله. لقد وقع المحظور الذي سوف يجرّ وراءه محاظير أخرى كثيرة. الخيانة تمّت. من هنا البداية، أما النهاية! علمها عند الله. لو كانت القصة تنتهي بشيء من قبيل الطلاق أو الانفصال لهان الأمر. ولكن، هذا الألم، هذا العذاب، هذا الصرع، هذا الحب، هذا الندم! أين يذهب هذا كله؟! أما ليلى فإنها لن تقبل حتى بالطلاق. إنها على استعداد لقبول الموت بصدر رحب. أما الطلاق! الموت أهون. وهذا واضح في كل إيماءة من جسدها المنتفض مثل دجاجة مذبوحة. العقاب ضرورة من ضرورات الحياة، وضريبة من ضرائب الحياة ايضاً. وليلى ترجو العقاب، أيّ عقاب، إلا أن يكون فراقاً مع الرجل الذي أيقنت أخيراً بأنه انسجام حياتها، ومرسى سفينتها (التي عادت ولا لوحٌ على لوحٍ). ولما أيقنت بأن هذا الرجل لا ينشد غير الطلاق فقدت إيمانها بالله، وفقد كلّ شيء قيمته، وسقطت بالتالي فريسة صرع لا دفع له، وتركت عمر يتخبط في مشاعره المتناقضة إزاءها، وفي عجزه عن فعل شيء ذي جدوى، واكتشافه ليس التفاهة التي تسكن امرأته، بل التفاهة التي تسكنه هو بالذات. ومرة ثانية: العقاب ضرورة من ضرورات الحياة،

ولكن هل ثمة عقاب أكثر من هذا الذي حلّ بالمرأة البائسة؟ ثم أليس صحيحاً ما قاله أحدهم من أن الله يحب خاطئاً في بعض الأحيان أكبر مما يحب عشرين قديساً؟ وغير هذا وذاك: أليس يؤمن بأن خير الخطّائين التوّابون؟ فماذا بعد التوبة سوى الغفران؟ وما دام الله غفوراً، "أين الرحمة في قلبك؟ أليس فيك شيء من الله"؟!. هذا ما ستصرخ به ليلى في وجه عمر مستقبلاً، أما في لحظة الصرع تلك، فقد خسرت معرفتها بالله، وأضلّت الطريق إليه، وحمّلته مسؤولية كل ما وقع لها وهي ترى إلى ضياع بهجة حياتها ومراد تلك الحياة، ثم راحت تنتفض من الصرع أو من الهستريا تاركة عمر مغلوباً على أمره.. منذ فترة طويلة وهو لا يشعر بصفاء في ذهنه، ويقنع نفسه بأنه يكره ليلى، ويقنع نفسه أيضاً بأنه لم يحبها في يوم من الأيام. وكان بذلك يهوّن على تلك النفس تقبل فكرة الطلاق. وكان يعتقد بأن الأمر محسوم، وبأن ثلاث أو أربع دقائق من الحوار مع امرأته تكفي لكي لا تعود امرأته. غير أنه لم يحسب حساباً لمثل هذا الموقف. لم يعدّ العدّة للمواجهة مع نفسه على هذا النحو من القوة. لم يتصور أن امرأته على هذه الحال من البؤس والندم. هاهي تردّ الكرة إليه. ترميها في شباكه. وعليه الآن أن يقرر، وعلى قراره تتوقف الخطوة التالية. بل الخطوات التالية جميعاً. كان يتمنى لو وجدها قوية متماسكة! أما أن يراها متفككة الهمة، خائرة القوى، ففي هذا تصعيب للقرار. وغالباً ماتكون القرارات الصعبة باهظة الثمن. ماالذي يمنعه من الغفران؟ نظر إلى كومة الحطام أمامه، وأيقن بأنه يعشقه بقدر مايكرهه،، ويحترمه بقدر مايزدريه. لكن، ومهما كانت الحال، فالذي لابدّ منه الآن هو تجميع الحطام إلى بعضه. أمسك بقبضتي المرأة لمنعها من ضرب مسند السرير، فوجدها غائبة عن الدنيا، متشنجة، مستوحشة، خائبة الرجاء، متعطشة إلى الشفقة والغفران.. نعم، لقد كان "يشجيني" أنين هذه المرأة التي اسمها وجدان. إني أعترف. فهل أنا شخص سادي؟ يبدو أني كذلك. وإن لم أكن سادياً، فإني، وهذا في أقل تقدير، قاسٍ فعلاً، كما وصفتني أنطوانيت فيما بعد. قالت: "حسن قلبه من حجر. ولم يكن للطلاق مايبرره". كنت قد اختلفت مع أنطوانيت قبل أن تقول هذا الكلام بشهر تقريباً. وهذا الكلام جعلني أغضب منها، وأقسو عليها لدرجة أني قاطعتها تماماً، وماعدت دخلت بيتها منذ ذلك الحين، أي ذلك الوقت لما كنت أتألم كلما اصطدمتُ بأشياء وجدان. سبق وأرسلت لها جميع حاجاتها. لكن، ومع ذلك، آثارها باقية في كل مطرح، فكل البيت آثارها، حتى السقف والجدران، والأثاث والمطبخ الذي لست أعرف إلى اليوم ماذا في خزائنه من مؤونة. هل تصدقين؟ لا أحب فتح أبواب الخزائن والنظر إلى مابداخلها، فالذي بداخلها هو

خصوصيات وجدان. بغضّ النظر عن طبيعة تلك الخصوصيات، حتى لو مجرد صحون من تلك التي كان يحلو لها في نوبات الغضب أن تكسرها. اعتادت على تكسير الصحون في المطبخ. واعتدت أن ألحق بها إلى هناك، وأطلب إليها أن تهدأ، وأصالحها حتى لو كانت هي المذنبة. غير أني، في ذات ليلة، لحقت بها إلى المطبخ ولم أطلب إليها الهدوء، ولم أعمد إلى مصالحتها مع أنني أنا الذي كنت مذنباً. وقفتُ أتفرج عليها وقد حملت دستة من صحون تضربها بالأرض بقوة صحناً صحناً. كانت أعصابي باردة تلك الليلة. حملتُ أنا الآخر دستة من الصحون، تعمدت أن تكون غالية الثمن، وجعلتُ أضربها بالأرض بقوة أنا الآخر صحناً صحناً، فما كان منها إلا أن هدأت سريعاً، فوضعت مابيديها على المجلى، وهجمت عليّ تنقذ ماتبقى من الصحون الثمينة. ولم أقاومها. تركتها تنقذ ماتبقى من تلك الصحون. نظرت إلي مندهشة من سلوكي غير المتوقع، وابتسمت رغم دموعها التي تسيح على خديها، ثم جعلت تضربني على صدري بقبضتين ضعيفتين وهي تشتمني قائلة: "يلعن أبوك". وفي الحقيقة أن هذه العبارة لم تكن شتيمة في قاموس حياتنا الزوجية. كانت تقولها لي حتى وهي في أوج المتعة والرضا والسعادة. وكنت أرد عليها دائماً: "حرام. أبوي ميت"، فتقول: "إذن، يلعنك إنت". وفي تلك الليلة أيضاً قلت لها: "حرام، أبوي ميت"، فقالت: "إذن، يلعنك إنت". وأراحت صدرها على كتفي، وجعلت تضحك وتبكي. واحتضنتها، وقلت لها: "تعالي إلى الفراش"، فقالت: "أليس بعد أن أنظف أرض المطبخ"؟. قلت: "تنظفينها بعد الفراش"، فقالت: "يلعن أبوك". وذهبنا إلى الفراش. وأقلعت منذ تلك الليلة عن عادة تكسير الصحون.. كانت آثار وجدان تؤلمني، وآثارها في كل مطرح. كنت أبدو إنساناً خائباً. وكنت أحاول أن أغطي خيبتي بالكتابة، فلم يبق لي إلا الكتابة.. لمّا رجعتُ من موسكو وجدت دعوة من مهرجان (مومبيليه) في انتظاري، ثمة ندوة على هامش المهرجان حول واقع السينما في دول حوض البحر المتوسط، فأرسلوا لي دعوة للمشاركة (عن سوريا) في هذه الندوة. وكان فيلم (رسائل شفهية) مشاركاً في مسابقة المهرجان. وهكذا أسافر أنا وعبد اللطيف إلى فرنسا. غير أني لم أتمكن، فجأة، من السفر. ابتدأت متاعبي مع المؤسسة، وفضّلتُ عدم السفر. على أية حال، هذا موضوع يطول شرحه. وسافر عبد اللطيف. ولم يبق حقاً غير الكتابة من معين. رأيت وجدان تلك الفترة مرات عدة. أتذكر أنها كانت فاترة تجاهي بعض الشيء. أو بالأصح: لم تكن متحمسة لي كثيراً. حتى هداياي إليها بدت في نظرها غير ذي قيمة. والذي حدث، فيما أظن، هو أن معالم الفرصة الثانية بدأت تتوضح، ولو قليلاً.

فبينما كنت أنا في موسكو، جاء ذلك الكندي إلى دمشق، والتقى وجدان والتقته. هي أخبرتني بذلك في حينه، غير أني لم أربط بينه وبين الفرصة الثانية، فهو رجل كثير المجيء إلى دمشق، أظن أن لديه تجارة هنا. وليس بالضرورة أن يكون قد حصل بينه وبين وجدان تفاهم حول أي أمر خاص. بل إن أمراً كهذا لم يحدث حتماً، بدليل الأحداث التي سوف تأتي. لكنه، وكما أخبرتني وجدان، أبدى تعاطفاً معها بصفتها امرأة مطلقة. على أية حال، لم أفكر أنا في الأمر كثيراً، رغم أني تألمت لمّا رأيت وجدان غير متحمسة لي. وما الألم إلا دليل على الاهتمام. هذا أمر لا أظنه يقبل نقاشاً. إذن كنت، ماأزال مهتماً بهذه المرأة رغم أني كنت أتمنى في بعض اللحظات لو أستطيع أن أقتلعها من بين ضلوعي، وألقي بها إلى خارج حياتي مرة وإلى الأبد. وكانت هذه المشاعر المتناقضة تزيد في إرباكي، ووحدتي وشقائي. ومرة ثانية، لم يكن غير الكتابة من معين. وزاد في الطين بلّة أن موجة برد قارس اجتاحت دمشق تلك الفترة، وطالت قليلاً. وذلك أول برد من دون وجدان. وكل ماهو أول مرة من دون وجدان سوف يكون مؤلماً حتماً: أول برد، أول مطر، أول ثلج، أول مرض، أول رأس سنة.. الخ.. حاولت في غياب عبد اللطيف أن أشغل وقتي بشيء آخر غير الكتابة حين تستعصي الكتابة. من الطبيعي أني كنت أهتم بزوجته وابنته. كنت أزورهما في البيت وأرى إلى حاجاتهما، وأذهب إلى أنطوانيت أيضاً، فلم نكن قد تخاصمنا. (أفكر في إنهاء القطيعة معها، وبخاصة أنها زارتني مرتين في البيت بعد القطيعة. كانت المرة الأخيرة قبل ثلاثة أسابيع تقريباً بعد أن علمت بأوجاع رقبتي). إنني أحار أحياناً في أمر هذه المرأة. لقد كانت لي صديقاً طيباً على الدوام. وكنت لها صديقاً طيباً على الدوام. وبخاصة في فترة مابعد طلاقها. وقفت إلى جانبها. لا أقصد أني وقفت ضد زوجها. لا. علاقتي به هو الآخر جيدة. جيدة إلى اليوم. ماقصدته هو أني رعيت مصالحها على نحو أستطيع أن أصفه بأنه جيد، أو حتى أكثر من جيد. وبالمقابل، كانت هي طيبة معي.. بل طيبة جداً، ربطتنا ببعضنا علاقة قوية. ولم تتأثر تلك العلاقة سلباً في يوم من الأيام، حتى رغم الشائعات الكثيرة التي ظهرت، بعد طلاقها، هنا وهناك حول طبيعة تلك العلاقة. وفي الحقيقة أنه ليس بيني وبين هذه المرأة شيء من تلك الإشاعات السخيفة. الناس تحب أن تثرثر. لا يمكنهم إلا أن يثرثروا في شأن ليس شأنهم. أظن أن هذه واحدة من أبشع ميزات الشخصية العربية. (يبدو أن العربي عبد للكلمة فعلاً). وأنا وهي لم نكترث بالثرثرة. وبقينا صديقين جيدين. وفجأة أرتكب أنا خطأ بسيطاً، فترفض أن تسامحني. ترفض بشدة، مع أنه خطأ بسيط فعلاً. بسيط إلى درجة أنه لا يستحق أن أقصّه عليك؟

بسيط إلى درجة أن من الممكن عدم اعتباره خطأ. ولا تسامحني. وأكثر من ذلك: "سوف أؤدبه". هكذا قالت عني لبعض الناس، وسامحتها، سامحتها من قلبي. غير أني غضبت عليها لما قالت: "لم يكن للطلاق مايبرره"، إلا قسوتي أنا طبعاً.. كان الخروج من البيت يجعلني أفضل حالاً. وكانت العودة إلى البيت تجعلني أسوأ حالاً، فهنالك دائماً أشياء وجدان. أما الكتابة، فكانت شيئاً وسطاً. وطالت غيبة عبد اللطيف، قضى فترة في باريس بعد مومبيليه، وافتقدته كثيراً، حتى أني شتمته لما رجع إلى دمشق. وبعد عودته بأيام قليلة جعل يخاف علي. بل يخاف كثيراً. حتى أنه صار يختلق الأسباب والأعذار لكي لا يسمح لي بالبقاء وحيداً. كان دائم الإصرار على أن نظل معاً، وبخاصة في بيته حيث الدفء، والطعام اللذيذ، والثرثرة الدائمة. ولمّا أغيب عنهم يوماً أو يومين كان يفاجئني في بيتي في أي وقت. وفي كل وقت. هل كان يخاف علي من الانتحار مثلاً؟ لست أدري إن كان سلوكي أوحى إليه بشيء من هذا الأمر. وأتذكر جيداً أنني لم أفكر بالانتحار بعد الطلاق أبداً. ولا قبل الطلاق أيضاً. ولست أعلم سبباً لذلك الخوف الذي أبداه عبد اللطيف تجاهي. يبدو أنه أخطأ تشخيص حالتي، ثم أدرك خطأه، فبدأ يتراجع عنه تدريجياً. ولما جاء مهرجان القاهرة اقترح عليّ أن نسافر معاً إلى هناك. قلت له: "لا أريد". وقلت: "من الأفضل لو تسافر أنطوانيت بدلاً مني". وقلت له أيضاً: "أريد أن أكتب. أظن بأني بدأت أمسك بخيوط الرواية، ولو سافرت الآن، فربما تعثر العمل لاحقاً". وقلت: "هذه هي رغبتي الأكيدة". قال: "لابأس. مادمت تريد أن تكتب، فلابأس". كان يرى أني تجاوزت إلى حد ما، تلك الأيام حين كنت أشعر بأن كل شيء بارد، باهت، فاقد لونه. وسافر. وقال لي بعد عودته: "لو كنت معي في القاهرة"!. قلت: "فماذا"؟. قال: "فاطمة، كانت فاطمة في القاهرة، بل إنها في القاهرة إلى اليوم". قلت: "اللعنة على فاطمة". قال: "تكذب". قلت: "إنها أسوأ من وجدان". قال: "وهل وجدان سيئة؟! ألست تظلمها حين تقول إنها سيئة"؟!. قلت: "لا أعرف". قال: "أعتقد بأنك تظلمها كثيراً. أما فاطمة.. إنني أشعر بالارتياح إلى هذه المرأة". قلت: "هذا شأنك". قال: "ألا تحنّ إليها"؟. قلت: "دعنا من سيرتها". قال: "هل هذا ماتريده حقاً"؟. قلت: "حدثني عنها". وقالت لي وجدان: "حدثني عن فاطمة". وقالت: "أرجوك". قلت: "لا أستطيع أن أتحدث عنها". قالت: "لماذا"؟. قلت: "نسيتها". قالت: "تكذب. والله إنك تكذب". وقلت في نفسي: ماكان يجب أن أصارحها بالأمر من أساسه، وماكان يجب أن أحدثها بشيء عن فاطمة منذ البداية، فإن الصراحة في الحياة الزوجية ليست بالشيء الحسن دائماً. قالت:

"إنني لا أغار. صدقني. لا أشعر بالغيرة. أبداً. هاأنت معي. وهي بعيدة، وحتى لو كانت قريبة، فإنني لا أغار. حدثني عنها. أرجوك". قلت: "حسناً ياوجدان. مادامت هذه هي رغبتك، فإليك صورة فاطمة. عيناها سوداوان". فهل عيناك سوداوان أم أني نسيت لون عينيك يافاطمة؟ وقلت لعبد اللطيف: "كيف تبدو"؟. قال: "أظنها مرهقة قليلاً". وقلتِ لي: "كبرتُ سناً". وقلت: "أحبك يافاطمة". ولكن مالون عينيك ياامرأة؟ وقالت ديانا لما حملت إلي منك تلك اللوحة التي حطمتها وجدان: "فاطمة امرأة من نوع خاص. إنها شخص نبيل". وقالت: "هل ستكتب إليها؟ هي تصر على ذلك. أرجو أنك سوف تكتب، رغم أني أحب وجدان. ياإلهي! ألا يمكن أن تكون حياتنا أكثر بساطة مما هي عليه في الواقع"؟. وقالت نادية، أثناء مأدبة العشاء، بعد أن استلمت جائزتك كأفضل ممثلة في ختام مهرجان دمشق السادس: "فاطمة امرأة مناضلة، تحارب الزيف، والتعصب، والقهر الواقع على المرأة. إنني أحب فاطمة. أحبها كثيراً". قلت: "هل هي صديقتك"؟. قالت: "لا". قلت: "أرجو أن تبلغيها سلامي". وقال أسامة لما قرأ إهدائي الذي كتبته على الصفحة الأولى من إحدى نسخ رواية (الفلسطيني)، إليكِ فاطمة: "أهذا كل شيء"؟!. قلت: "نعم". قال: "فاطمة تستحق أكثر من هذا الكلام ياحسن". قلت: "ليس عندي أكثر من ذلك ياأسامة". قال: "إنني لا أفهمك". وحمل الكتاب، وسافر إلى المغرب، أو إلى باريس، أو إلى حيث لست أدري أين. وقالت ليالي: "كم هي شفافة فاطمة! كم هي رقيقة هذه المرأة! قضيت سهرة طويلة برفقتها. كنا في غرفتها في الفندق وحدنا أنا وهي. حدثتني عنك وعن علاقتها بك وموقفها منك. أظنك تظلمها ياحسن، فأنت حتى لم تمنحها الفرصة لكي توضح لك ماجرى في ذلك الصيف البعيد لما كنت تنتظرها في اليونان. إنك حتى لم تسمع مبرراتها. أما أنا فقد سمعت شكواها من الزمن. كانت ظروفها صعبة. عاشت أوقاتاً عصيبة: هموم الشغل، ومتاعب الطلاق، والحصول على سكن جديد، والاحتفاظ بابنها الذي كان رضيعاً بعد.. لقد عانت كثيراً، وكان يجب أن تتفهم أوضاعها. بل كان يجب أن تقف إلى جانبها. إنها امرأة طيبة، ورقيقة، وشفافة، وكريمة، تصور.. لقد أصرت أن تعطيني عقداً ناعماً من الذهب تحيط به جيدها. أشك في أنها تملك سواه. رفضتُه طبعاً.. رفضت بإصرار أكبر من إصرارها على إعطائي ذلك العقد عربون محبة.. كم هي صادقة هذه المرأة! كم هي رقيقة هذه المرأة ياحسن". وقال محمد: "أحدهم سرق نقودها في تطوان". قلت: "وهل ظلت بلا نقود"؟ قال: "أظن ذلك". قلت: "فلماذا لم تعرض عليها نقوداً أنت"؟. قال: "كيف لم أعرض؟! عرضت طبعاً.

لكنها رفضت. إنها عنيدة. عنيدة جداً. وأنت تعرف ذلك خيراً مني". وقلتُ أيضاً: "لست واثقاً من لون عينيها ياوجدان". كنا قد بدأنا نسكر أنا وهي. كنا في الفراش. في ليلة صيفية حارة. أغمضت وجدان عينيها، وقالت: "فما لون عينيّ أنا"؟. قلت: "تمزحين". قالت: "لست أمزح". قلت: "عيناك شهلاوان". قالت: "ليس تماماً". وقالت: "أشك في أنك تحبني، وأشك في أنك تحب فاطمة أيضاً". قلت: "لكن مالون عينيكِ"؟. قالت: "انظر بنفسك". وفتحت عينيها. قلت: "إنني لا أرى جيداً في هذه الإضاءة الشحيحة". قالت: "هل أشعل النور"؟. قلت: "لا ثم إن الكحول قد فعلت فعلها. أنظر إلى عينيك في الصباح". قالت: "كما تحب. ولنرجع إلى فاطمة لو سمحت". قلت: "هي امرأة غضيضٌ طرفها، طوعُ العناق، لذيذةُ المتبسم". وأشكّ في أن تكون قد أدركت بأني أردد كلام عنترة الذي قاله في وصف حبيبته. قالت: "كيف ذلك"؟. وقالت: "صفها لي بكلمات بسيطة". قلت: "أظن أن عينيها سوداوان. شديدتا السواد، وشديدتا البياض". قالت: "ولكنك لست واثقاً". قلت: "نعم، إنني لست واثقاً". وقلت: "أما لون شعرها فإنني واثق منه. إنه أسود. أسود فاحم. فاحم جداً. وغزير جداً. ومسترسل إلى ماتحت ردفيها المحمولين على ساقين من عاج. وردفاها مكتنزان، أو على شيء من اكتناز مذ استقام جسدها. وجسدها مستقيم ليس فيه ثنية واحدة. بل إنه مستقيم أكثر مما ينبغي، إذ أن الرأس مرتدّة، بعنجهية، إلى الخلف قليلاً فوق جيد لا يعرف الانحناء إلى أمام رغم طوله المرن على منكبين ضيقين بعض الشيء وصدر صاخب بنهدين نافرين إلى أمام باندفاع يصرّان على تمزيق القميص الذي ترتديه، بحثاً عن الهواء الطلق. ولكني لست واثقاً من لون عينيها. أما جبهتها فهي عريضة قليلاً وبخاصة في الجانب الأيمن منها حيث تفرق شعرها الأسود الغزير. وحاجباها ناعمان طويلان ينحنيان، دونما خبث، باتجاه وجنتين تمتلئان عند كرسيي خديها المتوردين، ثم تغيضان قليلاً دون ذلك في وهدتين كان يحلو لي أن أتأمل الظلال تتراقص فيهما لحظة تفترق شفتاها عن ابتسامة افريقية متوحشة". قالت: "كيف ابتسامة افريقية متوحشة"؟. قلت: "لكنها نادراً ماكانت تبتسم". قالت: "كيف ابتسامة افريقية؟ فهل شفتاها غليظتان"؟. قلت: "السفلى منهما مكتنزة، والعليا رقيقة، ومن فوقها مساحة ليست ضيقة إلى أنف ليس افريقياً أيضاً". قالت: "هل هو صغير مثل أنفي"؟. قلت: "إنه صغير. لكنه ليس دقيقاً". قالت: "وما لون بشرتها"؟. قلت: "سمراء". قالت: "سمراء محروقة"؟. قلت: "لا". قالت: "لست أرى فيها شيئاً افريقياً". قلت: "لكني لست واثقاً من لون عينيها. يبدو أني ضيعت لون عينيها". قالت: "ولكن لماذا تقول افريقية متوحشة"؟. قلت: "في

العاشرة من عمرها، كانت تحب المشي في الطرقات حافية القدمين، وتحب السباحة في ماء البحر عارية من كل ثوب". قالت: "لا أصدقك". قلت: "حسناً. في الحقيقة أنها كانت ترتدي ثوباً خفيفاً، ولا شيء دونه. وكانت تخرج من البحر إلى الشاطىء ملتصقة بثوبها الفاضح الذي التصق بجسدها متجعداً ومتثنياً". قالت: "لا أصدقك". قلت: "ولمّا كانت ترى نظرات الآخرين المتعلقة بجسدها تحت ثوبها الفاضح، كانت تمدّ لهم لسانها بعد أن ترمقهم شزراً، وتمضي في حال سبيلها. وفي إحدى المرات أغاظتها تلك النظرات الفضولية كثيراً، فاستدارت إلى الناس، ورفعت ثوبها حتى وسطها ومدّت لهم لسانها، ثم أنزلت ثوبها وتابعت طريقها". قالت: "لا أصدقك". قلت: "ولمّا صارت في الثانية عشرة من عمرها، عرفت وجيب القلب، ومتعة اللمسة الأولى". قالت: "لا أصدقك". قلت: "ولمّا بلغت الخامسة عشرة من عمرها، استقام جسدها، ونفر صدرها، وتكوّر ردفاها، وتورد وجهها، ونزلت إلى الماء عارية من كل ثوب، ونزل إلى الماء خلفها رجال كثير. ولم تكن تبالي". قالت: "لا أصدقك". قلت: "ولمّا صارت في السادسة عشرة من عمرها، دخنت سيجارتها الأولى". قالت: "لا أصدقك". قلت: "وفي السابعة عشرة من عمرها، عرفت كؤوس البيرة الطافحة بالزبد الأبيض، وروعة الجنس، ومحطات سكة الحديد، والانتظار في الطرقات تحت المطر، وتشابك الأصابع، وعدوى الحب، وقناني العطر، وأحمر الشفاه، والمرايا الصغيرة، وأمشاط العظم، والعناقات الحارة". قالت: "لا أصدقك". قلت: "ولمّا بلغت التاسعة عشرة من عمرها، كانت قد أصابت مقتلاً من تسعة عشر رجلاً". قالت: "لا أصدقك". وقالت: "هل أخبرتك هي بهذه التفاصيل"؟. قلت: "لا". قالت: "إذن"؟. قلت: "كانت ترفض أن أضيف (ال) التعريف إلى اسمها. غضبت مرة مني لمّا ناديتها: (الفاطمة). ولا أعرف لماذا ترفض ذلك وهو أمر يليق بها تماماً. ربما كانت لا تحب أن تبدو متعالية لأنها تشعر بعمق الانتماء إلى الناس. عامة الناس. المظلومين منهم قبل سواهم. وتشعر بعمق الانتماء إلى بنات جنسها، فتحمل راية الدفاع عن المرأة. وتشعر بعمق الانتماء إلى أرض بلادها، فتدافع عن الحلم بوطن لا إرهاب فيه، ولا فقر أو جوع وحرمان، أو معتقلات، أو رجال بوليس". قالت: "فهل هي شيوعية"؟. قلت: "ربما كانت شيوعية"؟. قالت: "وهل هي متحررة على النحو الذي وصفتها به قبل قليل"؟. قلت: "لم أرها تستخدم أحمر الشفاه يوماً. وأظن بأنها لم تكن تتعطر". قالت: "وهل حقاً أن لجسدها مذاق حليب النوق كما كتبت في روايتك"؟. قلت: "حتى أني لا أعرف طعم حليب النوق. كنت أقصد من وراء تلك العبارة شيئاً آخر. كنت أقصد

عراقة النسب المتحدر من أبي سفيان مباشرة". قالت: "وهل هي عريقة النسب حقاً"؟. قلت: "إنها أميرة من أميرات بني أمية". وقلت: "هكذا أراها". قالت: "وتنسى لون عينيها"!. قلت: "نعم. لقد نسيت لون عينيها ياوجدان". نسيت لون عينيك يافاطمة. وربما لهذا السبب طلبت أن تبعثي إلي بواحدة من صورك. وهاهي الصورة الآن أمامي على الطاولة في إطار معدني ناعم. ولكني لا أنوي توصيفك من جديد. لن أفعل ذلك، إنني أنظر إليها كثيراً. أنقلها بين غرفة المكتبة وغرفة النوم. أكاد أسمعها تشكو كثرة التنقل هذه. إنها كمن يقول لي: "دعني أسترح من فضلك". أو: "ألن تتركني بسلام أخيراً"؟. وفي الحقيقة أنني لا أنوي ذلك. أفكر بأن أضعها في جيب قميصي عندما أخرج من البيت. وقد أفعل ذلك. تقولين: مجنون. لا أكترث. بل إني سوف أحملها في جيبي غداً. فأنا على موعد، في الغد، مع ديانا الحلوة كالملاك. سوف تشتري لي بعض الثياب من أجل فصل الشتاء. وفي الغد أيضاً، سوف أزور عيادة الدكتور موفق. هذه الحبوب اللعينة التي أتعاطاها من أجل رقبتي تسبب لي وجعاً متزايداً في المعدة من يوم إلى يوم. ورقبتي لا تتحسن رغم جلسات العلاج الفيزيائي، ورغم هذه الحبوب المسكنة. صرت أخشى (بسبب كثرة الأدوية التي أتناولها) من قرحة في المعدة، أو في الاثني عشرية. وعندئذٍ لن ألوم إلا نفسي. ولكن نفسي تلوم من؟ قد تلقي باللائمة على البرد. ثمة ريح قوية في الخارج. ريح باردة مصحوبة بمطر ناعم. برد في غير أوانه. مازلنا في نوفمبر. الساعة الآن شارفت الثانية بعد منتصف الليل. أظنك نائمة هذه اللحظة. وهذا شيء حسن يافاطمة. نامي مادمت قادرة على ذلك، فلا شيء يقوي الأعصاب مثل النوم. أما أنا؟ ماذا أقول؟ دعيني لهم ياأميمة ناصب/ وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكب. أم أن الكلمة الأولى من هذا البيت ليست (دعيني). نسيت. وهذا غير مهم لأن ليلي طويل دائماً. ولم أعد أبالي، فما بقي من العمر قليلٌ ولا يستحق أن أبالي.. وقال لي عبد اللطيف: "لقد سألتني كيف يمكنها الحصول على نسخة من رواية الزورق". وقال: "كانت مريضة بعض الشيء في القاهرة". قلت: "أين تقيم؟ في أي فندق"؟. قال: "تركت الفندق". وقال: "إنها موجودة الآن في بيت صديقة لها، أظنها لبنانية، أو نصف ذلك". قلت: "هل تعرف رقم هاتف تلك المرأة نصف اللبنانية"؟. قال: "من السهل أن نحصل عليه. فهل تحب أن تتحدث إلى فاطمة"؟. قلت: "لست أرغب بشيء في العالم كما أرغب في سماع صوتها". قال: "سوف أحصل على الرقم". ونهض إلى الهاتف. قلت: "بمن ستتصل"؟. قال: "بأحد الأصدقاء في القاهرة". قلت: "لا تفعل". قال: "لماذا؟ ثم إنك مضطرب". قلت: "نعم. إني مشوش. أفكاري مشوشة.

كلما وردت سيرة هذه المرأة يتشوش عقلي، وتضطرب أفكاري، وتتناقض تناقضاً يبعث على الإرباك". قال: "يداك ترتعشان". قلت: "أعرف". قال: "لماذا"؟. قلت: "أفكاري هي التي ترتعش". قال: "لماذا"؟. قلت: "من سيرة فاطمة طبعاً". قال: "هل حقاً أنك لا ترغب في الاتصال بها"؟. ولم أرد على سؤاله. كيف لا أرغب بذلك؟ كيف؟! حتى أني أموت من الرغبة في سماع صوتها. تقتلني الرغبة في ذلك. ويقتلني الخوف من ذلك. أترى إلى مثنوية الأفكار التي تعصف بصديقك ياعبد اللطيف؟ لست أريد الاتصال بفاطمة، لأني خائف من فاطمة. هذا هو قراري الأخير ياصديقي. وهو قرار غير قابل للطعن. ثم إنني، وفي جميع الحالات، ضحية للتفاهة التي أوقعتني بها وجدان، وفاطمة من قبلها. وشعرت براحة كبيرة لقراري المفاجىء، وبراحة أكبر لأني اعتبرت نفسي غير محظوظ مع النساء، ولأن جميع النساء اللواتي أحببت قد تركنني. وقد تركنني بوحشية، ودون إحساس بالندم، وبعد أن سرقن جزءاً ثميناً من حياتي.. خرجت من بيت عبد اللطيف متأخراً قليلاً تلك الليلة، رحت أهبط الدرجات القليلة بخطوات أردت لها أن تكون ثابتة. وعندما صرت في الشارع كان إحساسي السابق بأني ضحية التفاهة قد بلغ ذروته، كانت ليلة باردة، ماطرة. وكان لذلك الإحساس الذي غمرني وقعٌ طيبٌ في نفسي على وجه العموم، وهذا مايحتم علي الآن أن أعمل بجد على الخروج من مستنقع التفاهة، وأن أنجو بجلدي من السخف، وأتسامى بمشاعري نحو كل ماهو مشرق ومقدس، وأوحّد طاقاتي الروحية والمادية، وأصعّدها فيما وراء دائرة الشهوات الخسيسة وطغيانها المادي المنفّر. كانت أفكاري بطيئة متأنية، ولكنها كانت مستقرة. وهذا ماجعلني أتنفس الهواء بعمق بعد أن شعرت بالحاجة إلى جرعة كبيرة من الأوكسجين النقي المغسول بالمطر. وشعرت بمتعة لم أعرفها من قبل وأنا أتناول هذه الجرعة النظيفة من كل شائبة. وحمدت الله أني تخلصت من مثنوية أفكاري التي كانت تعصف بي خلال السهرة في بيت عبد اللطيف. أوقفت سيارة أجرة. جلست بجوار السائق، وأغمضت عيني، واسترخيت. وكنت مرتاحاً إلى القرار الذي توصلت إليه، ومطمئناً إلى سلامته. كان صوت أحد المطربين يندفع من المذياع أمامي يقول: "ارحل ياحبيبي. أهلي مايرضون"، فابتسمت، ومددت يدي إلى زر إطفاء الراديو، فقال لي السائق: "هل تحب أن ترفع الصوت"؟، وأدركت من لهجة الرجل أنه يحب هذا المطرب، فقلت: "نعم". وأغمضت عيني من جديد، وهمست لنفسي ساخراً: لابأس، لابأس، وكنت أمنّي نفسي بحياة جديدة، أو بولادة ثانية. ولم يكن أمامي سوى العمل. فإلى العمل إذن، إلى العمل. رجعت إلى بيتي. أوقدت المدفأة،

ووضعت في المسجلة شريطاً لفيروز: (كيفك أنت؟)، ورجعت إلى أوراقي المنثورة على الطاولة.. كانت هذه الأفكار تنبثق من روحه مرتعشة وضّاءة، وهو يجلس في غرفته في الفندق، ويلقي برأسه إلى مسند إحدى الأرائك، ويلقي بذراعيه من حوله لتستقرا حيث تشاءان، ويغمض عينيه محاولاً أن يكون عطوفاً بأعصابه التي أجهدتها الغيرة والسهاد وكثرة الظنون خلال الأيام الفائتة التي سبقت الطلاق. ولم تكن محاولاته في هذا المجال تذهب سدى. فها هي عواطفه وأفكاره تصبح أكثر ثباتاً من لحظة إلى لحظة، ثم هاهي تستقر بعيداً عن الانفعال والحنق، وهاهو وجهه يتخلص من الكلال والشحوب، كأنما كل شيء تم بلمسة من نبي. حتى أن أجفانه استسلمت، من شدة هدوئه، أمام ذوبان روحه في هذه اللحظة التي بدت منسابة في الزمن الضائع.. بقيتُ أكتب حتى الصباح، وفي الصباح ذهبت إلى المؤسسة، والتقيت أسامة هناك. قال لي: "ليالي تريدك في أمر هام". وقلت في نفسي: ماالأمر الهام الذي تريدني فيه هذه المرأة؟ فأنا حتى لا أعرفها، رغم أنها تزوجت مؤخراً إلى أحد أصدقائي القدامى. رأيتها من قبل بالمصادفة مرة أو مرتين، ولم يكن بيني وبينها أكثر من كلمة: مرحبا. وقال لي: "هذا هو رقم هاتفها. اتصل بها حتماً". وقالت ليالي: "إنني أحمل إليك رسالة شفوية من فاطمة. التقيتها في القاهرة. كنت أفضل ألا نتحدث بالأمر على الهاتف. إنها تصر على أن أبلغك رغبتها في أن تكتب إليها حتماً". وقالت: "أين أنت الآن"؟. قلت: "في المؤسسة". قالت: "ممتاز. هيثم الآن هناك. لديه بعض الشغل عندكم. خذ العنوان من هيثم". قلت: "شكراً ياليالي". وانتهت المكالمة. وقلت في نفسي: من أجل أي شيء أتصل بفاطمة؟ مالي ولوجع القلب؟! ورغم ذلك، سألت عن هيثم قالوا لي: "ذهب إلى التلفزيون". وقلت في نفسي: هذا أفضل، فإنني لا أرغب في الكتابة إلى أحد، وبخاصة إلى فاطمة، وكنت أكذب طبعاً. ذهبت إلى بندر في مكتبه، وسألته إن كان يعرف عنوانك. قال: "إنه موجود في مكان ما هنا". وجعل يبحث عنه بين فوضى أوراق مجلة (الحياة السينمائية). وعثر على العنوان. كان مكتوباً بخط يدك على قصاصة ورق مهملة. قلت: "هل أنت واثق من أن هذا العنوان صحيح يابندر"؟. قال: "نعم". أخذت قصاصة الورق، ومضيت. وترددت يومين أو ثلاثة قبل أن أكتب أولى رسائلي إليك. لعلني لم أكن أرى جدوى من الكتابة. هذا غير الخوف منك طبعاً. ماجدوى الكتابة يافاطمة؟ هذا هو السؤال الذي طرحته عليك لمّا حسمت أمري أخيراً وكتبت بعد انقطاع دام أكثر من إحدى عشرة سنة. كنت في قلب الليل لمّا جلست إلى الطاولة، وشرعت بالكتابة. ليلة باردة. ثلج غزير يندف من سماء شديدة البياض. عام آخر

يوشك على الانقضاء. ماهي إلا أيام معدودات وتحلّ سنة جديدة. والوقت يمضي من دون استئذان. جلست إلى الطاولة بين المدفأة الموقدة، وبين صوت فيروز يغني: (كيفك إنت؟). ورحت أسألك: "كيفك إنتِ"؟. ولم أكن أؤمن بجدوى الكتابة. كنت أراك جرحاً لا براء منه، مهما تعاقبت السنون. كنتِ جرحاً لن يندمل في يوم من الأيام، فلم أكن أومن بجدوى الكتابة. اعترفت لك مرة بأني فكرت بمراسلتك بعد ١٩٩٢/٧/٢٦ ، ثم حسمت أمري سريعاً، وامتنعت من ذلك. خشيت أن أبدو سخيفاً وقتئذٍ، رغم أنك كنت في دمشق قبل ذلك التاريخ بشهرين أو ثلاثة، وكنت تسألين عني. ولا أعرف لماذا لم يدلّك أحد على مكاني. ربما كنتُ على نهر الدجلة، أو في مدينة (دير الزور) على نهر الفرات العظيم. كنت مع ماهر. مع (صهيل الجهات)، ولا أبعد عنك إلا خمس أو ست ساعات فقط. ورغم سؤالك عني لم أكتب إليك. مرة ثانية: إنه الخوف منك. وسوى ذلك: خشيت أن أبدو سخيفاً حين لا أتصل بك إلا بعد أن تم إشهار الطلاق بيني وبين وجدان. ثم إنك، وهذا هو السبب الجوهري الذي منعني من مراسلتك وقتئذٍ، لستِ عندي بديلاً لوجدان. لستِ عندي بديلاً لأية امرأة، ولم تكن أية امرأة لك يوماً ببديل. هذه هي حقيقة أكيدة يافاطمة. لم يخطر لي يوماً أن تكوني بديلاً لوجدان التي قالت لي: "أراك لم تعد مهتماً بي. ألم تعد تعتبر نفسك مسؤولاً عني بعد الطلاق؟ أم أنك لم تعد تحبني"؟. قالت ذلك بعد يومين أو ثلاثة في العام الجديد الذي هو العام الحالي ١٩٩٣ . التقيتها في المؤسسة. في مكتبها. صافحتها بود، كما صافحت من كان موجوداً في المكان، ولمّا خرجتُ من المكتب بعد أن شربت قهوة الصباح، لحقت بي إلى الممر. استوقفتني وقالت: "كيف فعلت هذا"؟. قلت: "فعلت ماذا"؟. قالت: "صافحتني كما بقية الحاضرين". قلت: "وماذا كان يجب أن أفعل"؟. قالت: "لماذا لم تقبّلني كما كنت تفعل بعد كل سنة جديدة"؟. قلت: "منعني الخجل من ذلك". قالت: "إذن، فأنت لم تعد تحبني". قلت: "أمرك محيّر ياوجدان. مذ رجعت من موسكو وأنت فاترة تجاهي، والآن تطالبينني بأن أقبّلك أمام الناس". وطفرت الدموع من عينيها. قلت: "حسناً، تعالي نتفاهم. ماالذي تفعلينه في هذه المؤسسة الغبية؟ هاتي حقيبتك ومعطفك وتعالي نخرج من هنا". وخرجنا. جلسنا في كافتيريا قريبة. قلت: "إن موقفي حيالك صعب ياوجدان. لو تركتك أخاف عليك. ولو اقتربت منك أخاف عليك أيضاً. أخاف أن أمارس عليك الوصاية. ومن الطبيعي أنني لا أريد شيئاً من هذا. ولو أن هذا ماأريده لما كان للطلاق مبررٌ أصلاً. أنت تقولين: سوف أستعيدك. رغم أني لم أعد أسمع منك هذه العبارة في الفترة الأخيرة. وأنا لن أقول

ذلك. بل أقول: أنت امرأة جيدة، وسوف أبذل أفضل ماعندي لكي لا أضيّعك إلى الأبد، إذ ليس من السهل العثور دائماً على امرأة جيدة. ولكني، في الوقت نفسه، لا أستطيع أن أمارس وصاية عليك. أريدك أن تأخذي حريتك كاملة، غير منقوصة. أريدك أن تمارسي تلك الحرية، لكي تكوني قادرة على معرفة ماتريدين بالضبط. فالأسباب التي أدّت إلى الطلاق، من وجهة نظري أنا، مازالت قائمة. لم يتغير شيء، فماذا أفعل؟ هل أمارس عليك مزيداً من الوصاية؟ ألا أكون أحمق حين أفعل ذلك"؟. قالت: "ولكنك تمارس عليّ نوعاً من الوصاية فعلاً". قلت: "كيف"؟. قالت: "هذه النقود التي تعطيني إياها. وتلك التي أعطيتني إياها قبل ذلك". قلت: "ياإلهي! فهل كانت مشكلتي معك يوماً في النقود ياوجدان؟ ثم إنني أعطيك نقوداً لأن دخلك سخيف. وليس ذنبي أن مرتبات العاملين في الدولة سخيفة إلى هذا الحد. لو كان دخلك جيداً لما أعطيتك أيّ قرش. وفي جميع الحالات، إن كنت ترين في النقود نوعاً من الوصاية فإنني سأتوقف عن مدّك بأيّ مبلغ". قالت: "تستطيع أن تتوقف عن ذلك، فأنا لست في ضائقة مالية. النقود التي في البنك تكفيني لسنوات عدة. أما الوصاية التي تتحدث عنها! حسناً.. تعامل معي بحقيقة مشاعرك نحوي، وبغض النظر عما يكون اسم ذلك، وصاية أو غير وصاية. إن كنت ترغب في أن تقبّلني، إذن قبلني، ومن دون حسابات مسبقة. أريدك أن تتصرف معي على نحو عفوي. هذا ماأطالبك به. ولاشيء أكثر من ذلك". ورجعت تبكي، ولكن بمرارة أكبر من السابق. قلت: "لماذا كل هذه الدموع"؟. قالت: "باتت الدنيا سوداء في عيني. لست أرى أيّ بصيص نور مهما كان شحيحاً. إنني ضائعة ياحسن. ضائعة، ومشتتة، وتائهة، ومتعبة. إنني متعبة جداً. وضع أمي الصحي يزداد سوءاً من يوم إلى يوم. بدأت تفقد القدرة على النطق والحركة. وأبي صار دائم الاكتئاب. وأخي لا يهمه شيء إلا تجارته. وإيمان مشغولة ببيتها وزوجها وطفلها. وميساء تدرس، فهذه هي سنتها الأخيرة في الجامعة كما تعلم. وأماني تحضر للشهادة الثانوية.. أعباء الجميع واقعة علي أنا. أنا وحدي. إنني أموت من التعب. الغسيل، والطبخ، وتنظيف البيت، ومراعاة وضع أبي، ومراجعة الأطباء من أجل أمي. إنني أراجع الأطباء في كل يوم تقريباً. وقبل هذا كله عليّ أن أفكر بك أنت: هل تنام جيداً؟ ماذا تأكل؟ هل تدخن على الريق؟.. ياربي! كم أستطيع أن أتحمل"؟.. خرجنا من الكافتيريا وهي تكفكف دموعها، إذ أنها لم تتوقف عن البكاء لحظة واحدة. قلت لها: "لا ترجعي إلى المؤسسة. اذهبي إلى البيت، وحاولي أن ترتاحي ولو ساعتين". وأطاعتني. أخذت سيارة أجرة، وانصرفت. ورجعتُ إلى المؤسسة. التقيت بريمون.

قال لي: "هل تمانع لو دعونا وجدان إلى الندوة"؟. قلت: "إنني لا أفهمك ياريمون. كيف تسمح لنفسك بأن تفكر على هذا النحو؟ وجدان شخص عزيز عليّ، بل هي شخص عزيز جداً". كانت الندوة حول رواية (الزورق). كانت الندوة الوحيدة التي شاركت بها. الندوة الأولى. وأرجو أن تكون الأخيرة أيضاً، فأنا لا أحب الحديث عن شغلي. ولا أحب حتى المقابلات الصحفية، كما أخبرتك من قبل. وفي الحقيقة أن ريمون عرض المسألة أولاً على أنها تكريم لي. قال: "آمل أنك لن ترفض تكريمنا لك". وقلت في نفسي: لو رفضت تكريمهم (الحزب الشيوعي) لي في هذه الظروف (تفكك الاتحاد السوفياتي) فلسوف أبدو سخيفاً، أو حتى جباناً. قلت: "حسناً ياريمون. يسرّني ذلك". كانت مجلة (الهدف) الفلسطينية قد كرمتني بسبب رواية (الزورق) قبل ذلك الحديث مع ريمون بأسبوعين تقريباً. ولكني لم أذهب إلى حفل التكريم. ذهب وليد ابن أخي بدلاً مني. وصعد إلى المنصة، واستلم الهدية أو الجائزة، أو لا أعرف ماأسميها. وقال للجميع إن عمّه لم يحضر بسبب أشغال طارئة لديه، ولا تقبل التأجيل.. ولم تكن لدي أشغال طارئة أو غير طارئة تمنعني من الحضور. لم أكن أريد تكريماً. وهذا كل شيء. أما الوضع مع الشيوعيين، فإنه مختلف، وبخاصة في هذه الظروف بالذات، فوافقت على التكريم. غير أن ريمون فاجأني بعد ذلك بأمر لم أكن أحبه. قال: "نود لو يسبق التكريم ندوة حول رواية (الزورق). سوف نصنع ملفاً عن هذه الرواية لمجلة (دراسات اشتراكية). أرجو أنك لن ترفض". قلت: "أنت تضعني تحت الأمر الواقع. مادمت وافقت على التكريم، سأوافق مرغماً على الندوة". وكانت الندوة. وحضرتها وجدان. وفوجيء كثيرون بوجودها هناك. فوجئت ليالي على نحو خاص. جاءت إليّ بعد الندوة، وجلست بجواري، ودار بيني وبينها حديث عنك بحضور وجدان. وأنا كنت البادىء في الحوار. وكانت ليالي مرتبكة. قلت لها: "لا عليك ياليالي، فأنا ووجدان مطلقان. وحتى لو لم نكن كذلك فإن سيرة فاطمة أمر عادي في حياتنا". لكنها ظلت مرتبكة إلى أن انصرفت وجدان، وقد انصرفت مبكرة نسبياً. راحت ليالي عندئذٍ تتحدث عنك بطلاقة. قالت: "أظن أنك تظلم فاطمة يابن عمي". يبدو أن جميع الفلسطينيين أبناء عمّها. قلت: "ربما كان ماتقولينه صحيحاً ياليالي". قالت: "هل كتبت إليها"؟. قلت: "كتبت". قالت: "آمل أن تتفاهما أنت وهي". قلت: "وأنا آمل ذلك أيضاً. ولكن تريدين الحق ياليالي؟ لست متفائلاً كثيراً". قالت: "هل أفهم من هذا أنك لا تحبها"؟. قلت: "بل افهمي من ذلك عكس ماتقولين تماماً". قالت: "أين المشكلة إذن"؟. قلت: "أظن أن المشكلة في فاطمة". قالت: "لم ألمس عندها شيئاً من هذا". قلت: "إنّ غداً لناظره قريب".

وكان الغد، وكانت رسالتك إلي. وأسرعتُ أردّ عليها. وأسرعت أعرّي نفسي أمامك، وأنزع قشورها عن جوهرها. وعلى رأي أم كلثوم: "جددت حبك ليه بعد الفؤاد ماارتاح؟ حرام عليك. خليه غافل عن اللي راح". ولكن هل ارتاح الفؤاد منك يوماً مذ ودعتك في صباح ذلك السبت الملعون قبل اثنتي عشرة سنة من الآن؟ هل ارتاح الفؤاد يوماً؟!! لاحت تباشير الفجر. في مسجد حينا مؤذن صوته نشاز، وأخطاؤه اللغوية تبعث على النرفزة.. "سبحان من قسم الأرزاقِ". تصوري أنه يجر المفعول به!! أشكّ في أنه يحسن قراءة القرآن رغم أنه خادم الجامع. والجامع يعني القرآن أولاً. والقرآن هو اللغة العربية التي كم أتمنى لو أني أعرفها على نحو جيد! فكم هي جميلة هذه اللغة! وكم استيعابها عصيّ عليّ! إنها مثلك أنت يافاطمة. كلاكما عصيّ عليّ الإمساك به.. إنه الصباح. هل أستطيع أن أنام؟ سوف أحاول ذلك.. إنه الصباح. إذن، عِمِي صباحاً يافاطمة!

٦

اليوم ذهبت إلى المؤسسة. الأوضاع هناك تزداد فوضى. النقاشات ساخنة. ماهر شديد الانفعال، أحاول تهدئته في كل مرة ألتقيه فيها. إنني خائف عليه. قضيت اليوم معه قرابة ساعتين، حاولت خلالهما إقناعه بعدم صواب منطقه الذي يودي به إلى هذا الانفعال كله. وضع الثقافة السينمائية المتردي ليس مرهوناً بشخص معين، كائناً هذا الشخص من كان. هو يعتقد أن تغيير رجل أو رجلين في الإدارة يكفي من أجل حل الأزمة الخانقة التي تعيشها المؤسسة هذه الأيام، بدءاً من تردي القاعدة التقنية وانتهاء بالعلاقات الإنسانية المتردية بين السينمائيين السوريين. أحاول إقناعه بعدم صواب هذا المنطق، رغم موافقتي إياه أن الحالة مزرية ومعيبة. إنني أحاول أن أرى الأمر من زاوية أوسع: ثمة انهيار شامل في الثقافة كلها. ليس الثقافة السورية فحسب، بل العربية عموماً. ثمة ضياع شامل لهذه الثقافة سببه ضياع الهوية، فنحن الآن أمة بلا هوية. قد تقولين لي: ماهذا الكلام الخطير الذي تتفوه به ياحسن؟! وأقول لك: ربما كان كلامي هذا خطيراً، ولكني سأقول كلاماً أكثر خطورة منه: لعل التيار الإسلامي الأصولي يلاقي بعض النجاح في هذا البلد العربي أو ذاك لأنه وحده الذي يمتلك هوية بين جميع التيارات الأخرى. لن أدخل الآن في جدل حول هذه النقطة. ولكن، إن التقينا، نتحدث باستفاضة في هذا الكلام الذي ربما كان خطيراً من رجل يعتبر نفسه علمانياً. أعود إلى ماهر، إنه يصر على موقفه السابق: تغيير الإدارة، وهذا في النهاية شأنه، فتركته وشأنه، رغم خوفي عليه من الانفعالات الشديدة. خرجت من المؤسسة برفقة ديانا الحلوة كالملاك. جاءت إلى الموعد المضروب في الوقت المحدد. لم تتأخر سوى دقيقتين اثنتين فقط. اعتذرت عن التأخير، وجلست تستمع إلى الفوضى السائدة. ولم أتركها تنتظر طويلاً. ذهبنا إلى مطعم غير مطعم المرة السابقة. طلبت صحناً من البيتزا. وطلبتُ صحناً من اللحم المشوي. قالت لي أثناء الطعام: "يدك ترتجف". قلت: "قضيت الليل أكتب. ولمّا ذهبت إلى الفراش في الصباح، اكتشفت أني غير قادر على النوم". قالت: "ماذا تكتب"؟. قلت: "لست واثقاً. ابتدأ الأمر برسالة. ثم تطور لا أدري كيف. أظنني أكتب رواية". قالت: "هل اخترت لها عنواناً"؟. قلت: "ربما كان العنوان: رسالة إلى

فاطمة". استوقفها العنوان. لمعت عيناها ببريق غريب، وسادت لحظة من صمت. قالت: "هل كان اسمها فاطمة"؟. قلت: "من"؟. قالت: "زوجتك السابقة". قلت: "لا. وجدان". وقالت لي وجدان مرة في الصيف بعد عودتي من اللاذقية: "أرجو أن تقطع علاقتك بهذه البنت، فقد بدأ الناس يثرثرون. إنها في العشرين من عمرها بعد. وأنت من جيل أبيها". قلت: "ولكنني لا أريد شيئاً من هذه البنت ياوجدان". قالت: "هذا سبب آخر يجعلك تقطع علاقتك بها". قلت: "بل هو سبب لكي لا أقطع العلاقة بها". قالت: "أنت حر. أنا خائفة على سمعتك. وهذا كل شيء". قلت: "ثم إن هذه البنت لا تريد شيئاً خاصاً مني". قالت: "وما أدراك"؟. قلت: "كل مافي علاقتنا يوحي بذلك". قالت: "أنا أيضاً كنت في العشرين من عمري لمّا التقيتك أول مرة". قلت: "ولكنني الآن لست في السابعة والثلاثين من عمري. لقد مر أكثر من عشر سنوات على ذلك اليوم الذي التقيتك فيه أول مرة". قالت: "عشر سنوات ليست شيئاً ذا قيمة. فلا أحد يستطيع أن يراهن على مشاعر وأفكار بنت في العشرين، فالبنت في هذه السن قادرة على فعل أي شيء، حتى لو بدا ذلك الشيء خارجاً عن كل منطق". وقالت: "صحيح أنك تقدمت في السن. لكن منطقك تقدم هو الآخر. وحديثك مازال شيّقاً. بل إنه شيّق أكثر من السابق". قلت: "وهل ارتبطت بي بسبب منطقي وحديثي"؟. قالت: "أعترف بأن هذا لعب دوراً في قراري بالارتباط بك". وقالت: "وفي جميع الحالات، أرجو أنك لن تحدثها عن فاطمة. إنك بذلك تورطها". قلت: "أورطها بماذا"؟. قالت: "بحب التضحية". قلت: "ياإلهي! فهل ورّطتك ياوجدان لمّا حدثتك عن فاطمة"؟. قالت: "أعترف بأني اندفعت إليك أكثر بسبب قصتك الحزينة مع فاطمة". قلت: "فهل كنت تضحين بشبابك"؟ قالت: "لا أحد يستطيع أن يراهن على مشاعر وأفكار بنت في العشرين من عمرها". وقالت ديانا الحلوة كالملاك: "البيتزا سيئة". قلت: "ماذا أطلب لك ياديانا"؟. قالت: "لا شيء. سأكتفي بهذه السلطة". وقالت: "أنا أيضاً أسهر. لكن ليس إلى الصباح. سهرت بالأمس حتى الثانية والربع. كنت أقرأ دروسي. وكان مذياع صغير أمامي على الطاولة. بثّوا أغنية لفيروز عند الساعة الواحدة تقريباً. وقد تأثرت بها". قلت: "أية أغنية"؟. قالت: "مشوار". قلت: "أغنية جميلة". قالت: "أغنية حزينة". وجعلت تردد بعض كلماتها: مشوار جينا عالدني مشوار. قلت: "نعم ياديانا. يبدو أن حياتنا ليست إلا مشواراً". قالت: "وماذا بعد المشوار"؟. قلت: "أظنك تؤمنين بالله". قالت: "نعم. إنني أؤمن بالله". قلت: "إذن، ليس من مبرر لسؤالك. هناك الآخرة". قالت: "إنني أؤمن بالآخرة. إنني أؤمن بالله وملائكته وكتبه

ورسله. إنني أصوم رمضان. وأصلّي في رمضان. وأصلّي خارج رمضان أحياناً". وقالت: "أنت لا تصلّي، أليس كذلك"؟. قلت: "أنا لا أصلّي". قالت: "هل تصوم"؟. قلت: "أنا لا أصوم". قالت: "حرام". قلت: "ربما". وقلت: "سأطلب لك شيئاً غير البيتزا". قالت: "لا أريد". وقالت: "ماذا تنوي أن تشتري من ثياب؟ ماذا بالضبط"؟. قلت: "كل شيء من أجل فصل الشتاء". قالت: "كل شيء"؟. قلت: "نعم". قالت: "أرجو ألا تتدخل في طريقتي بالشراء". قلت: "لن أتدخل". وقلت في نفسي: سوف تشتري لي ثياباً بلون السماء في فصل الصيف. ذهبنا إلى سوق الصالحية. لدى هذه البنت أسلوبها في شراء ماتحب شراءه. قالت لي: "نبدأ من الكنزة". قلت: "لماذا نبدأ من الكنزة"؟. قالت: "اتفقنا أنك لن تتدخل. ومع ذلك، سوف أشرح لك لماذا. الكنزة هي القطعة التي نرتديها في فصل الشتاء أكثر من أي قطعة أخرى". قلت: "معك حق". قالت: "نشتري كنزتين صوفيتين أو ثلاثاً". قلت: "كما تحبين". رحنا نتفرح على البضاعة المعروضة في واجهات المحال التجارية الكثيرة. ولمّا لفتّ انتباهها إلى كنزة صوفية سماوية، قالت: "لا، هذا اللون لا يناسبك". نظرتُ إليها غير فاهم شيئاً، وأدركت مغزى نظرتي، فابتسمت وقالت: "إن هذا اللون لا يناسبك في فصل الشتاء. هذا ماأردت قوله. من الأفضل أن نبحث عن اللون الخمري أو البني أو الكحلي. هذه الألوان تليق بك، وتليق بالشتاء أيضاً". قلت: "أنت أدرى مني". قالت باسمة: "معك حق، فأنا أدرى". اشترينا أولاً كنزة بنيّة اللون. قالت: "نشتري لهذه الكنزة قميصين وبنطلونين وجوربين وحذاء وسترة". قلت: "أنت أدرى". وجعلنا نشتري، ونشتري. ولمّا كنت أقيس بنطلوناً في الحجرة المخصصة لذلك في أحد المحال التجارية، اشترت هي قميصاً. ولمّا حاولتُ أن أدفع ثمن القميص أيضاً، قالت: "لقد دفعت ثمنه". قلت: "كيف هذا"؟. قالت: "إنه ليس لك. اشتريته هدية لشخص قريب". قلت: "ومع ذلك...". قالت مقاطعة: "إنه لا يكون هدية لو أشتريه بنقود غير نقودي". قلت: "معك حق. وأنا آسف ياديانا". ولمّا انتهينا من الشراء أخيراً، وكان الظلام قد حلّ منذ أكثر من ساعة، قلت لها: "أرافقك إلى البيت". قالت: "لا، أذهب وحدي". وأصرّت على الذهاب وحدها. استوقفت سيارة أجرة، فتحت بابها الخلفي، وصعدت. قلت: "انتظري ياديانا. نسيت القميص. نسيت هديتك إلى ذلك الشخص القريب". ومددت إليها بالقميص في كيس من النايلون. ابتسمت، وقالت: "أنت هو الشخص القريب". وأغلقت باب السيارة التي انطلقت في الحال. والتفتت إليّ من وراء الزجاج، ولوّحت بيدها مودعة، وتركتني في الشارع حائراً، عاجزاً عن الرهان على مشاعر وأفكار بنت في

العشرين من عمرها. يبدو أن وجدان على حق. صار لزاماً عليّ أن أفكر بطريقة لإنهاء العلاقة بهذه البنت قبل أن أورطها في الحديث عن فاطمة، وعن وجدان، وناتاشا، والحزن الذي سببته لي هذه النسوة الظالمات، وعن العقم الذي بي، والأرق المزمن، وعن كل مامن شأنه أن يحرّك مشاعر وأفكار بنت في العشرين من عمرها، ويجعلها مثل زوبعة هائجة مندفعة إلى حب التضحية بلا حدود.. رجعتُ إلى البيت. وضعت المشتريات الكثيرة على طاولة كبيرة في الصالون، وذهبت إلى عيادة الدكتور موفق أشكو له الآلام في معدتي. قال لي بعد الفحص: "المعدة سليمة، لكن القولون متشنج، يجب أن تتوقف عن تعاطي هذه الأدوية، وإن لم تتحسن رقبتك بالعلاج الفيزيائي، فهناك العلاج الكيميائي. يمكن حقن مواضع الألم بمادة مؤثرة. أما هذه الحبوب فيجب أن تتوقف عنها لأنها هي السبب في تشنج القولون، وربما أثّرت قريباً على المعدة. وقبل هذا وذاك، عليك بالراحة". قلت: "إنني أكتب هذه الأيام". قال: "يجب أن تتوقف عن الكتابة. سبق ونصحتك بذلك. يجب أن تتوقف عن الكتابة حتماً". قلت: "لا أستطيع". قال: "لماذا"؟. قلت: "كيف أشرح لك الأمر؟ إنني لا أستطيع التوقف عن الكتابة يادكتور". قال: "أمرك محير ياأستاذ حسن. أنت، بصراحة، لا تساعدني، فكيف أستطيع أن أساعدك؟! يبدو أنك تحب أن تكون مريضاً". قلت: "والله إني لا أحب أن أكون مريضاً. لكنني الآن في وضع لا يسمح لي بالتوقف عن الكتابة يادكتور". قال: "تدخن كثيراً لمّا تكتب. أليس كذلك"؟. قلت: "نعم". قال: "كم سيجارة في اليوم"؟. قلت: "من ستين إلى سبعين". قال: "وكم فنجان قهوة تشرب"؟. قلت: "عشرة على الأقل". قال: "وكيف شهيتك للجنس"؟. قلت: "أنت تعرف أني أعيش بلا امرأة هذه الأيام". قال: "لا. لست أعرف. ماأعرفه هو أنك انفصلت عن زوجتك منذ عام أو أكثر بقليل. لكني لا أعرف إن كان لديك صديقة أم لا". قلت: "لا". قال: "هذا شيء سيء. بل إنه سيء جداً، فالمرأة ضرورية بالنسبة إليك. ليس من أجل الجنس فقط. بل من أجل الرفقة، ومن أجل سلامة النفس والأعصاب". وصمت لحظة، وأضاف: "لا أعرف ماذا أقول. لا أستطيع ألا أنصحك بالتوقف عن تعاطي هذه الحبوب. هذه نصيحتي إليك. والقرار قرارك. وبالمناسبة، كيف نومك"؟. قلت: "أفكاري ناشطة". قال: "هل تتعاطى موغادون"؟. قلت: "نادراً". وقلت: "يبدو أن ذهني المتوقد يقاوم تأثير موغادون. أخذت قرصين، ذات ليلة، قبل شهر من الآن تقريباً، ولم أنم". قال: "غير معقول". قلت: "هذا ماحصل". قال: "هل أفهم من كلامك أنك لا تنام"؟. قلت: "تقريباً لا أنام". قال: "إذن، فأنت تنتحر". قلت: "ليس هذا ماأريده". قال: "هل

تعرف ياأستاذ حسن؟ أنت لست في حاجة إلي. أنت في حاجة إلى نفسك. أنت طبيب نفسك. رأيي بوضعك الصحي صار واضحاً. وكل ماأستطيع أن أفعله الآن هو أن أصف لك دواء يفكك التشنجات في القولون، ودواء آخر يجعلك تنام. أو قد يجعلك تنام". قلت: "هل هو ذلك العقار الذي كان له مفعول السحر والذي أعطيتني إياه بعد وفاة أبو النور"؟. قال: "لا. ذلك الدواء غير متوافر في الصيدليات، وأنا في الحقيقة أملك بعضاً منه، ولكني لا أعطيه لأحد إلا في الحالات الإسعافية فقط. وحالتك اليوم ليست تندرج تحت هذا العنوان". قلت: "نعم. إنها لا تندرج تحت هذا العنوان. حتى أن معنوياتي جيدة. وذلك طبعاً لأنني أكتب". قال: "يجب أن تتوقف عن الكتابة". قلت: "لن أتوقف عن الكتابة".. ذهبت بعد الطبيب إلى بيت أخي. كان الجميع حاضراً. سألتني زوجة أخي عن وجدان. قلت: "إنني لا أراها". قالت: "هل يعني هذا أنكما لا تفكران بالعودة عن قرار الطلاق"؟. قلت: "نعم". قال أخي: "كم مضى على الطلاق إلى الآن"؟. قلت: "إنني لا أعد الأيام". قال: "طوال هذه المدة وأنا لا أتدخل في شؤون أخي، واليوم سوف أسمح لنفسي ببعض ذلك". قلت: "ماذا"؟. قال: "ألن تتزوج"؟. قلت: "إنني لا أفكر بالزواج الآن". قال: "لماذا"؟. قلت: "لأنني مشغول بأمر آخر غير الزواج". قالت طالبة الهندسة: "ياسلام ياعمي"!. وقالت: "نريد أن نفرح. إننا لم نفرح منذ زمن بعيد". وبدا لي أن الكل متفق ضدي. قلت: "أنا مشغول الآن بالكتابة". قال أخي: "الكتابة لا تغني عن المرأة ياحسن. الكتابة لا تغني عن المرأة. صدقني. بل إن المرأة تجعلك تكتب أفضل". قلت: "سنرى". ورجعت إلى بيتي. إلى طاولتي وأوراقي. رجعت إلى رسالتي إليك يافاطمة. فإليك ماجرى.. لمّا استلمت رسالتك الأولى بعد ذلك الانقطاع الطويل شعرت بالأرض تميد من تحتي. كنت في المؤسسة. كان نهاراً بارداً من نهارات شهر فبراير، رغم أنه نهار مشمس. أمسكت الرسالة بيد مرتجفة، وتأملت المغلف طويلاً. ولم أجرؤ على فضّه. وضعت الرسالة في جيب سترتي الداخلي، واحتفظت بها هناك قرابة نصف ساعة. والأرض تميد من تحتي لدرجة أني جعلت أترنح. جلست في مقعد قريب في غرفة يحلو لي الجلوس فيها أنا وعبد اللطيف الذي لاحظ تشوشي، فقال: "مابك"؟. قلت: "لو سمحت، اطلب لي قهوة ثقيلة مرّة". قال: "سأطلب لك قهوة ثقيلة مُرّة، ولكن مابك"؟. قلت: "شيء من قبيل الدوخة". قال: "من دقائق فقط كنت تضحك، فماذا جرى؟ ولماذا لم تفتح الرسالة؟ ومن الذي أرسلها إليك"؟. قلت: "فاطمة". قال باسماً: "إني أفهمك". ورفع سماعة الهاتف أمامه، وطلب قهوة لنا نحن الاثنين من البوفيه، وقال لي من دون أن يكف

عن الابتسام: "إني أفهمك". شربت القهوة الثقيلة المُرّة. وطلبت فنجاناً آخر. وشربته، ودخنت ثلاث سجائر. وكنت لا أجرؤ على النهوض من المقعد خشية ألا تحملني قدماي المرتجفتان مثل يديّ فأسقط على الأرض. مرق أحدهم في الممر، وطرح السلام، فاستوقفه عبد اللطيف، وراح ينكت معه عبر باب الغرفة المفتوح. أظنه كان يسعى من وراء ذلك إلى التخفيف من حالي البائسة، وهو يرى إلى توتري، وإلى الرجفة في يدي وأنا أمسك بفنجان القهوة. أيّ رجل عبد اللطيف هذا؟ أيّ صديق؟ ومن هو الصديق؟ وماهي الصداقة؟ قد نقول: هي منفعة متبادلة بين شخصين. قد نوصّفها على هذا النحو. وقد نكون صائبين في هذا التوصيف. الصداقة منفعة متبادلة بين فلان وعلّان، أو بين زيد وعمرو. وربما كان هذا هو جوهر العلاقة بيني وبين عبد اللطيف. منفعة متبادلة. منفعة متبادلة دائماً. منفعة متبادلة بالقدر نفسه من كلا الطرفين، ومن دون زيادة أو نقصان، وعلى جميع المستويات. وأول تلك المستويات هو إحساس كل طرف بالأمن المطلق في رفقة الطرف الآخر. هذا هو عبد اللطيف بالنسبة لي: الشعور بالأمن من دون حدود.. الشعور بالأمن. أظن أن هذه هي الصداقة، ولست أرى لها وجهاً آخر قبل هذا الوجه. وكل ماتبقى إنما يجيء لاحقاً، ليس في المرتبة الثانية، بل في المرتبة الخامسة، أو حتى السادسة.. هذا هو جوهر الصداقة.. وملعون من يخون صديقه.. تجرأت أخيراً ونهضت من المقعد، قلت لعبد اللطيف: "سأخرج إلى الشمس". قال: "إني أفهمك". خرجت إلى الطريق، ووقفت في الشمس على رصيف قريب، ومددت يداً مرتجفة إلى جيب سترتي الداخلي، وأخرجت المغلف من هناك، واستشعرت مرارة مضنية من الأيام، ورحت أطوف ببصري على وجهي المغلف، وحاولت أن أطرد ذلك الشعور بالمرارة من نفسي البائسة المضطربة المريضة بك. بك وحدك. بك وحدك أبداً. إنني أعترف بضعفي تجاهك. أعترف بذلك أمامك، وأمام العالمين. أعترف بأني أوشكت على الجنون بسببك ذات وقت. أعترف بأني أوشكت على الدمار أيضاً. بماذا تريدين بعد أن أعترف؟ فضضت المغلف بسرعة من هو أمام عمل لا يحبه، ولا يطيق على احتماله صبراً. فضضت المغلف كمن يسعى إلى الانتهاء من مهمة بشعة. أربع أوراق، أشك في أني قرأتها. أشك في أن أكون قد فعلت شيئاً أكثر من النظر إليها بسرعة الضوء قبل أن أعيدها إلى المغلف، وأعيد المغلف إلى جيب السترة الداخلي... "أخيراً غفرت ياحسن"؟. هذه هي العبارة الوحيدة التي تذكرتها من القراءة الأولى لتلك الأوراق الأربع التي خيّل إليّ، ولست أدري لماذا، بأنها مكتوبة على عجل.. أصابتني القراءة الثانية بصدمة في جملتي العصبية، بعد أن أيقنت بأني عاجز عن

وضع نقطة في نهاية السطر لقصتنا العصيّة على الانتهاء، وعاجز عن إيقاف نوبات العذاب التي تعصف بي بين وقت وآخر. ومن يدري؟ لعلني كنت أنشد العذاب في القرارة من نفسي، فأصبحت نتيجة لذلك أكثر الناس على الأرض بؤساً وتعاسة.. رجعت إلى بيتي ذلك اليوم باكراً بعض الشيء. لم أكن قد تناولت طعام الغداء. ولم يكن لدي ماأتناوله على العشاء. وبالأصح: لم أكن أبالي. حتى أني نسيت الطعام. ونسيت كل شيء آخر بسبب الألم من فرط انتمائي إليك. قلت في نفسي: هاهو الباب ينفتح على مصراعيه من جديد. الباب المودي إلى العذاب طبعاً. كان عقلي مشوشاً، ورغائبي متنافرة. وكنت أفضل لو أغلق ذلك الباب، وأستريح. غير أني كنت عن ذلك عاجزاً. فماذا أقول؟ وكيف أرد على رسالتك؟ لم أصدق رغبتك في اللقاء، فجعلت أتشبث بكلماتك حول ذلك. جلست أكتب إليك. كتبت صفحتين أو ثلاثاً. ومزقتها. كنت أعاني قلة التركيز. حسناً.. ماالذي أريده منك؟ كان بي رغبة أكيدة في لقائك. لكن ماذا بعد اللقاء؟ لست أعرف. كل الذي أعرفه أني أحبك، وأخافك، وأموت شوقاً إليك. جلست أكتب من جديد. ورجعت أتشبث بكلماتك حول ضرورة اللقاء. أتذكر أني كتبت لك ذلك البيت من الشعر: وصلينا نصلُك في هذه الدنيا فإن المقامَ فيها قليلُ. وكدت أن أكتب أيضاً: زَوِّدينا من حُسنِ وجهكِ مادامَ/ فحسنُ الوجوهِ حالٌ تحولُ... وكلا البيتين للمتنبي. وكلا البيتين من القصيدة التي مطلعها شهيرٌ أو أكثر من شهير: مالنا كلُّنا جوٍ يارسولُ/ أنا أهوى وقلبك المتبولُ. وجوٍ من الجوى، والجوى: حرقة الحب. وكتبت لك غير الشعر كلام من الشمال ومن اليمين. كانت رسالة ينقصها الانسجام، ويعيبها التبجح. هذ ماأتذكره الآن. وأتذكر أيضاً أني حاولت أن أقول لك كل شيء عني في صفحة ونصف صفحة. أم أنها كانت أطول من ذلك؟ كان بي حاجة لأن أقدم لك تقريراً كاملاً عن كل ماجرى لي منذ افتراقنا قبل نحوٍ من اثنتي عشرة سنة. أيّ: هذه الرسالة التي أكتبها إليك الآن. ولست أعتقد بأن صفحة ونصف صفحة غير كافية لمثل هذا الأمر. بل ربما كانت أكثر من كافية، فأنا أؤمن بالإيجاز، وبضرورة الإيجاز. وأؤمن بما قالته العرب: خير الكلام ماقلّ ودلّ. وأؤمن أيضاً بعبارة أظنها لتشيخوف: الإيجاز قرين العبقرية. غير أني لم أحسن الإيجاز. إنني لست عبقرياً. وهذا أمر لا يقبل جدلاً عندي. ومع ذلك، لم تكن قلة عبقريتي السبب الوحيد في التخبط الذي مارسته وقتئذٍ. بل إنها لم تكن السبب الأول. فالسبب الأول في تخبطي ذاك هو فوضى المشاعر التي كنت أعيش فيها تلك الأيام. كانت وجدان تعاني ظروفاً هي في غاية الصعوبة، فقد بدأ مرض أمها يأخذ طابعاً يبعث على تدمير أعصابها. كانت

المرأة تعاني سكرات الموت، وقد ماتت في تلك الفترة بالفعل. وكانت أعباء المرض والأهل تثقل كاهلي وجدان، بحيث لم تعد تجد راحة إلا في لقاءاتها المسروقة معي. وكنت أجدني مهتماً بها، وعاجزاً عن عدم الاكتراث بأوجاعها المتزايدة من يوم إلى يوم. فرحت أبذل مابوسعي لكي أمنعها من الدمار. وأظنني أصبت بعض النجاح في ذلك. وكنت راضياً عن نفسي، رغم قناعتي المطلقة بأني لست أرغب في العيش مستقبلاً مع امرأة سواك. ورغم قناعتي أيضاً بضرورة وضع حدٍّ لتناقضي أنا، وليس لتناقض وجدان. حسناً، أنا لم أعد مجرماً أبدياً. برّأت ذمتي. برّات نفسي،، ولكن ماذا عن الطرف الآخر الذي هو وجدان طبعاً؟ كانت تقول لي خلال لقاءاتنا المسروقة: "عندما نرجع إلى بعضنا سوف أشتري كذا". "عندما نرجع إلى بعضنا سوف نقيم حفلة بمناسبة كذا". كانت في كل مرة تقول لي: "عندما نرجع إلى بعضنا". إذن، هي تجعلني في حل من ذلك الإحساس بالجريمة الأبدية. هي تقطع علي الطريق، وتنفي السبب الذي جعلني أنشد الطلاق. وهنا يصير علي أن أقرر الخطوة التالية. يصير علي أن أتشبث بالسبب الآخر الذي لا تستطيع وجدان أن تنفيه، بل حتى أنها لا تملك الحق في ذلك. وماذا يكون ذلك السبب الآخر إلا رغبتي في العيش معك أنت؟ لن أمارس مزيداً من التناقض. لن أقضي ماتبقى لي من عمر وأنا أعشق امرأة، وأعيش مع سواها. لن أمارس مزيداً من البؤس. ولكني كنت عاجزاً عن أن أقول ذلك لوجدان في تلك الفترة بالذات، كنت سأبدو وحشاً من الوحوش. وهكذا، لم يبق أمامي إلا أن أظل ملتزماً بتناقضي السابق ذاته، وأن أرضى مرغماً بهذا القدر الذي بدا لي أن لا فكاك منه: أعشق امرأة، وأعيش مع سواها. أو، وربما كان هذا هو الصحيح، أعشق امرأتين في آن، وأتعلق بامرأتين في آن. وأعيش مع إحداهما، وتظل الثانية رؤيا بعيدة، مجرد رؤيا، أو مجرد وهم. وهل أنت في حقيقة الأمر وهم يافاطمة؟ لقد طرحت عليك هذا السؤال من قبل. هل أنت مجرد وهم لا أتمنى زواله في يوم من الأيام؟ أجيبيني. وهل أنت وجع لا دواء له؟ أخبرتك مرة بالانهيار العصبي الذي أصابني في أثينا. غير أني لم أقصّ عليك الأمر بالتفصيل. ولن أفعل ذلك الآن أيضاً، فقد كان أمراً فظيعاً. ولكني أحب أن تعلمي بأني لم أكن أعرف شيئاً اسمه المهدئات قبل أثينا. ولا أتذكر أني تناولت في حياتي قرصاً واحداً منها إلا بعدما يئست من قدومك، أو: بعد الانهيار العصبي الذي وقعت فيه آنذاك، ومن حسن الحظ أن شاباً سورياً، اشتغل سابقاً في المؤسسة، كان يقيم تلك الفترة في أثينا، اهتم بي، وأخذني إلى عيادة أحد الأطباء، ثم غادرت الفندق بناء على نصيحة الطبيب المعالج، وأقمت تسعة أيام في بيت ذلك الشاب، صرت بعدها

أفضل حالاً، فركبت الطائرة، ورجعت إلى دمشق. وفي دمشق عاودني المرض، فجعلت، أتردد على عيادات الأطباء المختصين بالأمراض النفسية والمختصين بالأمراض العصبية أيضاً، وانتهى بي الأمر إلى المهدئات التي أدمنت عليها قرابة عشرين شهراً. فهل أنت لي إلا وجع لا براء منه؟! ليتك لم تكتبي لي في تلك الفترة ياوجعي، فكم كنت في تلك الفترة ضائعاً! لم أكن أستطيع أن أتخلى عن وجدان. لم أكن أستطيع ذلك. أو لعل تلك حجتي التي أغطّي بها رغبة باطنية لديّ تدفعني إلى الاحتفاظ بهذه المرأة.. لما ماتت أمها، أصرّت على أن يكتبوا اسمي في ورقة (النعي) بصفتي صهراً للمرحومة. وأرسلت زوج أختها إليّ على الخامسة صباحاً لكي يبلغني النبأ (ماتت المرأة ليلاً). لم أكن قد نمت حتى الخامسة. ثم لم أنم بعد ذلك. في النهار ذهبت إلى الجنازة. ومساء ذهبت إلى العزاء. ولم أتمكن من رؤية وجدان. كان خوفي عليها كبيراً. كنت أخشى على صحتها من الانهيار التام. ولم أعرف كيف أتصرف. إنها التقاليد. ثمة عزاء للذكور، وثمة عزاء للإناث. كم نحن أمة بائسة! لحق بي زوج الأخت، لمّا غادرت البيت، إلى الشارع، استوقفني وقال هامساً: "لك رسالة ياعديل". قلت: "كيف وجدان"؟. قال: "إنها ليست بخير". ودسّ في يدي قصاصة ورق مطوية خمس أو ست طيات.. حبيبي حسن. إنا لله وإنا إليه راجعون. أمي ماتت ياحسن. ماذا أقول؟ لا أعرف. أتمنى أن نلتقي قريباً حتى تنتهي هذه الظروف اللعينة التي وضعتنا فيها. وأتمنى بعد كل ماحدث لأمي وما صارت إليه الأمور أن أموت بقربك أنت تحديداً وبين يديك. اشتقت إليك. وكم تمنيت أن تكون بقربي في هذه الظروف العصيبة لأنني فعلاً بحاجة إليك. لا تحزن. هكذا القدر. وجدان.. لم أرها إلا بعد أسبوعين تقريباً على تلك الرسالة. رأيتها في المؤسسة. كانت تبدو شبحاً من الأشباح. تنتعل حذاء كحلياً، وترتدي جوروباً كحلياً، وتنورة كحلية، وكنزة كحلية، وسترة جلدية سوداء، أتذكر أني اشتريتها في واحدة من سفراتي وإن كنت لا أتذكر أين بالضبط. ربما في مدينة هامبورغ الألمانية. وكانت تضع شالاً أبيض رقيقاً على رأسها. كان ذلك يومها الأول في المؤسسة بعد وفاة أمها. دخلتُ مكتبها فوجدت فيه بعض المعزّين. وما إن لمحتني حتى نهضت من خلف طاولتها، وارتمت علي، وأراحت رأسها المتعبة على كتفي، وطفقت تبكي بمرارة. وطال بكاؤها عشرين دقيقة أو يزيد، ورأسها على كتفي. وأظن بأنه لم يبق أحد في المؤسسة إلا وتملكته الدهشة من هذه العلاقة بين وجدان وبيني. أخذتُ حقيبتها من على الطاولة بيدي اليسرى، وأحطتُ رقبتها بذراعي اليمنى، وخرجت بها من المؤسسة تحت أنظار الجميع. والجميع كان مندهشاً. أخذتها إلى كافتيريا

قريبة، وطلبت لها طعام الفطور. كان واضحاً لي أنها لا تصيب في البيت شيئاً من طعام، وأنها فقدت حُسن وجهها، وحُسن الوجوه حال تحولُ. تناولتْ في الكافتيريا بعض الخبز وبعض الجبن وبعض الشاي. وأقنعتها بضرورة أن نلتقي غداً، وبعد غدٍ، وبعد بعد غد. كنت أحمل إليها في كل لقاء جديد أنواع الشوكولاته المختلفة، وأصحبها إلى مطعم غير مطعم المرة الماضية، وأتحايل عليها بألف طريقة من أجل أن تتناول وجبتها. وتجاملني غالباً، وتتناول شيئاً من طعام. وكنت راضياً عن نفسي تمام الرضا، وناقماً على نفسي تمام النقمة، وغاضباً تمام الغضب، فبينما أغرق يوماً بعد يوم في "العودة" إلى وجدان، أجدني لا أفعل شيئاً من أجل أن أستعيدك ياوجعي. رحت أغرق في التناقض الذي بدا لي قدراً محتوماً. أترين؟ كان التخبط السبب الأول، وقلة العبقرية السبب الثاني، والنتيجة رسالة تفتقر إلى الانسجام من أي نوع. حتى أني ندمت على أني بعثت بها إليك. ندمت، بوجه خاص، على أني ذكرت لك تلك الحادثة التي وقعت لي في مطار موسكو ذات ليلة بعيدة. كانت تلك الحادثة سراً من الأسرار التي حرصت على إخفائها حتى عن نفسي، لأن ذكراها تصيبني بالرعب.. مساءٌ بارد من أحد أيام شهر مارس - ١٩٨٣ - أنا عائد إلى دمشق. طائرتي تقلع على الثامنة. وصلت المطار على الساعة الخامسة برفقة أحد الأصدقاء الروس. كنت شبه سكران من كثرة ماشربت من الفودكا على الغداء. جلست مع صديقي الروسي في إحدى كافتيريات المطار، وشربنا بعض البيرة قبل أن نتوادع أخيراً. انصرفت إلى إجراءات السفر الروتينية: الجمارك أولاً، ثم رجال الحدود، دخلت قاعة الترانزيت على حوالي الساعة السابعة. مازال أمامي بعض الوقت الفائض. رحت أتسكع في أرجاء القاعة الطويلة العريضة ببواباتها الكثيرة جداً، وأسواقها الحرة الكثيرة أيضاً. مررت أثناء تجوالي ببعض مسافري الترانزيت الذين لا ينتمون بعد إلى أي من البوابات الكثيرة. إنهم من أولئك المسافرين العابرين في مطار موسكو، بغض النظر من أين جاؤوا، أو إلى أين هم ذاهبون، وهم خاضعون لمواعيد إقلاعهم غير المعلن عنها بعد في أي مكان. لاشك في أن كلاً منهم يعرف متى سيرحل: بعد منتصف الليل، عند الفجر، في الصباح. هكذا ظروف سفرهم. وأنا نفسي مررت في مثل هذه الظروف. حسناً، ماهمّني؟! أعلنت المذيعة عن وصول الطائرة السورية من دمشق. إذن، مازال أمامي أربعون أو خمسون دقيقة. لابأس مرة ثانية. كنت كالعادة مفلساً. ولكن لا حاجة بي إلى النقود. لديّ بعض العملة السورية تكفيني لدفع أجرة التاكسي من المطار إلى البيت. تكفيني وتزيد أيضاً. رحت أتسكع في الأسواق الحرة. أتفرج وحسب، مللت من الفرجة هناك، فجعلت أتسكع بين البوابات الكثيرة

التي تغصّ بالمسافرين إلى كل مكان من الدنيا. مسافرو هذه البوابة إلى طوكيو، وهذه إلى لندن، وهذه إلى باريس، وهذه... ياإلهي! كم هي شركة (ايروفلوت) عملاقة! إنها تغطي العالم كله. تطير إلى مدن لم أسمع بها من قبل. شركة عملاقة بقدر ماهو الاتحاد السوفياتي عملاق. ماهمّني! رجعت أمر بأولئك المسافرين الذين لا ينتمون بعد إلى أي من البوابات الكثيرة. مساكين! قلت في نفسي. أعرف أنهم مساكين من تجربتي الشخصية، فقد اضطرتني الظروف أكثر من مرة إلى الانتظار الطويل في المطارات المختلفة. وفي مثل هذه الحالات يكون الكتاب رفيقاً طيباً. أو الكحول، أو قد يكون النوم أمثل الحلول. كلٌّ حسب أعصابه. كلٌّ حسب علاقته بمسألة الانتظار.. ثمة امرأة تقرأ في كتاب. تمدّ ساقيها أمامها على طولهما، وتسند رأسها إلى ظهر المقعد حيث تجلس. والكتاب يحجب بعضاً من وجهها عني. ولا يحجب شعرها. شعرٌ أسود، فاحم، غزير، مسترسل. امرأة ترتدي ثياباً لا تناسب برد موسكو. كنزة صوفية قرميدية اللون، هي في الأرجح من شغل يدوي، برقبة عالية فضفاضة يبين من تحتها قبة قميص بكارويات صغيرة حمراء برتقالية، معطف خفيف من ذلك النوع الذي يصلح لطقس ماطر غير ذي برد شديد، هو بلون التراب في بريّة عذراء بُعيد المطر. وبأزرار كبيرة عندمية اللون، انحلّت من عراها. بنطلون جينز ضيق، داكن الزرقة. جورب صوفي سميك، وردي. حذاء بلون الطحالب في ماء طال ركوده، رباط أبيض محكم الشد في أنشوطتين صغيرتين. من أين جاءت هذه المرأة، وإلى أين هي ذاهبة؟ ليس من أرض باردة، ولا إلى أرض باردة. جلستُ في أحد المقاعد قبالتها. يدان ناعمتان تمسكان بكتاب لست في حاجة إلى قراءة عنوانه من شدة وضوح ذلك العنوان. دون كيخوت (يمتطي) فرسه العجفاء، و(يشهر) سيفه استعداداً للحرب مع طواحين الهواء. جعلت أنظر إلى أصابع الكفين الصغيرتين. ليس فيهما خاتم من أي نوع. ربما كانت امرأة لا تحب التبرج. لعلها تحتقر الذهب. ولعلها ليست متزوجة. ومن يدري؟ ربما كانت امرأة مطلّقة. وهذا احتمال جائز طبعاً. هي امرأة شابة دون ريب. شابة وإن كنت لا أرى وجهها كلّه. يداها فتيتان، وشعرها فتي، وبنطلون الجينز يليق بها تماماً. وقد تكون شابة مطلّقة. ثمة شابات مطلقات كثيرات على هذه الأرض. ماسمها؟ ومن أي البلاد جاءت؟ ألا يمكن أن تكون عربية؟ لكل بنات العرب اسم واحد. "إنّا محيّوك ياسلمى فحيّينا". وجعلتُ أنسج قصة من حولها. وطاب لي الأمر، بل إنه شاقني. قلت: كم عمرها؟ وقلت: لعلها في الخامسة والعشرين. كنت أرى جبينها على نحو لابأس به. بدا لي أغرّ وإن كان غير ذي بياض. بدا عريضاً، وبخاصة في جانبه الأيمن حيث فرقت شعرها الأسود

الغزير. هي امرأة فرعاء على نحو لا يقبل شكاً ولا ريبة. كانت تلقي برأسها إلى مسند المقعد بلذة المستفيق من نوم هانىء طويل. ليس من أرض باردة هي قادمة، ولا إلى أرض باردة أوبتها. فهل إلى بوينس آيرس تأوبين ياامرأة لوّحت الشمس بشرتها؟ قولي لي من فضلك: إلى أين أنت طائرة؟ أجارتنا؟ أزيحي هذا الكتاب من بيني وبينك، فهو يسترك عني. يحجبك. ففيم لا تسفرين؟ وفيم لا يكون كشف بيننا؟! كم عمرك يادقيقة الخصر؟ أجيبيني. ثم ألست عربية حقاً؟ أجيبيني من فضلك. انظري إلى عيني الحمراوين من السكر، وقولي لي مالون عينيك. لا تبخلي علي بمثل هذا الكشف، فمثلك ليس ببخيل. أعرفك مذ كان لك عشرٌ من سنين، تجوبين الطرقات حافية القدمين وتنزلين إلى ماء البحر بثوب شفيف ولا شيء دونه. ويلي علي! أي بائس أنا! أي بائس! تركت المرأة وشأنها. مازال أمامي بعض الوقت الفائض. رحت أتجول في أنحاء القاعة الفسيحة من جديد. ثمة مجموعة من الصبايا والشباب الروس يشكلون حلقة صغيرة، ويغنّون في انتظار السفر. أحدهم يعزف على الأكورديون.. أنا أتسكع في شوارع موسكو، وما زلت قادراً على عبور المحيط المالح الهادي، وسهوب التوندرا، وغابات التايغو.. "غني لي ياناتاشا". "ماذا تحب أن تسمع"؟. "كنت مرة في مراكش". سهرنا، شربنا، غنينا.. "تأخر الوقت، تأخر الوقت كثيراً ياشباب. تأخر الوقت كثيراً ياصبايا، محطات المترو أغلقت أبوابها، وقد لا تعثرون على سيارة أجرة في هذه الساعة. ثم ماذا ستفعلون في بيوتكم؟ الطقس بارد جداً في الطريق يابنات. أخاف عليكم ياأصدقائي من الرشح. ابقوا هنا. ابقوا هنا". "وأنت ياناتاشا؟ وحسن ياناتاشا"؟. "لاعليكم، لا عليكم. ننام في المطبخ. ننام في المطبخ. لقد نمنا على البدريس في رحلتنا إلى الفولغا. أليس كذلك ياحسن؟ أخبرهم أنت. حتى أننا كنا سعداء ونحن نفترش البدريس. ننام في المطبخ، لا عليكم. وإن احتجتم إلى شيء من المطبخ فيما تبقى من الليل، أو عندما تستيقظون في الصباح، فلا تخجلوا من المجيء إلينا. لا تخجلوا. هيا ياتانيا، وأنت يافاليري، اتركي حقيبتك ياماريا، لا مبرر لخروجكم في هذا الوقت المتأخر وهذا الطقس اللعين ياساشا. هيا، ولا تضيعوا الوقت، فأنا أريد أن أنام. لديّ عمل كثير في الصباح. ليلة سعيدة ياأصدقائي. تدبروا أموركم. تعرفون البيت خيراً مني. تعال ياحسن. ليلة سعيدة ياأصدقائي"!. "ليلة سعيدة ياناتاشا! ليلة سعيدة ياحسن"!. "هل أنت بردان"؟. "لا أشعر بالبرد بين ذراعيك ياناتاشا. لا أشعر بالبرد بين ذراعيك حتى لو كنا في الغابة ياناتاشا". "مابك إذن؟ مابك إذن ياصغيري"؟. "لم يعد يخلو البيت من أحد ياناتاشا. لم نعد نخلو بأنفسنا ياناتاشا. في البيت أصدقاء لا ينتهون. وفي

الشارع والمطعم أو أي مكان عام آخر معجبون يكثر عددهم من يوم إلى يوم". "فماذا أفعل ياحسن؟ ماذا أفعل؟ أليسوا أصدقائي؟ فهل أتخلى عن أصدقائي؟ ثم ألم تقل لي إنهم صاروا أصدقاؤك أيضاً؟. "هذا صحيح ياناتاشا! هذا صحيح، ولكن..". "ولكن ماذا؟ ولكن ماذا؟". "كيف ماذا يا ناتاشا؟ حتى أني صرت أخاف عليك. نهارك كلّه عمل في عمل. وليلك كلّه تحضير طعام وشراب، وغناء، وعزف على الغيتار، وهاتف لا يكف عن الرنين، واستقبال ووداع، وقبل هذا كله، لم نعد نخلو بأنفسنا ياناتاشا! لم نعد نخلو بأنفسنا". "فماذا أفعل ياحسن؟ ماذا أفعل؟ ثم لماذا كل هذا الخوف علي؟ فأنا لا أشرب الكحول كما ترى. لا أشرب في اليوم أكثر من كأس بيرة واحدة". "ليس هذا ماقصدته ياناتاشا". "أعرف. أعرف. اسمع. لديّ فكرة. لدي فكرة أظنها سوف تعجبك. تعال نستأجر شقة بعيدة. لا نخبر بأمرها أحداً. لا ندع أحداً يعلم بمطرحها. نقضي فيها ليلة في الأسبوع وحدنا أنا وأنت. أو ليلتين. وحدنا تماماً. فما رأيك"؟. "كم يسعدني هذا الأمر ياناتاشا". "لا تحزن ياصديقي. لا تحزن. سوف أعمل من غدي على تحقيق هذه الفكرة الرائعة. أليست رائعة هذه الفكرة الطيبة"؟. "إنها فكرة رائعة يا ناتاشا. فكرة رائعة طيبة. ولكن..". "ماذا أيضاً ياحسن"؟. "أريد طفلاً منك يا ناتاشا". "وأنا أيضاً أريد ذلك ياصديقي". "فأين نصنع الطفل ياناتاشا؟ في المطبخ"؟. "وما عيب المطبخ ياصديقي"؟. "في هذا البرد يا ناتاشا"؟. "البرد أفضل من الحر في أمر كهذا الأمر". "إنني لا أمزح يا ناتاشا. إنني أفكر بطفل منك يا ناتاشا". "وأنا أيضاً لا أمزح ياصديقي". "أريد طفلاً منك ياناتاشا". "فهل البرد يمنعك من ذلك ياصديقي"؟. "إنني لا أشعر بالبرد بين ذراعيك ياناتاشا". "إذن، فلنصنع ذلك الطفل ياصديقي".. "هاقد فشلنا في صناعة ذلك الطفل يا ناتاشا". "سننجح في المرة القادمة ياصديقي. أظنني لم أكن مستعدة للأمر تماماً". "ماذا لو كان أحدنا عقيماً يا ناتاشا"؟. "ماهذا الكلام السخيف؟! ماهذا الكلام السخيف ياعزيزي؟! وماهو العقم أصلاً؟ وهل بعد هذه الحياة الرائعة التي نعيشها من خصب ياصديقي؟ دع عنك هذه الأفكار السوداء. يبدو أنني لم أكن مستعدة للأمر تماماً. وسوف أستعد له جيداً ذات يوم، فلابأس، لابأس. ثم فيم العجلة؟ فيم العجلة ياحسن؟ مازلنا شابين صغيرين. ولسوف يأتي يوم ننجب فيه ذلك الطفل حتماً. تعال نغني.. أنا أتسكع في شوارع موسكو، ومازلت قادراً على عبور المحيط المالح الهادي، وسهوب التوندرا، وغابات التايغو".. "لا ليس هذه الأغنية يا ناتاشا.. كل شيء ساكن في الحديقة. لا. اسمعي. ليس هذه أيضاً. لحظة. أين الغيتار؟ غني لي. كنت مرة في مراكش، لو سمحت يا ناتاشا، فهاتي الغيتار يا

ناتاشا". "حسناً أيها البدوي. سوف أغني كنت مرة في مراكش. سوف أغنيها من أجلك مادمت تحنّ إلى جذورك أيها البدوي الذي لا يشبه البدو". "روحي تهيم في مراكش يا ناتاشا". "لكنك لم تكن هناك يوماً". "لم أكن هناك يوماً يا ناتاشا. لم أكن هناك يوماً". "وتحنّ إلى حيث لم تكن يوماً أيها البدوي"؟!. "لأني بقربك يا ناتاشا. أحنّ إلى جذوري لأني بقربك يا ناتاشا"... آه لو عادت تلك الأيام يافاطمة! آه لو عادت! إذن، "لفارقتُ شيبي موجع القلب باكياً". اللعنة على المتنبي. كم أنا عبد لهذا الرجل!! ورجعتُ مرغماً. أزيحي هذا الكتاب من بيننا ياامرأة أعرفها كريمة. كريمة أعرفك مذ كنت تنزلين إلى ماء البحر بثوب شفيف ولا شيء دونه. ويحدق الفضوليون من الرجال في جسدك لحظة خروجك إلى رمال الشاطىء من الماء الأزرق المديد. وتمدين لهم لسانك وتنصرفين دونما عجلة. أعرفك مذ رفعت لهم ثوبك مرّة إلى السرة هازئة بحلالهم وحرامهم. أعرفك كريمة أيتها الدعجاء. أولست دعجاء ياامرأة؟ أزيحي هذا الكتاب، ولا تجعليه فراق بيني وبينك. أريني عينيك الواسعتين شديدتي السواد، وأنفك الذي أورثك إياه أجدادك الأقدمون إفريقياً رغم صغره. كيف أورثوك إياه إفريقياً وأنت اسبانية أباً عن جد؟! أجارتنا! مالك ولدون كيخوت؟! إنها قصة بالية. عندي منها ماهو أفضل. انظري إليّ واستمعي. انظري إلي ودعيني أمتع البصر بحسن وجهك يالذيذة المبسم! أوليست الرباعيات في فمك العذب كبيرة قليلاً، والأنياب صغيرة قليلاً؟ هل تراهنين على عكس ما أخمّن؟ إذن، أزيحي هذا الكتاب من بيني وبينك، وانظري إلي، واستمعي إلى قصة هي من شر البلية أشد إضحاكاً وسقماً وبلاء ومرارة وسأماً من السأم الذي تقرأين. انظري إلى القتيل "قتيلك"، ولا تسأليني "أيهم"، فأنا أعرف أنهم كثر. شركة الطيران السورية تعلن عن إقلاع رحلتها رقم ٤١٧ إلى دمشق. شركة الطيران السورية تعلن عن إقلاع رحلتها رقم ٤١٧ إلى دمشق. هذا النداء يخصني سيدتي، أم أقول آنستي؟ هذا النداء يخصني، فأنا رغم سكري أعرف بعض اللغة الروسية، وبعض اللغة الانجليزية أيضاً. وأعرف أنهم يدعونني للتوجه إلى البوابة رقم زفت. لكنني لن أتزحزح من مطرحي قبل أن أرى إلى الظلال الرائعة تتماوج في وهدتي خديك تحت الكرسيين المتوردين. لن أتزحزح من هنا، صدقيني. أنصحك بأن تصدقيني، فأنا لم أكن مبالياً في يوم من الأيام. قضيت عمري متسكعاً. نزلت في أرقى الفنادق، ونمت على البلاط عشراً من ليالي بيروت الذبيحة في واحد من مبانيها المهدمة.. تسكعتُ كثيراً ياامرأة مذ تغربت في أرض الله وماء الله، وعرفت براءة اللمسة الأولى، والمفاتن المستورة، والسعادة العابرة، والابتسامات الوادعة، والعيون الخضر، والعيون السود،

والعيون اللمّاعة جذلى من الجنس وفرط النشوة، ومحطات سكة الحديد، والموانىء، والمطارات، والثلوج، وأزهار الربيع، والغابات الكثيفة، والمروج الندية، والكونياك الأرمني، والشباب المتفجر، والأجساد الفتية التي تحطم العوائق في طريقها بلا رحمة لكي لا تكون حبيسة ذاتها، وقهوة الصباح السخينة، والوجنات المحمرّة خجلاً، والوجنات المحمرة برداً، والنهود الرجراجة، والسيقان العامرة، وشواطىء البحار، والقبلات المحمومة، وتنهدات ماقبل الوداع، ونداءات الإقلاع الأخيرة، والعناقات الحارة، وتشابك الأصابع، والفراق، والأيدي الملّوحة بغصّة الرحيل، ورجال الأمن، والالتفاتات الأخيرة، والغياب، والجوع، والتشرد، وشقاء المرض، ومرض الشقاء، والجثث المتعفنة التي لم تمهل الطائرات الأحياء من دفنها، وإكرامُ الميت دفنه سيدتي، أم أقول آنستي؟ والقنابل التي كانوا يرمونها من الجو هدايا للفقراء والبائسين، القنابل الموقوتة، والقنابل غير الموقوتة، عنقودية يسمونها، وفراغية يسمونها، وانشطارية يسمونها أيضاً. كدت أضرب إحداها بقدمي في شارع مهجور ملأته القنابل الكبيرة بالحفر الكبيرة. ظننتها من شدة (علمي) بأمرها حجراً صغيراً من صوّان، وكان بيني وبين أن تطير قدمي في الهواء عشرين متراً أقل من سدس ثانية. شدني من ذراعي ضابط من أصدقاء طفولتي اسمه محمد دغمان خاض حرباً طاحنة في تسعين يوماً ولم تبيض شعرة واحدة في رأسه، فمات في واحدة من مستشفيات أوروبا حيث لم يحسنوا استئصال الزائدة الملتهبة في بطنه وارتحل من دون أن يستشيرني بالرحيل. ودّعته في مخيم صبرا، فهل تعرفين هذا المخيم؟ هل تسمعين به سيدتي؟ إنه مكان شهير. أقام فيه بيغن وشارون واحدة من أكبر الولائم في تاريخ البشر. وليمة من الأجساد الآدمية. ذبحوا سكانه شيباً وشباباً، نساء وأطفالاً. كانوا حاقدين على صبرا. لم يتمكنوا من دخول المخيم حين كان يدافع عنه المقاتلون، فدخلوه بعد رحيلهم، وذبحوا أهله. "طوبى لفاتح قرية! طوبى لسفاح الطفولة"!. ودّعت صديقي في مخيم صبرا. قال لي: "هل تعرف مزبلة بيروت"؟. قلت: "مررت بها قبل عشر سنوات". قال: "ثلاثة أيام ونحن نتطاحن معهم من أجل السيطرة عليها". قلت: "ولمن كانت الغلبة"؟. قال: "لليهود". وقال: "كنت أنا من خسرها". وقال: "اللعنة علي". وقال: "أحنّ إليها". وشدني من ذراعي، ومنع قدمي من أن تطير في الهواء عشرين متراً، أو ثلاثين. وتوادعنا، ركب البحر إلى مالست أدري أين. وركبت البر إلى دمشق. وتركنا بيروت وراءنا. ومن قلبي سلامٌ لبيروت. هل تعرفين بيروت سيدتي؟ أم أقول آنستي؟ وسيدة كنت أو آنسة فإنني لست مغادرك من قبل أن أمتّع ناظري بتلك الظلال الرائعة في وهدتي خديك.. هذا النداء يخصني أيضاً. مازلت

أعرف بعض الروسية، وبعض الانجليزية. هذا النداء الأخير يخصني، وأنا قضيت عمري لا مبالياً، فلماذا أبالي اليوم؟ لماذا والظلال في وهدتي خديك أغلى عندي من الحياة التي صرفتها يميناً وشمالاً في غير ماعجلة؟! ولماذا أتعجل الآن حتى لو كانوا يبحثون في هذه اللحظة عن مسافر ضائع اسمه حسن يوسف؟! هاهم ينادونني باسمي. هل تسمعين؟ أم تراك تجهلين الروسية والانجليزية؟ هذا الذي ينادونه هو أنا الجالس قبالتك منتظراً الكشف عن طلعتك البهية أيتها المرأة الريّانة، فانظري إلي أخيراً.. "لا. إني لست مسافراً إلى دمشق ياآنسة". وانصرفت المضيفة تبحث عن مسافر ضائع. وجاء شرطي أيضاً يبحث عن مسافر ضائع. والمسافر ليس ضائعاً، بل هو مملوء بالحلم الضائع، ومملوء بالتوق إليه، فلن تحرموني منه أيها العسس. لن أسمح لكم بذلك. سوف أضيّعكم في زحمة المسافرين إلى كل المدائن التي سمعت بها والتي لست باسمها سامعاً من قبل. سوف أضيعكم. صدقوني. سوف أضيع السلطة السوفياتية كلها. لن تقدروا عليّ. لن تقدروا على روحي الموسومة بلعنة الحب وأشواقه. اتبعوني ياأيها الشرطة. اتبعوني في هذا الزحام وذاك الزحام. وأنصحكم بألا تفعلوا. أعرف. أنكم لن تدققوا في جوازات سفر ذلك الخلق كله، وأعرف أنكم لن تشلّوا حركة المطار. ثمة طريقة أكثر بساطة أنصحكم بها، ولست أظنكم في حاجة إلى نصيحتي هذه. فليتعرف كل مسافر إلى حقيبته، والحقيبة الزائدة تكون لي أنا، فامنعوها من السفر، وافتحوها من دون عناء فأ لا أسافر بحقيبة مقفلة. لم أفعل هذا في يوم من الأيام. افتحوا الحقيبة، وفتشوها، وعرّضوها لأجهزة الأشعة لديكم، وافعلوا بها ماشئتم، مزقوها إن أحببتم، فلن أطالبكم بأية تعويضات بل سوف أعتذر لكم عن هذا العناء الذي تكبدتموه في التفتيش عن متفجرات أو مخدرات، أو أية ممنوعات أخرى، سأعتذر عن أني أخيّب ظنكم حين لا تعثرون إلا على بعض الثياب التي تحتاج إلى تنظيف، مع بعض الهدايا لطفل عمره أقل من ثلاث سنين بثلاثة شهور. وهو طفل رائع أيها الشرطة، رغم أنه لا يحسن النطق بعد. اسمه فراس. وهو أصغر أبناء أخي أبو النور. هل تعرفون أبو النور؟ لن أقصّ عليكم حكايته، فهي حكاية معروفة للجميع دون ريب. هي حكاية الابن الضال الذي عاد إلى البيت بعد طول اغتراب فغرّر بأخيه الصغير، من دون قصد، أو بقصد، لكي يتمم ماابتدأه هو من اغتراب. اتبعوني يارجال الأمن.. مازلت قادراً على عبور المحيط المالح الهادي. اتبعوني. هل مللتم؟ وسهوب التوندرا. وغابات التايغو. والطائرة السورية تتهادى على المدرج. وفاجأني القمر. كان بدراً. وكان قريباً بحيث يمكنني الوصول إليه مشياً على القدمين لولا الزجاج السميك أمامي ولولا اشتياقي إلى الظلال الرائعة في

وهدتي ذلك الوجه الذي لوحته الشموس الكثيرة. أية سعادة! وأية أوهام! وأي سجن ذاك الذي حبست فيه روحي البائسة؟! ورجعت مرغماً. ياإلهي! تلك المرأة أنت يافاطمة. وأنت لم تكونيها. كانت قد وضعت الكتاب في يسارها، وتناولت علبة سجائر (ميريت) من حقيبة يدوية صغيرة على مقعد في يمينها، بجانب حقيبة أخرى أكبر قليلاً، امتلأت ببعض حاجات امرأة راحلة إلى أرض بعيدة عن أرضها. وهنالك على الحقيبة شال أسود شفيف برسومات من التراث الروسي منذ (روبلوف) العظيم. أشعلت سيجارتها بولاعة بترولية اللون هي في الأرجح من ماركة (كليبر). والتقت عيني عيناها، ورأتني أسألها سؤالاً لم يجرِ قوله على لساني. ولم تعرفيني. ولمتك. وقلت في نفسي: كيف لا تعرفينني يافاطمة؟! ابتسمت لي، ولست أدري لماذا، ومدّت إليّ بعلبة السجائر. فقلت: هل تعرفينني أخيراً؟ وقلت: "شكراً، لا أريد سيجارة". قلت ذلك بالانجليزية، فهزت كتفيها قليلاً، وتبسمت، فتراقصت الظلال الرائعة في وجنتيها. وقالت بالايطالية ثلاث أو أربع كلمات لم أفهم منها شيئاً. قلت: "هل تتحدثين الانجليزية"؟. قالت: "لا". قلت: "هل تتحدثين الروسية"؟. قالت: "لا". قلت: "فماذا عن العربية؟ هل تتحدثين العربية"؟. وكنت واثقاً من أنه سؤال عقيم، لكن ثقتي سرعان ماتحطمت على شفتيها لمّا قالت: "طبعاً". قلت: "غير معقول". ونهضت من مقعدي، واقتربت منها، وقلت: "هل تسمحين"؟. قالت: "طبعاً، تفضل". جلست في جوار المقعد حيث يستريح دون كيخون من عناء حربه مع طواحين الهواء. قلت: "أنت عربية إذن"؟. قالت: "نعم. ولكنني أحمل الجنسية الايطالية". قلت: "ومن أين أهلك بالأساس"؟. قالت: "من الجزائر. وأنت"؟. قلت: "فلسطيني، أنا فلسطيننني". قالت: "أنا أحب الفلسطينييننن". قلت: "شكراً". قالت: "على ماذا تشكرني؟ وبالمناسبة،، مااسمك"؟. قلت: "حسن". قالت: "اسمي سلمى". قلت: "أعرف". قالت: "ماذا"؟. قلت: "لجميع بنات العرب اسم واحد، هو سلمى، إنّا محيّوك ياسلمى فحيّينا. هل تعرفين هذا الشعر"؟. قالت: "نعم". قلت: "قولي لي من فضلك، هل انتظارك طويل هنا"؟. قالت: "بقي أمامي أربع ساعات. وأنت"؟. قلت: "لا أعرف". قالت: "كيف لا تعرف؟ إلى أين أنت مسافر"؟. قلت: "إلى دمشق". قالت: "أظنهم كانوا يذيعون عن رحلة إلى دمشق". قلت: "سمعتهم. لكن الطائرة صارت الآن في الأجواء". قالت: "فما الذي منعك من السفر"؟. قلت: "أنت". قالت: "باردون"؟! قلت: "أنت من منعني من السفر". قالت: "هل هذه حزورة أم نكتة"؟. قلت: "هيْ نكتة، لكنها حقيقة". قالت: "دعنا نتفاهم بهدوء، انتظر...". قلت مقاطعاً: "بل انتظري أنت. وقولي لي من فضلك:

هل تملكين نقوداً صالحة للتداول في هذا المطار"؟. قالت: "هل أنت في حاجة إلى نقود"؟. قلت: "نعم". قالت: "كم تريد"؟. قلت: "لا أريد شيئاً. أريد، إن كنت لا تمانعين، أن تشتري لي كحولاً أشربها". قالت: "بكل سرور". وكانت ذاهلة. وقالت: "ماذا أشتري لك"؟. قلت: "هل تشاركينني الشراب"؟. قالت: "لست أمانع في تناول زجاجة من البيرة". قلت: "نشتري زجاجتين إذن". قالت: "بل نشتري ثلاث زجاجات إن كانت هذه هي مشكلتك". قلت: "لا. ليست هذه هي مشكلتي". قالت: "فما مشكلتك"؟. قلت: "نشتري البيرة أولاً". قالت: "كما تحب". وقلت: "في صحتك ياسلمى". قالت: "في صحتك". وقالت: "لماذا تسافر بلا نقود"؟. قلت: "في الحقيقة أني كنت أملك مبلغاً طيباً من الدولارات الأمريكية حتى صباح هذا اليوم. لكن ثمة رجل سوري موجود هنا الآن طلب أن أقرضه مالاً، فأعطيته ذلك المبلغ الطيب. كنت مسافراً. وليس بي حاجة إلى تلك النقود. غير أني فوجئت بك. لم أكن أتوقع أن ألقاك ههنا، فاضطررت على عدم السفر، وهكذا صرت بلا نقود". قالت: "اسمع. أعرف أني في أمان هنا. أعرف أن النظام في هذا البلد صارم، والأمن مستتب. وحتى لو كان الأمر غير ذلك فإنني لا أشعر بالخوف منك. لا أظنك تضمر لي شراً، إذ لا يبدو عليك أنك من المجرمين، غير أن حيرتي كبيرة. فمن أنت؟ وماذا تريد مني؟ وكيف منعتك أنا من السفر"؟. قلت: "أخشى أنك لن تصدقيني". قالت: "بل أصدقك". قلت: "إنك تشبهين امرأة أحبها. تشبهينها شبهاً عظيماً. حتى أني في لحظة ظننتك هي". قالت: "ياربي"!. وقالت: "فلماذا لم تقترب مني، وتتحدث إلي فتعرف أني لست تلك المرأة، وتسافر"؟. قلت: "ليست المشكلة هنا". قالت: "أين المشكلة إذن"؟. قلت: "إنني سعيد الآن بوجودي معك". قالت: "ألأني أشبه تلك المرأة"؟. قلت: "نعم". قالت: "أي بائس أنت"!. وقالت: "ماذا كان اسم تلك المرأة"؟. قلت: "فاطمة". قالت: "من أي البلاد هي"؟. قلت: "من المغرب". قالت: "وهل تشبهني فعلاً"؟. قلت: "كما تشبهين نفسك ياسلمى...". قالت: "تعال نجلس". قلت: "تعالي". قالت: "حدثني عن فاطمة لو سمحت، فليس من شيء يروقني كالاستماع إلى قصص الحب الحزينة". قلت: "ماذا أقول"؟. قالت: "هل كانت زوجتك"؟. قلت: "لا. لم تكن زوجتي. وقد لا تصدقين لو قلت لك إننا لم نعش معاً إلا فترة قصيرة". قالت: "كم"؟. قلت: "سبعة وعشرين يوماً". قالت: "على أية حال، العواطف لا تقاس بعدد الشهور والسنين". قلت: "أظنك على حق ياسلمى". قالت: "ثم ماذا"؟. قلت: "حدث هذا قبل عامين تقريباً. التقينا في دمشق. وافترقنا في دمشق. واتفقنا قبل الفراق على اللقاء ثانية في

وقت قريب. حددنا الزمان والمكان. أثينا ٧/٢٧ إنه يوم ميلادها. يوم ميلادها الخامس والعشرين، سافرت إلى أثينا يوم ٧/٢٠ قلت في نفسي: أسبقها إلى هناك. أتعرف على المدينة قليلاً، وأختار فندقاً مناسباً، وأكون في انتظارها على المطار ساعة وصولها. اتصلت بها هاتفياً، فلم تردّ على مكالمتي. اتصلت مرة ثانية. اتصلت مرة ثالثة اتصلت خمسين مرة ياسلمى. وفي المرات جميعاً كانت ترد عليّ سيدة عجوز تقول لي: فاطمة غير موجودة. وتقول أيضاً: لا تتصل ثانية أيها السيد". قالت: "ثم ماذا"؟. قلت: "لا شيء. لم أرها إلى اليوم". قالت: "ربما كانت لديها أسباب قاهرة منعتها من السفر إلى أثينا". قلت: "كنت سأتفهم الموقف.. فقط لو كلمتني". قالت: "حقاً، لماذا لم تكلمك على الأقل"؟. قلت: "هذا مايحيرني". قالت: "أي نوع من النساء هي"؟. قلت: "إنها تشبهك". قالت: "ماكنت سأفعل هذا برجل يحبني حتى لو كنت لا أحبه". قلت: "هذا ماجرى". قالت: "إنك تشرب كثيراً". قلت: "هل تخافين على نقودك"؟. قالت: "لست أخاف على هذه القروش. ولكنك تشرب كثيراً بحق". قلت: "نعم. إنني أشرب كثيراً". قالت: "أنت تدمر صحتك". قلت: "هذا ماقالته لي وجدان أيضاً". قالت: "معذرة، فهل وجدان اسم بنت أم اسم ولد"؟. قلت: "هو اسم يجوز استخدامه في تسمية الجنسين". قالت: "معذرة، فأنا لا أعرف اللغة العربية جيداً. ولعلك لاحظت أني أتحدث معك بصعوبة بعض الشيء". قلت: "نعم. إنني ألاحظ ذلك. ولكنك تفهمينني وأفهمك". قالت: "نعم. إنني أفهمك، فمن تكون وجدان"؟. قلت: "بنت أعرفها منذ ستة شهور تقريباً. أظن بأننا سنتزوج أنا وهي. مع أننا لم نتحدث في هذا الأمر. أظنها سوف تشترط عليّ أن أتوقف عن تعاطي الكحول". قالت: "وأنت لا تستطيع ذلك". قلت: "سوف أستطيع". قالت: "إذن، هي تؤثر عليك". قلت: "ليس تماماً. ولن أتوقف عن تعاطي الكحول بسببها، ولكن لأني ماعدت اشتغلت شيئاً ذا نفع". قالت: "أعتقد بأن من الصعب، بل من الخطأ، إسداء النصح إلى القلوب. ولكن من الأفضل أن تسلم أمرك لهذه البنت التي اسمها وجدان. أعتقد بأنها سوف تساعدك على الشفاء، رغم أني لا أعرفها". وقالت: "هل هي بنت لطيفة"؟. قلت: "هي بنت لطيفة جداً". قالت: "وهل هي جميلة"؟. قلت: "هي بنت جميلة جداً". قالت: "ولكنك تحب فاطمة". قلت: "نعم". قالت: "ولا تحب وجدان". قلت: "ليس الأمر في أني لا أحبها. تصوري أني منذ ثلاثة أسابيع وأنا أحاول أن أتذكر ملامحها، فلا أنجح. أتذكر أن قامتها على شيء من طول. وأتذكر أنها بنت لطيفة جداً، وجميلة جداً. غير أني لا أستطيع أن أصفها لك إلا بهذه الكلمات العامة. ثلاثة أسابيع مضت على وجودي

في موسكو، ولا أستطيع أن أتذكر لون عيني هذه البنت التي أراها كل يوم تقريباً منذ شهور ستة". قالت: "أي بائس أنت"!. قلت: "أتذكر شيئاً واحداً فقط. أتذكر ابتسامتها. أتذكر الجانب الأيمن من اللثة العلوية في فمها. إنه بلون الورد. ثم لاشيء بعد ذلك". قالت: "أنت لا تحبها إذن". قلت: "نعم. أكذب لو قلت إني أحبها". قالت: "ولكنك سوف تتزوج بها". قلت: "أظن ذلك". قالت: "وأنا أنصحك بهذا الأمر أيضاً ياصديقي". قلت: "فهل أنا صديقك ياسلمى"؟. قالت: "بصراحة؟ لم ألتق في حياتي إنساناً يمكن الوصول إلى أعماقه في نصف ساعة". قلت: "وأنا أشكرك ياسلمى على أنك تمنحينني صداقتك في نصف ساعة". قالت: "في صحتك". قلت: "في صحتك". وقرعنا الزجاج بالزجاج. قالت: "كم سيطول انتظارك في هذا المطار"؟. قلت: "لا أعرف موعد الرحلة القادمة إلى دمشق. ربما كان ثمّة رحلة غداً أو بعد غد". قالت: "وماذا ستفعل إلى مابعد غد"؟ قلت: "لست ممن يملّون الانتظار". قالت: "وحيداً"؟. قلت: "ربما صادفت سلمى جديدة من بعد رحيلك أنت. وبالمناسبة، إلى أين ترحلين"؟. قالت: "إلى طوكيو. في مهمة عمل. إني أشتغل في شركة أدوية إيطالية". وقالت: "هل أنت من النوع الذي يردّ الدين"؟. قلت: "نعم". قالت: "سأقرضك بعض المال". قلت: "لن أرفض". قالت: "أغضب إن لم ترده لي". قلت: "سأردّه". قالت: "أعطيك رقم هاتفي وعنواني في روما، فإن جئت روما يوماً، ردّ لي الدين الذي في ذمتك لو سمحت، وإلا...". قلت مقاطعاً: "أردّه في الآخرة". قالت: "من الأفضل أن تردّه لي في روما. اتصل بي من المطار. أجيء إليك، وأستردّ الدين. فكم أقرضك"؟. قلت: "تكفيني عشرة دولارات". قالت: "من الأفضل أن يكونوا عشرين". قلت: "كما تحبين ياسلمى". قالت: "لدي سيارة صغيرة. لكنها تفي بالغرض. اتصل بي من المطار. ولا تنس أن لي في ذمتك ديناً". قلت: "لن أنسى". ولم أنس. غير أني لم أتصل من المطار. اتصلت من الفندق في قلب المدينة. ردّت عليّ أمها. قلت: "أريد سلمى من فضلك". قالت: "سلمى في باريس". وقالت: "من يريدها"؟. قلت: "إني مدين لها بعشرين دولاراً". قالت: "آه، هذا أنت؟ لقد صدعت سلمى رؤوسنا في الحديث عن شاب فلسطيني التقته في مطار موسكو قبل أربعة شهور تقريباً". قلت: "فهل أستطيع أن أترك المبلغ معك ياسيدتي"؟. قالت: "يسرني أن تشرّف بيتنا. أما الدولارات العشرون فلا أستطيع أن أستردّها بالنيابة عن سلمى لأنها سوف تغضب. أنا أعرف ابنتي. أعرفها جيداً". قلت: "لكنني قد لا أجيء روما ثانية". قالت: "بل سوف تجيء ياسيدي. سوف تجيء. إني واثقة من هذا. وعندئذ تردّ الدين الذي في ذمتك لصاحبته، وليس

لأمها". غير أني ضيّعت العنوان، وضيّعت رقم الهاتف أيضاً. فماذا أفعل؟ وكيف أرد الدين الذي في ذمتي؟ لم يبق أمامي سوى الآخرة.. قال لي الشرطي: "انهض". كان المطار قد أقفر في آخر الليل. وكنت أنام على صف من المقاعد المتلاصقة متدثراً بمعطفي السميك، وأغطّ في نوم من هدّه السكر. قلت: "ماذا تريد"؟. قال: "انهض". قلت: "اتركني بحالي". قال: "انهض بالحسنى". والمطار خلا من الجميع، فالجميع الآن في الأجواء. في ذات المشرق وذات المغرب، وفي ذات الجنوب وذات الشمال. الجميع وسلمى. قلبي معك ياسلمى. قلبي معكم يا من تطيرون بين السماء والأرض، وليحفظكم الله سالمين في العلى. قال الشرطي: "جواز سفرك"؟. وقال: "هذا أنت إذن"؟. قلت: "نعم. أنا هو أنا". قال: "تعال معي". قلت: "أريد أن أنام". قال: "لا تضطرني لاستخدام العنف". قلت: "سيّان عندي". قال: "لو لم تكن أجنبياً"!. قلت: "فماذا كنتَ فاعلاً"؟. قال: "نترك القرار في هذا الأمر للرفيق الرائد". قلت: "هل يوجد سرير للنوم في مكتب الرائد"؟. قال: "يوجد بار أيضاً". قلت: "فيم السخرية"؟. قال: "سترى فيم السخرية". وقال الرائد"أين كنت"؟. قلت: "كنت نائماً". قال: "كيف ذلك؟ فتشوا عنك في كل زاوية من المطار". قلت: "رجالك لا يحسنون التفتيش. أم تراني مسروراً بوجودي هنا الآن؟ هاهي الساعة صارت أربعة. لو أيقظني رجالك في الوقت المناسب لكنت أنام الآن في الفراش في بيتي الذي أحنّ إليه هذه اللحظة أكثر من أي شيء في الوجود". ولم يبد على الرائد الاقتناع بما قلته له، رغم أن عيني تفضحان شدة سكري، مثل لساني الثقيل، مثل رأسي الثقيل أيضاً. وحدها أمعائي خفيفة. جعلت تتلوى فجأة، فقد تحركت شفرات الحلاقة التي أحملها في بطني مذ كان لي من العمر عشر سنوات، وجعلت تفرم أمعائي فرماً. واستبدّت بي رغبة في التقيؤ لم أستطع مقاومتها طويلاً، فاندفعتُ خارجاً من مكتب الرائد أبحث عن مكان أفرغ فيه مابجوفي من خمائر. وتبعني أحد الشرطة، ولم يزعجني. انتظرني حتى انتهيت من ذلك الأمر الفظيع في واحدة من منافض السجائر الكبيرة في الممر قريباً من المكتب. جلست بعد ذلك على الأرض مهدود القوى، ووقف الشرطي غير بعيد مني ينتظر أن ألتقط أنفاسي. وظهر الرائد بباب مكتبه. ثم تقدم مني، وشملني بنظرة قبل أن يقول: "هل أنت ديبلوماسي"؟. قلت: "لا". قال: "جواز سفرك صادر عن وزارة الخارجية السورية". قلت: "صحيح. لكنني لست ديبلوماسياً". قال: "ماذا كنت تفعل في موسكو"؟. قلت: "كنت ضيفاً على وزارة السينما". وقلت: "اسمعني ياحضرة الرائد، إن بطني تؤلمني كثيراً، فإن كان ثمّة نقطة طبية مناوبة، فإنني أرجو أن يصحبني أحد رجالك

إليها".. قالت لي الطبيبة العجوز: "ماذا فعلت بنفسك يابني"؟!. قلت: "أرجو أن تتدخلي في الأمر ياماما. قولي لهؤلاء الشرطة إنني في وضع لا يسمح لي بالخضوع للاستجواب". قالت: "فماذا تريد يابني"؟. قلت: "أريد أن أنام ياماما. أنام ولو ساعتين ياماما". قالت: "لن أسمح لهم بأن يأخذوك من هنا. تنام حتى التاسعة يابني. وفي التاسعة يحل محلي طبيب آخر. تنام حتى التاسعة. ولكن أعطيك شيئاً من دواء أولاً". وأعطتني مقدار ملعقتين كبيرتين من شراب مرير الطعم بلون الزعفران. وساعدتني على التمدد فوق إحدى نقّالات الإسعاف، وغطتني بشرشفين أبيضين، وقالت: "نم يابني. نم". قلت: "شكراً ياماما". وأغمضت عيني، ودعوت الله أن يحفظ سلمى وجميع من هم في الأجواء وفي الأرض الطيبة المباركة. ونمت من دون كوابيس. أيقظوني في التاسعة والربع. أخذوني إلى مكتب ضابط برتبة عقيد. الأسئلة نفسها. الأجوبة نفسها. والعقيد أكثر ليناً من الرائد. قلت له: "تعرف ياحضرة العقيد العادات الروسية. أقصد الشرب قبل السفر. تعلمت هذه العادة عندكم. شربت كثيراً وأنا أودع أصدقائي الروس، ودخلت إلى قاعة المطار سكران. ثم شربت بعض البيرة. ونمت. هذه هي قصتي". وصدّق العقيد قصتي. ليس لديه مبرر لعدم تصديقها، فلابد أن تكون أجهزة الكومبيوتر قد اشتغلت عندما كنت نائماً، كما اشتغلت أجهزة الهاتف. ولابد أن تكون جميع المعلومات اللازمة عن شخصي قد صارت على الطاولة في مكتب ذلك العقيد من قبل أن يأخذوني إليه. قال: "وهل كان من الضروري أن تتعلم عاداتنا هذه"؟!. قلت: "عشت بينكم سنوات كثيرة". قال: "أعرف. أعرف". قلت: "الحمد لله أنك تعرف". قال: "ولكني لا أعرف ماذا ستفعل إلى أن يحين موعد سفرك. بقي أمامك أكثر من ثلاثين ساعة". قلت: "لست ممن يملّون الانتظار". قال: "سنرى". وقال: "سنحتفظ الآن بجواز سفرك". قلت: "فهل أنا موقوف"؟. قال: "لا. ولكنك ستنتظر في مكتبي نصف ساعة أو ساعة". قلت: "كن طيباً واطلب لي شاياً ساخناً". قال: "أظن أن الحليب لك أفضل". قلت: "أريد شاياً". قال: "كما تحب". قلت: "هل تسمح لي بإجراء مكالمة هاتفية"؟. قال: "إن كنت تريد الاتصال بسفارة بلدك، فإنني لا أنصحك بهذا الأمر. أنت لست موقوفاً". قلت: "لم تخطر لي السفارة على بال". قال: "بمن ستتصل إذن"؟. قلت: "بصديق". قال: "مادامت مكالمة شخصية اتصل بعد خروجك من هنا. ثمّة أجهزة هاتف كثيرة في المطار". قلت: "كما تحب". خرجتُ من مكتب العقيد بعد حوالي أربعين دقيقة. وفكرت بالاتصال بأحد الكتاب الروس. أما السفارة فلم تخطر ببالي فعلاً. لم يسبق لي أن لجأت إلى أية سفارة في

جميع رحلاتي. لا أحب أن أرتدي بذلة رسمية، أو أضع ربطة حول رقبتي. مثل هذه الأشياء تقتلني. تجعلني أفقد انسجامي. بل تجعلني أفقد توازني أحياناً. وخلال حياتي كلها، كنت في مرتين أو ثلاث، مكرهاً على قبول هذا الأمر الذي يقتلني. وكان يوم زواجي بوجدان أحد تينك المرتين، أو تلك المرات الثلاث. لست أحب الرسميات. وهكذا لم تخطر لي السفارة ببال ذلك الصباح بعد تلك الليلة، التي لا أعرف كيف أسميها، من شهر مارس ١٩٨٣ . فكرت بأحد الأصدقاء الروس، هو الكاتب (فيكتور سميرنوف)، لكي لا أبقى في المطار ثلاثين ساعة أخرى أو أكثر. قلت في نفسي: هو قادر على تدبر الأمر حتماً. قادر على الاتصال ببعض الناس المهمين، فأخرج من المطار، وأعود إلى المدينة، وأقيم في بيته في قلب موسكو، وأنام في فراش نظيف،، وأتناول صحناً من شوربة (البورش) الساخنة التي تحضّرها لذيذة زوجته الشابة الحسناء. كنت متعباً ذلك الصباح بعد أن خرجتُ من مكتب العقيد. كنت آية في التعب. جلست في مقعد قريب في أحد أرجاء القاعة الفسيحة ببواباتها الكثيرة.. هاهي الحياة تدب في المكان من جديد. ارتحل قوم الأمس. وجاء اليوم دور قوم آخرين في الارتحال. قوم كثير. ورغم كثرتهم رحت أقول: "عفت الديار". كنتِ أنتِ قد ارتحلتِ على الثانية بعد منتصف الليل. ارتحلتِ إلى طوكيو، وتركتِ لي عشرين دولاراً، في ذمتي ديناً، لا أعرف اليوم كيف أسدده بعد أن ضيّعت إليك العنوان ورقم الهاتف. كنتِ أنت كل الناس، وكل الناس أنت، فعفت الديار من بعدك، وأقفرت.. "ده أنا لو نسيت اللي كان، وهان عليّ الهوان، أقدر أجيب العمر منين، وأرجع العهد الماضي، أيام ماكنا إحنا الاثنين، إنت ظالمني، وأنا راضي". إنها الأغنية التي أسمعها هذه اللحظة. جددت حبك ليه؟ ودعتني سلمى، وارتحلت، وقالت لي قبل أن تغيب عن ناظري: "تذكر أن لي في ذمتك ديناً". قلت: "لن أنسى ذلك يافاطمة". قالت: "أنصحك بالذهاب إلى تلك البنت اللطيفة التي اسمها وجدان". ولوّحت لي بيدها، وغابت، وعفت الديار. ولم أتصل بصديقي الكاتب. خشيت أن أعطل عليه مشاريعه. كان يعتزم الاعتكاف على كتابة رواية جديدة. حدثني عنها لمّا رافقني إلى المطار بسيارته. وتمنيت له التوفيق.. "حبك شباب على طول". وبقيت نهارين وليلة أتسكع في تلك القاعة من ذلك المطار.. سألت عن حقيبتي. قالوا إنها صارت في دمشق.. وحان موعد سفري أخيراً. وركبت الطائرة السورية. الرحلة هذه المرة عبر استنبول. وأنا أموت من التعب. ولكي تكتمل القصة تماماً، تعطلت الطائرة في مطار استنبول. مما اضطرنا على الانتظار سبع ساعات، أو أكثر من ذلك بقليل. سبع ساعات لم يسمحوا لنا خلالها بمغادرة الطائرة. سبع

ساعات قرأت فيها حتى أكثر الأخبار تفاهة في الجريدة التي جاءتني بها المضيفة. لم يكن في تلك الجريدة شيء يستحق القراءة إلا قصيدة للشاعر (علي كنعان). قرأتها أربعين مرّة أو خمسين. "ألا لابدّ من لقيا". كانت تلك القصيدة عزائي الوحيد، وبلسمي الوحيد في لجّة الأسى التي غرقت فيها منذ تلك الليلة العجيبة. قلت له: "كم كنت لي رفيقاً طيباً في تلك الرحلة ياأبو رؤيا"!. قال: "في أية رحلة"؟. قلت: "قبل عامين من الآن تقريباً. في مطار استنبول. ألا لابدّ من لقيا". قال: "يسرني أن أسمع هذا الكلام منك ياحسن". وصلتُ مطار دمشق على السابعة صباحاً. سألت عن حقيبتي. قالوا: "تكون في الأمانات". قلت: "وأين الأمانات"؟. قالوا: "مغلقة. انتظر ساعة أخرى". والساعة قد تعني ساعتين أو ثلاثاً. قلت في نفسي: أرجع في الغد. ولم أرجع إلى اليوم من أجل تلك الحقيبة. استقليت سيارة أجرة إلى بيتي. وارتميت في الفراش أياماً ثلاثة. وخجلت من مقابلة فراس دون هدايا. وكان يستحق هدية بالتأكيد، فقد نطق الولد أخيراً. حتى أنه قال: عمي، وإن قالها بتعثر. ولم أخبره بالأسباب التي منعتني من إحضار هدية إليه. ولم أخبر أحداً بأمر تلك الليلة أو الحادثة في مطار موسكو. لم أخبر بها أحداً إلى اليوم، باستثنائك أنت طبعاً، عندما أسرعت أرد على رسالتك، أو عندما رحت أعرّي روحي أمامك، وأنزع قشورها عن جوهرها، فندمت على ذلك الأمر، في حينه ندماً عظيماً.. كنت أتخبط في فوضى المشاعر إزاء وجدان التي لم أستطع التخلي عنها حين كانت أمها تعاني سكرات الموت، وحين كان عليّ أن أستعيدك أيضاً يافاطمة.. "حرام عليك. حرام عليك". ثلاثة أيام في الفراش كرهت خلالها نفسي المريضة بك. ثلاثة أيام قررت خلالها أن أشفى منك وإلى الأبد. أن أطردك من دمي وإلى الأبد. أن أتوقف عن الكحول. أن أتوقف عن الحبوب المهدئة. ثلاثة أيام اتخذت فيها قرارات حاسمة. ونجحت لاحقاً في تنفيذ تلك القرارات. تركت الكحول. لم أعد أشرب إلا نادراً. مرتين في العام أو ثلاث مرات. أما الحبوب المهدئة، فقد انقطعت عنها ست سنوات دفعة واحدة. بل أكثر من ست سنوات. لم أرجع إليها إلا في أواخر الصيف من عام ١٩٨٩ . لمّا تفاقمت مشكلاتي مع وجدان. ولم أرجع إليها طويلاً. شهر واحد. ثم أقلعت عنها من جديد. ومازلت لا أتعاطاها إلى اليوم. غير أني أحتفظ دائماً في بيتي بعلبة من الأقراص المنومة، أستخدمها عندما يستعصي النوم تماماً وأصير في حاجة إلى ست ساعات من الموت.. ثلاثة أيام اتخذت خلالها أكثر القرارات أهمية في حياتي.. قررت الزواج بوجدان.. ثلاثة أيام في الفراش. وفي اليوم الرابع خرجتُ من البيت. ذهبت إلى المؤسسة. استقبلتني وجدان بعينين لمّاعتين من فرحة اللقيا. ألا لابدّ من

لقيا. قالت لي: "تأخرت". قلت: "احتجزني بعض الأصدقاء القدامى في موسكو". وقلت: "أريد أن أراك خارج المؤسسة". قالت: "لماذا؟ أقصد من أجل أي شيء"؟. قلت: "لا أستطيع أن أجيبك الآن عن سؤالك هذا. ولكن ربما كان في مقدوري الإجابة عنه لو التقينا على انفراد مرة أو مرتين". قالت: "على انفراد"!!. قلت: "ليس تماماً. وليس هذا ماقصدته. أعني في مكان عام خارج المؤسسة، فإننا هنا لا نستطيع أن نتحدث بحرّية بين كل هؤلاء الموظفين". قالت: "ومع ذلك يبقى سؤالي قائماً: لماذا"؟. قلت: "حسناً. لكي نتعارف على نحو أفضل". قالت: "وماذا بعد أن نتعارف"؟. قلت: "هذا متروك للأيام". وسادت لحظة من صمت. قلت: "يبدو أنك ترفضين". قالت: "في الحقيقة أنني لا أرفض. ولكنني لا أفهم". قلت: "لو التقينا، فقد تفهمين". وقلت: "على أية حال، الكرة الآن في ملعبك. سوف أنتظرك غداً على الساعة الثانية والنصف في ساحة النجمة، وإن لم تحضري يكون قد وصلني ردّك على طلبي الصريح". ثم خرجتُ من مكتبها فوراً، دون أن أترك لها فرصة لمزيد من أسئلة ونقاش. قلت في نفسي: سوف يكون لديها حتى الغد مايكفي من الوقت للتفكير بالطلب الذي لا لبس فيه ولا غموض، وبعدئذ تكون الكرة في ملعبها فعلاً.. ولكي لا تترك الكرة في ملعبها حضرت إلى الموعد في اليوم التالي. جاءت في الوقت المحدد، وفي المكان المحدد. جاءت خجلة، مرتبكة. صافحتني على عجل وقالت: "لو ندخل إلى أية كافتيريا. أخشى أن يرانا أحد من أقربائي". قلت: "أعرف مطعماً ليس بعيداً من هنا. أفكر في تناول طعام الغداء معاً". قالت: "الطعام ليس مهماً. المهم ألا نبقى في الشارع". وفي المطعم قالت لي: "أحب المعجنات بأنواعها، وبخاصة البيتزا، وفطائر الجبن". قلت: "ولكنك ناحلة القوام، ويلزمك غذاء حقيقي". وقلت أيضاً: "لون هذا القميص لا يناسبك". قالت: "إنني لا أملك حق الاختيار. لا أملك حرية اختيار أي شيء. حتى ثيابي. أمي تختارها لي. تقول: هذا يناسبك أكثر من ذاك. وأنا لا أملك حق الاعتراض". قلت: "لماذا"؟. قالت: "يبدو أنني جبانة. بل إنني جبانة فعلاً". وتبسّمت. ورأيت لثتها الوردية. وقالت: "لكنني لست جبانة دائما، فقد كافحت وقاتلت ليسمح لي أهلي بدخول الجامعة. وهأنذا في السنة الثالثة كما تعلم. وسوف أتخرج في العام القادم إن شاء الله. وهأنذا أشتغل أيضاً. صار عندي دخل. أليس هذ شيئاً جميلاً"؟. وصمتت قليلاً، وأضافت: "تعرف؟ إنني لا أحب الكذب، غير أني أكون مضطرة لذلك في بعض الأوقات. اليوم على سبيل المثال، أخبرت أمي منذ الأمس بأن لدي محاضرة إضافية هامة في فترة مابعد الظهر، وبأني سأذهب من العمل إلى الجامعة مباشرة". إذن، اتخذت

قرارها بالمجيء اليوم إلى الموعد، منذ الأمس. فضحها لسانها. هذا مايسمونه بزلّة اللسان. إذن، هي لم تتمنع كثيراً. منذ الأمس عقدت العزم على المجيء إلى المكان الذي حددته أنا، وفي الزمان الذي حددته أيضاً. وحين شعرت بزلّة اللسان التي وقعت فيها، قالت: "لن أكذب. اتخذت قراري بالمجيء إليك منذ الأمس، بل منذ اللحظة التي غادرتَ فيها الغرفة بعد أن قلت لي: الكرة في ملعبك الآن. فكرت بالأمر. وقلت في نفسي: لِمَ ترفضين هذا العرض يابنت؟ هو يريد أن نتعارف. فلنتعارف إذن. حسناً. ماالذي تريد أن تعرفه عني؟ أحب المعجنات بأنواعها، وبخاصة فطائر الجبن". وضحكت. وأضافت: "فما الذي تريد أن تعرفه أيضاً"؟. قلت: "كل شيء". قالت: "كل شيء؟ هذا كثير جداً. ليس من بنت على وجه الأرض يمكنها أن تبوح بكل شيء. أنتم الشباب تملكون حرية أكبر في الحديث عن أنفسكم. ومع ذلك فإنني لا أطالبك بمعرفة كل شيء عنك. في هذا اللقاء على الأقل، لكن حبّذا لو تتحدث أنت! حبذا لو تحدثني عن نفسك ولو قليلاً! إنني أسمع الكثير عنك. من البنات طبعاً. بنات المؤسسة". قلت: "ماذا تقول البنات عني"؟. قالت: "يقلن الشيء الكثير". قلت: "هل لك أن تكوني أكثر دقة"؟. قالت: "لا أعرف. إنهن ينسجن أساطير من حولك. أنا حديثة العهد في المؤسسة كما تعلم. فهل أنت أسطورة حقاً"؟. قلت: "كيف ترينني أنت"؟. قالت: "أراك شاباً كما غالبية الشباب". قلت: "هذا ماكنت أحب أن أسمعه منك". قالت: "حقاً؟ لماذا"؟ قلت: "لأنني لست أسطورة. إنني مجرد رجل كما غالبية الرجال". قالت: "ولكنك مثقف كبير. أم أن هذا ليس صحيحاً أيضاً"؟. "إنني على شيء من ثقافة" قالت: "هل تحب أن تبدو متواضعاً"؟ قلت: "في الحقيقة إنني شخص متواضع". قالت: "يقولون في المؤسسة عكس ذلك. يقولون إنك شخص متكبر، أو حتى متعجرف". قلت: "وهل تصدقينهم"؟. قالت: "لست أعرفك بعد". وقالت: "بالمناسبة، لماذا ليس لك مكتب في المؤسسة؟ ألست رئيس دائرة النصوص"؟. قلت: "بلى. ولكني أقرأ النصوص في بيتي، فما حاجتي إلى غرفة في المؤسسة؟ ثم إنني لا أستطيع أن ألتزم بساعات عمل محددة. لا أستطيع. أفضل الاستقالة من العمل في المؤسسة على أن يفرض أحد عليّ شيئاً من هذا القبيل". قالت: "يقولون.. لا أعرف كيف أتحدث في هذا الأمر". قلت: "لا تترددي. تستطيعين أن تطرحي أي سؤال". قالت: "يقولون إنك مغرم بامرأة من تونس". قلت: "بل من المغرب. واسمها فاطمة". قالت: "هذا صحيح إذن"؟. قلت: "نعم. صحيح". قالت: "يقولون إنك تتألم بسببها". قلت: "هذا صحيح أيضاً. لقد تركتني فجأة. وتألمتُ. تألمت كثيراً. كتبت لي مذ تركتني

ثلاث مرات. كانت المرة الأخيرة قبل أكثر من عام مضى. أجبت على تلك الرسالة بشتائم كثيرة. فكرت بقطع العلاقة معها. اعتقدت بأن مثل هذا العمل سوف يريحني من الألم، فشتمتها علّ ذلك يكون نهاية للحكاية. لكني بقيت أتألم". قالت: "وهل بسببها تشرب الكحول بكثرة"؟. قلت: "ليس تماماً. على أية حال، أنا أشرب الكحول من قبل أن أعرفها بزمن بعيد. ربما صرت أشرب أكثر بسببها". قالت: "ولكنك تدمر صحتك". قلت: "أتذكر أنك قلت لي هذا الكلام من قبل. وفي الحقيقة أنني لا أريد أن أستمر في تدمير صحتي". وسادت لحظة من صمت. قلت: "اطرحي أي سؤال تحبين. وسوف أكون صريحاً معك حتى النهاية". قالت: "يقولون إنك لا تؤمن بوجود الله عزّ وجل". قلت: "وهل يغضبك هذا"؟. قالت: "نعم". قلت: "لماذا"؟. قالت: "لأنني أؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله أجمعين". قلت: "فلماذا لا يغضبني إيمانك بما تؤمنين"؟. قالت: "عفواً"؟. قلت: "سؤالي واضح ياآنسة وجدان. سؤالي واضح جداً". وقلت: "لك الحق في أن تفكري كما تشائين. لك الحق في أن تؤمني بمن وبما تشائين. ولكنني، بالمقابل، أملك الحق ذاته". ولم يسبق لوجدان أن تعرضت لمثل هذا الموقف. لم يسبق لها أن اصطدمت بمثل هذا النمط من التفكير، كما لم يسبق لها أن تجرأت وشكّكت ببداهة ماهو بدهي، فالله بالنسبة إليها موجود منذ الطفولة. رضعت وجوده من ثدي أمها مع الحليب. بل إنه موجود منذ ماقبل الطفولة. تغذّت بوجوده في رحم أمها بواسطة الحبل السري. إن الله موجود حتماً. وهذا أمر أكثر من بدهي. وفجأة، يأتيها من يشكّك ببداهة البدهي. أرعبها الموقف حتى هز دماغها. نظرت إلي بعينين ذاهلتين فلم تر أمامها إلا إبليس الملعون مذ رفض السجود لآدم الذي من تراب. استغفرت ربها سراً، واستغفرته علانية، وقررت الهروب من المكان. قالت: "يبدو أنني تأخرت". قلت: "تأخرت عن أي شيء"؟. قالت: "تأخرت عن العودة إلى البيت". قلت: "ولكننا لم نتناول وجبتنا". قالت: "لست جائعة". قلت: "كما تحبين. ولكنني أريد أن تعلمي بأنني أعرف". قالت: "تعرف ماذا"؟. قلت: "أعرف أنك تهربين مني". قالت: "ولماذا أهرب منك؟ لقد تأخرت فعلاً. وهذا كل مافي الأمر". قلت: "كما تحبين ياآنسة وجدان. كما تحبين". ونهضت. وانصرفت بعد أن صافحتني بيد باردة. رجعت إلى البيت مغتاظة. ماأرويه الآن هو ماصارحتني به وجدان لاحقاً. كذبت على أمها من جديد. قالت لها: "لقد ألغيت المحاضرة في آخر لحظة". وانزوت في ركن بعيد، وشتمت ذلك الملحد الذي اسمه حسن سامي يوسف. وظلت تشتمه حتى تعبت. كانت غاضبة عليّ وعلى نفسها أيضاً. ورجعت تشتمني إلى أن تعبت

من جديد أيضاً، ونامت. وعندما استيقظت في الصباح، وتفكرت بالذي جرى يوم أمس، أحست بوخزة في ضميرها، وأحست بأنها ربما كانت تفتقر إلى الكياسة في مجمل سلوكها تجاهي. وفكرت، وهذا أهم مافي المسألة، بأنها لو تزوجت إلى حسن، لامتلكت الحق في أن تعارضه حتى بما هو حق له. وقررت ألا تهرب مني مستقبلاً.. أتذكر أن لقاءنا الثاني كان بعد حوالي عشرين يوماً من لقائنا في المطعم. قالت لي: "إنني أعتذر عما بدر مني في المرة الماضية. وأرجو أن تقبل هذا الاعتذار". قلت: "هل أفهم من هذا الاعتذار أنك مازلت مهتمة بي"؟. لم ترد على سؤالي. قلت: "ثمة كافتيريا قريبة من هنا. نستطيع أن نحتسي بعض القهوة، فما رأيك"؟. قالت: "أنا موافقة. ولكنهم سوف يدوّنون اسمي في سجل الغائبين. فلماذا لا نلتقي خارج أوقات العمل"؟. قلت: "هم يدوّنون اسمك في السجل، وأنا أمحوه من السجل. ثم إن الكافتيريا قريبة. فما رأيك"؟. قالت: "إنني موافقة". وفي الكافتيريا قلت لها: "اسمعي ياآنسة وجدان. من دون مقدمات، ومن دون لف أو دوران، سوف أطرح عليك سؤالاً هو في غاية الوضوح: هل تقبلين بي زوجاً لك"؟.. عندما طرح عليّ ذلك السؤال ونحن نشرب القهوة في الكافتيريا، أجبته على الفور: "نعم. إنني أقبل أن أكون لك زوجة". وأنا حتى اللحظة الراهنة لا أعرف كيف وافقته على طلبه بتلك السرعة. كان يمكنني أن أقول له: أعطني فرصة للتفكير بالأمر. أعطني مهلة، فقد فاجأتني بطلبك هذا. كان يمكنني أن أقول ماتقوله أية بنت عاقلة حين تتعرض لموقف صعب مثل هذا الموقف، فهو لم يكن يقترح عليّ مشواراً إلى حديقة عامة، بل زواجاً يفترض به أو يفترض له أن يكون أبدياً. وأنا تعاملت مع المسألة كما لو أنها دعوة على غداء، أو نزهة قصيرة إلى الضواحي. لم أتصرف مثل بنت عاقلة رزينة. حتى أني بدأت أشك في سلامة قواي العقلية.. "نعم. إنني أقبل أن أكون زوجة لك". ماهذه المسخرة!! رجعت إلى البيت ذلك النهار، وأنا أفكر بأنني لست إلا مجنونة. وإن لم أكن مجنونة فإنني لست على شيء من رصانة. وذهبت أفكاري إلى أبعد من ذلك. خشيت أن يفسر موافقتي السريعة على أن الأمر بالنسبة إلي فرصة نادرة هبطت عليّ من السماء، ولا يجب أن أضيعها في حال من الأحوال لأنني أعيش في عار مزمن، وأريد أن أتخلص من عاري. ياربي! هل يمكنه أن يظن بي سوءاً؟! هل يمكنه أن يتصورني فتاة خسرت أثمن ماتملكه فتاة في هذه البلاد؟! هل يمكنه أن يتصور بأني لست عذراء، ولست بكراً؟ وأني وافقته على الزواج بسرعة لأنه رجل متحرر يستطيع أن يتفهم مسألة كوني قد خسرت عذريتي مع رجل سواه؟! ولأنني أطمع في أن يسامحني على ذلك بحيث لا يجعل من هذا الأمر التافه

فضيحة كما قد يفعل غيره من الرجال؟! هل يمكن أن تكون موافقتي السريعة قد أوحت إليه بمثل هذا الانطباع؟! قضيت نهاري وليلي في قلق لم أجرّبه من قبل.. حسناً.. سوف أتراجع غداً عن موافقتي المتسرعة. لن أسمح له بأن يظن بي سوءاً، فأنا فتاة بكر، عذراء. ولن أسمح له أو لغيره باعتقاد ماهو عكس ذلك. ولسوف أسحب موافقتي في الغد. في الغد حتماً. وفي الغد التقيته. ترصدت مجيئه. ترقبته. وافيته على الدرج. قلت له: "أريدك في أمر هام. هل تقبل دعوتي إلى كافتيريا الأمس"؟. قال: "بكل سرور". رجعنا إلى الكافتيريا ذاتها، وجلسنا إلى الطاولة ذاتها، وشربنا القهوة ذاتها، وقلت له: "يبدو أنني كنت متسرعة بالأمس في الموافقة على الزواج". ثم لم أستطع متابعة الحديث بالجرأة نفسها، ولست أعرف السبب. قال: "هل تقصدين أنك ماعدت موافقة على الزواج"؟. "نعم. هذا ماأردت أن أقوله بالضبط". "حسناً. هذا شأنك، فإننا لن نتزوج بالإكراه". قال ذلك ببساطة، وبرودة أعصاب، وحتى بشيء من اللامبالاة.. هو ليس متمسكاً بي إذن. أزعجني هذا الأمر أكثر مما أزعجتني أفكار الأمس التي بدت لي في تلك اللحظة صبيانية. وتملكني الغيظ والحنق. قلت: "أراك لست متأثراً بقراري المعاكس". "بل إنني متأثر ياآنسة ليلى". "ولكن لا يبدو عليك أي انزعاج". "أما الانزعاج فهذا شأن آخر. إنني أومن بحقك في الاختيار. وأحترم هذا الحق أيضاً". الحق مرة ثانية. الحق في الاختيار. الحق في الحرية.. الحرية! تلك الكلمة العذبة مثل قبضة من نسيم عليل في ليلة صيفية ساخنة. قلت: "حتى أنك لم تسألني عن سبب موافقتي المتسرعة، ثم عن سبب عدولي عن تلك الموافقة". "ولماذا يجب أن أسألك"؟!. "أليس لديك ولو مجرد فضول لمعرفة السبب"؟. "إنني أصغي إليك". "أنا أحب رجلاً آخر". قلت بسرعة، فأجاب بصوت لا انفعال فيه: "هذا سبب وجيه يجعلك تعدلين عن قرارك الذي تعتبرينه متسرعاً. وفي هذه الحال، سوف أسمح لنفسي ببعض الفضول: لماذا وافقت على الزواج أصلاً مادام في حياتك رجلٌ آخر"؟. "لأنه يخونني. يخونني مع إحدى زميلاتي. بل هي أكثر من زميلة. إنها صديقتي إلى حد ما". "أظن أنك في حاجة إلى مراجعة طبيب. وليس طبيب أسنان بطبيعة الحال". "تريد أن تقول بأني مريضة نفسياً"؟. "أريد أن أقول إنك في حاجة إلى بعض الوقت لكي تحلّي مشكلتك. ومشكلتك مع نفسك. مع نفسك، وليست معي أنا.. سوف أمحو اسمك فور وصولي إلى المديرية، فأنا راجع إلى هناك الآن، فإلى اللقاء". ونهض، وانصرف ببساطة. وهذا مازادني انزعاجاً وارتباكاً. ياربي! سوف أجن. سوف أفقد عقلي. أتحرش به. أفرض نفسي عليه، فيعرض عليّ الزواج، وأوافق على العرض بسرعة،

فيتقبل موافقتي عن طيب خاطر، وبالسرعة نفسها أنسحبُ من العرض، فيقترح عليّ مراجعة طبيب لا علاقة له بالأسنان، ويتقبل انسحابي عن طيب خاطر أيضاً، وينصرف ببساطة، بسهولة، ودونما انزعاج كمن ينسحب من صالة سينما تعرض فيلماً رديئاً. ينصرف دون إحساس بالمرارة. دون أيّ شعور بالخسارة. فهل أنا عديمة القيمة في نظره إلى هذا الحد؟! ومن يدري؟ ربما كان الأمر كذلك! بل إنه كذلك حتماً. ثمة بنات أخريات تتمنى أية واحدة منهن لو تسمعه يعرض عليها الزواج. ثم إنني لست أفضل تلك البنات، بل إنني لا أفضلهن في شيء. صحيح أنني جميلة إلى حد ما. غير أني لست الأكثر جمالاً. حتى أن أمي لا تعتبرني جميلة. تتعامل معي على أني بنت قبيحة، أو بضاعة بائرة.. "انظري إلى نفسك في المرآة. من الذي سيرضى الزواج بك؟! سوداء البشرة، محنية الظهر، جلد وعظام، لا لحم عليك ولا شحم". وأمي تميل إلى المبالغة في توصيفي على هذا النحو. ولست أدري لماذا. إنني حتى اللحظة الراهنة لا أدري لماذا كانت أمي تكرر هذا الكلام على مسامعي. صحيح أنني كنت ناحلة القوام قبل الزواج، غير أني لم أكن قبيحة أيضاً، كما تصفني أمي. ولو كنت كذلك، فلماذا يعرض عليّ الزواج شاب وسيم، مثقف، مثل عمر الخالد؟ إلا إذا كان يعاقب نفسه على جريمة ما. وإن كان يعاقب نفسه، فلماذا ينبغي عليّ أن أكون وسيلة ذلك العقاب؟ ولكن ماذا لو أن الأمر غير ذلك؟ ماذا لو أنه عكس ذلك؟ ماذا لو أنه يرى فيّ بنتاً جميلة ينقصها بضعة كيلو غرامات من اللحم والشحم لتصير جميلة زيادة عن اللزوم؟ ولماذا لا يكون الأمر كذلك فعلاً؟ وإن كان كذلك، فلماذا أصدّه إذن؟ ماالذي أكسبه من صدودي؟ ماالذي أكسبه غير هذه الحيرة التي أنا فيها، وهذا الارتباك الذي أنا عليه؟ هو لا يبالي. قال الذي عنده وانصرف: أما أنا! إنني لست أكثر من حمقاء. لست أكثر من بلهاء.. أقبل، ثم أرفض، ثم أجلس محتارة بين القبول والرفض مثل حيرتي بين البقاء حيث تركني إلى تلك الطاولة مع ثمالة القهوة، وبين اللحاق به إلى المديرية كي أقول: اسمعني جيداً، أرجوك، اسمعني للمرة الأخيرة، أنا لست في حاجة إلى طبيب أسنان، أنا في حاجة إليك أنت. كنت موزعة بين ذينك الخيارين، وكنت أميل إلى الأخذ بالخيار الثاني. ومع ذلك، فضّلت سلوك طريق ثالثة. رجعت إلى البيت. قلت لأمي، بعد لف ودوران، وهي تحضر طعام الغداء في المطبخ: "ثمة شاب يحب أن يزورنا قريباً.. لا تقاطعيني ياأمي. القرار قراركم أنتم. أنا ليس لي قرار. ليس لي رأي. أستطيع أن أقول لذلك الشاب: أهلي يعتذرون عن استقبالك. وأستطيع أن أقول له: تفضل، فأهلي في انتظارك. القرار ياأمي قراركم. ولن أفعل إلا ماترونه مناسباً لي. كل مافي الأمر أنني

أحببت أن أكون صريحة معك، فأخبري أبي الأمر حين يرجع إلى البيت. شاوريه في الموضوع. وإن ارتأيتما أن يزورنا ذلك الشاب.. إنك تعرفين البقية طبعاً. والآن دعيني أساعدك في تحضير الطعام. أو، لا. لن أساعدك. لديّ عمل إضافي. عمل كبير يحتاج إلى جهد كبير. إنها حسابات متراكمة. والمدير شخصياً طلب مني إنجاز هذا العمل.. فالمعذرة ياأمي. يجب أن أثبت كفاءة وظيفية عالية. المعذرة. ولا تنسي أن تتحدثي إلى أبي في أمر ذلك الشاب، فهو ينتظر مني جواباً سريعاً". تركت أمي في المطبخ، وأسرعت إلى غرفتي. أخواتي في المدرسة. ولديّ من الوقت مايكفي للقيام بما خطّطت له مذ قررت الخروج من الكافتيريا. لدي متسع من الوقت لأقول لعمر كتابة مالن أقوله شفاهة. جلست إلى الطاولة، وبدأت أكتب. وتلك كانت رسالتي الأولى إليه. السيد عمر! واسمح لي أن أخاطبك بكلمة السيد دون غيرها، فهي الكلمة الوحيدة التي أراها مناسبة مع ماتفرضه أصول اللياقة في مخاطبة رجل محترم مثلك. ثم إنها، أيّ هذه الكلمة، وهذا سبب وجيه، تليق بك تماماً. فأنت رجل مثقف، متحرر، ليبرالي (وإن كنت لا أعرف معنى هذه الكلمة الأجنبية. ولكن لابد من أنها كلمة طيبة ماداموا يستخدمونها في معرض الحديث عن محاسنك). على أية حال، إنني لا أتجرأ على مخاطبتك بكلمة ثانية غير (السيد). لا أتجرأ مثلاً على أن أبدأ رسالتي بـ(حبيبي)، أو حتى (عزيزي)، لأني في مثل هذه الحال، أكون كاذبة، وربما أكون سخيفة أيضاً. فأنا في حقيقة الأمر، لا أشعر نحوك بتلك العاطفة الغامضة التي يسمونها: الحب. ولا أشعر بأنك إنسان عزيز عليّ، فأنا أكاد لا أعرفك. غير أني، وبالرغم من هذا كله، أستطيع أن أبوح لك بسر صغير هو أنني أشعر بك إنساناً نزيهاً يمكن الثقة به والاعتماد عليه، رغم تصوراتي، التي أرجو أن تكون خاطئة، بأنك رجل غامض، يصعب الوصول إلى أعماقه، أو سبر تلك الأعماق. أما لماذا لدي هذه التصورات، فلأنك رجل صامت. وصمت الرجل يخيفني، ويدفعني إلى التفكير بالهروب منه، بقدر مايغويني بالتقرب إليه. أترى إلى هذه الازدواجية التي أنا فيها؟ إنه سر صغير آخر من أسراري أبوح به إليك. والآن.. لقد شدّني عرضك السخي بالزواج، فاندفعت إلى قبوله طمعاً في.. حسناً، قد أخبىء عنك بعضاً من أسراري، أو بالأصح بعضاً من آمالي. ولكني لن أخبىء الشيء الكثير. سأحاول أن أكون صريحة معك ولو قليلاً. لقد وافقت على عرضك الذي أعتبره سخيّاً وكريماً طمعاً في الحصول على حريتي التي أفتقد إليها في بيت أهلي. حريتي التي لا أفتقدها فحسب، بل إنني لا أعرفها من الأساس. أنا الآن في العشرين من عمري، ولست أعرف من الحياة شيئاً، وذلك لسبب بسيط هو أنني لا أملك حق المعرفة، والذي هو

أحد حقوق الانسان، أيّ إنسان. وكيف السبيل إلى امتلاك مثل هذا الحق دون امتلاك الحرية في ممارسته؟ وأبي يقول لي دائماً: "لقد أعطيتك حريتك، فلا تجعليني أندم على ذلك". ولا يكون لي من ذنب سوى أني تأخرت عن العودة إلى البيت ربع ساعة أو نصف ساعة. لقد أعطوني أقصى درجات الحرية، وأعلى مراتبها، عندما سمحوا لي بمتابعة دراستي الجامعية. وما انفكّوا يوبخونني، ويلومونني، على ربع ساعة من التأخير حتى لو كانت زحمة السير أو قلة المواصلات هي السبب في ذلك التأخير، وغالباً ماكانت السبب في ذلك حقاً. صحيح أني كنت مرتبطة بأحد زملائي في الجامعة بشيء ربما كان حباً، (أرجو أن تنتبه إلى كلمة: كنت. وصدق بأني كذبت عليك اليوم قليلاً). ولكن الصحيح أيضاً أن أسباب التأخير في العودة إلى البيت كثيرة ومتنوعة، وليست دائماً على علاقة بهذا الارتباط الذي بدأ يتفكك في الآونة الأخيرة. ولو تجرأت وكنت صريحة معك أكثر لقلت: إنني لست نادمة كثيراً على فك الارتباط بهذا الشاب، لأنه.. لأنه لا يشبهك.. تستطيع أن تصاب بالغرور. ولست أنصحك بذلك. ولكنه حقاً لا يشبهك. وبتعبير آخر: إنك حقاً لا تشبهه. أنت شيء مختلف. مختلف تماماً. أقول هذا بالرغم من أنك لست مكشوفاً أمامي، وبالرغم من كونك مازلت غامضاً بالنسبة إلي، ولا أعرف عنك سوى القليل، أو حتى أقل من القليل، إلا إذا اعتبرنا الأحاديث والإشاعات من حولك شيئاً كثيراً.. وإن جاز هذا الاعتبار، فإنني أستطيع ادعاء معرفتك على نحو لابأس به. يقولون إنك مثقف كبير، وإنك رجل شهم، وكريم. كريم إلى درجة أنك لا تعرف حقيقة المبلغ الذي في جيوبك (مع أن هذه النقطة، من وجهة نظري، دليل على الإهمال)، والإهمال واحدة من الصفات التي ينعتونك بها، وكذلك اللامبالاة، والألم (فهل أنت رجل متألم حقاً؟ ولماذا)؟. ثم هل صحيح أنك.. كيف أعبر عن ذلك؟ يتحدثون عن امرأة تحبها كثيراً ولكنها تركتك إلى رجل آخر. هي امرأة عربية تعيش في لندن، وتحمل الجنسية الانكليزية. أظن أن اسمها وداد. ويقولون أيضاً إن مجمل معاناتك وصمتك، وقلقك، سببه تلك العلاقة ذات النهاية غير السعيدة. هذا مايقولونه عنك. وهذا غيض من فيض. الحديث كثير، والأقاويل كثيرة، وكذلك هي الإشاعات من حولك. وهنا لدي سؤال: هل عرضت عليّ الزواج لإحساسك بضرورة الخروج من مأساتك مع تلك المرأة الانكليزية؟ هل هذا هو دافعك الحقيقي للزواج بي؟ كن صريحاً. أرجوك. يقولون إنك رجل صادق. وهكذا فإنك لن تكذب عليّ. هل تستغلني على نحو من الأنحاء؟ هل تعمل بالمثل القائل: وداوها بالتي هي الداء؟ وإن كان الأمر كذلك، أفلا تشعر بأن سلوكك هذا ينطوي على

قدر كبير من الأنانية؟ فما هو ذنبي حتى أكون مجرد وسيلة تستخدمها في عبور حواجز الألم والمعاناة التي سببتها لك امرأة سواي؟ هل أنا على حق في تفكيري هذا؟ أم تراني شططت أكثر مما ينبغي؟ وإن كنت قد شططت، وإن كان الخيال قد شطح بي إلى بعيد، فهل تتفضل وتعرض عليّ الأسباب التي جعلتك تختارني زوجة لك؟ فأنا لا أملك من المواصفات مايجعلك تفضلني عن بنات كثيرات يتمنين لو سمعن منك ماسمعته أنا في تلك الكافتيريا. إذن، ماالحكاية؟ هل ستقول لي: إنه الحب؟ لا أظنك ستقول ذلك، لأني أعلم بأنك لا تحبني، فأنت أيضاً بالكاد تعرفني. هل ستقول لي..؟ ماذا لديك من مبررات؟ ماذا لديك من أسباب تسوقها لتقنعني بأن العرض كان أمراً طبيعياً؟ تكلم. أرجوك أن تتكلم، وأرجوك ألا تبقى غامضاً.. إنني لا أحب الغموض، فهو يخيفني، ويغويني. نعم يغويني.. حتى أني أستطيع أن أقول لك بكل صراحة، ودون أيّ خجل: إنني معجبة بك. إنني معجبة بك ياسيدي. يعجبني فيك صمتك؟ يعجبني فيك لطفك، وأدبك. أعترف مرة ثانية بأنني معجبة بك، ومرة ثانية أنصحك بألا تصاب بالغرور.. وأنا؟ ماذا عني أنا؟ هل أعجبك؟ هل أعجبك حقاً؟ لكن، وقبل الإعجاب، صارحني، أصدقني القول: ألا تستغلني على نحو من الأنحاء؟ هي كلمة واحدة: نعم أو لا، فإن كان الجواب لا، اعتبر أننا لم نلتق اليوم أصلاً. واعتبرني موافقة على الزواج منك، أو إليك. لست أدري أيّ التعبيرين أصح من الناحية اللغوية. وليست اللغة هي مايشغل الآن بالي. الذي يشغل بالي أمر آخر: أن تكون معجباً بي. لاحظ أنني لا أطلب المزيد. لا أريد المزيد. الآن على الأقل.. ولكني أريد منك أمراً واحداً. شيئاً واحداً: الحرية. ولا شيء سوى الحرية. ومن الطبيعي أنني لا أتحدث عن الحرية بشكل مطلق، فأنا أعرف جيداً طبيعة المجتمع الذي نعيش فيه. وأعرف، بناء على ذلك، حدود وسقوف الحرية التي أطالب بها. وأعدك بعدم تجاوز تلك الحدود، أو مناطحة تلك السقوف. وأنصحك بأن تثق بي، فإنني لست ممن يخون الثقة.. أعدت قراءة الرسالة مرتين، وأعجبني، ماجاء فيها، حتى لغتها أعجبتني، مع أنني لا أعرف اللغة العربية جيداً. وبغض النظر عن اللغة، فقد كنت راضية عن كل حرف كتبته، لأني كتبت كل حرف بحرية وجرأة وصدق وصراحة.. وهذه أمور لم أعهدها في نفسي من قبل. فمن أين جاءتني؟ من أين إلا من معرفتي بهذا الرجل الغامض الذي اسمه عمر؟ لقد أثرت بي معرفته، ومنذ البداية، تأثيراً كبيراً. وهذا مالم أكتشفه إلا في وقت متأخر، أو حتى بعد فوات الأوان، فأنا أخشى أن يكون الأوان قد فات حقاً. فهل فات الأوان ياعمر؟ أو لن ترجع إلى البيت أخيراً؟ اسمعني ياعمر. اسمعني جيداً. أرجوك. أعرف

أنك لست سجيناً. أعرف أنك حر طليق. لم يخبرني بالأمر أحد. هل تدري بأني رأيتك ذات مرة؟ قد تفاجئك هذه الكلمات. حسناً. هذا هو تقريري إليك. إلى الرجل الذي مازلت أعتبره زوجي رغم هجرانه لي. إليك أحن. وعليك أخاف. لقد قلت لك مرة: سوف أستعيدك. وهأنذا لا أفعل شيئاً من أجل ذلك. رأيتك في الطريق بصحبة امرأة سمراء ناحلة. كان معكما طفل صغير. ليس ابنك طبعاً. أظن بأن الولد كان مريضاً، وكنتما تأخذانه إلى الطبيب. أنت لم ترني. وأنا رأيتك. كنتَ محني الظهر، وملتحياً. ولا ترفع بصرك من الأرض تقريباً. كنت متعباً. تبدو أكبر من سنك الحقيقية بعشر سنوات على الأقل. كنت تهرب من الدنيا ومافيها، باستثناء تلك المرأة وطفلها الصغير المريض. ومن الثابت أني لم أعترض سبيلك. تركتك تمضي، وقلبي يحترق. لن أسألك: من تكون هذه المرأة الناحلة؟ ولكن هل فكرت في طول هجرانك؟ كم مضى على غيابك إلى الآن؟ تسعة شهور وخمسة أيام. إنني أحسب حتى الدقائق. فهل تعرف في أيّ وضع أنا؟ هل تعرف بأني أكاد أموت من دونك؟ أعرف أنك تهرب مني. وأنا لا ألومك ياعمر. ومرة ثانية: هل فكرت بأني قد أموت من الشوق إليك؟ قد أموت في أية لحظة. وهل فكرت بأنك ستكون أنت المسؤول عن هذا؟ بالمناسبة، أنا لم أغادر البيت، لم أذهب إلى أهلي. مازلت أنتظرك هنا. وسوف أظل أنتظرك هنا، فكل ماتبقى لي حاضر هنا. هنا الذكريات. هنا أنت، وأنا هنا. أتذكر كل شيء. وأحنّ إلى كل شيء. حتى إلى شجاراتنا: المكاشفة الأولى بعد ست سنوات من الزواج، عندما قلت لك في قلب تلك الليلة الصيفية الحارة: "أنا لست سعيدة معك". أتذكر المكاشفة الثانية بعد تسع سنوات من الزواج، لما كنت تصر على الطلاق، ثم لا تجرؤ عليه، فتهرب مني. تختفي. فإلى متى؟ إلى متى سأظل أعيش على الذكريات؟ أشياؤك تحاصرني. قناني الأقراص المهدئة التي كنت أنا فيها السبب، ويا للأسف! أتذكر تلك الأيام، وذلك الصيف، بعد أن صارحتك بتعاستي. أتذكر الأطباء الذين زرتهم، وزرتهم معك. أتذكر العيادات. والحبوب المهدئة. والحبوب المنومة. أنا السبب. أعرف أني أنا السبب. وألوم نفسي. وأحنّ إلى كل شيء: قهوة الصباح، وسجائر الصباح، وشاي الزوجية. والتعري في الفراش. والنوم على كتفك. ومعجون الأسنان الحساسة. وشفرات الحلاقة الانكليزية. والعطر الذي أهديتك إياه في عيد ميلادك الأخير. والسبيرتو الذي تفضله على الكولونيا، وتمسح به ذقنك بعد الحلاقة. وعباءتك البيتية في فصل الشتاء. ومدفأة المازوت. وأشرطة الفيديو التي لم نشاهدها. وأغاني فيروز المفضلة. كيفك إنتَ؟ وقنينة الشمبانيا أيضاً. قلت لك: سوف يأتي يوم، وتكون لنا مناسبة نشرب فيها هذه القنينة

معاً. إنها مازالت في مكانها تنتظر.. وأنا مازلت أنتظر. وأوراقك أيضاً تنتظر. وأقلامك الألمانية المفضلة. ورسائلي إليك. كل شيء في مطرحه.. الكتب. وديوان المتنبي. إنني أقرأ فيه كل يوم مذ هجرت البيت. أعرف أنه الكتاب الذي أمسكت به يداك أكثر من أيّ كتاب آخر. أعرف أنها القصائد التي كنت تمرر عليها بصرك في كل ليلة. صرت أعشق هذه القصائد، وهذا الكتاب، وهذا الشاعر. ومرة ثانية: إلى متى؟ أعرف أنك سوف ترجع إلى البيت ذات يوم. أعرف أنك سوف تعود.. وأخشى أن تجيء عودتك بعد فوات الأوان. وأرجو ألا تكون كذلك. لست أدري كيف ستكون الحال. لست أدري. ولكن.. هي كلمة واحدة ياعمر: أحبك، فأنت وحدك من أثّر بي ذلك التأثير كله.. وهكذا حين أقول إن عمر هو الذي ربّاني بدلاً من أبي وأمي، فإنني لا أجانب الحقيقة. نعم. لقد رباني. لقد أعطاني الكثير. معه عرفت الحياة. عشتها. ذقت المرّ معه، ومعه ذقت الحلو أيضاً. عرفت السعادة به. وبه عرفت الشقاء. وقبل السعادة والشقاء عرفت الحرية. تعرفت إليها. مارستها. لكنني، ويا للأسف الشديد، تجاوزت تلك الحدود، وتلك السقوف التي وعدته بعدم تجاوزها. أعطاني جرعة زائدة من الحرية، فتجاوزت تلك الحدود، وربما كان يتحمل هو جزءاً من المسؤولية عما جرى بعد سنوات كثيرة على تلك الرسالة (الجريئة) التي كتبتها براحة تامة، ومن دون معاناة لغوية أو غير لغوية، والتي ضمّنتها ببساطة وصراحة ووضوح مشاعري الحقيقية نحوه، وأهدافي الكامنة وراء القبول به زوجاً لي. تلك المشاعر، وتلك الأهداف التي خشيت ألا أحسن التعبير عنها شفاهة، فوضعتها على الورق، ووضعت الورق في مغلف أبيض خبأته في حقيبتي اليدوية، ورحت أرقب الطرقات من خلف زجاج النافذة في مكتبي، حتى رأيته أخيراً، فانطلقت من الغرفة إلى الدرج، إلى بسطة السلم في الطابق الثاني، حيث استوقفته قائلة: "لست أطالبك بأن تحذف اسمي من سجل الغائبين، فأنا منصرفة مع سبق الإصرار. لكن، وقبل أن أنصرف، لك عندي هذه الرسالة، حبّذا لو ترد على ماجاء فيها. غداً. أو بعد غد إن أحببت. تفضل. هذه هي الرسالة. وإلى اللقاء". ناولته الرسالة، ورحت أهبط الدرج مسرعة. خرجت من المديرية. رجعت إلى البيت، ورحت أنتظر قدوم الغد أو بعده. رحت أنتظر الغد أو بعده بفارغ الصبر. أعدّ الساعات. أعدّ الدقائق. والثواني. وجاء الغد. لم يظهر عمر في المديرية. وانقضى أسبوع، وليس له من أثر. وبقيت أعدّ الساعات والدقائق والثواني. وصرت، ويا للمفاجأة، أشعر بأني واقعة في الحب.. (أنا بانتظارك خليت ناري في ضلوعي وحطيت إيدي على خدي وعديت بالثانية معادك ولا جيت). كان صوت أم كلثوم يأتيني من مذياع في الجوار، وكان

علي أن أتعذب. يقولون إن العذاب حلو في بعض الأحيان، وأنا سقطت في شرك الحب. وصوت السيدة الشهيرة يحمل في طبقاته المختلفة مايدفع بنتاً جاهلة في العشرين من عمرها إلى صيغة من صيغ العذاب. ومرة ثانية: العذاب الحلو. العذاب الذي لا علاقة له بزميلي الجامعي، فأنا في الحقيقة لم أشعر بحب غير عادي تجاهه يوماً، مع أنني كنت سأقبل الزواج إليه لو عرض علي الأمر. وهو لم يفعل. بل تركني إلى زميلتي. وشعرت بأن كبريائي قد انجرحت، وشعرت بالأسى لأني كنت مرفوضة لديه. لهذا السبب وحده شعرت بالأسى. شيء صعب أن يكون الإنسان مرفوضاً. وبخاصة إذا ماكان ذلك الإنسان بنتاً تصفها أمها بأنها بضاعة بائرة، وقد كان في انصرافه عني إلى سواي توكيد لما تردده أمي باستمرار، وهذا معناه أنني إنسان بائس. فتاة بائسة الآن، وامرأة بائسة في المستقبل. ومن يدري؟ ربما صرت عانساً! الحياة مفتوحة على احتمالات لا حصر لها. هذا ماتعلمته من تجربتي مع عمر. لكنني في ذلك الوقت لم أكن أعرف عمر إلا قليلاً، حتى أنه لم يكن بالنسبة إلي في بعض اللحظات أكثر من خيال، حتى بعد أن كتبت له رسالتي الجريئة. لقد مرّت بي لحظات عجزت خلالها عن تجميع صورة كاملة له أمامي. كانت أجزاؤه مبعثرة هنا وهناك في الفراغ من حولي بحيث يصعب علي لم شمل تلك الأجزاء في وحدة واحدة. وهو يرفض الظهور في المديرية. وأنا أجاهد في محاولة لمّ الشمل. ولا أنجح. وتعبت. والله العظيم تعبت. "كفاك شتاتاً. إنني أحاول تجميعك. إنني أبذل كل مابوسعي. كفاك شتاتاً. أرجوك. اظهر أخيراً، فقد تعبت. والله العظيم تعبت". هكذا كنت أخاطبه في سري بعد أن طالت غيبته. وفي ذات مرة ناجيته قائلة: "كفاك شتاتاً لو سمحت"!. فسألتني أختي: "ماذا تقولين"؟. واكتشفتُ عندئذ بأني صرت أنسى وجود أخواتي في الغرفة. وعندئذ أيضاً، صرت على يقين بأني لست بنتاً طبيعية، في علاقتي بعمر الخالد على الأقل.. كان قد مضى على استلامه رسالتي خمسة أسابيع، قضيتها انتظاراً في انتظار. كان يرفض أن يظهر في المديرية. يرفض المجيء. يرفض الرد على أسئلتي الصريحة التي طلبت عنها إجابات صريحة. وألعن مافي الأمر أني صرت عاجزة تماماً عن تجميع أشتات صورته أمام ناظري. نسيت وجهه. نسيت تقاطيع ذلك الوجه. أضعتها في زحمة الفراغ. أضعتها في زحمة الانتظار. وعندما أيقنت بأني أضعتها تماماً، أيقنت بأني أحبه، وأحب العذاب الذي يسببه لي انتظاره، فتمنيت لو يطول الانتظار، لو يطول إلى الأبد، حتى أظل واقعة في الحب إلى الأبد. لكنه، وللأسف، قطع عليّ متعة العذاب، وظهر في الأسبوع السادس. ظهر فجأة في غرفتي. بجانب طاولتي. كنت منشغلة ببعض الأوراق

أمامي، فلم ألحظ قدومه. لم ألحظ دخوله الغرفة، ولم ألحظ كيف صار بجانبي. جاءني صوته بغتة: "صباح الخير يآنسة ليلى"!. رفعت رأسي عن الأوراق، ونظرت إليه، واندهشت لرؤيته، وتمنيت لو أنه لم يحضر، وتمنيت لو بقيت صورته مشتتة من حوالي، ولو أنه لم يتجسد أمامي. لكنني، وهذا ماخجلت من الاعتراف به طويلاً، تمنيت لو أنهض من مقعدي، وأرتمي عليه بجسدي النحيل، وأطبق على شفتيه بشفتي في قبلة تستمر إلى الأبد. ويالي من بنت متناقضة! رفعت رأسي عن الأوراق، ولم أحرك ساكناً. نظرت إليه نظرة بلهاء. كنت كمن فقد النطق. لم أردّ على تحية الصباح. نسيت أن لي لساناً، وصرت عاجزة عن التصرف. لم أعد أعرف أين أذهب بعينيّ، وبيديّ أيضاً. تجمدتا على الطاولة. تجمدتا تماماً. صرت كلي متجمدة، مثل صورة فوتوغرافية تمّ التقاطها وانتهى الأمر. عاد يقول: "صباح الخير آنسة ليلى"!. ومرة ثانية لم أرد على تحيته، فقال: "هل أنت بخير""؟. وياله من سؤال سخيف! فكيف أكون بخير، وأنا أسعد بغيابه، وأسعد بحضوره أيضاً؟! قلت دون وعي، وفي صوتي نبرة تحدٍّ واضحة: "أنا بخير. طبعاً أنا بخير. ولماذا لا أكون بخير"؟. "أنا آسف ـ قال ـ كان سؤالاً لا يستدعي النرفزة". "عن أي نرفزة تتكلم"؟!. "يبدو أنني جئت في الوقت الخطأ. أو ربما كان مجيئي في الأساس خطأً في خطأ. وهذا يستوجب مني أن أتقدم إليك بالاعتذار. إني أعتذر. وأرجو أن تقبلي اعتذاري". وما إن قال ذلك حتى دار على عقبيه، وانصرف. خرج من الغرفة هادئاً، وكأن شيئاً لم يحدث. وهذا ماأغاظني أشد الغيظ. رحت أتخبط من شدة الغيظ رغم أن يديّ باتتا مشلولتين تماماً. أما قلبي، أما أحشائي، أما روحي، فقد كانت تتخبط من شدة الغليان. كانت تلعبط في مياه تغلي وتغلي في قدر لا حدود له ولا حواف، نصبوه خصيصاً من أجلي أنا على نار جهنم. على نار جهنم كلها. لم يتركوا ناراً لأي من المجرمين. وضعوها كلها تحت القدر الذي بلا حواف، وألقوا بي إلى مياه تفور وتمور، وقالوا لي: "تخبطي. تخبطي وحدك". وتخبطت. تخبطت طائعة، ومكرهة. كم طال بقائي في القِدر الذي في الجحيم؟ كم طال بقائي في القِدر الذي من الجحيم؟ الله أعلم. الله وحده أعلم. ربما كانت مجرد ثوان قليلة. وربما كانت دقيقة أو دقيقتين. لكنها بدت لي دهراً بكامله. نعم، لقد بدت لي تلك اللحظة دهراً. وكل شيء ينقضي. حتى الدهر ينقضي. ولا شيء يبقى. كل شيء يعتريه الفناء. حتى الزمن يفنى مهما طال واستطال. وزمني ليس استثناء. لحظتي التي بدت دهراً ليست خارج القاعدة. هي أيضاً قابلة للفناء والتلاشي، فتلاشت. وخرجتُ من القِدر. قفزت من فوق الحواف. نفضت عن جسدي البلل. خلعت جلدي المسلوخ. ونهضت من

الكرسي بعد أن تخلصت من الشلل الذي كبّل يديّ وقدميّ وسائر جسدي الناحل، وخرجت من الغرفة باندفاع. ولم يكن يهمني أن يلاحظ الآخرون اندفاعي إلى عمر. هبطت الدرج إلى الطابق الأرضي. لم يكن موجوداً هناك. خرجت إلى الشارع، فلم يقع بصري على أثر له. رجعت إلى المبنى وأنا أخمّن أنه ربما كان موجوداً في غرفة فلان أو فلان. وبما أنني أعرف بأنه لا يجلس في أي مكان طويلاً، فضّلت البقاء على الدرج حيث لابد أن يظهر سريعاً، هذا بالطبع إن لم يكن قد خرج من المديرية. وقلبي يقول لي: إنه مازال هنا. وقلب المؤمن دليله. وقلبي يقول لي بوجوده في مكتب المدير العام. والتأكد من صحة هذه الفرضية سهل. توجهت إلى غرفة سكرتيرة المدير العام. وبعد تحية الصباح، قلت لها: "ثمة معاملة تخص الأستاذ عمر. طلب إلي أن أنجزها. وقد أنجزتها. فهل يمكن إبلاغه الأمر، أم أنه في جلسة عمل مع السيد المدير العام"؟. قالت: "لا. ليس جلسة عمل. فنجان قهوة، وصباح الخير. هذا ماأظنه. هل تحبين أن أبلغه بأن المعاملة جاهزة"؟. قلت باندفاع: "لا. ليس بالضرورة. أستطيع الانتظار. هذا إن كنت لا تمانعين طبعاً". "لماذا أمانع؟ على العكس من ذلك. أهلاً بك وسهلاً. تفضلي استريحي. هل أطلب لك شاياً أو قهوة"؟. "شكراً. لا أريد"، قلت ذلك، وجلست من فوري. وشكرتها ثانية. إنها سيدة لطيفة. كانت حاملاً. قدّرت أن عمر الحمل سبعة شهور أو ثمانية. وسمحت لنفسي أن أطرح عليها سؤالاً. قلت لها: "ألا يضايقك الحمل في أداء عملك؟ - وأضفت على الفور - تستطيعين طبعاً ألا تجيبي عن هذا السؤال الشخصي". قالت: "الحركة ضرورية في مثل هذه الفترة من الحمل". وابتسمت، وقالت: "ثم إنه ليس سؤالاً شخصياً". "حقاً؟ أما أنا فكنت أظنه سؤالاً شخصياً". ورنّ جرس الهاتف، وانشغلت السكرتيرة بمكالمة قصيرة، استمعت خلالها إلى محدثها على الطرف الآخر من الخط، ثم نطقت أخيراً بهاتين الكلمتين: "حاضر أستاذ"، ووضعت السماعة، وقالت لي: "السيد المدير العام سيخرج بعد قليل". قالت ذلك بلهجة من يطلب إلي الانصراف، فالمعروف عن المدير العام أنه لا يحب رؤية الموظفين في أماكن غير تلك التي ينتمون إليها. قلت: "سأنصرف إذن". قالت: "أنت حرة". نهضت من مكاني لأنصرف، ثم غيرت قراري على نحو مفاجيء، بل على نحو لا يخلو من تحد. قررت البقاء. مادام المدير العام خارجاً، فهذا يعني أن عمر خارج أيضاً. وبصيغة أخرى: هذا امتحان لحقيقة موقف عمر مني. قلت في نفسي: سوف أبقى، وأنظر كيف يتصرف عمر إذا مازجرني المدير العام. قلت للسكرتيرة: "سوف أبقى". قالت: "أنت حرة". وما إن أنهت عبارتها حتى انفتح باب مكتب المدير العام، وأطل منه برفقة عمر، وكل منهما

يعزم على الآخر أن يتقدمه في الخروج. بدا وجودي في غرفة السكرتيرة مفاجئاً للرجلين. نظر المدير العام إلي، ثم إلى عمر، ثم عاد ينظر إلي ويسألني: "ماذا تفعلين هنا يآنسة"؟. لم يكن في صوته شيء من توبيخ أو تقريع. واندفعت أبرر الموقف. قلت: "لقد طلب مني الأستاذ عمر أن أنجز...". ولم يتركني أستمر في التبرير. قاطعني يقول: "مادام الأمر يتعلق بعمر فلا بأس عليك". والتفت إلى السكرتيرة، وقال: "إذا اتصل بي أحد فأنا عند السيد الوزير". "حاضر أستاذ"، ردت السكرتيرة. وخرج المدير. وخرج عمر الذي تعمد أن يتجاهلني، فتعمدت ألا أتجاهله، وأن أستمر باندفاعي إليه، فقلت في إثره: "أستاذ عمر! المعاملة جاهزة". وتوقف الرجلان، وقال المدير (رحمة الله، مات شاباً) لصديقه القديم بشيء من الغمز: "ألا تسمع؟ المعاملة جاهزة. أراك فيما بعد. إلى اللقاء"!. وشدّ على ذراعه كمن يقول: ابق هنا. وانصرف. وبقي عمر وحده. اقتربت منه. وتوقفت أمامه على بعد خطوة واحدة. قال بما يشبه الهمس: "أية معاملة هذه"!. قلت: "ماذا أقول إذن"؟. قال: "ثم ماذا"؟. قلت: "أنت من يملك الجواب عن هذا السؤال، ولا أظنك صعدت إلى الطابق الخامس لتقول لي: ثم ماذا؟ أظنك جئت إليّ كي تعطيني جواباً واضحاً، بل أجوبة واضحة عن أسئلة محددة كتبتها في رسالتي إليك، وأرجو ألا تقول إنك لم تقرأ تلك الرسالة". "بل قرأتها"، قال بشيء من جفاء. "إذن"؟. "اسمعي ـ قال بعد أن تأملني طويلاً ـ لن أمحو اسمك من سجل الغائبين. لن أفعل ذلك، ولكنني في الوقت نفسه، أدعوك إلى تلك الكافتيريا، فما قولك"؟. "هذا ماكنت أنتظر سماعه". وفي الكافتيريا قال لي: "إنني لا أحب أن أتحدث في الماضي. لا شأن لك بوداد أو سواها. ماضيّ أنا يخصني وحدي. ولن تكوني لي فيه شريكة. ثم إن الماضي ماض. أما أنت، فلك أن تقبلي عرضي بالزواج، ولك أن ترفضيه. أما أن تقبليه وترفضيه في آن، فلست أدري كيف أسمي هذه الحالة. لا تخونني اللغة عادة، لكنها ترفض الآن أن تطيعني. على أية حال، لن أجهد نفسي في البحث عن الكلمة التي تستحقين أن توصفي بها، أو أن توصف بها حالتك الغريبة هذه. سأكتفي بالقول: إنك ماتزالين طفلة. وللمناسبة، فإن قولاً كهذا يحمل معنى أوسع بكثير مما قد تتصورين للوهلة الأولى. وربما كان ينطوي، بالنسبة إليّ، على قدر كبير من المجازفة. نعم، إن الزواج بطفلة ينطوي على مغامرة دون ريب. لا تقاطعيني، أرجوك، ولا تفهمي من كلامي أنني أسحب العرض الذي سبق وقدمته لك. العرض مازال قائماً. ولكن لا تطالبيني بالمبررات أو الأسباب التي دفعتني إلى طلب يدك للزواج. هل أحبك؟ أكذب لو قلت نعم. وأكثر من ذلك، فإنني لا أعدك بالحب. لن أرتكب حماقة كهذه. غير

أني، في المقابل، أعدك بالاحترام، وبالوفاء أيضاً. بمعنى آخر: أعدك بألا أخونك، وبألا أعذبك في يوم من الأيام. هذه وعود أستطيع أن أفي بها. أستطيع أن أقدمها وكلّي ثقة بأني قادر على الوفاء بها. والآن، يأتي دور النقطة التي تصرّين على معرفة موقفي منها: الحرية. يبدو أنك لا تعرفينني بعد. وأنا لا ألومك على هذا. فمن أين لك أن تعرفيني إلا مما يشاع حولي هنا وهناك. وما يشاع حولي كثير. حسناً، من الأفضل أن تسمعيها مني مباشرة. إنني لن أمنحك حريتك، لن أهبك حريتك. هل تعرفين لماذا؟ لأن الحرية لا توهب، ولا تمنح.. متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ أظنك تعرفين هذا القول، وتعرفين قائله. إنني أؤمن بهذا الكلام مثل إيمانك بوجود الله. وهكذا، فلن أعطيك حريتك، ولكني سأصلح الخلل الحاصل. أبوك وأمك يفهمان الحرية على طريقتهما. وأنا لا ألومهما. إنه المجتمع يفرض أعرافه، ويفرض قوانينه. إنني لا ألومهما، ولكنني لا أوافقهما الرأي. هما يرتكبان بحقك خطأ، وأنا أجيء لأصلح هذا الخطأ، وأعيد الأمور إلى نصابها. هل تسمعينني جيداً؟ أعيد الأمور إلى نصابها. وهكذا لا تكون لي عليك منّة. بل إنني أرفض أن تكون لي عليك منّة، وذلك لسبب بسيط، هو أنني لا أعطيك شيئاً، ولا أمنحك شيئاً". كنت أستمع إليه واجمة. كنت أستمع إليه بحواسي كلها، حتى بعيني. تمتمت أقول: "اسمح لي أن أقول لك: هذا كلام جميل، أو جميل جداً. ولكن قل لي من فضلك: لماذا"؟. "ماهو الذي لماذا"؟. "لماذا تفعل ذلك؟ ولماذا أنا؟ لماذا وقع اختيارك علي أنا بالذات؟ لابد من وجود سبب. تعترف بأنك لا تحبني، وجميل منك أن تكون صريحاً. لكن، مادام الحب مفقوداً، فلابد من وجود سبب آخر. أي سبب. ألا أعجبك على الأقل"؟. "بلى. إنك تعجبينني". "حقاً"؟. "حقاً". "ماالذي يعجبك فيّ"؟. "أشياء كثيرة فيك تعجبني". "مثل ماذا"؟. "حسناً، مادمت تصرّين على معرفة الأمر. أنت - في نظري - بنت جميلة، أو حتى جميلة جداً، لا تقاطعيني، هكذا أراك أنا. أعرف أنك ناحلة قليلاً. لكن هذه ليست مشكلة. إذن، أنت بنت جميلة. وأنت بنت لطيفة، أو حتى لطيفة جداً. هل يكفيك هذان السببان؟ هل أسوق أسباباً ثانية؟ لابأس. سوف أعترف. إنني أبحث عن الرفقة. لا تفهمي من كلامي هذا أني بلا أصدقاء. لديّ بعض الأصدقاء. ولكني أريد صديقاً من الجنس الآخر. وأظن بأن في مقدورنا أنا وأنت أن نكون صديقين ممتازين. هكذا أظن. وآمل أن يكون ظني في مطرحه. ولكننا نعيش في مجتمع تمنع أعرافه وقوانينه الصداقة بين الجنسين إلا ضمن قالب واحد: الزواج. وهكذا يصير الزواج، بالنسبة إليّ، وسيلة وليس غاية. إنه وسيلتي إلى صداقتك. ولهذا، أعيد صوغ عرضي السابق، فأقول:

هل تقبلين بي صديقاً لك"؟. "كيف الزواج وسيلة لا غاية؟ لحظة من فضلك. أنت تشوشني بهذا الكلام. تقول الصداقة هي الغاية. ولكن هل يمكن لهذه الغاية أن تكون وسيلة أيضاً"؟. "وسيلة لأي شيء"؟. "للهروب من ماضيك مثلاً". "ماهذا الكلام السخيف! لا تجعليني أندم على صراحتي معك". "ولكني أريد أن أعرف موقعي عندك. أريد أن أعرف إن كنت أقف على الماء أم على اليابسة، وأظن أن هذا حق لي. وبصراحة أكثر، أريد أن أعرف إن كنت تستغلني. أرجوك أن تكون صريحاً معي حتى النهاية. أرجوك ياعمر، وسامحني على أن أناديك باسمك مجرداً من كلمة سيد، أو أستاذ، فأنا...". وترددت قليلاً قبل أن أبوح بالسر الذي صرت لا أطيق الاحتفاظ به، والذي قررت أن ألفظه من قلبي، أن أرميه على الطاولة، أن أضربه في وجه هذا الرجل الغامض الذي يجلس قبالتي ويتحدث بالحق في الحرية. ولم يطل ترددي. استكملت عبارتي الناقصة، وبحت بالسر أخيراً. قلت: "أنا أحبك". وأشحت بوجهي بعيداً عنه، ثم غطيته بكفي، فلم أعد أجرؤ على النظر إليه. ولم أعد أعرف كيف سينتهي هذا المشهد الذي بدا خارجاً للتو من أحد أفلام الميلودراما التي يعرضونها على شاشة التلفزيون مساء كل ثلاثاء، تحت عنوان: "من أفلام أيام زمان". ولم أعرف ماالذي كان يصنعه عمر في تلك اللحظة. بماذا يفكر؟ وكيف ينظر إليّ؟ وهل يبدو عليه الحبور لأن فتاة بكراً تجلس أمامه ذليلة، معترفة بجريمة حبه؟ لم أعرف شيئاً، وأنا أغطي وجهي براحتي، إلى أن جاءني صوته. وكان كالعادة واثقاً، هادئاً. قال: "أما أنا فلن أرفع الكلفة بهذه السرعة. لن أناديك باسمك مجرداً من أي لقب. اسمعي ياآنسة ليلى، إن اعترافك هذا لا يفرحني. لا يفرحني أبداً. بل على العكس من ذلك. إنه يخيفني، هأنذا أقولها بكل صراحة. هذا الاعتراف يخيفني. هذا الحب يخيفني. وللمناسبة، اعترافك هذا لا يفاجئني. كنت أتوقع سماعه، وأستعد للمفاجأة، ولهذا تجدينني هادىء الأعصاب. ارفعي يديك عن وجهك، وانظري إليّ تري أني هادىء الأعصاب. هادىء تماماً رغم الخوف الذي سبّبه لي هذا الحب الذي في غير أوانه، والذي ينطوي على شيء من خطر دون ريب". "ولماذا الخوف"؟. صرخت فيه فجأة، وقد رفعت يدي عن وجهي بحركة سريعة. "لأنك طفلة. طفلة متناقضة أيضاً. وسوف يجلب لنا هذا التناقض من السعادة أقل مما سيجلبه من الشقاء. ليس لي أنا وحدي. بل لنا نحن الاثنين. كل منا سوف يكون ضحية هذا التناقض ذات يوم. تذكري كلماتي هذه. تذكريها جيداً. بل أرجوك أن تتذكريها". "سوف أتذكرها. سوف أتذكرها. ـ قلت بعناد وأنا أنظر في عينيه مباشرة، وأضفت ـ لست نادمة على اعترافي بحبك. لست نادمة". "هذا شأنك". قال. وصمت لحظة

قبل أن يضيف: "أصل الآن إلى النقطة الأهم. تصرّين على معرفة ماإذا كنت أستغلّك على نحو من الأنحاء، سأجيبك عن هذه النقطة. لقد عرضت عليك الزواج الذي مازلت لا أرى فيه إلا وسيلة للصداقة بين رجل وامرأة في مجتمع مثل مجتمعنا. أما الاستغلال؟ فهل ثمة صديق في العالم لا يستغلّ صديقه، على نحو من الأنحاء؟! سوف آخذ منك. ولكنني سوف أعطيك أيضاً. فالأخذ دائماً يودي إلى الكراهية. والعطاء دائماً يودي إلى الكراهية أيضاً. ليس في مقدورنا أن نحب شخصاً نأخذ منه ونأخذ، ونظل نأخذ. وليس في مقدورنا كذلك أن نحب شخصاً نعطيه ونعطيه، ونظل نعطيه، لابد من وجود نقطة ما في الوسط. وهكذا نكون متعادلين. وإنني أعدك بأن نكون دائماً متعادلين. متعادلين في كل شيء. أعدك بألا أخونك مثلاً. ليس بصفتك زوجتي. ولكن بصفتك صديقتي، فالذي يخون صديقه يخون الأمانة. وأستمر في صراحتي معك، وأعترف لك بأمر ماكنت أحب أن أخرجه من قلبي في وقت من الأوقات. أنا رجل ملعون. خنت صديقاً لي ذات يوم بعيد. أكثر من عشر سنوات مر على ذلك اليوم الذي خنت فيه صديقي، غير أني إلى الآن لا أعرف نعمة النوم وراحة البال بسبب تلك الخيانة. ـ وبدأ صوته يتكسر وأضاف ـ صدقيني ياآنسة ليلى، ليس ثمة ماهو أبغض من خيانة الأمانة، لأنه ليس ثمة علاقة بين البشر أسمى من الصداقة. فهي العلاقة الوحيدة التي نمارسها بحرية، فنحن لا نختار أخوتنا، أو آباءنا، أو أمهاتنا. ولكننا نختار أصدقاءنا. ـ وأشعل سيجارة، وأضاف ـ هل استغلّك؟ نعم. إنني أستغلك في تجاوز الألم الذي سببته لي امرأة سواك. أعترف. فإن قبلت بصداقتي، عليك إذن أن تقبلي بهذا الاستغلال الذي سوف أمارسه. وليس هذا فحسب، سوف أستغلك أيضاً من أجل أن أشتغل شيئاً ذا قيمة حقيقية. في قلبي أغنية أحب أن أغنيها، ولكنني لا أعرف بعد كيف. وأظن بأنك سوف تساعدينني في أن أغني أغنيتي. أعترف بأني أستغلّك أيتها الطفلة الجميلة". وناس صوته وناست عيناه أيضاً، مثلما تنوس ذبالة مصباح نفد الزيت من سراجه. هزتني كلماته، واعترافاته، وألمه. قلت بصوت هادىء: "أما حكاية الطفولة هذه، والتي ماانفكيت تتحدث فيها، فسوف تثبت لك الأيام بأنني لست طفلة إلى الحد الذي يعود عليك بالشقاء كما يحلو لك أن تتصور الأمر بل إنني سوف أفنى في سبيل إسعادك، ولسوف أجعل منك رجلاً سعيداً. بل سوف أجعلك تنسى وداد. وتنسى أيامك معها. هذا وعد، وسوف ترى بنفسك أني قادرة على تنفيذ وعودي. أما الحب؟ حسناً. لست أخجل من اعترافي بحبك. وأنت؟ لابأس. لن أستمر في أوهامي حول تلك المرأة، وحول استغلالك لي. يكفيني الآن ماوعدتني به من وفاء

واحترام وعدم خيانة. سوف أعيش قصة حب من جانب واحد، وسوف أكون راضية بهذا. فماذا تريد بعد؟ إنني أقبل أن أكون لك صديقة، فهل مازلت موافقاً على الزواج؟ أم أنك لا تثق بما أقول؟ أنصحك أن تضع ثقتك بي، فأنا لست ممن يخون الأمانة، ولست ممن يخون الثقة".. عندي ثقة فيك، عندي أمل فيك، عندي ولع فيك، شو بدك بعد موت فيك؟ والله رح موت فيك. أظنك تعرفين يافاطمة كلمات هذه الأغنية الفيروزية، أتذكر أني كتبتها لك تعقيباً على ماجاء في رسالتك التي وصلتني يوم ٥ أوت: "أنا أكثر منك ثقة بك، وبعلاقتنا". فقلت لك: "أنا أكثر منك حباً، أو جنوناً". كنت أموت من الهوى إليك لما كنت أنتظر قدومك إلى دمشق في شهر أوت، ولما وصلتني تلك الرسالة (الأخيرة!!!) التي تعتذرين فيها عن المجيء، وتتحدثين عن الثقة. وكم فاجأني قرارك بعدم المجيء إلى هنا. كنت قد أنهيت أشغالي كلها. كنت قد حسمت أمري مع وجدان. قالت لي في أحد أيام شهر مارس: "ماأخبار فاطمة"؟. كانت قد تجاوزت الأزمة التي أعقبت موت أمها. قلت: "ربما جاءت إلى دمشق في آخر الربيع". قالت: "أذبحها إن رأيتها هنا". وقالت لي في أحد أيام شهر أبريل: "ماأخبار فاطمة"؟. قلت: "اعتذرت عن المجيء في آخر الربيع. قد تأتي في الصيف". قالت: "خسارة"!. وقالت: "حبّذا لو تسمعني جيداً ياحسن"!. قلت: "إنني أسمعك جيداً". قالت: "أنا لن أعود إليك". ولم أسألها لماذا لا تريد أن تعود إلي. كان الكندي قد جاء إلى دمشق في أبريل، حتى أني رأيته تلك الفترة. رأيته عرضاً في الشارع. تصافحنا. ودردشنا بضع دقائق. إذن، بدأت الفرصة الثانية تتجسد، لم أربط يومئذٍ بين مجيء هذا الرجل إلى دمشق وبين وجدان. كنت أعرف بأن الفرصة الثانية سوف تتحق ذات يوم، فنحن نفكر فيها حتى لو لم يكن للطرف الثالث وجود حقيقي، أو حتى لو كان وجوده مجرد وهم في خيالنا، فإننا في بعض الأوقات نعشق الوهم أكثر مما نعشق الحقيقة، حتى لو كانت حقيقة حلوة، إنني أفهم هذا، وأدركه، وأدرك أيضاً أنه إن لم يكن الكندي الطرف الثالث، فلسوف يشغل ذلك الموقع أحد آخر سواه حتماً، والمسألة مسألة وقت، غير أني لم أكن أفكر بهذا الرجل بالذات ولست أدري لماذا، أما الآن، فأعتقد أن زيارته إلى دمشق في شهر أبريل الفائت، إنما كانت من أجل وجدان التي لم أسألها لماذا لا تريد أن تعود إلي. هل تصدقين؟ لم أناقشها في الأمر أبداً. التزمتُ الصمت. كنت لا مبالياً، بل ربما كنت فرحاً بقرارها. فهاهي تمدُّ لي يد العون أخيراً. هاهي تقول لي: أنت في حلٍّ مني، وهذا ماأريده أنا ياحسن. ولزمتُ الصمت. وقلت في نفسي: لن أكون متناقضاً بعد اليوم. وجعلت أعيش على أمل لقائك.

وارتحلت إلى اللاذقية من أجل التفرغ لكتابة السيناريو الذي تعاقدت عليه مع اتحاد الفنانين العرب بعد انتهائي من كتابة (الغفران) مباشرة. وفي اللاذقية تعرفت إلى ديانا الحلوة كالملاك. ولم أشتغل من فوري. مرضت. وطال مرضي قليلاً. كتبت لك عن تلك الدوخة بشيء من التفصيل في حينه. ولكني أخفيت عنك وهم إصابتي بالسرطان. وفي الحقيقة أن ذلك الوهم لم يكن من اختراعي. بل إن بعض الأطباء هم الذين ساروا في هذا الاتجاه.

٧

استيقظت من النوم صباحاً على ضجيج آلات الحفر في الطريق. مذ جئت هذه المدينة وهم يحفرون طرقاتها. مذ التقيت هذه المدينة أول مرة والحفريات فيها لا تتوقف، ولا يبدو أنها سوف تتوقف في يوم من الأيام. شركة الكهرباء، شركة الصرف الصحي، شركة الهاتف، شركة لا أعرف ماذا أيضاً. الله وحده يعلم عدد وأسماء الشركات التي تعشق حفر الشوارع في هذه المدينة! يخيّل إليّ أحياناً أنهم يبحثون عن شيء ما دفنوه أو ضيّعوه تحت أرض دمشق مذ قتل قابيل أخاه. وقفت مرة، قبل خمسة أعوام تقريباً، عند إحدى هذه الورشات، وسألت شخصاً بدا لي أنه المهندس المسؤول عنها، وقلت له: "عن أي شيء تبحثون ياسيدي؟ قولوا لي الحقيقة من فضلكم! من يدري؟ فقد أستطيع أن أقدم لكم عوناً في البحث عن أشيائكم الضائعة". فتبسم الرجل، وقال: "لا أحد يستطيع أن يقدم لنا عوناً كهذا". قلت: "إذن، سوف تستمرون في التفتيش إلى الأبد". قال: "نعم، سوف نستمر في الحفر إلى الأبد". وهاهم يصدقون القول. ويستمرون في حفر المدينة. وأنا أستيقظ من النوم في الصباح على ضجيج احتماله فوق طاقتي، فأقرر الهروب من البيت بسرعتي القصوى. لا أتناول طعاماً، ولا أشرب قهوة. أرشق وجهي بالماء. وأمشط شعري على عجل. وأرتدي ثيابي. وأخرج من البيت قاصداً المؤسسة. على أية حال، لدي عمل هناك، العمل نفسه. توصيف المشهد السينمائي. لا شيء جديد. التقيت على درج البناء، أمام البيت، بفراس. صار عمره ١٣ سنة، تقريباً من عمر قصتنا أنا وأنت. أراقبه ينمو مذ عرفتك، ومذ ارتحلتِ عني. أرى فيه حركة الزمن. أفرح بمشاهدته يكبر يوماً بعد يوم. وأحزن من مرور أيامي بعيداً عنك ياوجعي. كان فراس رضيعاً بعد لمّا التقينا. ولما افترقنا. وسوف يأتي يوم يصير فيه الرضيع رجلاً. وأنا وأنت!! ماذا فعلنا بأيامنا؟! أراقب فيه الزمن ينمو. أراقب الولد مذ كان يتعثر في النطق لمّا كان يذبحني غيابك. والولد لم يعد يتعثر في النطق، أما غيابك فمازال يذبحني إلى اليوم. صار الرضيع فتى. وصار شيطاناً. وصار عفريتاً.. صار لست أدري ماذا أيضاً. صار أيّ أحد أو أي شيء إلا طفلاً، فهل سمعتِ بطفل يسرق سيارة أبيه وهو في العاشرة من عمره ويذهب إلى إحدى الغابات البعيدة عند خط الاستواء ليتسابق مع القردة

في تسلق الأشجار؟ إنه فراس. هو ولد أشقر الشعر. أبيض البشرة. أما عيناه فمثل عيني أنا، ومثل عيني عمتي فاطمة. هو دليل آخر على هوية الجد البعيد الذي تتحدر منه العائلة. قضى مع أبيه عشرة شهور في العاصمة الأوغندية (كمبالا). قال لي أبو النور بعد عودته إلى دمشق: "عقدت القردة الأفريقية مؤتمراً طارئاً خصصته لمناقشة وجود هذا القرد الفلسطيني بينها، وطالبت الأمم المتحدة في بيانها الختامي بالتدخل من أجل إجلاء هذا القرد الأشقر من الأراضي الأفريقية لأنها لن تحتمل العيش معه بسلام. ولما رفضت الأمم المتحدة مبدأ التدخل من أساسه، تقدمت قردة إفريقيا جميعاً بطلبات لجوء إلى الولايات المتحدة". قلت لأبو النور: "لا أستغرب هذا". وقلت أيضاً: "من شابه أباه ماظلم". قال: "والله يازلمة أنا ماكنتش هيك". وقال: "يلعن دينه. جنني. من ثاني يوم وصل فيه لكمبالا تقاتل مع قردين زغار. ماحسيت إلا نازلين ببعضن ضرب بوكس بالشارع. ولما شاف حاله مش قدهن حمل حجار وبلش يراجد عليهن. ومن يومها أعلن كراهيته للقرود. كيف صاروا بعدين صحاب، والله مابعرف! لما سرق السيارة وراح للغابة حطني بموقف من ألعن مايكون. يومها كان عندي لقاء مع نيلسون مانديلا. وطار اللقاء بسبب السيد فراس. قلت له: شو أعمل فيك يابن الكلب؟! بعدين مش على أساس بتكره القرود؟! شو اللي أخذك عالغابة؟! جنني. أقسم بالله جنني. مرة حامل حاله ورايح عالغابة، ومرة بيحمل حاله وبيروح لبحيرة فكتوريا. ولك شو بدك ببحيرة فكتوريا؟ قال بدي أتسبح. ولك طيب بلكي غرقت يابن الكلب! قال تخافش علي أنا ضد الغرق. أما بلوة! ماعدتش أقدر أتحمله، لذلك قررت أرجعه للشام". رجع مع أخيه علاء الدين الذي يكبره بأربع سنوات. رجعا عن طريق القاهرة. تقاتل في مطار القاهرة مع رجال الأمن. كان عليه أن ينتظر عشر ساعات في قاعة الترانزيت. وكان يعرف ذلك سلفاً. غير أنه أصرّ على الخروج من المطار والذهاب إلى المدينة. ولم يسمح له رجال الأمن بذلك، فتقاتل معهم. ولمّا زجروه وهددوه بالعقاب إن استمر في شغبه هددهم بكسر زجاج الواجهات في القاعة. قلت له: "وليش كنت بدك تنزل عالمدينة"؟. قال: "كنت بدي أروح عالأهرامات". وقال: "تراهنت أنا وعلاء إني بقدر أطلع على راس الهرم الكبير بعشر دقايق. قللي بتقدرش. قلت له: بتشوف إني بقدر. بس الشرطة تبع المطار ولاد كلب". قلت: "يمكن الشرطة اشتغلوا صح. خافوا إنكو فجأة بتضيعوا، أو بتجوعوا وما معاكو مصاري". قال: "كان معنا مية دولار. أعطانا أبوي مية دولار ع شان الطريق. بس أنا بعرف ليش الشرطة منعوني أروح عالأهرام. لأني فلسطيني. مش لأني زغير. طيب أنا زغير. وعلاء؟ كمان زغير؟ كان عمره بيطلع خمستاشر سنة".

قلت: "شو يعني خمستاشر سنة! كثير"؟. قال: "يازلمة! إيش عم تحكي إنت؟! خمستاشر سنة!! يا الله بس يصير عمري خمستاشر سنة"!! ماذا ستفعل عندئذٍ يافراس؟ فهل أنت ابن ضال آخر في العائلة؟ بعد جنازة أبو النور نسينا الولد في لجّة الأسى التي غرقنا فيها جميعاً. لم يكسرنا شيء كموت أبو النور الذي كان عصياً على الموت. وفجأة، هو أول الموتى بيننا. نسينا الطفل. ضاع فراس. وجدناه في صباح اليوم التالي نائماً عند قبر أبيه. وفراس لا يصدق بأن أبو النور يقدر على العيش في بطن الأرض أو في عالم آخر بعيداً عنه. "كيف ذلك ياأبي؟! كيف ذلك"؟! فليس الأب هو الذي يرحل. ليس الرجل. ليس الجسد. إنه الفكرة التي لا يحدها زمان أو مكان. إنه انطلاقة الروح من كل أشكال الغواية. "آه منك ياأبو النور! آه منك ياأبي"! وفي ذلك الصباح الذي وجدنا فيه فراس عند القبر أدركتُ حقيقة الإرث الذي تركه لي أخي، وارتحل. فمن يقدر على ملء الفراغ الذي يخلقه غياب رجل مثل أبو النور؟! غضب مرة من فراس فحبسه في الثلاجة قرابة نصف ساعة. وصار الجلوس في الثلاجة عادة عند السيد فراس، وصار يتقاتل مع أبيه لكي لا يمنعه من الجلوس هناك في أيام الحر الخانق. وصار على أبو النور أن يحارب عند ابنه هذه العادة المستجدّة. قال لي فراس في الصيف الأخير: "ماعدش البراد يسعني. شايف على هالمشكلة ياعمي"؟! وقال أيضاً: "الله يسامحه أبوي"! ولم أفهم على أي شيء كان يطلب من الله أن يسامح أباه. مضت سنتان تقريباً على رحيل أبو النور، وفراس يزور القبر عصر كل خميس. يروي بالماء تربته العطشى، ويزرع فيها سعف النخيل وأغصان الآس. وأنا أتحايل عليه لكي أجعله يترك عادة زيارة القبر. أقول له: "تعال نروح مشوار". ويقول لي: "أميت"؟. "يوم الخميس". ويسأل محتجاً: "ضروري يوم الخميس"؟! وأرد بثقة وهدوء: "ماعنديش فراغ إلا يوم الخميس".. ويوافق معي أحياناً. ونذهب إلى المدينة. نتناول غداءنا. نذهب إلى السينما. نزور أحداً من أصدقائي. أصرف بعضاً من أمور الشغل وهو برفقتي. ونتحرش بالبنات أيضاً. والتحرش بالبنات عادة راسخة لديه مذ كان صديقاً لأبيه، لمّا كان أبوه في الحياة. ماذا أقول في فراس بعد؟ ولد لا يعرف المشي. ولد دائم الركض ودائم الغناء أيضاً، رغم أنه لا يحفظ كلمات أية أغنية جيداً. أفدت منه كثيراً في رسم شخصية (علاء الدين ـ طفلاً) في رواية (الزورق). يخاطبني كما كان يخاطب أباه من دون أية كلفة، كما لو أنني رفيقه الذي يلعب معه في الحارة أو المدرسة. أنا بالنسبة إليه "أحلى عم" و"أذكى إنسان على الأرض". أما حكاية الذكاء هذه! إليك القصة: كنت ساهراً في بيتهم ذات ليلة، قبل شهور معدودات. قال لي: "تعال نلعب

الورق". قلت: "أيّ لعبة"؟. قال: "لعبة الماو ماو". قلت: "مابعرفها". قال: "مش مشكلة. بعلمك ياها". وعلمني هذه اللعبة التي تعلمها هو نفسه حديثاً. ثم، وفي السهرة ذاتها، غلبته سبع مرات متتاليات. ولم يغلبني مرة واحدة. صفّر بعد المرة السابعة صفرة طويلة تعبيراً عن دهشته، وصرّح يقول: "والله ياعمي إنت أذكى إنسان بالدنيا". وفي الحقيقة أنني كنت أغش في اللعب. ولكني لم أخبره بذلك، وتركته يعمم تصريحه بين جميع من يعرف من الناس بأن عمه هو الأذكى على وجه البسيطة.. قال لي على الدرج صباح هذا اليوم: "وينك يازلمة"؟! قلت: "وينك إنت؟ ولا بتزورني ولا بتقول في إلي عم بها الدنيا"! قال: "أجيت لعندك تسعين مرة. دائماً مش موجود". قلت: "اطلع من هالابواب". قال: "ورحمة أبوي إني أجيت لعندك كثير. على كل حال، أنا إسّه جاي منشان أخبرك إننا أول مبارح نقلنا ستي ع مستشفى يافا". مستشفى تابع أو تابعة لمنظمة الهلال الأحمر الفلسطيني. قلت: "ليش؟ إيش اللي معاها"؟. قال: "مش عارف. داخت فجأة، ونقلناها عالمستشفى. أنا وأخوتي. مبارح عملوا لها تحاليل، واليوم بدهن يعملوا لها صور. أجينا لعندك مبارح نخبرك، لكنك مش موجود". قلت: "طيب أنا اليوم بزورها، وبشوف إيش بيقولوا الدكاترة". قال: "معناها منلتقي بالمستشفى. أنا إسّه رايح عالمدرسة، وبعد المدرسة بطلع لهناك". قلت: "بتعرف تروح لحالك"؟ إنه مستشفى بعيد، أو إنها مستشفى بعيدة. بعيد جداً. بعيدة جداً. في أقصى حي المزة. وحي المزة في أقصى غرب المدينة. وحينا بعيد عن الغرب. بعيد كثيراً. قال: "ولو ياعم"! وكان كمن يقول لي: أنا ترباية أبو النور! قلت: "ماشي. بنلتقي بالمستشفى". قال: "وهو كذلك". وانصرف. راح يهبط الدرج قفزاً، وفي كل قفزة يختصر ثلاث درجات أو أربعاً. وراح يغني: "بتونس بيك وإنت معاي". إنها أغنيته المفضلة هذه الأيام. وهبطتُ الدرج بعده درجة درجة، مثل أي إنسان عاقل لا يغني في الطريق ولا يتسابق مع القردة في تسلق الأشجار. ذهبت إلى المؤسسة. وتأخرت هناك. ولا شيء إلا وجع الرأس في مؤسستنا التي تركتها عند العصر تقريباً. ذهبت إلى المستشفى في واحدة من سياراتنا. شكرتُ سائقها، ودخلت في المبنى الذي لم أدخله منذ صيف ١٩٨٢ ، عندما كان يغصّ بالجرحى إبّان الحرب في بيروت. كان وقتئذ مثل خلية نحل في الجبال البعيدة. زرته في ذلك الصيف مرتين. مرة لأطمئن على الابن الثاني لأخي الكبير. كان فتى بعد في ذلك الصيف الذي أوشك أن يصير بعيداً. أصيب الفتى بجروح في واحدة من المعارك على السفوح الشرقية لسلسلة جبال لبنان الغربية. معركة قالوا فيها إنها حاسمة. استقتل الفلسطينيون واللبنانيون في الدفاع عن ذلك

الموقع. وزجّ اليهود بقوات جبّارة من أجل إسقاطه، لأن إسقاطه يعني إحكام الحصار البري من حول بيروت. وجدت مروان في تلك الزيارة بخير إلى حد لابأس به. أتذكر أني طرحت عليه هذا السؤال: "ماهي الحرب يامروان"؟ قال: "هل تستطيع أن تتصور جبلاً يتحرك من مطرحه؟ إن استطعت أن تتصور ذلك، تعرف ماهي الحرب". كان في التاسعة عشرة من عمره. ترك المستشفى بعد يومين على جروحه، ورجع إلى لبنان. رجع يتفرج على الجبال تغادر مطارحها، ثم لم يعد إلينا إلا بعد انتهاء الحرب. عاد مقهوراً. وشتم العرب واليهود والأمريكيين والفرنسيين والطليان. وارتحل إلى السويد. ولم نره إلى اليوم. ابن ضال آخر في العائلة، جرح آخر في العائلة. فكم نشتاق إلى ذلك الولد الذي اسمه مروان! تزوج في السويد بفتاة فلسطينية. وأنجبا طفلاً جميلاً. وأعطياه اسم يوسف.. زرت المستشفى ذلك الصيف ثانية ضمن وفد من الكتّاب العرب تعبيراً عن تضامن الكتّاب العرب مع من جُرح في الحرب أو مات دفاعاً عن لبنان، أو مع من لم يجرح ولم يمت بعد. ولم يكن ثمة مناسبة، بعد ذلك الصيف، تجعلني أزور هذا المستشفى إلا اليوم. وجدته مثل بيت هجره أصحابه منذ زمن بعيد. وجدته شبه خاوٍ على عروشه، مترهلاً، هرماً، شاحباً. لقد فقد الفلسطينيون توهجهم الذي صنعوه بالدماء الغزيرة التي بذلوها من أجل فلسطين. وفلسطين ليست حجارة وتراباً. ولا هي طبعاً هذه المسخرة التي يسمونها (غزة ـ أريحا). هي المبتدأ والخبر، والصليب والمصلوب والجلجلة، والبيت الإنساني الواحد، والنظام العالمي القديم، وحق الانسان في الخطأ، والتسليم بالقضاء في ساعات الرحيل الموجعة، والعفو عند المقدرة، وتحرير المرأة من عبودية القرن العشرين الفظيعة، وقلق الأمهات في انتظار عودة الأولاد من غياهب السفر، وحكايات الجدّات عن الإنس والجان وعلاء الدين وقمر الزمان. إنها، باختصار، الفكرة التي ليست للبيع. فكلب ابن كلب من قال: كل شيء للبيع.. لم أجد في الاستعلامات من أسأله إلا ممرضة نائمة وقد صالبت ذراعيها على طاولة أمامها ووضعت رأسها هناك. لم أوقظها. دخلت في شبكة من الدهاليز والأدراج المتشابكة ببعضها على نحو غير مفهوم. اهتديت أخيراً إلى مكان أمي. غرفة واسعة في الطابق الثاني بابها مشرّع. وقفت بالباب لحظة وألقيت نظرة على مابداخلها. ثلاثة أسرّة مصفوفة على نسق واحد. وليس من مريض سوى أمي. الإضاءة شحيحة أو تكاد تكون معدومة. ثمة غيوم في السماء تمنع نور الشمس من زيارة الأرض. والمصابيح الكهربائية مطفأة. ليس ثمة من يحتاج إلى النور ههنا. أمي نائمة. تقدمتُ إلى سريرها، ووقفت بجانبها، وألقيت عليها نظرة متأملة. لم أر إلا بعض وجهها فقط. كانت تغطي

رأسها ببشكير. آثار الزمن محفورة بعمق في الوجه الذي بدا لي متعباً كما لم يكن من قبل أبداً. وآثار الوجع محفورة بعمق أيضاً. كم عاشت إلى اليوم في الحياة؟ هي نفسها لا تعرف عدد سنين وجودها. أو عدد سنين عذابها. لا تعرف ذلك بدقة، وإن كانت تعلم أنها شارفت الثمانين حتماً. غير أنها بدت اليوم كمن تجاوز مئة من الأعوام. بقيتُ واقفاً عند رأسها أنظر إلى بعض وجهها متأملاً اندفاعة الزمن الذي راح وانقضى. كروم التين والزيتون. أرض يوسف عبد الرازق الذي انفجر دماغه في طريقه إلى عكا. طراءة الأصباح في سهول القمح وبساتين المشمش والصبّار والكرمة، وحليب البقر الطازج، والقهوة اليمنية السخينة، وخوابي الزيت، وأغاني الحصاد، وطائرات اليهود، ودبابات اليهود.. "طوبى لفاتح قرية"! والرحيل من بعد رحيل بعد رحيل، وموت الزوج، وموت الأخ، وموت ابن الأخ، وموت ابن الأخت، وموت الابن. ياربي! جميعهم رحلوا شباباً. الجميع بلا استثناء. من لم تقتله الحرب قتلته الأوجاع. كم نستطيع أن نودع في الحياة من أحبتنا؟! وكم نستطيع أن ندفع من الضرائب؟! ومن أجل ماذا ندفع تلك الضرائب كلها؟! أمن أجل فلسطين نفعل ذلك؟ وفلسطين ليست حجارة وتراباً. إنها علم الجهات. والجهات ست. هكذا قالت غانيا. جهة ندخل منها، وشرق، وغرب، وشمال، وجنوب، وجهة نخرج منها ولا نعود. وبقيتُ أتأمل بعض الوجه المتخفي بعضه تحت بشكير، واقرأ تاريخ شعب أنهكه البحث في علم الجهات. وغمرني طوف من حب إلى هذه المرأة. كم نسيتها في زحمة أيامي! وكم نسيتها في فراغ أيامي! وكم لم أتذكرها إلا حين أخشى حتى الموت من أن أفقدها إلى الأبد. جلست على طرف السرير المواجه لسريرها، من دون أن أتوقف عن تأمل بعض وجهها بنفسٍ موجوعة. ولعل نضوب الضوء زاد في وجع نفسي الموجوعة. ثمة باب جانبي يفضي إلى شرفة دون ريب. وثمة شبّاك عريض. ومازال في الوقت بقايا نهار. نهضت من مطرحي، وحاولت أن أفتح الباب والشبّاك. ولكن ليس للباب مقبض، وليس للشباك مقبض، فانتهت محاولاتي إلى لاشيء، واضطررت على إشعال النور في الغرفة. نورٌ مرتجف، بل دائم الارتجاف، ينبعث من مصباح غازي ممدد فوق الباب المشرّع. إضاءة توجع العين، وتزيد في وجع النفس. أطفأت النور، ورجعت أجلس في مكاني وأنظر متأملاً إلى المرأة التي جعلت تفيق من دون أن تصحو. كانت كمن يستيقظ من كابوس. نهضتُ من مكاني، واقتربت من سريرها، وانحنيت عليها. نظرت إلي، وقالت: "إنت مين"؟ قلت: "أنا حسن". قالت: "مش سامعة". قلت: "أنا حسن. حسن. ابنك". قالت: "إنت حسن"؟. قلت: "أنا حسن". قالت: "مش عم أشوف مليح". قلت: "على مهلك يمّا". قالت:

"بعدك سهران لإسه"؟ قلت: "كيف سهران يمّا؟ الدنيا بعدها ماصارتش المغرب". قالت: "بتضحك علي". قلت: "وليش بدي اضحك عليكي"؟. قالت: "لأنك بدكيش ياني أصلي الصبح". وكانت لا تكف عن التحديق إلي. لعلها مازالت لا تراني إلا كتلة ضبابية الملامح، غائمة الأبعاد. وتتعب من التقاط ملامحي وأبعادي، وتشيح بوجهها عني، وتحدق من حولها في الغرفة.. عن أي شيء تبحثين ياعجوز؟! الجهات ست ياأمي. تركنا الجهات خلفنا. تركناها كلها إلا واحدة. جهة نخرج منها ولا نعود. لا نعود ياأمي. فليس في المكان من بقايا. وليس من بقايا في الزمان. فعن أي شيء تبحثين بعد ياأمي؟! وحقول القمح، وطراءة الأصباح، والقهوة اليمنية السخينة، وندى الصبّار، وكروم التين والزيتون. ودخلت ممرضة تحمل صينية عليها طعام خفيف، وقالت: "العشا ياحجّة". وضعت الصينية على طاولة صغيرة مخصصة لهذا الغرض، وانصرفت. لكنني استوقفتها قائلاً: "لحظة من فضلك". توقفت الممرضة وانتظرت سؤالي الذي جاءها سريعاً: "إيش عم تعطوها أدوية"؟. قالت: "بعدها مش عم توخذ أي دوا". قلت: "كيف يعني مش عم توخذ أي دوا؟ إذن هاي الحالة نتيجة إيش"؟. قالت: "مش عم توخذ أي دوا". قلت: "متأكدة"! قالت: "طبعاً متأكدة" قلت: "طيب ممكن أشوف الدكتور"؟ قالت: "دكتورها مش موجود إسه. بدك تيجي الصبح". قلت: "طيب أشوف الدكتور المناوب". قالت: "ممكن. ليش لأ؟ على كل حال، تشغلش بالك. الحجّة إسه تعبانة لأن عملوا لها صور ظليلة. يعني أعطوها مادة بالوريد. وهاي المادة بتعمل تعب وتشوش". قلت: "يعني الحالة طارئة"؟. قالت: "مية بالمية". قلت: "أكيد"؟. قالت: "حتى الشباب بيتعبوا من هاي المادة، فما بالك بالعجايز؟ على كل حال، إذا بتحب تشوف الدكتور المناوب ففيش مشكلة. لكنك مش رايح تسمع منه أكثر من اللي قلت لك ياه". وانصرفت الممرضة. ورجعتُ إلى أمي. مازالت تحدق في الفراغ. قربتُ أحد الكراسي القليلة في الغرفة من سريرها، وجلست قبالتها مباشرة، وقلت لكي أستردها من شرودها: "يمّا! أنا حسن". قالت: "تأخرت ياحسن". قلت: "عرفتيني"؟. قالت: "أعطوني إبرة هون"، وأشارت إلى وريد ذراعها اليسرى، وازداد تعبها فجأة، وأرادت، رغم ذلك، أن تقول شيئاً آخر، لكنني منعتها من هذا. قلت لها: "بس، بس، بس. تحكيش ولا كلمة. خلص، فهمت كل إشي". وأطاعتني. وصمتت. وتناولتُ بيضة مسلوقة من على الصينية، وجعلت أقشرها. وعيناي في عيني أمي التي رجعت تحدق إلى كتلة الضباب أمامها. قدمتُ لها البيضة المقشورة، فرفضتها: "قالوا لي تفطريش ياحجّة منشان بدنا نوخذ لك صورة ثانية". قلت: "يمّا هاذا مش فطور. هاذا عشا". قالت:

"اليوم بدهن يوخذوا لي كمان صورة غير صورة مبارح". قلت: "يما إحنا مش مبارح. إحنا اليوم.. بعدنا اليوم". قالت: "عم تضحك علي". وأشاحت بوجهها عني. استسلمتُ أمام عنادها بعدما أيقنت بضياع الجهات في ناظريها، فلم يبق متسع في الزمان أو المكان. ولم يبق أمامنا إلا جهة واحدة. جهة نخرج منها ولا نعود.. غادرت المستشفى في ساعة متأخرة. كانت أمي أحسن حالاً عندما تركتها. رجعتُ إلى البيت. وجلست من فوري أكتب إليك. غير أني سرعان ماشعرت بالتعب. التعب النفسي أولاً. ولعل ذلك بسبب أمي، والمستشفى. تركت الورق والقلم. تركت الطاولة. ذهبت إلى الفراش. وفكرت بالاسترخاء قليلاً من قبل العودة إلى الكتابة. أغمضت عيني. وشعرت بثقل في رأسي. ونمت سريعاً. ورأيتك في الحلم. عجوزاً رأيتك. واستيقظت جزعاً. ولم أكن قد نمت إلا ثلاث دقائق فقط. استيقظت على وجع في عضلات صدري الأيسر. وضعت يدي على قلبي، وتنفست بعمق، قبل أن أنهض من الفراش. ذهبت إلى الحمّام. وضعت رأسي تحت ماء الحنفية طويلاً علّني أصحو من الكابوس الذي زارني في المنام. وذهبت إلى غرفة المكتبة. تجاوزتها. وخرجت إلى شرفة البيت التي لا يزيد عمقها عن ثمانين سنتمتراً، ولا تصلح إلا لنشر بعض الغسيل. ثمة سكون مطبق. رجعت أتنفس بعمق، وأجاهد في التخلص من آثار ذلك المنام المزعج الذي لا أتذكر تفصيلاته. أو ربما لم يكن فيه ثمة تفصيلات. شبح امرأة عجوز هي أنت. وهذا كل شيء. وبقيتُ أتنفس الهواء بعمق. وطوّفت بصري على الجوار. ورنوت إلى شرفة صغيرة بعيدة قليلاً أراها كل يوم عبر الشبّاك في غرفة النوم. شرفة صغيرة تقف فيها امرأة شابة يانعة. منذ سنة خلت وأنا أرى هذه المرأة الشابة اليانعة كل يوم. ولم أكن أراها قبل سنة من الآن. تقف في الشرفة وتتأمل السماء طويلاً. ماالذي تبحثين عنه في السماء ياامرأة؟ من ضيّعت هناك قبل سنة من اليوم؟ قبل أن تعودي إلى بيت أهلك مع طفلك الرضيع؟ منذ سنة وأنا أراها. منذ سنة وهي لا تراني، فأنا لا أخرج إلى شرفة بيتي إلا نادراً. أستيقظ من النوم في الصباح، وأتطاول ببصري إلى النافذة، وأراها تتأمل السماء، وأقول لها: صباح الخير ياصديقتي! ولكنها لا ترد تحيّة الصباح. فكم هي ظالمة هذه المرأة الشابة ذات الطفل الرضيع على صدرها في بعض الأوقات! تلاعب الطفل. تلاعبه طويلاً قبل أن تعود به إلى البيت، وقبل أن ترجع إلى الشرفة من جديد كي ترنو إلى السماء متأملة. بماذا تأملين ياامرأة؟! بماذا تأملين بعد ياصديقتي؟! فهل تنتظرين رسالة من الغيب؟! رسالة مثل التي تنتظرها تلك الفتاة المراهقة التي تقيم في جواري؟! تخاطب صديقتها من شرفة إلى شرفة. تقول لها: "أين رسالتي"؟. ترد

عليها صديقتها قائلة: "لم أكتبها بعد". وتقول لصديقتها: "لماذا أنت كسولة يافاطمة"؟. في كل يوم أسمع البنت تسأل عن رسالتها. وفي كل يوم ترد عليها صديقتها: "أنا لست كسولة يازينب. ولكنني أساعد أمي. لا تحزني يازينب. في الغد سوف أكتب الرسالة حتماً". وتحنث فاطمة بالوعد في كل يوم. منذ أربع سنوات وهي تحنث بالوعد في كل يوم. سألتها وجدان مرة: "لماذا لا تكتبين رسالة إلى زينب يافاطمة"؟. كنت أقف مع وجدان في شرفة بيتنا في الطابق الثالث. ضحكت عينا فاطمة قبل أن تطرق ببصرها إلى الأرض خجلاً من انفضاح سرها وسر صديقتها، وقالت من شرفتها القريبة: "إنني أساعد أمي". قالت وجدان: "تساعدينها في أي شيء يافاطمة"؟. قالت فاطمة: "إنني أنتبه إلى أخي الصغير. تكون أمي مشغولة بأمور البيت. وأنا أنتبه إلى أخي الصغير". قالت وجدان: "حقاً"؟. قالت فاطمة: "حقاً ياخالتي". قالت وجدان: "لماذا لا تزوروننا يافاطمة"؟. قالت فاطمة: "هل ترغبون في أن أزوركم"؟. قالت وجدان: "سوف نفرح بزيارتك يافاطمة". وقالت فاطمة عندما زارتنا أول مرة: "اسمك جميل ياخالتي وجدان". قالت وجدان: "اسم فاطمة أجمل". قالت فاطمة: "وجدان اسم جميل. وأنت أجمل من الجميع". قالت وجدان: "فهل تريننى امرأة جميلة يافاطمة"؟. قالت فاطمة: "أمي تقول: أنت أجمل امرأة في العالم". وفاطمة لا تزورني في البيت بعد وجدان. ألتقيها أحياناً في طريق عودتها من المدرسة. تنظر إلي بعينين يملأهما الأسف على ماقد حصل بيني وبين أجمل امرأة في العالم، ثم تمضي صامتة، غير أني أسمع صوتها في كل يوم تقول: "أنا لست كسولة يازينب. ولكنني أساعد أمي. لا تحزني يازينب. في الغد سوف أكتب الرسالة حتماً".. وهبّت نسمة باردة. وارتجف بدني. وألقيتُ نظرة على شرفة زينب. ونظرة على شرفة فاطمة.. خُلِقتُ ألوفاً. خُلِقتُ ألوفاً. خلقتُ ألوفاً. ونظرة على شرفة المرأة الشابة اليانعة مع طفلها الرضيع. وهزّني السكون المطبق على الكون من حولي. وارتجف قلبي بين أضلاعي. وغلبني إليك الشوق. ورنوت إلى السماء. وتأملت النجوم. وراقبت حركة الزمن في الفراغ. وقلّبت أمري لا أرى لي راحة/ إذا البينُ أنساني ألمّ بي الهجرُ.. وتركت الشرفة ويدي، بعدُ، على قلبي. رجعت إل غرفة المكتبة. رأسي مازال ثقيلاً. لست أرغب في الشغل. ولن أرجع إلى الفراش. أخاف أن أنام. أخاف أن أراك عجوزاً مرة ثانية. سوف يأكلني الرعب. لا أقدر أن أراك إلا شابة غضّة، نضرة، مثلما، كنتِ في أول أيامنا. في أول مرّاتنا. فهل تتذكرين مرتنا الأولى يافاطمة؟ دفء الظهيرة في ذلك النهار الربيعي. مكتب مدير العلاقات العامة. الطابق الثاني. لم أدخل ذلك المكتب من قبل. أبداً. أطرق الباب.

أفتح الباب من دون أن يأتيني الإذن بالدخول. فأنا على موعد هناك معك. وهاأنت ذي في انتظاري، على الموعد. ويفاجأ بي المدير. وينهض من خلف طاولته الكبيرة. ويستقبلني عند الباب بذراعين مفرودتين على اتساعهما. هو لا يصدق بأني: "أتنازل" وأزوره في مكتبه. لديه عني فكرة خاطئة. يظنني متكبراً. ويعانقني الرجل ويقول لي: "تفضل. تفضل". وأقول له: "جئت أشرب عندك القهوة، فأنا لم أشرب قهوة الصباح بعد". ويقول لي: "تعال أعرفك إلى ضيوفنا". ولم تكوني هناك وحدك. كان برفقتك رجل نسيت اسمه. ولكنني أتذكر أنه مدير من المديرين الكثيرين في هذا العالم. ويقدمني مديرنا إليك. ويذكر لك اسمي، وتنسينه. ويذكر لي اسمك، وأقول لك ويدي في يدك: "أهلاً وسهلاً"! وأقول في سري: سبحان الله! فكم كنتِ جميلة في ذلك النهار الربيعي ياصديقتي!! كم كنت جميلة! امرأة شابة، نديّة، طريّة، شهيّة. أي الكلام أستخدم في وصفك؟ دعجاء أم فرعاء أم قطفاء؟ أي الكلام؟ لمياء أم وطفاء أم حوراء؟ حتى أن اللغة لا تحيط بك يافاطمة. وربما كانت لا تليق بك أيضاً. امرأة فتية لا يليق بها إلا نضارة الشباب وتفجراته الرائعة. أخفقت في رسم صورتك مرة من قبل. وسوف أخفق الآن. وسوف أخفق من بعد أيضاً، فأنت عصيّة على الرسم بالكلمات، واللغة لا تحيط بك حقاً.. قميص قطني أصفر بنصف كم، وبنطلون من الكتاب باللون ذاته. كم بدا لي ذلك اللون شهياً! وكم بدت لي الأغوار سحيقة في عينيك الواسعتين! فارتجف قلبي بين أضلاعي، ورجعتُ أقول في سري: سبحان الله! وسحبت يدي من يدك اللامبالية. وجلست في أريكة بعيدة عنك قليلاً بعد أن صافحتُ المدير زميلك. وأغاظني جمالك الفتّان. وتمنيتُ لو أغادر الغرفة. وقال لي الرجل: "ضيوفنا من المغرب. وصلوا بالأمس ضمن وفد كبير. غداً افتتاح الأيام الثقافية المغربية في صالة الحمراء.. نأمل حضورك ياأستاذ حسن. هل ستحضر"؟ قلت: "نعم. سوف أحضر حتماً". وسمعت أخيراً صوتك. لم تكوني قد نطقت حتى عندما أعطيتني يدك لكي أصافحها. قلتِ من دون أن توجهي كلامك إلى أحد بذاته، رغم أن نظرك باتجاه مديرنا: "أريد شراء بعض الكتب، فإلى أين تنصحونني بالتوجه"؟ وقال لك الرجل: "والله أنا لا أشتري كتباً كثيرة". وقال أيضاً: "أظن أن الأستاذ حسن قادر على مساعدتك خيراً مني، فهو كما أعتقد، يقرأ الكثير من الكتب، ويعرف أين يمكن العثور على الجيد منها". والتفتَ الرجل إلي، وقال: "ألا تساعد ضيفتنا ياأستاذ حسن"؟ قلتُ وأنا أنظر إلى الرجل: "بل يسرني ذلك". والتفتُّ إليك، ورأيتك غير مبالية بحماسي لمساعدتك، ولكني، رغم ذلك، لمحت بعض إطباقة من رموش

عينيك. كنتِ كمن يقول لي: إنني أتنازل وأقبل مساعدتك. وقلتُ في نفسي: سبحان الله! وقلت لك: "متى تحبين أن تشتري الكتب"؟ وقلتِ لي: "الآن". وقال زميلك: "وفيم العجلة؟ إقامتنا طويلة نسبياً. تستطيعين شراء الكتب في وقت آخر". وقلتِ لزميلك: "قد أشتري الكثير من الكتب. ولا أحب تأجيل كل شيء حتى آخر لحظة". ثم التفتِّ إلي، وقلتِ لي: "هل نمشي"؟ وقلت لك: "أنا جاهز". وقلتِ لزميلك: "ثم إنني لا أفهم في هذه الأمور التنظيمية التي تتحدثون فيها. وبصراحة؟ إنني لا أحب أن أفهمها في يوم من الأيام". وقال لك زميلك: "متى ترجعين إلى الفندق"؟ وقلت له: "حالما أنتهي من شراء الكتب". وقال لك: "هل تعرفين العودة إلى الفندق وحدك"؟ وقال مديرنا: "الأستاذ حسن يصحبها إلى الفندق. ألا تصحبها إلى الفندق ياأستاذ حسن؟ فندق الميريديان". قلتُ لمديرنا: "بل يسرني ذلك". وقلتُ لمديركم: "لا تخف. إنها لن تضيع معي". وقلتِ لي: "فلنذهب لو سمحت"! وقلتُ لك: "تفضلي". وفي الشارع الهادىء الوادع النظيف مشينا جنباً إلى جنب. كنت أرتدي سترة من القطيفة الزرقاء. قلتِ لي: "ألا تشعر بالحر في هذه السترة"؟ قلتُ لك: "كان الطقس رديئاً البارحة". وأظنك تبسمت كمن يتساءل عن علاقة الأمس باليوم. وقلت لي: "اسمي فاطمة". وقلت لك: "لقد قدمونا إلى بعضنا". وقلت لي: "حقاً"؟ وجاريتك في شرودك، وقلت لك: "اسمي حسن". وقلت لي: "آ. نعم تذكرت. لقد قدمونا إلى بعضنا فعلاً". وقلت لك: "مانوع الكتب التي تودين شراءها"؟ وقلت لي: "عندي قائمة تضم أربعة وعشرين عنواناً". وتناولتِ من حقيبتك اليدوية الصغيرة ورقة مطوية بعناية طيتين، ثم أعطيتني إياها. ألقيت على الورقة نظرة. فاجأتني بعض العناوين. فاجأتني تماماً، فلست أعرف ممثلة واحدة تهتم بالسياسة، وبخاصة إن كانت مثلك شابة جداً، وجميلة جداً. قلت لي: "المشكلة أن الكتب التي تصدر في المشرق العربي غير متوافرة عندنا". وقلت لك: "والعكس صحيح أيضاً. فأنا لا أعثر هنا على كتاب صادر في المغرب العربي إلا بشق النفس". وقلت لي: "شيء عجيب! نحن العرب شعب عجيب! إننا لا نستطيع أن نتفاهم حول أي نوع من الأمن المشترك. لا الأمن القومي، ولا الأمن الاقتصادي، ولا الأمن الغذائي، ولا الأمن الثقافي". وقلت لي: "الله وحده يعلم إلى أين تمضي هذه الأمة". وقلت لك: "كلنا في الهمّ عرب". وقلت لي: "ولكن قبل أن نذهب إلى أية مكتبة، أريد أن أبدّل نقوداً، فأنا لا أملك نقوداً سورية". وقلت لك: "هذا غير مهم". وقلت لي: "بل إنه مهم جداً". وقلت لك: "ولكني أملك نقوداً سورية، فاسمحي لي أن أقدم إليك هذه الكتب هدية مني". وقلت لي: "يسرّني أن تهديني كتاباً أو كتابين.

أما القائمة كلها فلا. دعنا نعرج على أحد البنوك أولاً". وقلت لك: "ليس ثمة بنك في هذا الحي. البنوك كلها في قلب المدينة. ونحن هنا بعيدون عن قلب المدينة. الثقافة عندنا بعيدة عن قلب المدينة". وقلت لي: "نذهب إلى قلب المدينة إذن". وقلت لك: "إنني لا أفهمك سيدتي، أم أقول آنستي"؟ وقلت لي: "لست آنسة. منذ ثلاث سنوات، ولي طفل أيضاً. إنه مازال رضيعاً. عمره سبعة شهور". ولم تقولي لي: "إنني امرأة مطلقة". لم تخبريني يومئذٍ بحقيقة وضعك. لم تقولي لي: "منذ خمسة شهور وأنا أعيش عند أمي. غادرت بيت زوجي أحمل طفلي الرضيع بيد، وحقيبة ثياب صغيرة باليد الأخرى". كنتِ لا تريدين أن تظهري أمامي بمظهر المرأة التي تستجدي تعاطف الآخرين. أو ربما كنت لا تحبين أن تأتي على سيرة زوجك بشر أو بخير. ولما صارحتني بالحقيقة أخيراً في تلك الليلة التي أظنها أجمل لياليا، سألتك عن أسباب الطلاق من دون أن أسألك عن الأسباب التي دفعتك إلى إخفاء الأمر عني. وأتذكر أنك اختصرت الجواب بكلمات قليلة. أتذكر أنك قلت لي: "هناك سبب واحد للطلاق، هو أنني ممثلة". وقلت أيضاً: "كنت ممثلة من قبل الزواج الذي وقف أهل زوجي ضده. لم يكونوا يريدون لابنهم أن يتزوج بممثلة. ولم يكن زوجي يخضع لرغبات أهله، رغم أنهم قاطعوه، فقد كان يحبني كثيراً. لكن وما إن مر عام واحد على الزواج حتى بدأ يخضع لهم فجأة، وبخاصة منهم عمّه الذي يمكن اعتباره من الأثرياء الكبار. لقد لعب هذا الثري دوراً كبيراً في طلاقنا وهو الآن يحاول أن يلعب دوراً كبيراً آخر في حياتي. يحاول أن يأخذ الطفل مني. التقيته قبل شهر تقريباً. قلت له: ولماذا تريد الطفل وهو ابن ممثلة؟ هل تعرف ماذا قال لي؟ قال: سوف نستعيد طفلنا منك ياسيدتي لأن أمه ممثلة". لم تخبريني بشيء من هذا إلا بعد أسبوعين على أول لقاءاتنا، وأول مراتنا، وأول أيامنا، لمّا كنت ترفضين أن أدفع أنا ثمن الكتب. وقلت لك: "لست أفهمك سيدتي". وقلت لي: "لا تكن عنيداً. أرجوك. ثم انظر بنفسك. إنني أملك مبلغاً كبيراً من الفرنكات الفرنسية". وقلت لك: "إذن، دعينا نتفق. أنا أعطيك النقود التي تحتاجين، ثم تردّينها إلي بعد أن تبدلي فرنكاتك الفرنسية". وقلت لي: "ألا تضحك علي"؟ وقلت لك: "لا". وقلت لي: "هل تقسم على ذلك"؟ وقلت لك: "أقسم على ذلك". وقلت لي: "حسناً، إنني موافقة". وذهبنا إلى مكتبة ميسلون. وخرجنا منها بعد أكثر من ساعة نحمل خمسة عشر كتاباً مع نصيحة إحدى العاملات هناك بعدم البحث عن البقية لأنها نفدت من الأسواق. قلت لك: "سوف أحضر لك بعضها من مكتبتي، إن كنت لا تمانعين". قلت لي: "وأنت"؟ وقلت لك: "لقد قرأت هذه الكتب. وإن احتجتها ثانية أستعيرها

من أحد الأصدقاء". وقلت لي: "إنني موافقة. وإنني أشكرك". وقلت لي: "هل تقبل دعوتي لو دعوتك لتناول الغداء معي في الفندق"؟. وقلت لك: "بل يسرني ذلك. يسرني أن نتناول طعام الغداء معاً. ولكن لماذا الفندق"؟ وقلت لي: "فهل تحب أن أدعوك إلى مكان آخر"؟ وقلت لك: "نعم". وقلت لي: "ولكنني لا أملك نقوداً. أما في الفندق فإنني أوقّع على الفاتورة، وأحاسبهم لاحقاً". وقلت لك: "أقرضك النقود اللازمة". وقلت لي: "تقرضني نقوداً لكي أدعوك لتناول الغداء؟ فكرة طيبة. هات النقود. إنني موافقة". وقلت لك: "أعطيك النقود في المطعم". وقلت لي: "فإلى أين تحب أن أدعوك". وقلت لك: "ثمة مطعم غير بعيد من هنا. هو مطعم مكشوف للهواء الطلق. إنه ضمن حديقة كبيرة. تماماً كما لو كنت خارج المدينة". وقلت لي: "إذن، هيا بنا". وقلت لك: "ولكنني لا أريد أن أسبب لك إحراجاً". وقلت لي: "كيف ذلك"؟ وقلت لك: "بخصوص زميلك الذي وعدناه بعودتك إلى الفندق بعد شراء الكتب". وقلت لي: "تستطيع أن تنسى أمره. ثم إنه ليس وصيّاً عليّ. هو صديق زوجي إلى حد ما. وربما يحلو له أن يظهر في مظهر الوصي عليّ. غير أنني لا أعير الأمر كله أية أهمية". وقلت لك: "أخشى، مع ذلك أن يكون في الأمر إحراج ما". وقلت لي: "إحراج من أي نوع"؟ وقلت لك: "لا أعرف. إحراج". وقلت لي: "لست أرى إحراجاً من أي نوع. ثم أنا من يقرر ذلك. وأكثر من هذا: إنني أرغب بتناول الغداء خارج الفندق. ولكن، مع ذلك نذهب إلى الفندق أولاً. نتخلص من هذه الكتب". وقلت لك: "كما تحبين".. وقلت لي: "إنه مطعم لطيف حقاً. وقد أحسنت صنعاً باصطحابي إلى هنا. أظن بأنني في حاجة إلى بعض الهواء الطلق". قلت لك: "هل أطلب لك كحولاً"؟ وقلت لي: "نعم". وقلت لك: "ماذا أطلب لك سيدتي"؟ وقلت لي: "ماالذي تحب أن تشربه أنت"؟ وقلت لك: "أنا في العادة أشرب العرق. إنه كحول وطنية". وقلت لي: "أنا أيضاً آخذ عرقاً". وقلت لك: "أخشى أن يكون ثقيلاً عليك". وقلت لي: "إنني أعرفه. شربته عند صديقة لي في باريس. هي سورية. لكنها ليست من دمشق، بل من حلب". وقلت لي: "أنت من دمشق. أليس كذلك"؟ وقلت لك: "ليس تماماً". وقلت لي: "من أين أنت إذن"؟ وقلت لك: "أنا لست من هنا. حتى أنني لست سورياً". وقلت لي: "كيف ذلك"؟ وقلت لك: "فلسطيني. أنا فلسطيني". وقلت لي: "حقاً"؟ وقلت لك: "حقاً". وقلت لي: "أنت أول فلسطيني أجلس معه طويلاً هكذا في حياتي كلها". وقلت لك: "على ذكر حياتك، فكم عمرك؟ إن لم يكن ذلك سراً بالطبع". وقلت لي: "ولماذا يكون سراً؟! عمري خمس وعشرون سنة. سوف أبلغ الخامسة والعشرين بعد

شهرين ونصف الشهر. وأنت"؟ وقلت لك: "أكبرك بأحد عشر عاماً". وقلت لي: "تبدو أصغر من ذلك بكثير". وقلت لك: "نعم. ولست أعرف لماذا. إنني أدخن السجائر، وأشرب الكحول، وأسهر كثيراً، ومع ذلك فإنني أبدو في أواسط العشرينات. هذا مايقول لي الجميع". وقلت لي: "والجميع على حق". وقلت لي: "هل أنت متزوج"؟ وقلت لك: "لا". وقلت لي: "لماذا"؟ وقلت لك: "كدت أن أتزوج. لقد تعلقت في موسكو، حيث درست، بإحدى النساء. تعلقت بها كثيراً. هي ممثلة. اسمها ناتاشا. لكن أمورنا لم تمض على نحو جيد، فقد تزوجت ناتاشا فجأة إلى رجل آخر. حدث هذا قبل سنتين من اليوم. ثم لم أتعلق بامرأة سواها. وهكذا، لم أتزوج". وقلت لي: "أنت رجل سعيد إذن". وقلت لك: "هل تسمحين لي أن أخاطبك باسمك مجرداً"؟ وقلت لي: "يسرني ذلك". وقلت لك: "فلماذا تظنين بأني رجل سعيد يافاطمة"؟. وقلت لي: "لأنك لست متزوجاً". وقلت لك: "فهل أنت تعيسة يافاطمة"؟. وقلت لي: "إني أحاول ألا أكون كذلك". وقلت لك: "أنا آسف. يبدو أن سؤالي قد كان غبياً". وقلت لي: "لا أريد كحولاً. أخشى أن أبكي. لا أريد أن أبكي". وقلت لك: "إنني أنصحك ببعض العرق". وقلت لي: "لا أريد كحولاً، ولكني أريد شيئاً آخر". وقلت لك: "ماذا"؟. وقلت لي: "أحب أن أذهب إلى ذلك الجبل بعد الغداء". وقلت لك: "ذلك الجبل اسمه قاسيون". وقلت لي: "هل تعرف الطريق إليه"؟. وقلت لك: "نعم. ثم إن علاقتي به قديمة. مذ كنت في العاشرة من عمري وأنا أذهب إلى قاسيون، حتى في الثلج". وقلت لي: "فهل تصحبني إلى هناك"؟. وقلت لك: "يسرّني ذلك".. هل تتذكرين يافاطمة؟! استقلّينا سيارة أجرة إلى آخر نقطة في حي المهاجرين. وجلسنا هناك جنباً إلى جنب على مقعد من حجر. كانت الشمس تسقط خلف التلال التي في الغرب. والغرب في يميننا، والشرق في يسارنا، والشمال وراءنا، والجنوب أمامنا. اشتريتُ كيساً صغيراً من الترمس بخمس ليرات. ورحنا نقضم حبات الترمس الصغيرة المالحة صامتين، ونتفرج على المدينة تحتنا وعلى بقايا الغابة العملاقة التي تحيط بها من كل اتجاه. الغابة التي يدعونها الغوطة أو "بستان هشام" على رأي فيروز. وطالت بنا الفرجة. وجرّت الشمس أذيالها. وارتجفنا ونحن نجلس صامتين على أعتاب الغبش الذي يعقب الظلال الأرجوانية السابحة في السماء شديدة الرحابة. وابتعدنا عن الأنقاض الرمادية المنهارة في ذواتنا أمام سرمدية الصمت والعتمة التي تلفّ الكون في آخر النهار من كل يوم عاشه الكونُ مذ استراح الربّ من عمله، وقال: هذا حسن. وقلت لك: هل تحبين العودة إلى الفندق؟ قلت لي: بل إن هذا ماأكرهه.

ـ ولكنك ترتجفين. فماذا نفعل إذن؟

ـ لاشيء.

ـ فهل أفعل كما نكتب في الأفلام عادة؟

ـ وماذا نكتب في الأفلام عادة؟

ـ يخلع الشاب سترته، ويضعها على كتفي صديقته.

ـ وما الذي يمنعك من ذلك؟

ـ أخاف أن يبدو الأمر مفتعلاً.

ـ إنه لن يكون كذلك. وسوف أكون سعيدة لو رأيتك تهتمّ بي كما يهتمّ شباب الأفلام بصديقاتهم.

وخلعت عليك سترة القطيفة الزرقاء، وشعرت من فوري بأن أموري معك لن تنتهي على خير. وحاولت الهروب من هذا الشعور المباغت، وقلت لك:

ـ هل أحضر لك شاياً بدلاً من هذا الترمس؟ أترين إلى تلك البسطة هناك؟ أظن أن كوباً من الشاي سوف يجعلك تشعرين بالدفء.

ـ لا أريد شيئاً. ولكن اسمع. هل هي أغنية جديدة؟

ـ ليس تماماً.

كانت فيروز تغني من مسجلة على البسطة أمام بائع الشاي.. وحدن بيبقوا متل زهر البيلسان. وقلت لي:

ـ أريد أن أشتري هذا الشريط.

وقلت لك: نشتريه غداً.

ـ أنا أحب فيروز. أحبها كثيراً.

ـ هل أبوح لك بسر صغير؟

ـ إنني مغرمة بالأسرار الصغيرة.

ـ أنت تفاجئينني.

ـ كيف؟

ـ اهتماماتك هي التي تفاجئني. نوعية الكتب أولاً. والآن فيروز، وقبل هذه وتلك، فوجئت بلغتك العربية. إنها جيدة. بل أكثر من جيدة.

ـ ولكنني عربية، فأين المفاجأة؟

ـ لست أدري لماذا لديّ تصور بأنكم في دول المغرب العربي تتحدثون اللغة العربية بصعوبة.

ـ فهل زرت إحدى تلك الدول؟

ـ لا.

ـ لماذا لا تزور المغرب؟

ـ قد أزورها ذات وقت.

ـ سوف أكون سعيدة برؤيتك في المغرب.

ـ أنا أحنّ إلى المغرب.

ـ ولكنك لم تكن في المغرب يوماً.

ـ نعم، إنني لم أكن في المغرب يوماً.

ـ وتحنّ إلى حيث لم تكن يوماً؟!

ـ نعم، أحنّ إلى حيث لم أكن يوماً.

ـ لماذا؟

ـ لا أعرف.

وارتجفنا من جديد. وارتعشت أفكارنا. وعبقت بدخان الحرائق المشتعلة في السوائل الحارة الزاحفة كالأفاعي في عروقنا اللاهثة. ونظرت إليك، فرأيتك أكثر فتنة مع الغسق. كانت عيناك مثل نافذتين واسعتين مشرعتين على بحر الظلمات. وكان فيهما دعوة صارخة إلى الرحيل في رحاب غواية الحزن الربيعي الشفيف من أجل إطفاء ظمأ الأرواح الوحيدة الهائمة في فراغ الكون الحلييي عند لحظة التلاقي البهيجة. لحظة التّماس المجنونة المتفجرة بالسعادة الصامتة. لحظة التجاذب المغناطيسي.. قلت لي:

ـ دمشق مدينة جميلة.

ـ إنها الشام، فكيف لا تكون جميلة!!

ـ فهل اسمها الشام؟

ـ ألا تعرفين ذلك؟

ـ أعرف أن الشام اسم لعدة دول مجتمعة.

ـ وهي اسم دمشق التي لها أسماء كثيرة غير الشام.

ـ مثل ماذا؟

ـ الفيحاء مثلاً، والكنانة، وجلّق أيضاً.

ـ وماذا تعني هذه الكلمة الأخيرة؟

ـ لا أعرف. أستطيع أن أخمّن المعنى. إنه المكان العامر بالناس والبيوت والشجر. ولكني لست واثقاً من صحة هذا التخمين. فتشت مرّة عن المعنى في قاموس (الصحاح) فلم أعثر على الكلمة. ربما كانت موجودة في (لسان العرب) ولكني لا أملك هذا الكتاب. إنه كبير جداً. أظنه يقع في عشرين مجلداً أو أكثر. على أية حال، كلمة جلّق نادرة الاستخدام. ولولا أن أحمد شوقي استهلّ بها إحدى قصائده المهداة إلى دمشق لغابت الكلمة عن الأذهان.

ـ هل تحب الشعر؟

ـ نعم. وأنتِ؟

ـ ليس كثيراً.

ونظرتِ إلي. وقلت لي كمن يدافع عن نفسه من اتهاماتي الصامتة إليك:

ـ هل هذه نقيصة؟

ـ لا. لم أقل ذلك.

ـ هل تعرف؟ قراءة الشعر تجعلني حزينة.

ـ لماذا؟

ـ هو أحد أسراري الصغيرة.

ـ وهل لديك الكثير من هذه الأسرار الصغيرة؟

ـ لدي بعض منها.

وارتجفنا من جديد. وقلت لي:

ـ هل أبوح لك بسر آخر من أسراري الصغيرة؟

ـ إن كان هذا يريحك يافاطمة.

ـ ليس بالضرورة أنه يريحني. أو ربما كان يريحني. لا أعرف.

ـ للمناسبة، أنا لست من الفضوليين، غير أني، في الوقت نفسه، رجل يحسن

الإصغاء، فما هو سرك يافاطمة؟

- إنني متعبة. إنني متعبة جداً.

ونفضنا غبار الكآبة عن روحينا التائقين إلى الرحيل، يداً بيد، في رحاب الغواية إلى لحظة التلاقي البهيجة. واتفقنا بشكلٍ من التواطئ الخفي على الاستسلام المشترك إلى نوع من القلق المبهم، اللذيذ. ومالَ رأسك على كتفي، فهل تذكرين؟ وامتدّت كفّي مرتجفة إلى شعرك تمسده. ومرّة ثانية، شعرت بأن أموري معك لن تنتهي على خير، ونظرتِ إليّ كمن يلومني على هذه المشاعر السطحية البعيدة عن روح اتفاقنا الخفيّ على الغوص في قلب الغواية. وانطبقت إلى بعضها، بكسل عجيب، رموش عينيك السود الطويلة. وتبسّم ثغرك من دون أن تنفرق شفتاك قيد أنملة. وتحركت عضلات وجهك قليلاً، فتراقصت الظلال في وهدتي خديك تحت الكرسيين المتوردين. وقلت لي:

- أريد أن أنام، فلا توقظني.

وقلت لك: لن أفعل.

ولم أفعل. ولم تنامي، رغم أني لم أعد أسمع دقات عروقك اللاهثة. وأحطتُ بذراعي جيدك المرن متردداً. فلم أكن أعرف ماالذي أنا فاعله، ولا لماذا أنا فاعل ذلك. فمالي ومالك يافاطمة؟! ثم إنك امرأة متزوجة. ولديك طفل أيضاً. كنت أخشى أنني أقحم عليك نفسي، وأصير فجأة طرفاً في علاقة بعيدة لا أريدها، ولا أحبُّ المشاركة فيها. لم يسبق لي أن تحرشت بامرأة متزوجة إلا مرة واحدة، وقد ندمت على ذلك فيما بعد ندماً عظيماً. مازلت نادماً إلى اليوم، رغم مرور أكثر من عشرين سنة على تلك الحادثة. مازالت ذكرى تلك الحادثة، أو تلك العلاقة، تؤلمني كلما تذكرتها. وطالما تذكرتها! لا أحب النساء المتزوجات. أما أنت! فما هذا الذي يحدث لي وأنا أضمّك إليّ على أعتاب الظلمة في ذلك المساء الربيعي؟! فتحت عينيك بطيئاً، ونظرت إلى وجهي متأملة. كنتِ تحدسين بأفكاري. وكنتِ بنظراتك إلي كمن يقول: (أنت خارج الموضوع ياحسن، أنت خارج الموضوع. العلاقة بيني وبين ذلك الرجل الذي اسمه زوجي، انتهت. انتهت من قبل أن ألقاك، فأنت لست طرفاً في الموضوع). لقد قرأت في عينيك الناعستين هذا الكلام الذي قلته لي فيما بعد أكثر من مرّة. حتى في رسالتك، التي مازلت أعتقد بأنها مكتوبة على عجل، رغم أنها تملأ أربع أوراق على الوجهين.

أخيراً غفرت ياحسن؟ أشكرك على أنك غفرت أخيراً. صمتك عذبني أكثر مما

تتصور. تمنيت ألا أجد في رسالتك (الأولى!!!) تلك الأسئلة التي لا أعرف الإجابة عنها. إن إصراري على أن تكتب إلي يكمن في رغبتي القوية في معرفة أخبارك. كيف أنت؟ ماذا تفعل؟ فيم تفكر؟ ماذا يؤلمك؟ ماذا تريد؟ هل تغيرت؟ كيف؟ هل غفرت حقاً؟ هل تتذكر؟ هل؟ هل؟ خبر طلاقك بقدر مايحزنني، لم يفاجئني. هل تصدق؟ أخبارك هذه، وأخرى غيرها، ألتقطها من أصدقائك الذين يرون أني أنا السبب المباشر في وجعك، ولهذا السبب وأسباب أخرى، كانت رغبتي قوية في لقائك. وقد حاولت ذلك. وكان هذا من أكبر دوافعي لزيارة دمشق.. ومرة ثانية أفشل، وتتوسع المسافة بيننا. هل كنت أنا المخطئة الوحيدة ياحسن؟ هل طرحت على نفسك هذا السؤال؟ حسن، أنا لست بتلك القساوة التي تتصورها. عموماً، أنا لا أريد العودة إلى ذلك الرجع. لكن أكيد نحن في حاجة إلى توضيحات، وإلى اعترافات قوية. نحن في حاجة إلى أكثر من هذا: إلى لقاء، لكي نتجاوز معاً حياتنا الغابرة. أعرف جيداً تلك الوحدة التي تتكلم عنها. فكرت فيك كثيراً. وتمنيت أن تكتب لي، وأن تغفر، ألواني أنا أيضاً ليست زاهية. مرت علي لحظات صعبة جداً. ومرارتي قد تفوق مرارتك أحياناً. الآن، وأنت أمامي، لا أراك بتلك القساوة التي تصورتك بها. الآن، أنا بخير. وسأكون دوماً بخير لو كتبت لي. أو لو فتحت هذا الشبّاك، وصرخت. وهذا ياسيدي أعتبره تهديداً. إنني أبحث عن فرصة اللقاء بك. وتفتيت هذه القطعة الغابرة من حياتنا، والتقاط هذا الوجع معاً، والذي ربما لا تعرف أنه وجعي أنا أيضاً. مازلت كثيرة الشغل. وكثيرة السفر. أسافر كثيراً إلى تونس والجزائر وفرنسا ومصر. كبرت سناً. الحياة قصيرة. دخلت سنتي السابعة والثلاثين. لم أكن أتصور بأني سأبلغ هذه السن في ذات مرة. كنت دائمة الاعتقاد بأني بنت في العشرين من عمرها. في الخامسة والعشرين، أو السادسة والعشرين. ولكن ليس أكثر من ذلك. كنت دائمة الاعتقاد بديمومة الشباب. أما الآن! دخلت سنتي السابعة والثلاثين. والأربعون لم تعد بعيدة. هل أبوح لك بسر صغير؟ التفكير في هذا الأمر يملأني بالرعب أحياناً، رغم أني أتحايل عليه في أحيان أخرى، فأروح أقنع نفسي بأني أصغر البنات سناً على الأرض، وبأني سأظل أصغر البنات سناً حتى لو بلغت التسعين من عمري. ومثل هذا التحايل يحمل إليّ بعض السكينة من وقت لآخر، رغم أني أعتقد اعتقاداً راسخاً بالأمر في كثير من اللحظات. حتى أني أبرره على نحو عقلاني، فأقول: ليست آثار الزمان على الوجه والجسد مهمة لأن المهم هو الروح، وروحي في عز شبابها إلى الآن. هذا ماأعتقد به. وربما كان الأمر صحيحاً. لكن حتى لو كان صحيحاً، فالذي لا مهرب منه هو أني دخلت في سنتي السابعة

والثلاثين، وأنني عن الأربعين لم أعد بعيدة. والأربعون سن حرجة لأية امرأة. هذه حقيقة أكيدة، ودلالة ذات مغزى كبير، فالأيام تركض بنا إلى نهاياتنا المحتومة. إذن، العمر ينقضي، والحياة تعبر بنا إلى الضفة الأخرى. هل أتفلسف؟ هذه هي مساوىء سن الأربعين. إنها تجعلنا أكثر حكمة. أو أكثر ولعاً بالحكمة. إنها تجعلنا نتأمل. وعندما يبدأ المرء بالتأمل يكون قد ولج في بداية النهاية. وهذا مالا أريده حقاً. بل إن هذا هو بالضبط ماأحاربه، وأقاومه بشدة، وأتحايل عليه عندما أروح أقنع نفسي بأني أصغر البنات سناً على الأرض، فأمتنع في نتيجة ذلك عن النظر إلى وراء، وعن التفكير بالذي راح، بالناس، والمكان، والزمان. أمتنع عن التفكير بالحياة التي خلّفتها ورائي، وعن التفكير بالعمر الذي انقضى، بكل مافيه من حلاوة ومرارة، لأني حين أفكر بمثل هذه الأمور أصير سريعة الاكتئاب، فأنا لا أعلم حقاً إن كنت قد عرفت السعادة أم لا، أو إن كنت قد ذقت حلاوة العمر. بل إني حتى لا أعلم إن كان العمر حلواً بالأساس. أتطلع أحياناً إلى ورائي فأرى أن الذي تركته ليس إلا كومة من أيام، أو بيدراً من أوقات تراكمت فوق بعضها بفعل التقادم لا أكثر. ويخيل إلي أحياناً أنه لم يكن لي دور في صناعة هذا الكم من الزمان. وأطرح على نفسي في بعض اللحظات ذلك السؤال الذي طرحته أنت علي: ماذا فعلنا بأيامنا؟ أتأمل السؤال. أتأمل الكلمات. أتأمل الحروف. وأتأمل الجواب أيضاً. حسناً. ماالذي فعلته أنا بأيامي؟ أعرف أن تربيتي السياسية أنقذتني غير مرة من السقوط في الحفر الفردية التي تربصت بي هنا وهناك. وما بعثرته من أشياء الحياة، إنما بعثرته مع سبق الإصرار. أتدري لماذا؟ لأنه لا يشبهني. ولهذا السبب أقول لك: بعثر كل مالا يشبهك، بعثره من دون إحساس بالمرارة. ولكن هل حقاً أني لا أشعر الآن بالمرارة؟ أكذب لو قلت نعم. أتراني متناقضة؟ ربما كنت مثلك. ربما كنت مثلك تماماً. وربما كانت مشكلتي في هذه الحياة أني لم أعرف الرضا يوماً. لم أعرف الرضا قبلك. لم أعرف الرضا بعدك. ولم أعرف الرضا معك، رغم أني أعترف لك بأنك أنت الوجع الوحيد في حياتي. ولأنك كذلك أجدني دائمة الرغبة في لقائك من أجل تفتيت هذا الوجع الذي حاولت مراراً أن أرميه في البحر، ولم أنجح. كم حاولت التخلص منك ياحسن! فقط لو تدري كم حاولت ذلك! أنا أيضاً قلت في نفسي: أداويها بالتي هي الداء. قلت أخلص منك برجل سواك. وهذا مافعلته. ولكن ليس بتلك الطريقة ولا بتلك السرعة التي كتبت عنها أنت في تلك الرسالة البذيئة. هل تتذكرها؟ لم أفعل ذلك بمجرد أن افترقت معك. وهكذا فإنني لم أكن أخونك ياصديقي، ولا كنت أستمتع بتلك الخيانة. ماكتبته لي عن الخيانة هو من بنات أفكارك المريضة.

نعم، إن أفكارك مريضة، وهذا أكبر اتهاماتي إليك، وهذا أكبر أسباب خوفي منك أيضاً. هل تتذكر كلمات تلك الرسالة التي بعثت بها إلي في مطلع عام ١٩٨٢؟ لقد استخدمت في وصفي أكثر الألفاظ بشاعة ليس في القواميس، بل في الحياة عموماً، فالقواميس تخجل من أن تضم بين طياتها مثل تلك الكلمات. هل كنت تدفعني إلى قطع العلاقة بك؟ كان قد انقضى ثمانية شهور أو تسعة على فراقنا. وكنت أحاول أن أعيد وصل ماانقطع بيننا. كنت أحاول أن أشرح لك أسباب عدم سفري إلى أثينا. كنت أنتظر منك لحظة من حب، أو لحظة من تعاطف. وفجأة، تكيل لي الشتائم، وتدفعني إلى قطيعة معك. لو تدري كم جرحتني كلماتك تلك! ولو تدري كم اشتدّت علي أوجاع النفس بعد تلك الرسالة التي أجبرتني على أن أستسلم أخيراً لهذه القناعة: أداويها بالتي هي الداء، فكان في حياتي رجلٌ بعد خمسة شهور على رسالتك، أو بعد ثلاثة عشر شهراً على فراقنا أنا وأنت في صبيحة ذلك السبت الملعون. وأعترف بأكثر من هذا: لم يكن في حياتي رجل واحد بعدك. بل رجلان. رجلان بعدك، ورجل قبلك. ولكنك الوجع الوحيد في حياتي. فلماذا أنت وجعي الوحيد ياوجعي؟ إنني أفكر في هذا الأمر كثيراً، ولا أصل إلى أية نتيجة. حتى أن هذا الأمر يحيرني أشد الحيرة. فأنت لست أفضل أولئك الرجال جميعاً. لست أفضلهم في كثير من الأمور. بل إنك أقلهم تميزاً في بعض النواحي. وهذه ليست شتيمة بالطبع، ثم إنك أكثر الأربعة تبجحاً، وأقلهم تواضعاً. مرة ثانية: هذه ليست شتيمة، أو ربما كانت شتيمة. لست أعرف. ولست أبالي، لأني أريد أن أقول لك مابقلبي من دون لف أو دوران. نعم، إنك رجل متبجح، تحب أن تعتقد بأنك إنسان استثنائي في جميع المجالات. وهذا واضح في رسالتك التي انتهيت من قراءتها للتو. وفيها أيضاً رأيتك مولعاً باستعراض لغتك العربية، لدرجة أني في بعض اللحظات، أثناء القراءة، كنت أشكّ في أنك تقوم بشيء آخر سوى ذلك الاستعراض اللغوي الذي لا أرى له مبرراً، فأنت تكتب رسالة إلى فاطمة. مجرد رسالة، وليس بحثاً في الأدب. أرجو أنك لن تغضب من هذا النقد. تحمّلني. أرجوك. تحمّلني كما تحمّلتك كثيراً من قبل ياوجعي. بقيت سنتين مع ذلك الرجل الذي لست أرى مبرراً لذكر اسمه. لم نتزوج. لم أكن أريد الزواج، ومازلت لا أريد الزواج. فكرت بالزواج بعد الطلاق مرة واحدة فقط. فكرت بالزواج إليك أنت. أظنك تعرف هذا، فقد ناقشنا الأمر مطولاً. ناقشناه في ذلك البيت الصغير الذي عشنا فيه معاً بعد الفندق، والذي أشتاق إليه الآن شوقاً عظيماً ياحسن. وأشتاق إلى صاحب البيت صديقك الذي أخلاه من أجلنا. كم هو شاب طيب! أتذكر أن اسمه جهاد. أليس كذلك؟ هل

مازلتما صديقين؟ بلّغه تحياتي. أرجوك. وأتذكر أنك كنت، عند الحديث عن الزواج، تخشى أن تكون سبباً في طلاقي. وأتذكر أني كنت أقنعك بأنك خارج الموضوع، وبأن الطلاق تم من قبل أن ألقاك. وأتذكر أنك اقتنعت أخيراً بأنك خارج الموضوع. واتفقنا على الزواج، رغم الكثير من العقبات التي قد تعترض ذلك. أين نقيم مثلاً؟ في دمشق أم في الدار البيضاء؟ وكان ثمة عقبات أخرى. إذن، فكرت بالزواج إليك أنت. فقط. ولما لم تمض أمورنا كما كنت أحب أن تمضي، أقلعت عن فكرة الزواج إلى الأبد. عرض علي صديق السنتين الزواج مراراً. وفي ذات مرة كدت أن أغلط، وأقتنع بالفكرة، وأوافق عليها. والحمد لله أني لم أفعل. أقول لك الحقيقة ياحسن؟ أنت رجل قاسي القلب. ولكنك تحب أن تصور نفسك بريئاً، بل حتى ضحية. وهذه واحدة أخرى من مساوئك الكثيرة. فما الذي كنت تخسره حقاً ياصديقي لو رفعت سماعة الهاتف، وقلت لي: صباح الخير يافاطمة! ماذا كنت تخسر؟ أهي كبرياؤك الجريحة منعتك من أن ترد إلي بعض روحي، أم أنها كرامتك المهدورة حين كانت فاطمة "تستمتع بخيانتك" وأنت تنتظرها على نار في بحار الإغريق وأجوائهم؟! كم أنت قاسي القلب ياحسن!! وكم أنت لا تعرف الغفران!! اعذرني، مرة ثانية، على أني أتحدث إليك من دون مجاملات. واسمح لي أن أسألك عن الأسباب التي دفعتك دائماً إلى تجاهل بعض الأمور التي ماكان ينبغي تجاهلها في حال، إلا إن كنت لا تعلم بوقوعها أصلاً. وأشكّ في أنك لا تعلم بذلك. دعنا ندقق أولاً في بعض الوقائع. أنت تضع اللوم كله عليّ. وربما كنت محقاً في ملامتك هذه. ولكن دعنا نتذكر بعض المعطيات معاً. لما افترقنا في صبيحة ذلك السبت، قلت لك: "المشكلة هي عدم وجود هاتف في بيتك، فكيف أتصل بك"؟ قلت لي: "أتصل أنا". أعطيتك رقم هاتفي، وقلت لك: "أنت لا تتصل إلا عند الضرورة القصوى. إذ ليس حسناً أن تذهب إلى البريد في كل مرة. من الأفضل لو اتصلت أنا". هل هذا صحيح ياحسن أم لا؟ أرجو أنك تتذكر الأمر جيداً. اتفقنا على أن أتصل بك في المؤسسة. قلت لي قبل سفري أخيراً: "ولكن موعدنا قائم. أم أنه مرهون بمكالمة مني أو منك"؟. قلت لك: "لا. موعدنا ليس مرهوناً بشيء. نلتقي يوم ٢٦ جوليا الساعة السادسة مساء أمام ضريح الجندي المجهول في قلب أثينا. ولكن ياصديقي للهاتف ضرورات من نوع آخر. قد تشتاق فجأة لسماع صوتي. أم أنك لن تشتاق إلى ذلك"؟ قلت لي: "ماهذا الكلام الفارغ"! وتوادعنا. وركبت الطائرة. وفي الطائرة تذكرت أني نسيت في البيت بعض الكتب التي أحضرتها إلي، وقلت في نفسي: لابأس، أذكره بالكتب على الهاتف، وأسأله أن يبعثها إلي في البريد أو مع أي

مسافر. غير أني لم أستطع أن أذكرك بشيء، لأني لم أستطع أن أكلمك، رد علي عامل الهاتف في المؤسسة. قال لي: "الأستاذ حسن غير موجود. إننا لا نراه منذ مدة". قلت له: "سوف أتصل به مرة ثانية فإن رأيته أخبره بذلك لو سمحت". واتصلت مرة ثانية. ومرة ثانية لم يكن لك من وجود. واتصلت مرة ثالثة. وجاءني الجواب قاسياً هذه المرة. قال لي عامل الهاتف: "الأستاذ حسن في المستشفى. نقلوه إلى المستشفى في حالة إسعاف نتيجة إصابته بنوبة قولنج كلوي حادة". قلت: "في أي مستشفى هو"؟. قال: "المستشفى الإيطالي". قلت: "شكراً". وضعت السماعة في مطرحها، وفكرت بالسفر إلى دمشق. وما منعني من ذلك إلا المعركة التي بدأت تتفجر من أجل ابني. وهذا ماكتبته لك في رسالتي عند مطلع عام ١٩٨٢ . وهذا مااعتقدت بأنك سوف تتفهمه، وتتعاطف معي. ولكني بدلاً من التعاطف حصلت منك على ذلك السيل من الكلمات البذيئة التي يخجل حتى سكيرو الحانات في الموانىء من ترديدها على مسامع بعضهم بعضاً. لا جديد لدي في هذا المجال. لا جديد ياحسن. سبق وكتبت لك الأمر بالتفصيل، كنت على استعداد لأن أتخلى عن كل شيء، إلا عن طفلي. إنه بهجتي الوحيدة في هذه الحياة. أفرح برؤيته يكبر يوماً بعد يوم. أراقب فيه تراكم الزمان، واستطالات الوجع، والتواءات الحياة معك، ومن دونك أنت ياوجعي الذي تخليت عنه لما كان علي أن أحتفظ بطفلي. واحتفظت بطفلي، ولم أحصل منك على الغفران. أترى كم أنت عاجز عن الغفران ياصديقي!! الشيء الجديد الوحيد الذي أستطيع أن أقوله في هذا الموضوع الذي كم أرغب عن الحديث فيه، هو أني لم أردّ على مكالماتك من أثينا لأن المحامي نصحني بذلك، فقد حاول "زوجي" أن يشهر بي، وأن يطعن بصلاحيتي في تربية الطفل لأنني امرأة سيئة السلوك والسمعة بدليل أن لي علاقة برجل آخر. وأنا اعترفت للمحامي بأن لي علاقة بك، فقال: "يجب تطويق هذا الأمر تماماً، وإلا ذهبت جهودنا كلها سدى". وصرت لا أرد على الهاتف أبداً. وطلبت من أمي أن تخبرك بعدم وجودي وبألا تتصل مرة ثانية. كنت أريد أن أحتفظ بابني، فقررت أن أتجاهلك إلى حين. إلى حين، وليس إلى الأبد. ولكنك بنيت موقفاً أبدياً من تلك الحادثة العرضية. ورفضت أن تفهمني. رفضت بإصرار.. عندما كنت عاجزة عن السفر إليك، اتصلت بسعاد في ذات اليوم الذي علمت فيه بمرضك، هل مازلت تتذكر هذه البنت ياحسن؟ إنها تقيم في باريس منذ سنوات. وهي الوحيدة تقريباً (من طرفي) التي تعرف بعلاقتنا أنا وأنت. وأنت لا تحبها. أعرف ذلك. وألومك أنت في الأمر كله، فهي بنت طيبة. وهي مازالت لا تصدق القطيعة بيني وبينك. قلت

لها: "أرجوك ياسعاد. أريد رقم هاتف المستشفى الايطالي". وحصلت على الرقم. واتصلت بالمستشفى. قالوا لي إنك غادرتهم في صباح اليوم نفسه. سألتهم عن صحتك، فقالوا لي إن النوبة مرت على خير. ولم أكن أعلم بأن النوبة قد عاودتك بعد أسبوع من اليوم الذي غادرتهم فيه. وكيف لي أن أعلم وأنا لا أجدك في المؤسسة، ولا أجد خبراً منك لي أنا التي كنت أذوب من الحنين إليك. اتصلت بك ست مرات. ثم جاءت نصيحة المحامي. وكانت نصيحة طيبة. واحتفظت بطفلي. كان هذا في اكتوبر. ورجعت أتصل بك من جديد. اتصلت مرات عدة. كان عامل الهاتف يقول لي دائماً: "الأستاذ حسن غير موجود". تريد الصراحة؟ لم أكن أصدق ذلك. كنت على يقين من أنك موجود في المؤسسة، وأنك ترفض أن ترد على مكالمتي، في مرتين على الأقل. تريد الصراحة؟ لقد فوجئت بصدودك الذي كان يذيبني من الأسى. سألت عامل الهاتف مرة: "فهل هو بخير؟ أم أنه مريض"؟ قال لي: "الأستاذ حسن بخير ياآنسة. بخير تماماً". وقال أيضاً: "سافر أمس الأول إلى اسبانيا". قلت: "هل ستطول غيبته"؟ قال: "ربما طالت شهراً أو أكثر". كنا في نوفمبر. وتصورت للحظة أن العامل يكذب علي لأنك تريده أن يكذب علي بحيث أتوقف عن الاتصال بك. غير أني تأكدت الأمر في اليوم التالي. هتفت إلى سعاد، وعرفت أنك موجود في اسبانيا فعلاً، إذن، كنت بخير، وليس ثمة مايمنعك من الاتصال بي. فلماذا لم تفعل؟ آخ ياحسن! لست أسألك طمعاً بالجواب. لست أريد جواباً عن هذا السؤال، ولا عن أي سؤال آخر، فما من جواب يمكنه أن يكون شافياً لجروح قلبي الذي كان ينفطر في انتظار سماع صوتك ذات نهار، أو ذات ليل. الله ياحسن! لو تعرف كم انتظرت سماع ذلك الصوت الذي لم أسمعه أبداً، والذي كان سيردّ إليّ روحي المبعثرة بين مشرق العرب ومغربهم. ومضى شهر. ومضى أكثر من شهر. ودخلنا في العام الجديد. وسمعت أنك رجعت من اسبانيا، وأنك قضيت سهرة رأس السنة في بيت الشاعر التونسي (صالح عيّاري)، وأنك كنت في السهرة وحيداً، بل شديد الوحدة. هكذا وصفوك لي. وعرفت أيضاً أنك سافرت بعد يومين في السنة الجديدة إلى اليابان. أم إلى الصين؟ نسيت. إذن، فأنت بخير. لن أتصل بك بعد اليوم إذن. ولكن يتوجب علي أن أكتب لك. يتوجب علي أن أوضح بعض الأمور، وكتبت. وجاءتني شتائمك، فقررت أن أخرج من حياتك، وأن أطردك من دمي. وبدأت أخافك. وبدأت أكرهك. وضعت برنامجاً من أجل أن أكرهك. صرت لا أتذكر غير مساوئك. حتى أني في بعض اللحظات صرت لا أراك إلا كتلة من شرور تمشي على قدمين. ولكن انظر إلى هذه المفارقة: صرت أراك كثيراً في

نومي.. مازلت أتذكر أحد تلك الأحلام البعيدة. رأيتك تجيئني في ساعة متأخرة من ليلة باردة شديدة الظلمة. كان معك طفل رضيع. قلت لي: أترك هذا الطفل وديعة لديك يافاطمة. قلت لك: فمن يكون هذا الطفل يا حسن؟ قلت لي: إنه ابني. قلت لك: فلماذا تتركه وديعة لدي؟ قلت لي: فأين أتركه إذن؟ قلت لك: فأين أمه؟ قلت لي: لا أعرف أم هذا الطفل، أو ربما كنت أنت أم هذا الطفل. قلت لك: ولكن إلى أين أنت مسافر؟ قلت لي: إنهم ينادونني. قلت لك: من الذي يناديك يا حسن؟ قلت لي: لست أعرف، ولكنهم ينادونني، ولا بد من الذهاب، لا أستطيع أن أتركهم ينادونني إلى الأبد، هذا ليس عدلاً يا فاطمة. وتركتَ الطفل عندي، وارتحلت، وأنا أهمس لك ألا تجعل غيبتك طويلة. واستيقظتُ على الهمس. صرت أراك في النوم كثيراً، رغم أني أكرهك. ورغم أني أكرهك أيضاً، صرت مولعة بمعرفة أخبارك. نعم، أنا تحرشت بديانا من قبل، وتحرشت بليالي من بعد. لم أترك أحداً يعرفك إلا وكنت أنت موضوع الحديث بيني وبينه. حتى أن ديانا قالت لي إنها لا تعرفك إلا عن بعد. ومع ذلك تحرشت بها. وليالي قالت لي إن معرفتها بك سطحية جداً، ورحت مع ذلك أبثّها همومي معك خلال سهرة كاملة. فمن أجل ماذا كنت أفعل ذلك وأنا أكرهك؟! من أجل ماذا؟! أهو الحب؟ لست أدري. لعله الحب ياحسن! بعثت إليك مع ديانا هدية ورسالة مكتوبة. حسناً، لقد حطمت وجدان الهدية كما أخبرني أحدهم. وأنا أفهمها، وأعذرها. ولكن ماذا عن الرسالة؟ هل مزقتها ياحسن؟ أم تراك أحرقتها؟ لست أعرف ماذا فعلت بها. غير أني أعرف تماماً أنك لم تكتب إلي رداً على ماجاء فيها. لم تقبل أن ترد على تحرشي الصريح بك. لم تقبل أن تغفر. لم تعرف الغفران. فلماذا؟! لماذا كل هذه القسوة؟! أنا غفرت لك رسالتك البذيئة. أما أنت! ماذا كنت تريد مني أن أفعل حتى تصير قادراً على الغفران؟ طرحت هذا السؤال على نفسي مراراً وأنا أمارس الكراهية نحوك؟ فكرت بالسفر إلى دمشق. ولكني خشيت أن تشتمني، وترفضني. وأنا كنت على استعداد للسفر إليك. ولكني كنت أبحث أولاً عن أية إشارة منك تقول لي فيها إنني لن أكون مرفوضة عندك. وأنت لم تأتِ بشيء من هذا، فكبر خوفي منك أكثر، وقررت الابتعاد عنك أكثر أمام قسوتك التي دفعتني دفعاً إلى أن أقول من جديد: أداويها بالتي هي الداء. وأقمت علاقة برجل آخر. ومن جديد: علاقة لا وجع فيها. فما حاجتي إليها إذن؟! ماحاجتي إلى علاقة كهذه ياوجعي؟! بترت العلاقة. حدث هذا قبل ثلاث سنوات. ومنذ ثلاث سنوات وأنا أعيش وحيدة تماماً إلا من بقايا أمل في لقائك ذات يوم، ولو بالمصادفة. ثم جاءتني، فجأة، فرصة طيبة للسفر إليك. كنت

مدعوة من الاتحاد النسائي الكردستاني في العراق. والعراق، منذ الحرب، محاصر كما تعلم. وكان أمامي طريقان للوصول إلى هناك. تركيا. وسوريا. فقررت السفر عبر سوريا. عبر دمشق. قلت: سأذهب إلى حسن. سأذهب إليه حتى لو كنت مرفوضة عنده. بقيت في دمشق خمسة أيام قبل توجهي إلى شمال العراق. قد تسألني عن أسباب قبولي دعوة الاتحاد النسائي الكردستاني. سوف أحدثك في الأمر بالتفصيل إن التقينا، وسوف أحدثك عن انطباعاتي هناك أيضاً. ولكني أختصر الآن، وأقول: أحببت أن أتعرف عن قرب إلى طبيعة المسألة الكردية، فأنا مازلت مهتمة بالسياسة، إن كنت تجهل ذلك. المهم. رجعت من العراق إلى دمشق، وأقمت فيها عشرة أيام. ولم أعثر عليك في الأيام الخمسة الأولى، ولا في الأيام العشرة الأخيرة. وقد أحزنني هذا الأمر. أحزنني كثيراً. ولكن! هل أعترف لك بسر ليس صغيراً؟ لقد فرحت، رغم حزني بأني لم أعثر عليك. فمن أنت لي ياحسن؟ تريد الحق؟ لست أعرف. فهل أنت أيضاً مجرد وهم سببه طول الغياب؟ هل أنت إلا وهم سوف يزول إن رأيتك ذات مرة؟ لعلك لست إلا كذلك! لعلك لست أكثر من ذلك. ولكن تريد الحق؟ إنني لا أتمنى زوال هذا الوهم في يوم من الأيام. وإلا، على أي شيء أعيش إذن؟ كتبت لي تقول إنك قادر على انتظاري اثنتي عشرة سنة أخرى. وأقول لك: سوف لن أرتكب الحماقة ذاتها مرتين، وسوف لن أسمح بأن أضيعك اثنتي عشرة سنة أخرى. فهل تعرف ماذا يخيّل إلي في بعض اللحظات؟ يخيّل إلي أن وجودي بقربك هو أجمل مايمكن أن يحدث لي في هذه الحياة. إذن، سوف أجيء إلى دمشق، بل توقع أن أجيء إلى دمشق قريباً. ولكن لو جئت وما وجدتك، أخاف أن أكون سعيدة يا صديقي.

٨

قال لي الحلاق الهرم في دكانه العجوز: "الله يرحم أبو النور". قلت: "تعيش ياأبو توفيق". اليوم زارني ماهر وغانيا. وزرتهما أيضاً. وزرت عبد اللطيف برفقة ماهر.. اليوم رجعت إلى بيتي فوجدت رسالة من وجدان.. واليوم أيضاً انحسمت الأمور في المؤسسة. كيف أشرح لك الأمر؟ منذ شهر ونحن نحاول توصيف المشهد السينمائي الراهن في البلد. بل منذ أكثر من شهر ونحن نحاول ذلك. لم أعد أحسب الوقت. كنا قد اجتمعنا ستة عشر سينمائياً سورياً. اجتمعنا رغم أن غالبيتنا لا تحب غالبيتنا. اجتمعنا لنقول شهادتنا في الثقافة السينمائية السائدة. اتفقنا جميعاً على أن الحالة مزرية ومعيبة. خرجنا ببيان مشترك، وقّعنا عليه كلنا. لم نعطه اسم بيان. قلنا: محضر اجتماع السينمائيين السوريين العاملين في المؤسسة العامة للسينما. وقلنا: كل كلمة في هذا البيان تعبر بالضرورة عن رأي جميع الموقعين على المحضر وعلى موقفهم من الأوضاع الراهنة التي ماعاد من الممكن عدم تغييرها، لأنها أوضاع مزرية فعلاً، ومعيبة فعلاً. قال بعضنا: نتوجه بهذا المحضر إلى الصحافة المحلية، والعربية إن لزم الأمر. قال بعضنا: لا، بل نطرق أبواب القائمين على الثقافة في البلد. قلت: نصوت على الأمر. كنت أنا أدير الجلسة. وكنت من أنصار عدم التوجه إلى أية صحافة، عربية كانت أو محلية. وبالتصويت تم حسم الأمر، اتفقنا على اللجوء إلى السيدة وزيرة الثقافة. أرسلنا إليها بنسخة من ذلك المحضر، أو بنسختين، أو بعشر نسخ. لا أعرف عدد النسخ التي ذهبت إلى مبنى الوزارة، ولكني أعرف أن أحداً منا لا يملك نصّ ذلك المحضر أو ذلك البيان، باستثناء الشخص الذي تكفل بطباعته (أربع صفحات). قلنا له: أعطنا النص المطبوع لكي نصوره ونوزعه على الشباب. رفض. رفض بإصرار. ثم اختفى أياماً من المؤسسة. كان يخشى أن نقوم، لو لزم الأمر، بنشر المحضر في الصحف. مع أنه كان أشد المتحمسين للنشر. لكن يبدو أن صفقة بيع وشراء قد تمت في لحظة من اللحظات من خلف ظهور بعضنا. بدت المسألة بالنسبة إلى إدارة المؤسسة مسألة وجود. مسألة حياة أو موت. إذن، لابد من إحباط حركتنا هذه.. دعت السيدة وزيرة الثقافة إلى اجتماع للسينمائيين في قاعة الاجتماعات المجاورة لمكتبها في مبنى الوزارة. استبعدت سلفاً اثنين من حضور هذا الاجتماع، هما:

محمد ملص، وأسامة محمد. قلت: لن أشارك في أي اجتماع يتم فيه استبعاد أيٍّ من الموقعين على المحضر السابق. قالوا: تدفع غالياً ثمن هذا الموقف. قلت: ليس عندي ماأخسره، والمسألة بالنسبة لي مسألة مبدأ. قال لي ماهر: بماذا تنصحني؟ قلت: لست أطالب أحداً باتخاذ الموقف الذي أتخذه أنا حين أرفض الاجتماع بالسيدة الوزيرة احتجاجاً على استبعاد اثنين من الموقعين على المحضر.. حشد السيد المدير العام ثلاثين سينمائياً لا أعرف من أين جاء بهم، بعضهم لم يدخل مبنى المؤسسة منذ خمس سنوات. وبعضهم لم تسمع غالبيتنا باسمه من قبل. وبعضهم يعاني مرضاً عضالاً، ويكاد لا يفارق الفراش. وبعضهم نسي أنه كان سينمائياً ذات حين بعد أن تفرغ للتجارة أو الدعاية أو سواهما. وكلهم جاء للتصفيق للسيد المدير العام أمام السيدة الوزيرة، تغيب عن الاجتماع أربعة أشخاص: محمد ملص، أسامة محمد، عبد اللطيف عبد الحميد، حسن سامي يوسف. أما الأول والثاني فإنهما مستبعدان. وأما عبد اللطيف فإنني لم أسمع منه سلفاً أسباب تغيبه. على أية حال، هو يخدم الآن في الجيش. وأما أنا فقد قلت جهاراً: أغيب تضامناً مع المبعدين.. بالأمس فكّك المبعدون الفلسطينيون مخيمهم في (مرج الزهور) في جنوب لبنان، ورجعوا إلى فلسطين. بالأمس تم تفكيك أول مخيم في تاريخ المأساة الفلسطينية. فكك المبعدون مخيمهم بعد سنة على بنائه، ورجعوا إلى الوطن. واليوم أقام السينمائيون السوريون مخيماً لأنفسهم في مبنى وزارة الثقافة. أقاموه طائعين أو مرغمين. سيّان. أية ثقافة هذه!! اجتمعوا على العاشرة صباحاً. في تلك الساعة كنت أقص شعري. قال لي أبو توفيق: "صار الشيب كثيراً في رأسك ياأستاذ حسن". قلت: "جزّ هذا الشعر ياأبو توفيق. جزّه بلا رحمة".. وأنظرُ إلى وجهي في المرآة متأملاً. وجه عجوز. وجه عجوز. وجه عجوز. وكل شيء تم فجأة. كبرت عشر سنوات أو أكثر في غضون شهور قليلة. إنها لعبة الحياة. وكم هي لعبة غير مفهومة!! وقال أبو توفيق: "كان شعرك جميلاً". قلت: "أتذكر أيام الصبا". رجعت بعد الحلاقة إلى بيتي. استحمّيت، وصنعت قهوة، وتمددت في الفراش، ورحت أقرأ، بي حنين إلى الشعر هذه الأيام: "يادار ميّة"!. وتركت الفراش عند الساعة الواحدة تقريباً. ذهبت إلى غرفة المكتبة. وجلست إلى الطاولة أكتب في رسالتي هذه إليك. كتبت كثيراً، ثم تبين لي أن ذلك الكثير كلام فارغ. في حوالي الساعة الرابعة قُرع الجرس. فتحت الباب. ماهر وغانيا وابنتاهما الصغيرتان الحلوتان: وراد (٦ سنوات) التي تعتبرني الصديق الوحيد في حياتها. أعرف أنها تضحك علي، وأعرف أن لها أصدقاء في المدرسة وصديقات. هالة (٤ سنوات) والتي نسميها (أوشين) أيضاً، نسبة

إلى بطلة تلك المسلسلة التلفزيونية اليابانية الشهيرة والتي تحمل نفس الاسم، فهي تشبهها كثيراً. أقامت البنتان البيت وأقعدتاه. وغانيا تركض وراءهما هنا وهناك وتعيد ترتيب الفوضى التي تسببانها. وماهر يحدثني عن الاجتماع الذي تم عقده على الساعة العاشرة صباحاً. قلت: "إن حشد هذا العدد من الغائبين عن المشهد الثقافي برمته منذ سنوات طويلة، وتغييب اثنين من المساهمين بفعالية في صناعة هذا المشهد هو عمل تافه". قال: "حتى غالبية الموقعين على المحضر كانوا محابين اليوم للإدارة". قلت: "وأنت"؟. قال: "لم أنطق بحرف واحد". وقال: "تملكني إحساس شامل باللا جدوى". قلت: "أحسنت صنعاً بصمتك، فأنت عظمك طري، وأنا حقاً أخاف عليك". قال: "تعال نذهب إلى عبد اللطيف". قلت: "انتظر. مازلت على الريق بعد". قالت غانيا: "طبخت اليوم فاصولياء، فهل تحب الفاصولياء"؟. قلت: "أحبها". وقال أبو توفيق: "كان شعرك برّاقاً، أشقر خرنوبياً". قلت: "اسمع ياأبو توفيق. تعال نتذكر بعض الأمور معاً". قال: "ماالذي تحب أن تتذكره"؟. قلت: "أنت هنا منذ عام ١٩٥٦ ، أليس كذلك"؟. قال: "لا. أنا هنا منذ عام ١٩٥٨". قلت: "كيف هذا؟ معلوماتي غير ماتقول". قال: "معلوماتي بهذا الشأن أكثر دقة من معلوماتك". أترين؟ يبدو أن معلوماتي، بل وذاكرتي كلها ليست موضع ثقة حقاً. قلت: "هل أنت واثق مما تقول ياأبو توفيق"؟. قال: "كل الثقة. استأجرت هذه الدكان في شهر شباط (فبراير ـ أنا) عام ١٩٥٨". قلت: "أليس قبل ذلك"؟. قال: "ليس قبل ذلك". قلت: "فمن كان يقصّ لي شعري في ذلك الزمن الضائع"؟. قال: "أنت أدرى مني ياأستاذ حسن". قلت: "إنك تلخبط عليّ تصوراتي كلها عن تلك الفترة من حياتي". قال: "لست أريد ذلك، ولكن هذه هي الحقيقة". قلت: "أنت تضطرني إلى إعادة النظر في كثير من الأمور". قال: "تعال نتذكر معاً". قلت: "تعال". قال: "شارع فلسطين لم يكن إلا طريقاً ترابياً". قلت: "كل الشوارع كانت ترابية في ذلك الوقت". قال: "وشارع اليرموك ينتهي عند المشرع". قلت: "صحيح". قال: "كان ثمة ملعب كرة قدم في موقع البلدية، وملعب آخر في موقع مصنع البسكويت، وملعب ثالث في موقع مسجد عبد القادر الحسيني". قلت: "صحيح". قال: "لم يكن ثمة بيوت بعد موقع المسجد، ولم يكن ثمة بيوت من إسمنت في أي مطرح، وعددها جميعاً لا يتجاوز أربعمئة في عام ١٩٥٨ ، وكلها بيوت طينية مزروعة في قلب البساتين". قلت: "كان خلف هذه الدكان غابة من زيتون تمتد إلى حي الميدان، بل حتى إلى مشفى المجتهد". قال: "هذا في شمال الدكان". قلت: "نعم. وفي الشرق ثمة بيوت قليلة حتى شارع فلسطين، ثم وبعد شارع فلسطين بساتين أشجار

مثمرة حتى طريق المطار. بل إن طريق المطار لم يكن موجوداً هو الآخر، لأن المطار نفسه لم يكن موجوداً في موقعه الحالي. كان في الغرب من حي المزّة. ومن شارع اليرموك إلى حي المزّة ليس إلا البساتين أيضاً. أما إلى الجنوب من هنا فلم يكن ثمة نهاية للبساتين". قال: "نعم. أما الآن، فليس لها وجود لا في الجنوب ولا في الشمال ولا في الشرق ولا في الغرب". وقال: "أي حمار سمح ببناء هذه الأحياء كلها بين البساتين"؟!. قلت: "الحكومة". قال: "حكومة قصيرة النظر. كيف حوّلوا غابة الزيتون والتفاح والجوز والمشمش والكرز والدراق إلى غابة من الاسمنت"!!. قلت: "إننا نعود إلى جذورنا". قال: "كيف"؟. قلت: "نرجع إلى الصحراء". قال: "لم نكن نعرف الكهرباء هنا بعد في ذلك العام. ولم يكن عندنا إلا سيارة واحدة". قلت: "سيارة سوداء صغيرة، مرسيدس، يقودها شاب اسمه غاري كوبر". قال: "هو يشبه الممثل الأمريكي غاري كوبر فعلاً". قلت: "وثمة سواق كثيرة ماؤها رقراق تعبر البساتين في كل مطرح". قال: "كان عددها تسعاً". قلت: "كنا نسبح في اثنتين منها، فكل واحدة من هاتين الساقيتين تشكل في نقطة معينة حوضاً صالحاً للسباحة". وقلت: "الأولى اسمها المشرع. أما الثانية.. ماذا كان اسم الثانية؟ إنها إلى الشرق من هنا بأربعة أو خمسة كيلومترات". قال: "اسمها القنال". قلت: "أليس لها اسم آخر"؟. قال: "لا". وقال: "كان بجوارها ملعب للخيول". قلت: "يتجمع الفرسان هناك من كل أنحاء دمشق في أيام الجمعة، ويتسابقون. كنا نذهب إلى هناك في أيام الجمعة لنتفرج عليهم". قال: "وتذهبون في غير أيام الجمعة إلى هناك من أجل السباحة في القنال". قلت: "نعم". قال: "ولم يكن لدينا مدرسة بعد". قلت: "كنا نتعلم في مدرسة صفورية في حي الميدان". قال: "انتظر. سوف أرى إن كنت تتذكر جيداً". قلت: "ماذا"؟. قال: "هل تتذكر شجاراً قمتم به في ذلك الوقت"؟. قلت: "تشاجرنا مع أولاد حي الميدان". قال: "آه، نعم، وكدتم أن تورطوا الكبار في شجاركم ذاك". قلت: "ربما". قال: "ولكني أتحدث عن شجار آخر". قلت: "ذكرني ياأبو توفيق". قال: "جئتم إلى هنا مرة تبكون. عددكم خمسة أو ستة. ضربوكم في القنال، ومنعوكم من السباحة فيها. وطردوكم". قلت: "هل كنا في عز الصيف"؟. قال: "في عز الصيف عام ١٩٥٨". قلت: "لقد ضربونا فعلاً، أربعة أو خمسة شباب. طلبوا منا نقوداً لكي يسمحوا لنا بالسباحة. ونحن لا نملك أية نقود، فضربونا، وطردونا. وربما كنت على حق ياأبو توفيق في أننا رجعنا إلى هنا باكين". قال: "ولكن ماذا جرى بعد ذلك"؟. قلت: "ذكرني ياأبو توفيق". قال: "كنت أجلس عند باب الدكان. نهارٌ شديد الحر. أتذكرك أنت، وأتذكر عاطف،

وفيصل، ومحمد دغمان، رحمه الله، لم تقتله الحرب فقتلته الزائدة. هل هذا معقول؟ سبحان الله! المهم. كان عاطف مصاباً بجرح تحت إحدى عينيه. قلت له: تعال ياعاطف. تعال أمسح لك جرحك بالسبيرتو. كنتم مغلوبين على أمركم، ومقهورين، فسألتكم عن سبب هذا كله. شرحتم لي الأمر. قلت لكم: بسيطة ياأولاد، لا تذهبوا إلى القنال مرة ثانية. اذهبوا إلى المشرع، حتى أن ماء المشرع أفضل للسباحة من ماء القنال. هل تتذكر ذلك ياأستاذ حسن"؟. قلت: "وماذا بعد"؟. قال: "وفجأة ظهر أبو النور". قلت: "بدأت أتذكر ياأبو توفيق". قال: "هربت أنت منه". قلت: "أتذكر". قال: "لكن أبو النور لمحك تهرب. ناداك. قال لك: تعال ياحسن. رجعت إليه. قال لك: ماالحكاية ياحسن"؟. قلت: "إني أتذكر ياأبو توفيق". قال: "ازداد بكاؤك حدة. انحنى عليك أبو النور يسألك عن أسباب بكائك. صرت تجهش. ولم تنطق بحرف واحد، فغضب أبو النور منك، وأصر على معرفة أسباب دموعك. تدخل أحدكم، وأظنه فيصل، وأخبره بما جرى". قلت: "أتذكر جيداً ياأبو توفيق". قال: "لم يكن قد مضى على عودة أبو النور من مصر إلا شهر واحد أو شهران". قلت: "هذا صحيح". قال: "كان في الثامنة عشرة من عمره، أو في التاسعة عشرة". قلت: "كان في السابعة عشرة من عمره". قال: "أنت أدرى مني بهذه النقطة، ولكنه كان قوي البنية". قلت: "كانت بنيته قوية جداً". قال: "طويل القامة، عريض المنكبين، مفتول العضلات". قلت: "نعم. هذا صحيح". قال: "وقلبه باسم الله وماشاء الله من حديد". قلت: "أظنه كان كذلك". قال: "قال لكم: اتبعوني. اتبعوني إلى القنال ياأولاد. قلتم له: ولكنهم مجموعة ياأبو النور. قال: كم شخصاً يعني؟ وهل عددهم أكبر من عدد الجيش الانكليزي"؟. قلت: "لحظة ياأبو توفيق. لا أتذكر أن أبو النور تبجح مرة في حياته بشيء من هذا". قال: "أقسم بالله العلي العظيم أنه قال هذا الكلام، وأنا أذكر كلماته تلك كما لو أنه لم ينطق بها إلا يوم أمس فقط". قلت: "أنت صادق ياأبو توفيق". قال: "أتذكر الأمر جيداً. أتذكره كما لو أنه حدث ليس بالأمس، بل قبل ساعة واحدة من الآن"؟. قلت: "إني أصدقك ياأبو توفيق". قال: "قلتم له: معهم سكاكين ياأبو النور، فقال لكم: أنا حتى الدبابات والطائرات لا تخيفني. قلتم له: معهم سكاكين ياأبو النور. قال لكم: فهل تريدون أن أحمل سكيناً أنا الآخر؟ أنا ياأولاد لا أحب استخدام السكين. وهنا تدخلت أنا. قلت له رحمه الله: لا داعي للشر ياأبو النور. قال لي: الذي يضرب أخي أجعله يندم على اليوم الذي جاء فيه إلى الحياة. قلت له: لكنهم أربعة شباب أو خمسة، والكثرة تغلب الشجاعة ياأبو النور. قال: معك حق ياأبو توفيق، ولكني،

رغم ذلك، سوف أؤدب أولاد الشرموطات الذين ضربوا أخي". قلت: "أتذكر ياأبو توفيق". قال: "مرت في تلك اللحظة عربة يجرها بغل هي لابن أبو سعيد الصوص. تتذكره"؟. قلت: "أتذكره". قال: "استوقفه أبو النور، ولم يستأذنه بشيء. فك أحد الجنزيرين اللذين يربطان نير البغل بعريش العربة". قلت: "أتذكر". قال: "جنزير من الحديد ثقيل طوله قرابة مترين". قلت: "أتذكر". قال: "لف أبو النور الجنزير حول كفه اليمنى، وقال لابن أبو سعيد الصوص: أعيده لك في المساء. حاول ابن أبو سعيد الصوص أن يستعيد الجنزير. رجع أبو النور يقول له: أعيد الجنزير في المساء. وكادا أن يتشاجرا. وتدخلت أنا. وفصلت بينهما. وانصرف أبو النور وهو يقول لكم: اتبعوني ياأولاد. وتبعتموه". خطواته سريعة. خطواته واسعة. لا نستطيع مجاراته في سيره. نركض وراءه مثل مجموعة من جراء أو فراخ تهرع خلف أمها. دخلنا في البساتين. حياتنا كلها بساتين. ليس فيها إلا البساتين على مد النظر. غوطة دمشق. بستان هشام. صار اليوم بستاناً من إسمنت. نهرع خلف أبو النور مثل فراخ تقودها أمها إلى مواضع القمح والشعير، وكل مايؤكل. يغني وهو يلف الجنزير حول كفه اليمنى. تشرشل خبّر دولتك، لندن مرابط خيلنا. ونخاف عليه. يسكننا الخوف. ويسكننا الرعب. ياأبو النور، الشباب مسلحون بالسكاكين.. والله زمان ياسلاحي، واشتقت لك في كفاحي. أنظارنا تمسح الأرض بحثاً عن حجر ولو صغير نتسلح به لمعاونة أبو النور في شجاره المرتقب.. يافلسطين جينالك.. الأرض تربة حمراء. تربة لا تصلح حتى للبناء، فكيف أقاموا عليها هذه الكتل من الاسمنت!! تربة طيبة مشبعة بالماء، مملوءة بالحرث والزرع والضرع، غارقة في بحر من الأكسجين.. وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر، فاشهدوا.. نتقافز من فوق السواقي الصغيرة المتقاطعة في كل مطرح. نحاذر، رغم قاماتنا الطفولية، أن تصطدم هاماتنا بأغصان التفاح والخوخ والدراق دانية القطوف.. دع سمائي فسمائي محرقة.. ونتمنى لو سرقنا موس الحلاقة من دكان أبو توفيق.. دع قنالي فقنالي مغرقة.. "إنهم كثيرون ياأبو النور". همست له متوسلاً أن يتراجع عن عزمه. قال لي: "لماذا أنجبك أبي ضعيف البنية؟! ها"؟. قلت: "لا أعرف". قال: "والله لولا أنك تشبهه لشككت في أن تكون أخي". وقال: "يبدو أن قلبك ضعيف مثل بنيتك أيضاً". قلت: "إنهم شباب. إنهم أكبر منك. وسوف ترى ذلك بنفسك". قال: "وأنت؟ ألست شاباً؟ صار عمرك ثلاثة عشر عاماً". قلت: "معهم سكاكين". قال: "ألا يوجد في الأرض حجارة؟ عند القنال يوجد الكثير من الحجارة. عند السور بجانب ملعب الخيل يوجد حجارة كثيرة. أن تكون ضعيف البنية، فهذا أمر الله. أما أن يكون قلبك ضعيفاً"!!. قلت:

"كلنا هربنا بعد أن ضربونا". قال: "أنا يهمني أخي أولاً. أكره أن يكون أخي ضعيف القلب". وقال: "على كل حال، سوف أؤدبهم". وقال: "لكن من يؤدب الذي يضربك بعد أن أرحل من جديد"؟. قلت: "هل سترحل ياأبو النور"؟. قال: "نعم". قلت: "لماذا"؟. قال: "فماذا أفعل إذن"؟. قلت: "إلى أين سترحل ياأبو النور"؟. قال: "أفكر بالذهاب إلى بيروت. الأسطول السادس الأمريكي نزل في بيروت، وأنا لا أحب الأسطول السادس الأمريكي".. فهل تحب الأسطول السابع الأمريكي ياأبو النور؟ فهل تحب الأسطول الخامس الأمريكي؟! أي الأساطيل تحب ياأبو النور، وأي الأساطيل تكره؟ قل لي الحقيقة من فضلك! أستحلفك بكل ماهو لديك مقدس أن تقول لي الحقيقة، ولو بعد فوات الأوان!. فوجيء الشباب بنا. قالوا: "رجعتم ياأولاد الكلب"!. ولم يبدُ عليهم أي خوف من أبو النور الذي جلس متربعاً عند طرف الحوض، وخاطبهم من علٍ يقول: "من أين الشباب"؟. قالوا: "وما شأنك"؟. قال: "من أجل التعارف ياشباب". قال أحدهم: "نحن من حي الشاغور". قال أبو النور: "أنعم وأكرم. يشهد الله أن شباب حي الشاغور جدعان. حاربوا الاستعمار الفرنسي برجولة. ولكن عندي سؤال آخر: هل أنتم مسيحيون أم مسلمون"؟. قال أحدهم: "وما شأنك إن كنا مسيحيين أو مسلمين"؟!. قال أبو النور: "لا تفهموني خطأً ياشباب، فأنا شخصياً ضد كل من يفكر على نحو طائفي. أما سؤالي فالغاية منه أن أعرف كيف أخاطبكم". قال أحدهم: "نحن إسلام". قال أبو النور: "ممتاز. إذن فأنتم تؤمنون بمحمد عليه الصلاة والسلام". قالوا: "طبعاً نؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام". قال أبو النور: "قال محمد عليه الصلاة والسلام: الناس شركاء في ثلاث: الماء والنار والكلأ. هذا حديث نبوي صحيح ياشباب". قالوا: "صدق رسول الله". قال أبو النور: "مادام رسول الله قد صدق، فلماذا ضربتم هؤلاء الأولاد"؟. قال أحدهم: "ونضربك أنت أيضاً". قال أبو النور: "مادمتم تعترفون بجريمتكم فقد حكمتُ عليكم باسم الله ورسوله والأمة العربية، وباسم المسيح وبوذا وباسم من لا اسم له بحرق ثيابكم وعودتكم إلى بيوتكم هكذا كما أنتم الآن في الماء". وكان قبل ذلك، قد أمرنا بإحضار ثيابهم إليه، فأطعناه وأحضرناها، جمعناها في كومة واحدة. تناول من جيبه علبة ثقاب، وراح يشعل النار في الثياب التي كومناها بجانبه. واستنفر الشباب في الحال، وتدافعوا خارجين من الماء ليضربوا أبو النور قبل أن تحترق ثيابهم، ففوجئوا به يهاجمهم ملوّحاً بالجنزير في وجوههم، وفوجئوا بسيل من حجارة رميناهم بها، ففرّوا هاربين، وغابوا في البساتين الكثيرة وهم يهددون بثأر مابعده ثأر، وأبو النور يصرخ في إثرهم: "إن كنتم رجالاً

تعالوا حاسبوني. أنا اسمي أبو النور. أنا أشهر من نار على علم في مخيم اليرموك".. هذا هو حينا. مخيم اليرموك. أقاموه في أواسط الخمسينات من أجل اللاجئين الفلسطينيين الذين مازالوا، حتى ذلك التاريخ، مبعثرين في أنحاء المدينة بلا مأوى، رغم مرور سنوات غير قليلة على الشتات الفلسطيني الأول، أو الشتات الفلسطيني الكبير. ولعل أبو توفيق على حق عندما يقول إن عدد البيوت كلها لم يتجاوز أربعمئة في عام ١٩٥٨ . قلت: "كم برأيك يبلغ عدد سكان المخيم الآن ياأبو توفيق"؟. قال: "ليس أقل من مليون إنسان". وقال: "صار الفلسطينيون أقلية طبعاً". قلت: "إني أرى هذا". قال: "إذا استثنيت هذه المنطقة التي نحن فيها الآن، أي قلب المخيم، فلا وجود للفلسطينيين بعد ذلك". قلت: "تقريباً". قال: "نعم. تقريباً. لكن الغالبية العظمى من السوريين". قلت: "من فقراء السوريين". قال: "نعم من الفقراء". قلت: "دمشق كلها كانت صغيرة في ذلك الوقت. أظن أن عدد سكانها لم يكن يزيد على نصف مليون نسمة. أما الآن، ربما بلغوا أربعة ملايين". قال: "بل خمسة ملايين". قلت: "ربما خمسة ملايين فعلاً. سوريا كلها زحفت لتقيم في دمشق. فأيّ سر في دمشق ياأبو توفيق"؟. قال: "والله هذا مايحيرني ياأستاذ حسن". قلت: "هو أمر محير فعلاً". قال: "من كان يتصور أن يمتد هذا البناء العشوائي إلى طريق المطار"؟!. قلت: "الذين بنوا المطار على حساب الغوطة". قال: "ياسلام على أفكارك ياأستاذ حسن". قلت: "حتى المطر صار قليلاً". قال: "كانت الغوطة تستجلب الغيم والمطر. أما الآن.. هل تشم إلا رائحة المازوت والبنزين؟ كان في المخيم سيارة واحدة، وصار فيها الآن أكثر من عشرين ألف سيارة". وقال: "هل أبالغ"؟. قلت: "قليلاً". قال: "وهذه المولدات الكهربائية، وروائح المازوت، والضجيج، والغبار، والله ماعادت العيشة محتملة هنا يا أستاذ حسن". قلت: "معك حق". وقالت وجدان: "إنني لا أحب السكنى في هذا الحي". قلت: "معك حق ياوجدان". قالت: "تعال ننتقل من هنا إذن". قلت: "تعالي نستأجر بيتاً في حي هادىء". قالت: "لا أحب أن نستأجر. من الأفضل أن نشتري". قلت: "ولكننا لا نملك نقوداً كافية لمثل هذا المشروع". قالت: "نبيع بيتنا هنا". قلت: "تعرفين أن البيت لأمي وليس لي، فكيف أبيع مالا أملك"؟. قالت: "والله لو أعطوك قصر الحمراء، لتركته ورجعت إلى هنا طائعاً، فأنت لا تستطيع أن تفارق هذا المطرح. أنت لا تستطيع العيش خارج شعبك رغم ادعائك بأنك لست متعصباً للفلسطينيين". قلت: "ربما كنت على حق فيما تقولين ياوجدان". وقال لي بعض المثقفين الفلسطينيين: "أدبك يخدم الصهيونية". قلت: "ربما كنتم على حق ياشباب".. أترين يافاطمة؟ يبدو أن الجميع على حق، إلا أنا.

ولكن لابأس، لابأس.. عند هذه الكلمة توقفت عن الكتابة قبل أكثر من أربع وعشرين ساعة فقد كنت سيء المزاج. كنت قد أصبت طعاماً في بيت ماهر الذي أصرّ على أن نذهب بعد الطعام إلى عبد اللطيف.. قال عبد اللطيف: "لم أحضر الاجتماع لأني كنت في المستشفى، وليس تضامناً مع محمد وأسامة. ولكني لو حضرت الاجتماع لطرحت مسألة تغييبهما بقوة". وقال: "سوف يجرون لي جراحة قريباً.. الأطباء يصرّون على الإسراع بالجراحة". قلت: "الموضوع القديم ذاته"؟. قال: "الموضوع القديم ذاته. نتحدث في الأمر لاحقاً. مزاجك الآن تعكر". قلت: "ماجرى اليوم يبعث على اليأس، رغم أنه متوقع". قال: "فيم تفكر"؟. قلت: "أفكر بالاستقالة من العمل في المؤسسة". وقلت: "أفكر بالتوقف عن كتابة الرواية. أفكر بالتفرغ كليّة للتلفزيون. أفكر في أن أحصل على مبلغ كبير من المال. أفكر في شراء بيت صغير، بعيد، هادىء. أفكر في أنثى حمقاء حلوة. أفكر في أن أكتب رسالة كلها شتائم إلى فاطمة. أفكر في أن أرفع سماعة الهاتف وأتصل بوجدان، وأشتمها هي أيضاً. أفكر في أن أضرب هذا الحائط برأسي فإما أن ينكسر الحائط أو ينكسر رأسي". قال: "لست أرى مبرراً لهذا التشاؤم كله". قلت: "سئمت تكاليف الحياة". وقلت: "فقط لو أعرف ماالذي يمنع فاطمة من الكتابة إلي"!. وقلت: "هل يعقل أنها تكتب وأن أحداً يأخذ رسائلي"؟!. قال ماهر: "والله كل شيء صار جائزاً في هذه المؤسسة". قلت: "سأكتب رسالة إلى نفسي، وأرسلها على عنوان المؤسسة، لأرى إن كانت تصلني أم لا". وقلت: "لم نعد رجال ثقافة. بل رجال مخابرات". وقلت: "إنني على استعداد لدفع أي مبلغ يطلبه المراسل مقابل أن يقول لي الحقيقة". وقالت لاريسا من المطبخ بالروسية: "العشاء جاهز ياأولاد". قلت: "أنا ذاهب إلى بيتي. سأتابع كتابة هذه الرسالة الزفت إلى فاطمة. سوف أنتهي منها بأسرع وقت ممكن، لكي أتفرغ للتلفزيون". قال عبد اللطيف: "لن تخرج من هنا وأنت على هذه الحال". قلت: "بل سوف أخرج". قال ماهر: "تذهب معي". قلت: "لا أريد". قال: "تذهب معي رغم أنفك".. وقالت غانيا: "أنا سعيدة بعودتك إلينا". قلت: "أشرب فنجان قهوة، وأمشي إلى البيت". قال ماهر: "وماذا ستفعل في البيت"؟!. قلت: "سوف أكتب". قالت غانيا: "ملعون أبو الثقافة كلها إن كنتم ستدفعون أعصابكم لها ثمناً ياشباب". قلت: "الكتابة هي متراسي الأخير. وهي خندقي الأخير في الدفاع عن نفسي من التفاهة". قالت: "يارجل لو أحدثك عما يجري عندنا في مجال القضاء، لوجدت أن مشكلاتكم هذه صغيرة جداً". قلت: "جائز". وقلت: "لكنني أشتغل بالثقافة وليس في القضاء. ولو كنت قاضياً لحكمت الجميع

بالإعدام". قالت: "الجميع"؟!. قلت: "الجميع. والنساء أولاً. جميع النساء وجميع البنات، حتى الرضيعات منهن". قالت: "تبدو خارجاً من الجاهلية الأولى". قلت: "ألا لا يجهلن أحدٌ علينا/ فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا". قالت: "لمن هذا الشعر؟ للزير سالم"؟. قلت: "هو لذلك الزفت عمرو بن كلثوم". قالت: "إنك تكثر الليلة من كلمة زفت". قلت: "حسناً، البطيخ وليس الزفت". قالت: "والله يجب أن لا نتركك وحيداً هذا اليوم". قلت: "سأبتلع خمسة أقراص منومة وأنقبر، وإن شاء الله لا أفيق بعد ذلك أبداً. أذهب من الفراش إلى جهنم مباشرة". قالت: "فبماذا أسأت إلى الناس حتى تذهب إلى جهنم"؟. قلت: "هل تظنينني ملاكاً ياغانيا"؟. وقلت: "لقد جنيت بعض العار في حياتي ياغانيا". قالت: "لا أصدق". قلت: "هذا شأنك". قالت: "وهل تكتب عن هذا العار في رسالتك إلى فاطمة"؟. قلت: "لا". قالت: "لا أحب أن أتدخل في خصوصياتك. ولكني لا أتصورك من الناس الذين يرتكبون عاراً". قلت: "هذا شأنك ياغانيا، هذا شأنك". وشربت فنجان قهوة. وانصرفت. رجعت إلى بيتي عند منتصف الليل تقريباً. ثمة رسالة من وجدان في انتظاري. تركتها على الوسادة حيث أنام. لم تحدد في الرسالة لحظة مجيئها. أتصور أنها حضرت إلى البيت بعد خروجي مباشرة مع ماهر وغانيا وابنتيهما الصغيرتين الحلوتين. جلستْ إلى الطاولة وكتبت بقلمي الذي أكتب به رسالتي هذه إليك. ورتبت قبل ذلك أو بعده، الفوضى السائدة هنا وهناك. رتبت حتى السرير. لعل في ذلك رسالة عتب منها إلي: هل ستظل في فوضى ياحسن؟! مسحت أرض المطبخ، والصالون، ورتبت المكتبة. كانت غانيا قد حاولت ذلك، لكني منعتها. قلت لها: "غداً الجمعة تأتي واحدة من بنات أخي لمثل هذا الأمر". ولم أكن أعلم بأن وجدان هي التي سوف تأتي. لم أتوقع مجيئها إلى البيت، رغم أنها جاءته مرة من قبل، ورغم أنها تملك نسخة من مفتاح الباب، فأنا لم أستبدل القفل بعد الطلاق، ومن الطبيعي أني لن أستبدله إلا في حال واحدة فقط: أن تحلّ امرأة أخرى في هذا البيت.. قرأتُ الرسالة على عجل. وكدت أمزقها. بدّلت ثيابي، وصنعت قهوة، وذهبت إلى غرفة المكتبة، ووضعت في المسجلة شريطاً لأم كلثوم: (رق الحبيب وواعدني)، وجلست أكتب، وأحسست للمرة الأولى أني لست في حاجة إلى البوح. لكن إحساسي ذاك لم يكن صحيحاً. والصحيح هو أني لم أجرؤ في تلك اللحظة على البوح بالذي في القلب. كنت واقعاً تحت تأثير الشجون التي سببها الحديث مع غانيا. هي تظنني ملاكاً. كثير من الناس يظنونني ملاكاً. منظري يوحي بذلك. أحاديثي توحي بذلك. تصرفاتي توحي بذلك. هم يصدقون بأن الذي

أمامهم ليس من صنف البشر الذي يرتكب عاراً. إنني قادر على جعل الآخرين يصدقونني ببساطة. لديّ موهبتي الخاصة في هذا الأمر. وتلك هي لعبتي الدائمة، وإن كنت لا ألعبها عن قصد مسبق. كثيرون يعتقدون بأني قضيت حياتي رجلاً شريفاً. ولا يخطر لهم ببال أن يشككوا في صحة هذا الاعتقاد. وأنا لا أقول الحقيقة لأحد، ولا حتى إليك أنتِ يافاطمة. إني لست أعترف بعد. أتراني لا أجرؤ على ذلك؟ ياإلهي! أي نوع من الرجال أنا؟ وغانيا تظنني ملاكاً ولا تعلم بأني رجل يعاني الحسرة والندم. وهذه الأشياء تجعلني أعيش في عالم شبه منغلق، حتى أن بعض الناس يصفني بالانطوائي. وفي وصفهم هذا بعض من حقيقة، أما بعضها الآخر، فليس كذلك حتماً، إذ أن لي علاقات طيبة مع البشر هنا وهناك، حتى أني أحب أن أساعد الناس أحياناً دون مقابل، ودون انتظار العرفان بالجميل. إنني لست ملاكاً أبداً ياغانيا. لكنني لست شيطاناً كذلك. أنا رجل وسط. وإنني أكره الرجال الوسط. ولهذا فإنني أكره نفسي في بعض الأحيان. لقد صنعت في حياتي أخطاء تجعلني أوثر الصمت، مع أن الصمت ليس أقل عداء للحقيقة من الكلام، ومع أن الكلام نفسه لا يعدو أن يكون إلا عبثاً في عبث، كما قال شكسبير ذات مرة. أنا إذن شخص عادي. رجل وسط، ذو تاريخ لا ينقصه بعض الخزي.. حسناً. يبدو أنني أتحدث بكلام عام. يبدو أنني لا أدخل في التفاصيل. وليس من شيء يثير الفضول كما التفاصيل. هذه حقيقة أعرفها من تجربتي الشخصية، أكان في الحياة أو في الأدب. ورغم ذلك، سوف أقفز من فوق هذه الحقيقة، وسوف أستمر في الحديث بالعموميات، ولكن هل أبوح لك بسر صغير؟ أنت أكبر أخطائي جميعاً يافاطمة. لم أكن في سن الأخطاء، بل كنت في السادسة والثلاثين من عمري لما ارتكبت أكبر أخطاء حياتي والتي لا أجرؤ على الاعتراف بها. نعم، إنني لست أجرؤ بعد على الاعتراف بأنك أكبر أخطائي جميعاً. ولهذا شعرت أني لست في حاجة إلى البوح. ولم يكن ذلك صحيحاً، فرميت القلم، ونهضت من وراء الطاولة، وقررت أن أسكر.. ليس عندي من الكحول إلا زجاجة الشمبانيا. لن ألمسها. لن ألمسها أبداً. لن أسهر في رأس السنة. سوف أترك هذه الزجاجة في مكانها. إلى الأبد.. بدّلت ثيابي من جديد، وخرجت من البيت. ذهبت إلى حي (باب توما). أعرف مطعماً هناك يخدمونني فيه حتى لو جئت في ساعة متأخرة جداً. قال لي أحد الندل: "أغلقنا ياأستاذ". قلت: "ألا تتذكرني"؟. ولم أكن واثقاً من أني أتذكره. قال: "لا". قلت: "أريد أن أقابل رئيسك". قال: "تفضل". اكتشفت أن غيبتي عن هذا المطعم طالت كثيراً. تبدل طاقم الندل بكامله. لم يعرفني منهم أحد. قلت: "حسناً ياشباب. لا

أريد أن أجلس هنا. أعطوني لو سمحتم زجاجة عرق". قالوا: "نبيعها لك بتسعيرة المطعم". قلت: "فليكن ذلك". رجعت إلى البيت على الثانية صباحاً. المطبخ عندي فارغ. وجدت في إحدى خزائنه بعض الفستق. وجدت بعض الشوكولاته التي لابد أنها من أيام وجدان، فأنا لا آكل الشوكولاته. وجدت في البراد تفاحة نصف عفنة. وجدت خصلة صغيرة من عنب كنت قد اشتريته في آخر الصيف. وجدت لبناً رائباً مضى عليه أكثر من شهر. ماذا وجدت أيضاً؟ لاشيء. صببت لنفسي كأساً كبيرة من العرق. لم أمزجه بالماء. شربته صرفاً. شربت الكأس دفعة واحدة. قلت: هذه الجرعة الأولى. صببت كأساً ثانية، وذهبت إلى غرفة النوم. بدّلت ثيابي، وطويت رسالة وجدان، ووضعتها في أحد أدراج الكومودينو بجواري، وتمددت على السرير، ورحت أشرب كأسي الثانية على مهل. وفي المحصلة سكرت، وانقبرت عندما كان المؤذن في مسجد الحي يقول: الصلاة خير من النوم. واستيقظت من الموت لما كان المؤذن في مسجد الحي ينادي المؤمنين إلى صلاة الجمعة. نهضت من الفراش متثاقلاً. غسلت رأسي بماء بارد. لم أحلق ذقني. جاءني الابن الأصغر لأخي الكبير (طالب في كلية العلوم). قال لي: "أبي يسأل عنك ياعمي، ويسألك أن تأتي لتتناول معنا طعام الغداء". قلت: "سآتي". ولم أذهب إلا في حوالي الرابعة. قال لي أخي: "تأخرت". قلت: "كنت أشتغل". قال: "منظرك لا يعجبني". قلت: "ولا يعجبني أنا أيضاً". قال: "ماالأمر"؟. قلت: "سئمت تكاليف الحياة". قال: "أكمل البيت". قلت: "لا. لن أفعل". قال: "فلماذا ياأخي"؟. قلت: "ماهو الذي لماذا"؟. قال: "لماذا سئمت تكاليف الحياة وأنت لا تزال شاباً بعد"؟. قلت: "أي شاب أنا"؟. قال: "مازال أمامك وقت طويل جداً حتى تصل إلى السن التي جعلت زهير بن أبي سلمى يقول: سئمت تكاليف الحياة". قلت: "يخيل إلي أن عمري خمسون قرناً". قال: "أنصحك بالزواج".. رجعت إلى بيتي على الساعة السابعة تقريباً. استحمّيت بماء ساخن. تمددت في الفراش. ورحت أقرأ. كم بي حنين إلى الشعر هذه الأيام! ودِّع هريرة إن الركب مرتحلُ/ وهل تطيقُ وداعاً أيها الرجلُ؟.. بقيت في الفراش مع الشعر إلى مابعد منتصف الليل. رجعت إلى رسالة وجدان من دون أن أعرف سبباً يجعلني أقرأها مرة ثانية.. لماذا دائماً لا أجدك؟ وما حكاية وجع الرقبة؟ قالت لي الحاجّة (أمي ـ أنا) في المرة الماضية إنك تخضع لجلسات علاج فيزيائي. لماذا. وهل الوضع سيء؟ أرجو ألا يكون كذلك. وأرجو أن تجد وسيلة لإخباري بأحوالك الصحية قبل سواها. في الحقيقة أنني لم أكن أرغب بالمجيء إلى البيت، وبخاصة أني قد أصادف الحاجّة، فأنا أخشى أن تأخذ عني فكرة سيئة. هل قالت لك شيئاً بخصوص المرة الماضية؟ لقد

التقيتها في الطريق عند البيت في تلك المرة أيضاً. وفي كلتا المرتين قالت لي إنك غير موجود. ومع ذلك صعدت إلى البيت. سبق وتركت لك ملاحظة. وهأنذا أترك لك رسالة. جئت اليوم لكي أقول لك شيئاً لا أحب أن تسمعه من شخص آخر قريباً كان أو غريباً. لقد تمّت الخطوبة بيني وبين أحمد. يبدو لي أنه شخص لطيف جداً، وشهم جداً. إلى الآن على الأقل.. الحقيقة أنني ماجئت من أجل هذا السبب فقط، مع أنه سبب وجيه. جئت لسبب آخر أظنه أكثر وجاهة من الأول. بصراحة؟ أنا خائفة من أن تكون مفلساً هذه الأيام. كان باستطاعتي طبعاً أن آتيك بمبلغ من المال، وأتركه في البيت وأمشي. لكني أخاف من أن يبدو سلوكي هذا رخيصاً، أو أن تفهمه على أني أسعى إلى قطيعة معك. والأمر ليس كذلك أبداً ياحسن، فأنا لا أفكر بأية قطيعة معك، بل أستطيع أن أقول (لجميع الناس) إنك صديقي الوحيد في هذه الحياة. أستطيع أن أقول: حسن صديق لي وفيّ جداً، ووحيد جداً.. والآن، قل لي: هل أنت مفلس؟ لكن حتى لو لم تكن مفلساً، فأنا أصرّ على أن نتفاهم حول مسألة النقود التي في البنك. مازلت أصرّ على أن هذه النقود نقودك أنت رغم أنها مسجلة باسمي. أنا أعرف طبعاً لماذا أنت فعلت ذلك. أعرف أنك تخاف علي من أن أجد نفسي فجأة في حاجة إلى طلب المساعدة من فلان أو علاّن. أفهم أنك لا تريدني أن أمدّ يدي طالبة أي مبلغ من أي إنسان، حتى لو كان أبي. أعرف أنك تخاف علي. ولكني أحب أن أقول لك بأن الأمور اختلفت إلى حد كبير بعد أن تركت المؤسسة. صار دخلي الآن جيداً. إنه يغطي جميع مصاريفي، ويزيد. حتى أني أوفر منه شيئاً كل شهر. سبق وأخبرتك أني أشتغل في مجال تصميم الأزياء النسائية، ودخلي من هذا العمل كبير فعلاً. ومن جهة ثانية: وضع أحمد المالي ممتاز. وفي جميع الحالات، النقود التي في البنك نقودك أنت، ولن أكون مرتاحة الضمير لو بقيت أعتبرها، أو تعتبرها أنت، ملكاً لي. لم أجد الوقت مناسباً، عندما التقينا آخر مرة، لأبحث معك هذا الموضوع، مع أنه يقلقني منذ ذلك الحين، بل حتى من قبل ذلك الحين، وخصوصاً أني أخاف من أن تكون مفلساً بحق. لقد سألتك يومئذٍ عن وضعك المالي. وقلت لي: إنه جيد. وفي الحقيقة أنني لم أصدقك، فأنا أعرف أنك لن تغير عادتك في الإنفاق يميناً وشمالاً بلا مبرر، مع أني سوف أظل ألومك على هذا السلوك. وأعرف أنك لم تحصل هذه السنة على نقود كثيرة. لم أسألك عن حقيقة المبلغ الذي دفعوه لك عن السيناريو الذي كتبته لاتحاد الفنانين العرب، لكن، حتى لو كان ذلك المبلغ كبيراً، فأظن أنه تبخر في الصيف. أليس كذلك؟ أما السلفة التي تقاضيتها عن المسلسل التلفزيوني، فأرجو ألا تكون قد أنفقتها هي الأخرى. هل

تعرف لماذا؟ لست أدري لماذا لدي هذه القناعة: إنك لن تكتب هذا المسلسل. أظنك سوف تظل تكتب أدباً. بل إنني، بعد هذه الزيارة، على يقين من ذلك. أرجو أن تغفر لي أني ألقيت على أوراقك نظرة. وفي الحقيقة، لم تكن مجرد نظرة. لا. قرأت بعض الصفحات. ولم أجد صعوبة في ذلك طبعاً. تعرف أني أحسن قراءة مسوداتك. وربما كنت الشخص الوحيد الذي يحسن قراءة هذه المسودات التي ليس من عادتك أن تتركها على الطاولة عند خروجك من البيت. فلماذا تركتها اليوم؟ هل كنت تعتقد بأني لن أجيء إلى البيت أبداً؟ لعل هذا ماكنت تعتقد به. ولكني خيبت ظنك، وجئت، وقرأت. كانت الأوراق مثل العادة مختلطة ببعضها على سطح الطاولة في فوضى عجيبة. ألن تنظم أمورك في نهاية المطاف؟ كنت أخبرتني أنك مقبل على رواية عنوانها (الإرهابي). وقد استطعت أن أميز أوراقها. ولكن هل أنت مقدم على عمل جديد؟ ثمة شيء لم أفهمه أبداً. هل تعيد كتابة (الغفران)؟ أم ماذا يكون هذا العمل؟ إنك تسميني وجدان، وتسمي نفسك حسن، وتسمي وداد فاطمة. لا أظنك تعيد كتابة (الغفران). فما الذي تكتبه؟ هل هو سيرة ذاتية؟. ماحاجتك إلى ذلك؟ ماحاجتك إلى ذلك الآن على الأقل؟ أليس من السابق لأوانه كتابة شيء كهذا؟ أم أنك تكتب رواية وثائقية؟ كنت تقول لي إنك لا تحب الأدب الوثائقي. هل صرت الآن تحب هذا النوع من الأدب؟ وهل ستنجح فيه؟ تريد الحق؟ لقد أثّر بي ماقرأته. ولكن آلمني بعض الشيء أن تظل متشككاً في إخلاصي لك. أنا لم أخنك ياحسن. والله يعلم أني لم أفعل حتى لو قال بعضهم "بخلاف ذلك". ربما تولدنتُ بعض الشيء في فترة غيابك عن دمشق لما كنتم تصورون (صهيل الجهات). بل إنني تولدنت قليلاً بالفعل. وقد اعترفت لك بذلك في حينه. فلماذا لا تصدقني؟ لماذا لا تصدق أن مافعلته لم يكن أكثر من ولدنة لا تصل في حال من الأحوال إلى مرتبة الخيانة؟ فأنا ياحسن لا أستطيع أن أخون، للسبب نفسه الذي تذكره أنت، وهو أني لا أعرف حتى كيف أفعل ذلك. ثم حتى لو فعلت، فلماذا تسمي الأمر خيانة؟ ألم تكن قد طرحت الطلاق بقوة؟ ألم تكن تعتبرني طليقتك، حتى من قبل الطلاق؟ هل أذكرك بعودتك الأولى من نهر الدجلة في أحد الأيام الأخيرة من شهر أيار (ماي ـ أنا)؟ هل أذكرك بأنك صدمتني بقرار الطلاق الذي توصلت إليه من طرف واحد؟ أم أذكرك بيوم (٩٢/٧/٢٦)، لما رجعت من حلب بعد غيبة لم تكن قصيرة؟ هل أذكرك بزيارتي لك في مدينة حمص بعد أكثر من أسبوع على إشهار الطلاق؟ هل أذكرك بالحوار الذي جرى بيننا في الغرفة (٣٠٦) في فندق حمص الكبير؟ هل أذكرك بدموعي وتذللي إليك؟ بماذا تريدني أن أذكرك ياحسن؟ أم أستشهد بشيء مما

كتبته عن تلك الليلة في رواية (الغفران)؟ أقصد الليلة التي في الفندق. أم أذكرك بليلة عودتك إلى دمشق من حمص أيضاً، لمّا سافرت مجموعة الفيلم إلى اللاذقية، ورجعت أنت إلى البيت أخيراً؟ هل أستشهد بما كتبته أنت عن تلك الليلة، أو تلك الأمسية؟ سوف أفعل. سوف أفتح الدرج الذي تسميه (مكمن الأسرار) أو (موطن الأسرار)، كما كنت تقول أحياناً. اغفر لي هذا الأمر. سوف أمدّ يدي إلى مخطوط (الغفران)، وأستخرج منه بعض الأوراق، وأتركها على الطاولة في هذه الفوضى، لكي تقرأها، وتتذكر أني حتى في تلك الأيام العصيبة علي، أو العصيبة جداً، كنت أرفض الطلاق لأني أخاف على نفسي من الضياع، تماماً كما أخاف عليك أنت أيضاً. وبالمناسبة، لست أذكرك بهذا كله من أجل أن أقنعك بالعدول عن قرار الطلاق. لا. الطلاق تم وانتهى. وأنا مقبلة الآن على زواج. أظنني سأتزوج في غضون شهرين من اليوم. وأظن أني مرتاحة لقراري هذا. ليس بالضرورة أني سعيدة، ولا أدري إن كنت سأعرف السعادة يوماً. ولكني مرتاحة لهذا القرار. أنا مرتاحة فعلاً ياحسن. أما أنت.. أرجو أن فاطمة ستحضر قريباً إليك. لقد تأملت صورتها في المرة الماضية، وتأملتها اليوم أيضاً. عجيبة هي الدنيا ياحسن. عجيبة هي الدنيا. أليست هذه هي عبارتك التي طالما كنت ترددها؟ إنها حقاً دنيا عجيبة! هاهي صورة فاطمة تحل محل صورة وجدان في فوضى أوراقك على سطح الطاولة. لابأس.. إنها امرأة لطيفة. أظنك كنت تبالغ قليلاً وأنت تقول لي: إنها جميلة جداً. بصراحة؟ أنا لا أراها كذلك. في هذه الصورة على الأقل. أراها امرأة لطيفة، أو "مليحة"، وهذا أحد تعابيرك المفضلة. صرت أقلدك في الكلام. أقسم بالله. حتى أن الذين من حولي يستغربون مني بعض التعابير التي أستخدمها بكثرة. لعلهم يقولون: هذه امرأة مثقفة! أرى ذلك في عيونهم. أتحدث طبعاً عن الناس الذين لا يعرفونك. أعود إلى فاطمة. أرجو أنها سوف تحضر قريباً إليك. أرجو ذلك. بل آه كم أرجو ذلك!! وفي جميع الحالات، أرجو أنك تتمنى لي الخير والسعادة ياحسن. أما أنا، فإنني أدعو لك بعد كل صلاة. نعم ياحسن. إنني أدعو لك بعد كل صلاة. بل إنني لا أدعو لشخص آخر سواك أنت. ولست أدري لماذا. فهل مازلت أحبك؟ لن أقول هذا لأنني لست واثقة منه. لست واثقة من أني مازلت أحبك. ولكني واثقة من أنك شخص ذو مكانة متميزة جداً في حياتي. وأظن بأني سوف أظل أحنّ إليك، وأخاف عليك، تماماً كما لو كنت ابني. فأنا مازلت أشعر، وبعمق، أني أمك. وليس من أم تضحي بابنها. ليس من أم إلا وتخاف على ولدها. إنني مملوءة بالخوف عليك ياحسن. وبالمناسبة، لماذا لم تركب المدفأة بعد؟ لماذا والطقس صار بارداً، أو حتى بارداً جداً؟

كيف تقضي الليل ساهراً تكتب في هذا البرد؟! كيف؟!! أرجو أن تركب المدفأة فوراً، فوراً، فوراً. أرجوك أن تفعل. إن كنت تريد لي أن أنام مرتاحة البال، ركّب المدفأة حالاً. ثم هناك أمر آخر ـ أعرف أن الكلام فيه لا يجدي: حاول أن تخفف من السهر، حاول أن تقلل من القهوة، والسجائر. أرجوك.. بالمناسبة، شاهدت على التلفزيون مابثّوه من المهرجان. لم ألحظك في أية مرة. ومن الطبيعي أني لم ألحظ فاطمة أيضاً. لو تعرف كم أحزنني ذلك! فقط لو تعرف! بكيت كثيراً. كثيراً بكيت. وجدان.. قالت له قبل أن تصعد إلى السيارة: "انتبه لأغراضك". وسوف يتذكر هذه العبارة طويلاً. كان يتمنى لو قالت له: "انتبه لنفسك"، أو "انتبه لصحتك". أما أن تقول: "انتبه لأغراضك"، ففي هذا دليل جديد على أنها غير قابلة للتبدل، فهاهي تقدم بعبارتها هذه إثباتاً إضافياً على أنها تنظر إليه كما لو كان ابنها.وهذه واحدة من أكبر المشكلات التي تعاني منها العلاقة بين الاثنين، إذ طالما قالت له: "لا أشعر بأنك زوجي. لا أحس بذلك. لا أشعر إلا بأنك طفل كبير يحتاج إلى من يرعاه. ومن يرعاه أفضل من أمه؟ وأنا أمك. هذه هي حقيقة إحساسي تجاهك ياعمر". وسوف يقول لها ذات يوم: "هل تتذكرين لحظة صعودك إلى السيارة أمام الفندق"؟. "نعم". "ماذا قلت لي وقتئذ"؟. "لم أعد أتذكر". "قلت: انتبه لأغراضك". "وماذا في هذا القول"؟ "إنك مازلت تنظرين إلي ليس بصفتي زوجاً لك بل ابنا". "ياإلهي! ياإلهي! كيف تخرج من تفاصيل صغيرة باستنتاجات كبيرة! بل كيف تتذكر هذه التفاصيل أصلاً؟! كيف؟ وللمناسبة، فإنك مازلت طفلاً في نظري، ولكن مثل هذا الإحساس لم يعد يسبب لي إزعاجاً، فقد بتّ على قناعة بأن كل رجل طفل بالضرورة. وليس أكثر من طفل. وبخاصة إذا كان رجلاً شديد الحساسية مثلك". سوف يدور هذا الحوار بينهما فيما بعد. وسوف يبدو منطق ليلى سليماً، معافىً، مقنعاً، وليس فيه مايبعث على الكآبة التي انبعثت في نفس عمر تلك اللحظة قبيل صعود ليلى إلى السيارة. قبّلته بحرارة، فوجدته بارداً. نظرت إليه بعينين هادئتين، وقالت "إذن، لن أذهب إلى أهلي. سأكون في البيت. سوف أنتظرك، وأرجو ألا يطول غيابك". أومأ برأسه موافقاً، وتصافحا. صعدت إلى السيارة التي لفّ عمر من حولها حتى اقترب من السائق، ونفحه إكرامية طيبة فوق الأجرة، وأوصاه بليلى خيراً، فوعده الرجل بأنها سوف تكون مرتاحة خلال السفر.. راحت السيارة تبتعد أمام ناظري عمر، وليلى في المقعد الخلفي تلوح له بيدها من وراء الزجاج. رفع يده ملوحاً. وكان يفكر في تلك اللحظة: كيف السبيل إلى النهاية؟! كيف؟! وفكر بالموت، وتذكر المسدس. ونفض رأسه كمن يطرد من دماغه هذه

الفكرة، وأحس بالمرارة لكونه راغباً عن الموت. وفكر أيضاً: لو أختفي!! وأعجبته فكرة الاختفاء. لبسته. وقرر تنفيذها من فوره. دخل إلى الفندق. صعد إلى غرفته. فتح الحقيبة التي أحضرتها ليلى، ورمى إليها بالثياب التي أحضرتها. ثم كتب لأصدقائه هذه الكلمات على ورقة صغيرة: (اضطررت على السفر فجأة. أنا بخير. لا تقلقوا علي). ثم نزل إلى البهو. ترك الورقة في (الاستقبال)، ووزع إكراميات هنا وهناك. كان مصاباً بحمّى تبذير النقود. ثم خرج من الفندق. وكان سعيداً، فرحاً، نشيطاً، وهو يقبل على حياة جديدة.. غير أن حياته الجديدة لم تدم طويلاً. سبعة أيام قضاها في مدينة صغيرة نائية. ثم لم يستطع احتمال مزيد من البعاد عن عذابه المحتوم، فرجع إلى البيت. ركب أحد باصات النقل العام. ورجع. وصل إلى دمشق عند الغروب. كان أثناء الطريق غاضباً، حانقاً، ثائراً، يفكر في حسم الأمر مع ليلى فور لقائها.. وسقطت الشمس بكامل استدارتها خلف التلال الغربية. الهواء من حوله ساخن. وجبل قاسيون هرم، شديد الاتساخ من كثرة الغبار الذي حطّ عليه منذ انتهاء موسم الأمطار في منتصف الربيع. والأبنية سوداء من التلوث الذي يضرب المدينة بكل قسوة منذ عقدين من الزمن. والسماء متشققة، بليدة، مخضّبة بحمرة الشفق التي تكاد تحجبها عن العيون غلالة من سموم قاتمة تطرحها المدينة بفجاجة على مدار الليل والنهار.. أحس بالبؤس، وقرر تجاهل المنظر. ولم يكن بمقدوره رؤية الجمال في شيء من خلق الله، لا السماء الرحبة، ولا الجبال التي تكسر الآفاق هنا وهناك، ولا أشجار السرو والنخيل الباسقات في جزائر الشوارع وأطراف الجنائن، ولا أسراب الفتيات بضحكاتهن الفاتنة.. كل شيء بارد، شائخ، يعلوه الصدأ.. حمدَ ربه إذ عثر سريعاً على سيارة أجرة شاغرة حملته إلى بيته.. أدار المفتاح في قفل الباب، ودخل. ثمة ضوء في غرفة النوم. أخذ طريقه إلى هناك. وهناك رأى ليلى تتسربل في حجابها الأبيض، ذي القطعتين، من قمة رأسها وحتى أخمص قدميها، وتقف خاشعة تصلي عند طرف سجّادة صغيرة على الأرض بجانب السرير. ويكاد أن يكذب عينيه. فهل مثلها يصلي؟! سأل نفسه، وترك المكان. ذهب إلى غرفة المكتبة، وأشعل فيها النور. وهل يتقبل الله صلاة مثل هذه الخاطئة؟! سؤال آخر دار في أجناب رأسه الثقيل من الإجهاد.. ارتمى على الديوان. ولم يطرح على نفسه مزيداً من أسئلة، إذ سرعان ماظهرت ليلى بباب الغرفة. وقفت تنظر إليه بامتنان. كانت كمن يشكره على عودته إلى البيت أخيراً. استوقفته نظرتها. ولم يستطع أن يكون لا مبالياً، فقال بصوت يعصف به غضب أبكم: "وتصلّين"؟. "خمس مرات في اليوم". "وهل تظنين أن الله يتقبل صلواتك"؟!. "لا تضع نفسك مكان الله".

وأربكته الإجابة. أربكته إلى حد العجز. إلى حد الاستسلام. حتى أنه لم يجد بداً من الهروب، فترك مكانه، وذهب إلى غرفة النوم. لحقت به إلى هناك بعد لحظة من تردد. رأته جالساً على حافة السرير، مطرقاً برأسه إلى الأرض. ماذا تقول له؟ من أين تبدأ؟ "لماذا لا ينظر في وجهي"؟، تساءلت في نفسها قبل أن تقول بصوت واضح النبرة: "أعرف أنك مازلت غاضباً.. وربما كنت تحتقرني أيضاً". "لاداعي لهذا الكلام". قالت وكأنها لم تسمع تعليقه: "إنك لم تغفر. يبدو أنك لن تغفر. أما الله.. لا تنس أنه هو الغفور الرحيم. وأنت؟ أليس فيك شيء من الله"؟!. ولمعت مقلتاها بغشاوة رقيقة من دموع. واستدارت لتنصرف. ثم لم تعد تعرف كيف جرت الأمور بعد ذلك. لم تعرف كيف اعترض سبيلها. أمسك أولاً بذراعها اليسرى. ثم أمسك بكتفيها. برأسها. قرّب وجهها الحزين إلى وجهه. ونظر متأملاً إلى عينيها الباكيتين. "ياإلهي"!. تمتم شاهقاً من هول المفاجأة، فقد رأى فيها جميع النساء اللواتي أحب.. جميع البنات اسمهن ليلى. جميع النساء ليلى.. شدّها إليه بقوة. كانت طائعة، مستسلمة. دفنت وجهها في صدره كمن يحاول اختراق ذلك الصدر، والولوج إليه، والإقامة فيه بحثاً عن لحظة من راحة، بعد عناء سفر طويل مرهق في مجاهل حياة لا تعرف الرحمة.. استراحة المسافر. عنوان مناسب تماماً للحظة التي وجد كل من الرجل والمرأة نفسه فيها. استراحة المسافر. والاستراحة قصيرة مهما طالت. ثم يتابع المسافر طريقه. يحمل ألمه. ويحمل عذابه. والطريق تطول. ولا شيء يجدي. ليس من أمل في اختصار المسافة. وكل جهد في هذا الاتجاه لن يكون إلا ضرباً من العبث والتبجح.. إنه سوء الحظ. التهكم. السخرية. التأمل المرير. بل إنه ازدراء الذات أحياناً. واللغة التي لا طائل منها. وسرعة انطفاء المباهج العابرة في الأرواح التي يعصف بها القلق. وفي النهاية: هو الخنوع. وغياب الرحمة من النفوس الآدمية.. "أقنان. لسنا سوى أقنان"، قال في سرّه وهو يتأمل رأس المرأة تحت ذقنه، ويفاجأ بأكثر من شعرة بيضاء هناك، ويهمس لها: "ماذا حدث ياليلى؟! صرت تبدين في أواسط الثلاثينات فجأة". "أعرف ذلك، فأنا أنظر إلى نفسي في المرآة أحياناً. أعرف بأني كبرت. وأعرف بأني كبرت فجأة.. لو تدري كم أحب أن أموت"!. "الآن"؟. "أتمنى أن يوافيني الموت في أي لحظة. وأنا أستعد لملاقاته في كل لحظة". "فهل من أجل هذا تصلّين"؟. "عسى ربي يهبني مقاماً كريماً في داره الآخرة". كان قولها أشبه بدعاء إلى الرحمن الرحيم العلي العظيم ليبدل الحال بأفضل منها.. لكن ماذا لو لم يكن ثمة إله ياليلى؟ هذا مادار في خلده، ومالم ينطق به لسانه. وهذا ماأحست به المرأة ورأسها مدفونة في صدره. رفعت إليه عينيها الباكيتين، وقالت متوسلة: "لا

تكفر. أرجوك". "إنني لم أقل شيئاً". "لقد سمعت قلبك. كنت تجدّف بما ليس لك به علم. أرجوك. إياك والكفر بالله. فالكفر لا يليق برجل نبيل مثلك". "فما الذي يليق بي إذن"؟. "الجنة. مايليق بك هو الجنة ياسيدي". "ربما كنت لا أستحقها". "ولماذا تقول ذلك؟ إنك لست من اللصوص، ولا من سفاكي الدماء البشرية. ثم إنك لست ممن يؤذي الناس. أليس كذلك؟ أليس كذلك"؟ كررت عبارتها الأخيرة على نحو آلي بصوت مرتعش، وقد استشعرت فجأة بسخونة في نهدها الذي على كبده، وانسلّت من بين يديه بهدوء، وأطرقت برأسها إلى الأرض. نظر إليها حائراً في أمرها، وسأل: "هل أنت بخير"؟. "لا أعرف"، أجابت بهمس. وكانت تود لو تقول شيئاً آخر. كانت تود لو تقول: إنني أشتهيك. جسدي هو الذي يشتهيك. وما منعها من البوح بهذا الكلام إلا خوفها من أن تبدو امرأة فظة رخيصة، كاذبة. تكذب عليه، وتكذب على الله. تريد الدنيا، وتريد الآخرة في آن. أمسك بذقنها بأصابع كفه اليمنى ورفع وجهها إليه. أغمضت عينيها خشية أن تفضحها شهوة الجسد التي تملكتها.. "ماذا أصابك"؟.. "لست أدري". "إنك ترتجفين". "ربما كنت مريضة". "سآتيك بحبة من الأسبرين". "لا، لا أريد. سوف أصلي. لعلّ الصلاة تشفيني"!. وتسربلت مرة ثانية بالبياض من قمة رأسها وحتى أخمص قدميها.. نوت الصلاة ووقفت بخشوع بين يدي ربها العزيز القدير، وشرعت بقراءة (أم الكتاب)، وطفحت عيناها بدموع ساخنة، واختنق صوتها بعد الآية الأولى، ثم غصّ قلبها بالبقية، وركعت، وسجدت. وحين رفعت رأسها بعد السجدة الأولى ونظرت إليه بطرف عين رأته يتأملها، ويتفكر بحالها، ويسأل نفسه عمّا أصابها، ويخشى عليها من أن تكون قد فقدت عقلها. ماالذي جرى لها؟ وهل تهرب من لقائه؟ هل تهرب من الرجل النبيل الذي يليق بالجنة؟ هاهي تستمر في الركوع والسجود وهي واقعة تحت تأثير انفعالات واسعة الطيف، حتى بدت صلاتها نوعاً من الهذيان، وحتى بدت هي نفسها غائبة عن الوعي، وغائبة عن الدنيا. هاهي تطيل الصلاة. فإلى متى؟ وما الذي تفكر به؟ إنها لا تريد أن تجرّه وتجرّ نفسها إلى التهلكة. إلى جهنم. إلى غواية الرغائب الرخيصة للأجساد الفانية.. "ربما تعاملني بصفتي رجلاً غريباً مادام الطلاق قائماً". وتطول الصلاة. قررت أن تطيلها حتى ولو إلى منتصف الليل. إلى الصباح. إلى نهاية الدنيا. انقضى أكثر من نصف ساعة. نفد مخزونها مما تحفظه من سور وآيات قرآنية بعد تسع أو عشر دقائق على البداية. لعلّ تلك هي حدود ثقافتها القرآنية.. راحت تكرر ماسبق لها أن حفظته غيباً. قرأت الفاتحة تسع مرات، وآية الكرسي سبع مرات، وخمس مرات قرأت إحدى آيات سورة (مريم)، ومثلها من سورة (التوبة).. وارتفع

صوتها حيناً، ووهن في أكثر الأحيان. وأرهق جسدَها كثرةُ القيام والركوع والسجود، وبدا عليها التعب والتشتت، وفاضت نفسها بالذل إلى الله، وبالتضرع والدعاء الخفي بأن يُذهبَ عنها تلك السخونة التي في النهد، وينجيها من آثام القلب والنفس والجسد، ويبقيها طاهرة إلى أن يأخذ صاحب الوديعة وديعته، إلى أن تفارق الحياة. (سلامٌ عليّ يوم ولدت ويومَ أموتُ، ويوم أبعثُ حيا). شرعت ترددها كمن لا يحفظ من كتاب الله سواها. قالتها أكثر من عشرين مرة، تسعى إلى التوبة، تنشد الغفران، تطلب السلام لروحها المسحوقة.. (سلامٌ عليّ يوم ولدت ويوم أموت، ويوم أبعث حيا). رددت هذه الآية للمرة الأخيرة بصوت جائع إلى الخلاص في الدنيا والآخرة. ثم لم تركع، ولم تسجد، ولم تطرح السلام يميناً أو شمالاً. ظلت واقفة في مكانها تعلو عينيها غشاوة سميكة من دموع الرجاء بالرحمة، والخلاص من القلق المبهم الذي يستبد بروحها وجسدها.. ومن خلال الدموع رأته يقترب منها، ويقف بمحاذاتها، ويمد إليها يده. همست تقول له: "ماذا تريد"؟. "ماتريدينه أنت"، جاءها صوته خفيضاً واثقاً، فقالت بصوت خائف مرتعش: "أنا لا أريد شيئاً. لا أريد أي شيء". "كيف ذلك؟ أما كنت تتمنين الموت منذ لحظة"؟. حدقت في وجهه بصعوبة، وطرحت نصف سؤال: "هل تقصد"؟. ولم يرد عليها بلسانه. اكتفى بأن هز رأسه موافقاً على صحة استنتاجها. "ولكن"؟. "تكلمي". "هذا حرام". "من قال ذلك"؟. "قتل النفس حرام". "من قال ذلك"؟. "إنه مكتوب في القرآن". "أنت لا تريدين الموت إذن". "لن أقتل نفسي". "كما تحبين". قال عبارته بهدوء، وبالهدوء نفسه انصرف إلى الشبّاك. أزاح الستارة، وألقى نظرة على المدينة المتلألئة بأضواء المصابيح الكهربائية. رآها مدينة كبيرة، هادئة، مطمئنة البال، قديمة، راسخة، حديثة، قوية، جميلة، قبيحة، نظيفة، وسخة، غاشة، ومغشوشة.. وكبر حنينه إلى الموت. ففي الموت وحده رأى ولادته الثانية. وفي بعثه من جديد رأى خلاصه النهائي. وأحس بالرضا وتمتم: "تلك الأيام نداولها بين الناس". اقتربت منه. نظر إليها بطرف عينه. رآها شديدة الاضطراب، تجاهد من أجل أن تبدو ساكنة، هادئة، بعيدة عن الانفعال. تجاهد من أجل أن تكبح عواطفها العميقة، وتمنعها من أن تطفو على السطح. وهكذا ظلت دموعها حبيسة عينيها البارقتين بتلك الغشاوة التي تغطيهما. استندت بكتفها الأيمن إلى طرف الشبّاك، وقالت: "لماذا"؟ بدا صوتها عذباً، وإن كان لا يخلو من تأثر. "ماهو الذي لماذا"؟ "لماذا تريد أن تموت"؟ قالت بصوت اختنق فجأة، وفضح بؤسها الذي بلا حدود. "ولماذا أنت مهتمة"؟. وحاولت أن تصرخ فيه، لكن حنجرتها المختنقة بأكثر من غصّة أبقت صوتها ذبيحاً: "كيف لا

أهتم؟! أليس لي قلب مثلك"؟!. "ليت لي قلباً مثل قلبك ياليلى! فلربما عرفتُ الرضا عندئذ". شعرت بقوة كلامه، ودققت النظر في وجهه. بدا لها قاسياً إلى حد ما، وغامضاً إلى حد ما. "لماذا تريد أن تموت"؟ سألته بصوت مملوء بعاطفة غريبة. ليست عاطفة الأنثى فحسب، ولا عاطفة الأمومة فحسب أيضاً. إنها عاطفة الإنسان المسحوق بالندم على آثام لم يرتكبها. وبالعاطفة الغريبة ذاتها قالت له: "قتل النفس حرام". وأمسكت بإحدى كفيه براحتيها، وأشبعتها لثماً، وهي تقول: "أرجوك. أرجوك أن تغفر أخيراً، وأن تنسى. أرجوك أن تنزع فكرة الموت من رأسك. وإن كان يريحك غيابي، فلسوف أختفي من حياتك. أو تتركني عندك خادمة. سأكون خادمة لك. سوف أهتم بك. سوف أرعاك. سوف أرعاك ياحبيبي". ثم قادته من ذراعه إلى السرير، وقالت: "حاول أن تنام، أو أن تستريح على الأقل. أما أنا.. مرة ثانية أقولها لك: افعل بي ماتشاء، طلقني، اهجرني، أو اتركني عندك خادمة، أو سامحني، فأعود إليك زوجة، وصديقاً. ولا تفهمني على نحو خاطىء، فلست أقصد العلاقة الجنسية. حسناً.. قبل أن تعود إلى البيت كنت أظن بأن العلاقة الجنسية معك هي نوع من الزنى، وكنت أحاول التكفير عن تلك الليلة في ذلك الفندق. أما الآن.. في هذه اللحظة.. انظر في وجهي. إنني على استعداد للعيش معك بالصيغة التي تحب. إني لك ياحبيبي. ولكن انزع فكرة الموت من رأسك. أرجوك ياعمر. أرجوك". وكان لكلامها تأثير قوي على نفسه، فابتسم لها، وربت على ظاهر كفها التي مازالت تمسك بذراعه، وحاول أن يستريح .

في صباح اليوم التالي قال لها: "أريد أن أشتغل. أريد أن أكتب. تعرفين أني لا أستطيع ذلك إلا برعايتك. فماذا تقولين"؟ "هذا ماكنت أحب أن أسمعه منك. ولسوف أرعاك. ولسوف أهيىء لك الجو المناسب للعمل". وحاول أن يكتب بعد أن أقنع نفسه بأن الانغماس في العمل قد يحمل إليه بعضاً من سلوى وعزاء. ظل ثلاثة أسابيع على هذه الحال، لم يستطع خلالها أن يتوصل إلى أية مصالحة مع نفسه. لم يستطع أن يذهب إلى منتصف الطريق. بل إنه لم يعرف الطريق أصلاً. الطريق إلى الحلول الوسط، فعاش في قلق صامت انعكست آثاره على ليلى التي رجعت تذوي من جديد تحت وطأة الإحساس بالندم. قال لها بعد أن أيقن أخيراً بأن لا شيء ينقذه من هذا الوضع المعقد الذي وصل إليه معها: "دعينا نفترق بعض الوقت. لا أقول طلاقاً. مجرد انفصال مؤقت". "هل يريحك هذا الأمر"؟. "أرجو ذلك ياليلى". "إنني حزينة لسماع هذا الكلام. بل إنني حزينة لما وصلت إليه أمورنا على وجه

العموم. ولكن مادام الانفصال يريحك، فأنا ذاهبة. راحلة. الآن. وإن احتجت إليّ اتصل. تعرف أين تجدني. سأكون في انتظارك دائماً. وأرجو لنفسك الهائجة أن تعرف الهدوء أخيراً. وأرجو لك أن تقدر على الصفح والنسيان. أرجو أن تصير قادراً، ذات يوم قريب، على المغفرة، فلست أطلب أكثر من ذلك. لست أطلب سوى الغفران. أما الآن، فلن أقول إلى اللقاء. من يدري؟ ربما كان وداعاً. أخشى أن يكون وداعاً". ثم لم تتلكأ في الخروج من البيت. جمعت بعض حاجاتها في حقيبة صغيرة، وغادرت البيت الذي لم ترجع إليه لاحقاً إلا في ذلك الصباح الصيفي الحار، عندما اتصل بها صهرها باكراً، وعندما أرعبتها كلمات صهرها حول اختفاء عمر، بعدما طلبوه في أحد فروع الأمن ثم لم يرجع إلى البيت، أو رجع وأقدم على حماقة من قبيل الانتحار، وعندما جاءت إلى البيت لاهثة الأنفاس من خوفها عليه، وعندما ضربها بوحشية متهماً إياها بأكثر التهم بشاعة، وابتلع ثلاثة من الأقراص المنومة، وطمر رأسه في الفراش برغم الحر الذي له وخز الإبر، وهددها بالقتل لو رآها في البيت حين يستيقظ من التخدير، ثم حين جعلت تنظر إلى اضطراب صدره، وتهمس له: "سوف أستعيدك. أتدري لماذا؟ لأنك من دوني تموت، ولأني أموت من دونك، فكلٌّ منا بالنسبة للآخر هو الأوكسجين الذي تتنفسه رئتاه". ولم تكن تعلم بأنها لن تكون قادرة على استعادته أبداً. لم تكن تدري بشيء من فكرة الاختفاء التي سكنته من قبل، والتي ستعود إليه على نحو أقوى من السابق بعد أيام معدودات فقط من ذلك الصباح الحار. وبالتحديد، في يوم السبت، عندما رجع إلى فرع الأمن، وعندما قال له الضابط المحقق بعد دردشة قصيرة: "رافقتك السلامة" "ألا أرجع"؟، سأل متجهماً. "لا. لا ترجع. لا ترجع أبداً". خرج يومئذ إلى الشارع وهو يحس بالمرارة وخيبة الأمل، فقد كان يتمنى لو سجنوه. ولم ينقذه من إحساسه المرير ذاك إلا فكرة الاختفاء التي عاد وميضها يبرق من جديد في رأسه. "إذن، سوف أختفي". رجع إلى البيت. وكان متسامحاً، طيباً. قال لليلى: "إنهم يطلبونني يوم الاثنين". "ولكن ماذا يريدون"؟! "كيف لي أن أعرف"؟ ومن السبت إلى الاثنين متسع من الوقت لتدبير مسألة الاختفاء التي سيطرت على أفكاره تماماً. عاش يومين من الهدوء والسلام بصحبة المرأة التي طالما أحبها، وطالما كرهها! وفي الصباح الباكر من يوم الاثنين مارس معها الجنس، واستحمّ، ثم وضع في حقيبة كتف صغيرة قميصين اثنين وبشكيراً، بالإضافة إلى بعض الأوراق، والمرأة تراقبه، وتبكي بحرقة. وقبل أن يغادرها إلى الأبد، أوصاها بأن تنتبه إلى نفسها. قال: "لا تنتظري عودتي. أرجو ألا تفعلي ذلك. أظنها سوف تطول. وقد تطول كثيراً. تستطيعين طبعاً أن تثبتي الطلاق في

المحكمة. اذهبي إلى المحامي خليل. تتذكرينه طبعاً. زرته يوم أمس، وطلبت إليه أن يساعدك في المستقبل، وقد أخذت منه وعداً بذلك.. أما بقية الأشياء.. ماذا أقول ياليلى؟ النقود التي في البيت.. كيف أعبر عن ذلك؟ هي لك أيضاً. تصرفي بها. أظنها ستكون لازمة لك. أما البيت.. ياربي! لماذا هذه التفاصيل السخيفة؟! كل شيء لك ياليلى. كل ماأملكه. هذا باختصار. وهذا كله غير مهم. المهم هو أن تثبتي الطلاق في المحكمة. ثم.. من يدري؟ قد تتزوجين. أرجو ذلك. أتمنى ذلك. وأتمنى أن ترزقي بطفل أو طفلين وألا تظلي وحيدة". ثم قبّلها في جبينها.. ورحل.

وقد طوّفتُ بالآفاقِ حتى رضيتُ من الغنيمةِ بالإيابِ

امرؤ القيس

٩

١٩٩٣/١٢/٢٢

ذهبت اليوم إلى المؤسسة بعينين متورمتين من الأرق. استلمت رسالة لم يبعث بها إليّ أحد. أنا نفسي كتبت إلى نفسي. أي بؤس!! إذن، لا أحد يسرق رسائلي. وليس ثمة من يكاتبني. إذن، أنت لا تكتبين. فلماذا لا تكتبين يافاطمة؟! هل أنت مريضة؟ هل أنت خارج المغرب؟ ألم تصلك رسائلي؟ لماذا لا تكتبين؟! أقول لك شيئاً واحداً يافاطمة: سلوكك هذا يفتقر إلى العدل والإنصاف. نعم، ليس عدلاً أن يطول صمتك هذه المدة كلها. ليس عدلاً.. تركت المؤسسة في أسوأ حال، فأنا أموت من شدة الوجد إليك ياظالمة. ذهبت أزور عبد اللطيف في مستشفى تشرين العسكري. أجروا له جراحة في بطنه صباح هذا اليوم. ذهبت إليه في حوالي الثالثة بعد الظهر. وبقيت عنده حتى الثامنة مساء، حيث غادرناه أنا ولاريسا. وأوصيت به قبل انصرافي كبير الممرضين المناوبين في القسم، فقال: "نحن نهتم بجميع المرضى". وأنا أعرف حقيقة الخدمات الطبية في الجيش، وأتذكر جيداً أن النقطة الطبية هي أسوأ مافي ذلك اللواء الذي ينتشر في مجموعة من التلال والوديان إلى الغرب من دمشق بأربعين كيلو متراً.. كم أحنّ اليوم إلى تلك الوديان وتلك التلال! آه لو عادت بي السنون إلى الليل الذي امتلأت فيه السماء بنور مبهر يخطف الأبصار! آه لو عادت بي السنون إلى ليلة القطّ البري الذي ارتكبت الطبيعة خطأً فادحاً لمّا أوجدته بين مخلوقاتها! وآه كم أشتاق اليوم إلى ذلك المهرّب الذي شتمني في ذات قمراء! وآه كم أحن إليك اليوم يافاطمة!! رافقت لاريسا إلى البيت. قلت لها: "اصنعي لي قهوة لو سمحت يالاريسا". قالت: "أليس بعد العشاء"؟. قلت: "لست جائعاً. سوف أشاهد نشرة الأخبار المصورة على التلفزيون، وأمشي". وشربت قهوة، هي كالعادة، ثقيلة ومن دون سكر. وشاهدت نشرة الأخبار. وشاهدت النشرة الجوية أيضاً. لا أثر لغيمة واحدة في سماء شرق البحر المتوسط. هذا ماتقوله الصور المبثوثة من الأقمار الاصطناعية. الطقس دافىء. درجات الحرارة في ارتفاع. هذا مايقوله المتنبىء الجوي. درجة الحرارة الصغرى هذا اليوم في الدار البيضاء (٧) درجات مئوية، والعظمى (١٦)، والطقس ماطر. إنني أتابع حالة الطقس عندكم. عندكم فقط. هل هو

اعتراف جديد؟ كم لدي من اعترافات صغيرة مماثلة! لا أتابع أخبار الطقس بعد الدار البيضاء في أي مكان من العالم العربي، وأوروبا، والشرق الأوسط. إلى هنا وتنتهي نشرة الأحوال الجوية، رغم أنه مايزال على الخارطة ثلاثون مدينة أو أكثر. ناديت على ماريا، وقلت لها أن تحضر سترتي. سترة جديدة أرتديها اليوم أول مرة. اشتريتها منذ أسبوع، بمعرفة ديانا الحلوة كالملاك. قالت لي يومئذ: "إنني خائفة عليك ياأستاذ حسن". حدث هذا بعد الاجتماع في الوزارة بيومين. قلت لها: "من أي شيء تخافين علي ياديانا"؟. قالت: "سمعت أنهم يضمرون لك شراً. ذكروك بالاسم، أنت وثلاثة أشخاص آخرين في المؤسسة". لم أسألها ممن سمعت هذا الكلام. أعرف مصدر معلوماتها. إنه أحد أقربائها. موظف قديم في المؤسسة. قلت: "لا تخافي علي ياديانا، فأنا رجل قوي، لأني رجل شريف". وديانا الحلوة كالملاك تصدقني حين أقول لها إنني قضيت حياتي رجلاً شريفاً، ولا يخطر لها ببال أن تشكك في صحة أقوالي. وأنا لا أقول لها الحقيقة. بل إنني لا أقول الحقيقة لأحد. ومع ذلك، الجميع يصدقني. حتى أنهم يصدقونني الآن أكثر من ذي قبل. هي لعبتي الخالدة. هي لعبة الألوان التي تمارسها الطبيعة بنجاح باهر في مختلف الفصول. في الصيف والربيع والشتاء. لكن الطبيعة تذهلنا في الخريف. تذهلنا في هذا الفصل أكثر مما تفعل في بقية أوقات السنة. ففي الخريف نراها جميلة، فاتنة، خلاّبة بألوانها التي تكاد أن تكون بلا نهاية، رغم احتضارها الوشيك.. لا تخافي عليّ ياديانا، فأنا رجل قوي لأني رجل شريف.. لا تخافي عليّ ياديانا، فليس عندي ماأخسره.. حتى أن استقالتي جاهزة.. استقالتي جاهزة، فأنا متعب أيتها الحلوة كالملاك.. أنا متعب ياشباب.. إني أنسحب.. إني أنسحب ياشباب.. آن لي أن أستريح.. فإلى اللقاء! إلى اللقاء! جاءتني ماريا من دون سترتي، وقالت بالروسية: "عمي حسن! لا تخرج الآن ياعمي حسن". قلت: "لماذا"؟. قالت: "ثمة مطر قوي". قلت: "تمزحين". قالت: "والله لا أمزح. تعال وانظر بنفسك". وركضت إلى الباب المفضي إلى ممر صغير مكشوف للسماء، وفتحته. المطر يضرب المكان. قلت: "سبحان الله"!. قالت: "لا تخرج الآن ياعمي حسن". وقالت لاريسا: "ابق معنا على العشاء". قلت: "لست جائعاً. ثم إنني أحب المشي تحت المطر. أحضري لي سترتي من فضلك ياماريا". وأطاعتني البنت أخيراً، وأحضرت لي سترتي. وأحضرت مظلتها أيضاً. مظلة صغيرة مزركشة، مبرقشة، تليق تماماً ببنت تدخل حديثاً في طور المراهقة. قالت: "خذ مظلتي ياعمي حسن". قلت: "لا ياعزيزتي ماريا. لم أعتد المشي في المطر حاملاً مظلة". قالت: "ستمرض". قلت: "ألا تعتنين بي إن مرضت"؟. قالت:

"كيف لا أعتني بك؟ ولكن يكفينا أن بابا مريض". قلت: "لا تخافي علي ياماريا، فلن أمرض من المطر".. خرجت إلى الشارع. المطر غزير، والسماء محجوبة بطبقة من غيوم منخفضة زاهية اللون. رحت أمشي مستمتعاً بالمطر. مشيت طويلاً. شعرت بالجوع، فالمطر يفتح شهيتي للطعام. بل إنه يفتح شهيتي للحياة عموماً. تذكرت مطعماً صغيراً في أحد الأحياء الهادئة، تناولت فيه عشائي قبل أربع سنوات من اليوم. ربما كان ذلك قبل أربع سنوات بالضبط. في ليلة ماطرة من ليالي الثلث الثالث من الشهر الأخير في عام ١٩٨٩ . دعاني إلى هناك ذلك المنتج التلفزيوني الذي يرى في كتابة الرواية مضيعة للوقت. أقام مأدبة ضمّت نحو عشرة أشخاص، بمناسبة انتهائي من كتابة مسلسلة تلفزيونية سوف يقوم هو بإنتاجها، ثم سوف ينتجها، ثم سوف تصيب تلك المسلسلة بعض النجاح، وتحقق للرجل أرباحاً طيبة. كانت تلك هي المرة الوحيدة التي ذهبت فيها إلى ذلك المطعم الصغير. ولم أذهب إلى هناك وحدي. بل برفقة وجدان. كنت قد رجعت، قبل أيام قليلة فقط، من مهرجان القاهرة السينمائي، ووجدتها بانتظاري في البيت لما وصلته على الساعة الواحدة ليلاً، أحمل إليها الكثير من الهدايا، والكثير من الشوكولاته السويسرية التي اشتريتها من مطار عمّان في طريق العودة، فلم يكن ثمة طيران مباشر بين دمشق والقاهرة في ذلك الوقت بسبب القطيعة السياسية القائمة بين البلدين منذ كامب ديفيد. وقضينا ليلة ممتعة، وسألتني في أوج تلك المتعة: هل كانت فاطمة موجودة في القاهرة؟. وقلت لها: لا. وقلت في نفسي: ليتها كانت موجودة! وتلك أمنية حملتها إلى كل مطرح ذهبت إليه مذ افترقنا أنا وأنت في صباح ذلك السبت الملعون.. وتذكرت اليوم ذلك المطعم الصغير، وشعرت بحنين إليه، وإلى وجدان أيضاً. لن أشوش على هذه المرأة حياتها. لن أشوش عليها حياتها أبداً. حتى أني أتمنى لو أستطيع أن أنسى رقم هاتفها، أو لو تسعى هي إلى تغيير الرقم.. ذهبت إلى ذلك المطعم الصغير. وجلست في المكان ذاته حيث جلست من قبل. كان المطعم خاوياً، أو شبه ذلك. ثمة طاولة واحدة مشغولة، جلس إليها شاب وامرأتان شابتان أيضاً. جاءني النادل. طلبت أنواع الطعام ذاتها التي تناولتها قبل أربع سنوات، وطلبت الكحول ذاتها أيضاً: نبيذ فرنسي أحمر مز. والنبيذ ليس مشروبي المفضل.. شربت كأسي الأولى من ذلك النبيذ الذي شربته قبل أربع سنوات. كان جلساء الطاولة الثانية ينظرون إليّ بين لحظة ولحظة، ويتهامسون بشيء ما. وفكرت: لعلهم ممن يهتم بالثقافة والمثقفين! لعلهم عرفوني! ولم يكن أمرهم يهمني في شيء. صببت لنفسي كأساً ثانية من ذلك النبيذ الذي شربته قبل أربع سنوات من الليلة لما كانت وجدان تجلس بجانبي مشرقة،

ريّانة، غضّة، متوردة.. قفا نبكِ.. وغُص قلبي بالحنين إلى تلك الليلة. ولم أعد أقوى على البقاء في المكان. دفعت الحساب، وخرجت إلى الشارع، ورجعت أمشي في المطر.. مررت بمطعم طليطلة المهدوم.. أي حسرة!! مشيت طويلاً. قررت أن أعود إلى بيتي البعيد مشياً على الأقدام في المطر.. شارع المهدي بن بركة. شارع عبد الملك بن مروان. شارع جمال عبد الناصر. نزلت إلى شارع الفردوس، فشارع المتنبي، فشارع بورسعيد، فجسر فكتوريا. وصلت ساحة الحجاز. انعطفت يساراً إلى شارع النصر. ثم انحرفت يميناً إلى شارع خالد بن الوليد. وصلت إلى مشفى دمشق حيث عالجوني لما فغرت زجاجة أو خشبة اللحم في باطن قدمي اليمنى، بعد أن ضرب الزلزال المدينة في تلك الليلة البعيدة البعيدة. درت من حول المستشفى الذي يسميه سكان دمشق مستشفى المجتهد، دون أن يعرفوا لماذا يسمونه كذلك، ولا ماتعنيه هذه الكلمة. دخلت في شارع أبو بكر الصدّيق. وصلت ساحة باب المصلّى - أحد أبواب دمشق القديمة السبعة. انحرفت إلى اليمين، وأخذت اتجاه الجنوب. دخلت في حي الميدان. مشيت في الشارع الرئيسي. خلا الطريق.. والطريق يطولُ.. خلا إلا من سيارات قليلة، وبائع فول نابت وراء بسطة صغيرة مسقوفة بغطاء من الزنك، اعتدت أن أمرّ به، وأتوقف عنده في بعض الأحيان، وأتناول بعض الفول، وبعض المرق الساخن بالملح والكمون والليمون الحامض. كان الليل قد انتصف، أو أوشك على ذلك. رحّب بي الرجل. جلست على مقعد صغير بجانب البسطة الخاوية من كل إنسان. أكلت بعض الفول. استكملت عشائي الذي قطعته بعدما غُص قلبي بالحنين إلى تلك الليلة التي قبل أربع سنوات من اليوم. شربت المرق الساخن. وأشعلت سيجارة. وعزمت على الرجل سيجارة أيضاً، وأشعلتها له.. والخطّان المتوازيان لا يلتقيان أبداً.. وأنا وأنت.. ولم يعد للسكة وجود مذ ألغوا الترمواي من المدينة قبل ربع قرن من الزمان. واشتدّ المطر. وفيروز تغني من مسجلة صغيرة على البسطة. نظرت إلى الأسفلت المتلألىء بأضواء المصابيح.. وحدن بيبقوا متل زهر البيلسان.. أين سكة الترمواي؟ عفت الديار، وأقفرت. والخطّان المتوازيان لا يلتقيان أبداً.. وأنا وأنت.. وحدن بيقطفوا أوراق الزمان. قفا نبكِ. وكدت أبكي. وغلبني إليك الشوق. وغلبني الشوق إلى كل الذي راح وانقضى. أطفأت سيجارتي. ودفعت للرجل ثمن الفول والمرق. وانصرفت. تابعت طريقي باتجاه الجنوب في شارع الميدان الذي يسمونه إلى اليوم شارع السكة، من دون أن يكون للسكة وجود.. يازمان! ياعشب داشر فوق هالحيطان! وصلتُ إلى الجسر المتحلق الجنوبي. جسر عملاق شقّوا به حي الميدان، وشقّوا به الغوطة أيضاً. أو ماتبقى من الغوطة. جسر

طويل يربط أقصى شرق المدينة بأقصى غربها. يربط بين طريق حلب الجديد وطريق بيروت الجديد. ومن قلبي سلام لبيروت. انحرفت إلى اليسار. مشيت تحت الجسر العملاق. انعطفت إلى اليمين بعد أول إشارة للمرور. تركت الجسر ورائي. دخلت في حي الزاهرة، وسرت في خط مستقيم إلى مخيم اليرموك. منذ يومين والتيار الكهربائي مقطوع في حيّنا. أما الليلة! ثمة أنوار في كل مطرح. وصلت بيتي غارقاً بالمطر. بدّلت ثيابي، ونشّفت شعري، وصنعت قهوة، وجلست إلى الطاولة أكتب إليك بعد أن وضعت في المسجلة شريطاً لأم كلثوم: ياطول عذابي! ولم يكن الأمر بالمصادفة.. ياطول عذابي واشتياقي! لاضير يافاطمة. يتملكني إحساس أكيد في الآونة الأخيرة بأن العذاب حلو أيضاً، فلا ضير من طول العذاب ياصديقتي.

رسالة إلى فاطمة

في الصيف كانت تحب أن ترتدي تنورة قصيرة وقميصاً بلا أكمام. ومثل هذه الثياب تليق بها كثيراً. فقوامها جميل مثل وجهها. قلت لها ذات مرة: "هل تحبين أن تكوني مثار اهتمام الآخرين بهذه الملابس"؟ وأتذكر أنها قالت لي: "ما من امرأة إلا وتحب ذلك". وقلت في نفسي: في هذه المرأة بعض من عاهرة. وقلت لها: "ولكن كيف توفقين بين عرض ساقيك على الملأ وبين الصوم والصلاة"؟ قالت: "لا أعرف. ثم إنك تحب النكد". وفي الحقيقة أنني لم أكن أحب النكد. فقط. كنت أحب أن أفهم. أن تكوني امرأة متحررة فهذا أمر أفهمه. وأن تكوني امرأة متدينة فهذا أمر أفهمه أيضاً. أما أن تكوني امرأة متحررة ومتدينة في آن. فهذا ما لا يمكنني فهمه أبداً. لقد كانت امرأة متناقضة بحق. وأعترف بأني لم استطع أن أفهمها حتى النهاية. كانت تريد أن تكسب الأرض. وتكسب السماء. دون أن تخسر شيئاً من الأرض أو من السماء. وأعترف ثانية بأني لم أفهمها حتى النهاية. لكني. وفي المقابل. كنت أشفق على بعض العاهرة الذي فيها. وأشفق على بعض القديسة أيضاً. كان ينحسر طرف التنورة القصيرة إلى أعلى كلما جلست في مقعدها في أحد الأماكن العامة. فتمتد كفّا القديسة بحركة آلية لتغطي ساقي العاهرة. كنت أنظر إليها. وأرى قلقها وارتباكها. وأبتسم. وأشعر بتناقضها. وأعترف بأني لا أفهمها. وأرفع الراية البيضاء.

دار أمواج